خطوات على طريق

الإسلام

آية الله العظمى

السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

دار الملاك

١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيـروت ـ لبنـان ـ حارة حريك ـ قرب مستشفى الساحـل ـ هاتـف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ ـ ٠١/٤٥٠٧٦٩

ص. ب ٢٥/١٥٨ الغبيـري ـ Int: WWW. dar-almalak. com/Email: dam @ dar-almalak.com

مقدمة الطبعة السادسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الخلقِ وأعزّ المرسلين نبيِّنا محمّد وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتجبين. ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين وبعد. . .

على ضوء الشُّموع الزاوية. وصدى القذائِفِ المتناثرةِ منذُ ثلاثين عامًا، تلمّس سماحة المرجع السيد محمد حسين فضل الله خطوات الإسلام الحركيّ الأصيل، مستوحياً من معانيه كُلَّ دروب الحقِّ والخيرِ والجمال، فإذا بريشةِ أناملِه، ويراع وجدانه يُنير رحاب الحياة. وينثر العبقَ من دوحةِ الإسلام الغنّاء، ليكون الخطُّ خطَّ الله، ولتنطلق الدعوة إلى الله، وليحملَ الداعي إلى الله تعالى كُلَّ القيمِ الملكوتيّة الساميّة، وإذا بالتجربةِ النبويّة الرائدة، حياةً وسلوكاً وتربيةً ومعرفةً تزخرُ بفضائلِ الرسالة، وهدى الإيمانِ، وطرائقِ ووسائِلِ البناء لنفسٍ تتوقُ بكمالاتِها إلى عالمٍ، مثاليٍّ تسودُه المبادىء الخلاّقة المبدعة. .

بهذه الرساليّة النبويّة كتب سماحة السيّد، ولجيل إسلاميٍّ إنسانيٍّ غرس بذار الوعي، وحبّ الخيرِ والجهادِ الفكريّ الإنساني التربويّ، وهو إذا يُطِلُّ بسفرِه الثرّ «خطوات على طريق الإسلام» في طبعتِـهِ السادسة الصادر عن دار الملاك، فإنّه يبقى المعين الذي لا ينضب، والينبوع الباحثِ عن الحقيقة والكيان، والكِتاب، وإن فصلتِ السِّنون بين رؤيتهِ الأولى للنورِ وعودتِهِ بحلّتِهِ الجديدة، فإن ما فيه من كنوزٍ غنيّة بقيمِ الإسلام ومبادئِهِ وتجاربه الخلاّقة رائدٌ في حركيّةِ الإنسانِ والإنسانيّة.

والله من وراء القصد

الناشر

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين.

لعل من أكبر الشواهد على الوعي الإسلامي المتنامي المنفتح الممتد في الجيل الطالع من أبناء أمتنا الإسلامية ـ هو هذا الانفتاح على الكتاب الإسلامي والاقبال عليه بلهفة وشوق في الوقت الذي لا يزال العاملون في حقل الثقافة والتربية يعالجون ظاهرة الانحسار عن القراءة، من خلال الكلمة المسموعة والصورة المرئية.

وربما نستطيع أن نجد في هذه الظاهرة الإسلامية، اتجاهاً عظيماً نحو الانطلاق إلى مستقبل إسلامي يتحرك فيه الإنسان المسلم من أجل أن يحقق للحياة مسارها الطبيعي الكبير في مسيرة الإسلام الكبيرة الظافرة.. ولا سيما إذا لاحظنا الاهتمام بالفكر الإسلامي العملي الذي لا يكتفي بالتحليل النظري للمفاهيم بل يحاول أن يعيش في قلب الواقع العملي الذي تندفع فيه الخطوات السائرة على الطريق ليرصدها بدقة وعمق على أساس ما تحمله من سلبيات الواقع وإيجابياته كأسلوب من أساليب تصحيح المسيرة وتعميق التجربة وهذا هو ما لمسته في الاقبال الكبير على كتاب «خطوات على طريق

الإسلام» الذي كان محاولة متواضعة للتوفر على التجربة الإسلامية لدراسة ما فيها من ايجابيات أو سلبيات سواء في ذلك العمل الفردي أو الجماعي، فقد اعتبره الكثيرون من القراء الأعزاء ـ الذين يعون حاجة المسيرة الإسلامية إلى الفكر العملي ـ تجربة جديرة بالتأمل والتدبر والانفتاح، وظاهرة جديدة في الانطلاقة الإسلامية للواقع العملي المتحرك.. مما جعله ينفد في أقل من سنة.

والآن.. وقد بدأ الطلب يتزايد بشدة على هذا الكتاب، أقف لأقدم له في طبعته الثانية راجياً من الله أن ينفع به في هذه الطبعة من أجل إفساح المجال لوعي إسلامي منفتح يتحرك في الساحة على أساس الحركة الرائدة التي تنطلق من أجل حياة إسلامية شاملة في اطار الأمة الإسلامية الواحدة.

ولا يفوتني ـ في هذه المناسبة ـ أن أعبر عن اعتزازي بالقراءة الناقدة للكتاب من اخواني من العلماء والمثقفين المسلمين وأذكر من بينهم سماحة الأخ الشيخ محمد مهدي شمس الدين الذي أتحفني بملاحظاته الفكرية التي قد لا أتفق معه في الكثير منها ولكنني أعتبرها مشاركة فكرية تعبر عن رفاقة الفكر التي عشنا معاً خطواته العملية في الحياة.

وأحب أن أشير إلى بعضها من ملاحظاتي المتواضعة.

في ص، ١٠١/ علق على الحديث النبوي الشريف الذي نقلته كشاهد على رفض الترف الفكري للداعية.. «لا يحسن استخدام النص على فرض صحته هنا فإن هذا النص ـ إذا صح ـ يومىء إلى حذر النبي ﷺ مما يتضمنه القصص القديم من خرافات وأساطير قد تؤثر على عقيدة السامعين أو قيمهم الأخلاقية ـ سيما وأن ما كان يحدث به يتعلق بتاريخ أو قصص وأساطير ما قبل الإسلام».

أما تعليقي على هذه الملاحظة فهو أن التدقيق في هذا الحديث يدل على أن رفض النبي لهذا النوع من الثقافة مرتكز على أساس اعتباره ترفاً فكرياً لا ضرورة له وذلك من خلال فقرتين:

الفقرة الأولى: «ذاك علم لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله» مما يوحي بأن القضية ليست قضية حذر لمصلحة العقيدة، بل قضية عدم الجدوى في هذا العلم من ناحية عملية.. ولذلك كان التأكيد في مقابل ذلك على العلم الذي يرتبط بحياة الإنسان ومصيره.

الفقرة الثانية: قوله «وما خلالهن فهو فضل» فإنها تدل على أن هذه المعلومات التي يلقيها هذا الشخص تعتبر فضلاً أي زيادة لا حاجة إليها.. وقد لا نستطيع أن نجد في النص ما يوحي بوجود خرافات وأساطير فيما يرويه هذا «العلامة» لأن القصة لا تذكر في الحديث عن ثقافته إلا أنه «عالم بأنساب العرب وأيامها وأشعارها» ونحن نعلم أن ذلك لا يحمل إلا التاريخ للوقائع الحربية وغيرها مما لا يرتبط بالجوانب العقيدية أو الأخلاقية.. بشكل عام.

في صفحة ١٠٥ ـ ١٠٦ تعليق على «خلاصة الفكرة» في فصل مخاطر الترف الفكري يقول:

«لقد ضيقت واسعاً فليس التكليف الشرعي وفقاً لأشد المقاييس قساوة ما يفرض على الداعية أن يحرم نفسه مما تسميه ترفاً فكرياً ـ نعم عليه أن يحترز من التأثر بالقيم والأفكار غير الإسلامية، وهو لا يبلغ درجة الداعية إلا إذا كان بهذه المثابة من القدرة على الاحتراز».

أعتقد أني لم أنطلق في الحديث عن مخاطر انطلاق الداعية في مجالات الترف الفكري من زاوية الحرام الشرعي كما يتحدث الإنسان عن

فعل محرم، بل كل ما كنت أحاوله هو الابتعاد عن الاستسلام للعبث وللترف الفكري من موقع الجهد المحدود الذي يملكه الداعية من وقت وفكر مما يجعل انطلاقه في الآفاق المترفة تضييعاً للجهد الذي يحتاجه الإسلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الحذر من التأثيرات اللاشعورية التي قد تطبع أدبه وأسلوبه بطابع غير إسلامي ولو من ناحية شكلية، ومن الطبيعي أن الحديث لا يتحرك في الاطار الذي يحتاج فيه الداعية إلى الاطلاع على هذه الألوان المترفة من الفكر من أجل تقويم الواقع ودراسته على أساس الرصد الدائم للأوضاع المنحرفة في المجتمع.

في صفحة ١٧٥ ـ ١٧٦، في فصل «تجسد الإسلام في سلوك الإمام علي» عليه السلام تعليق يقول:

«نخالف الأخ المؤلف في رأيه هنا فإن وظيفة الحاكم تختلف اختلافاً نوعياً عن وظيفة الداعية التي لا تقتضي صاحبها التشدد على النفس بالنحو الذي يوحي به الاستشهاد بسيرة الإمام عليه السلام. وإذا جاز لنا أن نستشهد ببعض سيرته مع أصحابه فإننا نتذكر حديثه مع عاصم بن زياد الذي رواه الشريف في النهج».

أما ملاحظتنا على التعليق فهي أن الاستشهاد بسيرة الإمام عليه السلام كانت محاولة لاستيحاء جانب القدوة في الداعية الرسالي من خلال المعاني التي تلتقي فيها شخصية الحاكم الرسالية بشخصية الداعية في الخطوط العريضة، مما يجعل من الحكم تجسيداً للمعاني التي تتضمنها الدعوة في حياة الناس ولذلك نلاحظ الدعوة إلى الاقتداء به من خلال ما يمثله سلوكه «من ورع واجتهاد وعفة وسداد» من دون حاجة إلى التمثل به في سلوكه الخاص كحاكم، كما نلاحظ ذلك من خلال الكلمة الثانية «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور..» فهي ـ في الوقت الذي تتمثل فيها شخصية الحاكم

المنسجم مع مبادئه ـ تظهر فيها شخصية صاحب الرسالة الداعية الذي يقف مع مفاهيمه الأصلية في أشد المواقف حراجة عندما يتعرض حكمه للاهتزاز أمام الإصرار على الوقوف مع الخط الرسالي المستقيم.. أما الجانب الذي تختفي فيه وظيفة الحاكم عن وظيفة الداعية اختلافاً نوعياً، فيتمثل في الاصرار على حرمان نفسه من اللذاذات المحللة بطبيعتها من أجل أن يشارك الناس جوعها وبؤسها وحرمانها على ما جاء في حديثه مع عاصم بن زياد عندما قال له: يا أمير المؤمنين هذا أنت في جشوبة مطعمك وخشونة ملبسك..» فالتفت إليه ليقول.. إني لست كأنت «إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس لكيلا يتبيغ بالفقير فقره..».

إن مما نريد التأكيد عليه أن الجانب الذي استشهدنا به من سيرة الإمام هو الجانب الذي لو انحرف عنه الحاكم لكان انحرافاً عن خط الرسالة، لا انحرافاً عن طبيعة المعاناة الذاتية التي يعانيها الحاكم من موقع المسؤولية.

في صفحة ٣٠٧، في فصل «أهمية الأسلوب العملي وأصالته» في فقرة «فلا تخضع لوجوه وأقنعة مستعارة.. الخ».

يقول التعليق: «قد تكون محاربة الضلال الكبير والآتي من خلال جماعة ضالة أخرى أحد أساليب الحكمة في الدعوة وقد حالف الرسول أقواماً على أقوام واستعان بأقوام على أقوام..».

أظن أن الفصل يرتكز على أسلوب الدعوة الذي يمارسه المسلم في عرضه للإسلام ودعوة الآخرين إليه ولم يرتكز على محاربة الآخرين من الضالين بواسطة قوى أخرى ضالة، بطريقة التحالف أو الاستعانة، فإن ذلك شيء يدخل في مجالات حركة الواقع في حلبة الصراع، لا في حركة الأسلوب في مجال الدعوة.

في صفحة ٣١١/ في فصل «التحذير من مواكبة الأساليب المناهضة» في فقرة، «وبهذا تلتقي الشيوعية بالإسلام في طبيعة الحرية الملتزمة وإن كانا يختلفان في التفاصيل تبعاً لاختلافهما في القواعد».

يقول التعليق: أشك في صوابية هذا الرأي وأعتقد أنه بحاجة إلى تمحيص، إن الأنظمة الاشتراكية تصادر الحرية السياسية وما يتصل بها من شؤون كما تصادر الحرية الدينية والاقتصادية، أما الحريات الأخرى وخاصة في مجال الجنس واللهو فهي تسمح بها ولا تعارض فيها بل ربما تشجع عليها لتمتص النقمة والفراغ . . ».

نلاحظ على هذا التعليق أننا عندما نتحدث عن الحرية في مفهوم الشيوعية، فإننا نتحدث عن زاوية الفكر الشيوعي الذي ينطلق من الالتزام بفكرة معينة تحكم الفرد والمجتمع وذلك في مقابل المفهوم الرأسمالي للحرية الذي لا يعبر عن مضمون فكري معين ملتزم. . وبذلك فإن الفكرة هي التقاء الإسلام والشيوعية في نظرتهما إلى الحرية من موقع الالتزام الفكري الذي يفرض حماية الفكرة الملتزمة من كل الأفكار الأخرى أو الأعمال الأخرى التي تسيء إلى طبيعتها أو تؤدي إلى انهيارها. . وفي ضوء ذلك لا يكون الحديث عن مصادرة الدول الاشتراكية للحريات الدينية والاقتصادية، وتسهيلها الحريات الجنسية نقضاً للفكرة، بل يعتبر تأكيداً لها وذلك لمنافاة الفكر الديني والاقتصاد الحر للشيوعية كمبدأ، وعدم منافاة الحريات الجنسية لطبيعة الفكر إلا بقدر ارتباطها بمصلحة الطبقة العاملة. . وأرجو الالتفات إلى الفقرة السابقة التي تقول. . . «ولكن ليس معنى ذلك أننا نوافق على جميع ألوان التقييد للحريات التي تقوم بها الأنظمة الشيوعية في الدول الاشتراكية. . ».

في صفحة ٣٣٧/ في فصل «أسلوبنا بين الانحراف القديم والجديد» يقول التعليق:

«لماذا لا يحارب الانحرافات معاً وبدرجة واحدة من القوة. إن السكوت عن الانحراف يعطيه شرعية ولو مؤقتة تتيح له أن يعزز أجواء الانحراف الثاني في مثالي السفور والإباحية الجنسية..».

نلاحظ على هذا التعليق.. أن الفكرة في هذا الفصل تدور حول فقدان الامكانيات العملية لمواجهة الانحرافين معاً باعتبار أن الانحراف الثاني جاء في أجواء امتداد الانحراف الأول وطغيانه مما يجعل من مواجهة الانحرافين معاً معركةً خاسرةً في المجالين لأن قوة الانحراف الأولى سوف تدعم ضعف الانحراف الثاني، بينما تكون مواجهة الثاني بالأسلحة المشتركة بيننا وبين الأول عملية رابحة في أغلب الظن.. ويمكننا ـ بعد ذلك ـ من الالتفاف على الانحراف الأول في ساحة بعيدة عن التحديات المضادة الأخرى.. وأرجو الالتفات إلى أننا قررنا الفكرة التي يدور حولها التعليق في صفحة ٣٣٦ ورددنا عليها...

في صفحة ٣٣٨/ حول فقرة.. مما يجعل من الزنا عملا فاحشاً مرفوضاً من الناس جملة وتفصيلاً..».

يقول التعليق: «إن الزنا الآن ليس في نظر كثير من الناس عملاً فاحشاً أنه عمل سيء فقط وهذا التغير في الموقف النفسي نتيجة للسفور واختلاط الجنسين والتساهل في قوامة الرجل على المرأة وضعف روابط الأسرة..».

أحسب أن الفكرة التي عالجتها تنطلق من المجتمعات التي لا تزال تعيش القيم الأخلاقية في مقياس الشرف مع التزامها بالسفور والإختلال.. ولهذا نراها تستنكر الزنا كعمل فاحش، أما هؤلاء الذين يرون فيه عملاً سيئاً فقط فلا يثير في نفوسهم شيئاً كبيراً من استنكار، فإنهم عاشوا القيم الحضارية الغربية الجديدة التي كانت بداية فكرية للحرية الجنسية التي ندعو إلى

مواجهتها في مرحلة ما بعد السفور. . إننا نعتقد أن السفور والاختلاط قد استطاعا أن يحطما، أو يكسرا، الحاجز الواقعي للزنا ولكن الحواجز النفسية بدأت تتهاوى، عندما انطلقت ظلال الأفكار الجديدة للحرية الجنسية التي نعاني منها الآن.

في صفحة ٣٦٥ حول فكرة اعتبار التقية أساساً لتبرير ارتكاب الحرام فيما يماثلها من حالات مما يرقى إلى مستوى الأهمية الكبرى في المصلحة الإسلامية العليا. . يقول التعليق:

في صفحة ٣٦٥ حول فكرة اعتبار التقية أساساً لتبرير ارتكاب الحرام فيما يماثلها من حالات مما يرقى إلى مستوى الأهمية الكبرى في المصلحة الإسلامية العليا. . يقول التعليق:

«هذا الرأي شديد الخطورة ولا بد من التوقف عنه إلى أن تثبت شرعيته فإن الظاهر ـ بحسب النظر البدوي ـ أن ارتكاب الحرام لا يسوغه ـ في غير حالات التقية ـ شيء من اختيار المكلف والتفاته. . .».

أما ملاحظتي على التعليق فهي الفات سماحة الأخ حفظه الله إلى باب التزاحم المقرر في علم الأصول والذي يرتكز على أساس اختيار المكلف التكليف الأهم فيما إذا تعذر عليه امتثال التكليفين المتزاحمين معاً. . وقد مثل له الفقهاء بتوقف انقاذ الغريق الواجب على المرور بالأرض المغصوبة المحرم، فإن أهمية الواجب تتقدم على حرمة المحرم باعتبار أنه أقل أهمية ولا مناص من الاختيار. . ويمثلون له بالأسرى المسلمين الذين يتترّس الكفار بهم فيضعونهم في مقدمة الجيش ليمتنع المسلمون من الاندفاع في القتال حفاظاً على حياة أخوانهم. . فإن الحكم الشرعي هو وجوب أو جواز قتلهم مع دفع ديتهم من بيت المال نظراً إلى أهمية جانب انتصار المسلمين على الكفار فيما إذا لوحظ بازاء حياة هؤلاء، الأسرى.

وبذلك لا نجد أيّة خطورة في هذا الرأي.

في صفحة ٣٦٧/ تعليقاً على موقف ياسر وسمية.. وولدهما عمار.

يقول التعليق: كانا لا يعرفان التكليف الشرعي وكان ابنهما أفقه منهما..

أما ملاحظتنا على ذلك.. أن التكليف الشرعي لا يمنع من التضحية وإن كان يجوّز السلامة كما يلاحظ في الحديث الذي نقلناه في نفس الصفحة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وإلا فكيف نفسر موقف حجر بن عدي وأمثاله من المجاهدين الذين وقفوا مع مبادئهم حتى الاستشهاد في الوقت الذي كانوا يستطيعون اختيار السلامة.. أما عمار فلم يدفعه إلى موقفه الفقه بل حالات الألم الشديد الذي لم يستطع تحمله في صغر سنه، ولذلك فإنه عاش حالة الشعور العميق بالاثم الذي لم يهدأ في نفسه إلا بعد انزال الله فيه قرآناً وقال له النبي يا عمار إن عادوا فعد...».

في صفحة ٢٣٧/ فصل «فلسفة الثواب والعقاب في واقعنا العملي» يقول التعليق:

«يبدو لي أن الفكرة التي يعالجها هذا الفصل تفتقر إلى الوضوح والدقة ـ إن الثواب والعقاب ثابتان في الشريعة ـ الثواب للعمل بمقدار ما فيه من وعي ونبض وانشداد إلى الله تعالى ـ فعلى الدعاة أن يوجهوا عامة الناس نحو العمل الحافل بالمضمون عن طريق ما فيه من ثواب، أما توجيههم نحو العمل التلقائي على نحو يشعرهم بالتقصير حين يعجزون عنه وهم سيعجزون عنه غالباً ـ بالتأكيد ـ فإنه خطأ ـ نعم يمكن ضرب الأمثلة لهم من حياة العابدين الكبار (محمد وعلي وآلهما صلوات الله عليهم والأنبياء ـ صلوات الله عليهم) لتكون حافزاً لهم على التوجه إلى الله في عبادتهم ـ كيف نصرفهم

عن اعتبار الثواب والعقاب في عملهم وهم يرون في نصوص القرآن والدعاء ما يربط بين العمل والثواب والعقاب؟ يمكن للداعية أن يستثير في وجدان أصحابه عاطفة الشكر وعرفان الجميل لله تعالى فيخفف في عبادتهم من أسر العقل التجاري المحض.».

نلاحظ على هذا التعليق نقطتين:

الأولى: إننا عالجنا في هذا الفصل أسلوباً عملياً يسلكه الكثيرون من الوعاظ والدعاة في الاكتفاء بالدعوة إلى العمل من خلال الثواب والعقاب بشكل جامد بعيد عن أي نوع من أنواع الحيوية التي تجعل من العمل حالة وجدانية داخلية تبني للإنسان داخله من خلال ارتباطه بالله وانفتاحه على ما في العمل من نبض وحيوية واشراق.. وقد كان الفصل كله من أجل اخراج فكرة الثواب والعقاب من الممارسة الجامدة التي تحوِّل الإنسان إلى كائن حسابي يحصي الحسنات والسيئات تماماً كما يحصي النقود التي يربحها في متجره بعيداً عن أي معنى أو قيمة.. وهذا هو ما نواجهه في كثير من النماذج التقليدية التي تهتم «بالكم» لا «بالكيف» لأنها فهمت الثواب على أساس عدد الركعات لا على أساس ما تحمله من معنى العبادة، وذلك من خلال الأسلوب الخاطىء لدور الثواب والعقاب في عملية الدعوة.

الثانية: إننا لا نريد ـ كما هو واضح من الفصل ـ إشعار العاملين بالعجز والتقصير الحتمي ـ كما يفرض التعليق ـ بل كل ما نريده هو اعطاء الأسلوب نوعاً من الحيوية التي تخرجه من جموده وهذا هو ما يظهر من الفقرة التالية: إننا نرى من الخير للعاملين أن يعطوا الثواب والعقاب دورهما الأساسي في الاثارة ووضع الأقدام في الطريق من خير وجمال.. الخ...
فإن الفكرة تنجلي بوضوح في أن الفصل لا يهدف إلى استبعاد الدور الأساسي للثواب والعقاب بل كل ما يريده هو أن يكونا عاملين من عوامل بناء

الشخصية الإنسانية على حسب المفاهيم الحقيقية للإسلام وذلك في المرحلة الأخيرة من مراحل الوعظ والدعوة والتوجيه..

في الصفحة ٣٤٤/ في فصل للإسلام ألفاظ خاصة في أسلوب التعبير.. يقول التعليق «إضافة إلى ما ورد في المتن من أن بعض الألفاظ المتداولة في التعبير عن مبدأ مَّا موحية» نقول: «إن بعض الألفاظ تحولت إلى «مصطلحات» فقيمتها في أنها تحدد فكرة المبدأ المعينة تحديداً سليماً يرتضيه أهل المبدأ لأنفسهم وتجاوزها في التعبير يفتح مجالات لتسلل بعض الأفكار أو الايحاءات الغريبة عن المبدأ أو يلقي السامع والقارىء في الحيرة لأنه لا يقدم «مصطلحاً» محدداً..».

إننا نوافق على هذه الملاحظة ولكننا لا نستطيع اعتبار اللفظة «إسلامية» بالمعنى الذي يجعل منها كلمة مقدسة.. بل هي مصطلح «إسلامي» في مقياس العمل الإسلامي في حركته الصاعدة الذي يخضع لما تخضع له كل أدواته من تركيز وتدقيق.

في الصفحة ٣٧١/ في فصل «عندما يتحول الحكم الشرعي إلى تقليد».

يقول التعليق: «الموضوع يحتاج إلى تأمل وتوضيح/ لا أعتقد أن الأمر بالبساطة التي عرض بها لأن تماسك حكم شرعي معين لا يقوم فقط على وعيه والعناية به من قبل المسلم وإنما على علاقته بالأحكام الشرعية الأخرى المرعية أو المعرضة للانتهاك، والحجاب لم يسقط لمجرد تبدل مفهوم العيب وإنما لأن وتيرة الحياة العامة في المجتمع فرضت ظروفاً جعلت من الحجاب أمراً ثقيلاً...» إننا نلاحظ على هذا التعليق، أنه يريد أن يعتبر معالجتنا لفكرة الفصل مرتكزة على اعتبار الوعي للحكم الشرعي هو كل شيء في عملية الانحراف والتجميد.. ولكننا لا نريد ذلك بل إننا نحاول

الايحاء بخطورة تجميد الحكم الشرعي في نفوس المؤمنين بتحويله إلى مجرد تقليد مربوط بالمقاييس الاجتماعية التي تخضع لها العادات والتقاليد مما يجعل الذهنية العامة تتجه إلى الدفاع عنه من موقع الدفاع عن التقليد لا من موقع حماية الإيمان والإسلام وبالتالي تتركز قوة التأثير والدفاع على مدى قداسة التقاليد والعادات لدى الناس.. فلا يكون المحارب لها محارباً للإيمان بل محارباً للتقاليد.. فإذا ضعف تيار التقاليد أو انقلب الوضع إلى تيار معاكس بحيث أصبحت الثورة على التقاليد قضية تدعو إلى الاحترام، فقد الحكم الشرعي قوته ومعناه وتحوَّل إلى شيء يبعث على النفور والتقزز تماماً كأي تقليد لا يوحي بالاحترام أساساً... إننا لا نريد اعتبار فكرة «العيب» في السفور هي كل شيء في تفسير ظاهرة السفور بل نريد اعتبارها إحدى العوامل التي خففت من وقع الصدمة التي انطلقت لتدعو إلى محاربة الحجاب.. بينما كانت الصدمة أكبر وأقوى وأشد إثارةً للمقاومة ـ لو بقيت القضية في اطار الحكم الشرعي المرتبط بقضية الإيمان بالله وطاعته ورضاه.

في الصفحة ٤٣٨/ في فصل «موقفنا من الانحرافات الفكرية والعملية العامة» / تعليقاً على الفكرة التي ترفض تقديس الأشخاص من خلال ذواتهم والدعوة إلى تقديسهم من خلال تقديس مبادئهم/ يقول التعليق: «أليس من مناهج الإسلام في القرآن والسنة الحث على ولاء الأشخاص الذين يستحقون الولاء وحبهم لأنهم يستحقون الحب؟ لماذا نحارب العلاقة الذاتية مع الأشخاص المقدسين؟ أليس في ذلك مجافاة لطبيعة الأشياء؟ ألا يعزز الحب الذاتي جانب العقيدة في العقل والشعور..» أما تعليقنا على هذا التعليق فيتلخص في مواجهة الأسئلة المتعددة التي أثارها التعليق بفكرة واحدة، وهي أننا لا نعتقد أن الفصل يثير مثل هذه التساؤلات باعتبار أنه كان دعوة صريحة إلى التعلق بالأشخاص المقدسين ومحبتهم ولكن من خلال صفاتهم الرسالية

التي توحي بتجسيدهم للرسالة مما يعني أن الارتباط بهم يظل متصلاً بالرسالة والعقيدة من أجل أن لا نغرق في محبة الذات المقدسة بعيداً عن مصدر القداسة، الأمر الذي قد يدفعنا إلى أن نحشد في الذات من الصفات والفضائل ما لا تتسع له الرسالة فيما توحيه من معاني في الصدق والحق والواقعية.. ألا يرى معي ـ سماحة الأخ حفظه الله ـ أن الكثيرين الذين يتعلقون بالأنبياء أو بالأولياء يشعرون بمسؤولية وجدانية عن الدفاع عن الإساءة الموجهة إليهم من قبل الأعداء أكثر من شعورهم بالمسؤولية في الدفاع عن اسم الله أو عن شريعته عندما يمتهن أو يساء إليه من قبل أعداء الله.. بماذا نفسر ذلك؟ هل هناك تفسير له إلا الأسلوب الخاطىء الذي درجنا عليه في الإيحاء بالصفات الذاتية المقدسة بعيداً عن صفات الرسالة وقيمها.. ألا يرى معي أن كثيراً من حالات الغلو في الأديان وفي غير الأديان انطلقت من خلال التركيز الدائم على الذات والشخص بعيداً عن الفكرة والعقيدة إلا من خلال علاقتها بالشخص لا علاقة الشخص بها.. ثم هل نستطيع أن نرجع ظاهرة عبادة الشخصية الموجودة في عصرنا على المستوى السياسي أو الاجتماعي، إلى غير أساليب الدعاية التي تحاول أن تضفي على القيادة صفات قدسية بعيدة عن الواقع وذلك من خلال فكرة التأكيد على ارتباط القاعدة بالقيادة من خلال الحب والولاء الذي لا يحصل إلا بالأساليب الغارقة في ضباب الذات؟ أما الأحاديث التي وردت، والآيات التي نزلت فهي لا تزيد على اثارة الجانب الرسالي في ربط الناس بالرسول وبالولي من خلال رسالته وإلا فما معنى الأحاديث التي وردت عن أئمة أهل البيت التي تقول لا يكفي الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون فعالاً فرسول الله خير من علي أفحسب الرجل أن يقول أحب رسول الله ثم لا يعمل بسنته..» ثم يعقب على ذلك «والله ما معنا براءة من النار من كان ولياً لله فهو لنا ولي ومن كان عدواً لله فهو لنا عدو وما تنال ولايتنا إلا بالورع...».

إننا نعتقد أن الفصل لا يزيد على هذه الأفكار التي أعتقد أن الأخ المعلق يتفق معي فيها لأنها الأسلوب الأمثل الذي يحفظ للرسالة نصاعتها واشراقها وصفاءها في كل زمان ومكان بعيداً عن كل عوامل التضليل والانحراف.

وبقيت ـ هناك ـ تعليقات بسيطة أذكر منها التعليق على طريقة الحديث عن القرآن بكلمة «يحاول» وما شابهها باعتبار أن القرآن يريد ويفرض، ولا يحاول لأن المحاولة تعني بعضاً من التردد في حسم الأشياء لانتظار النتائج غير المعلومة.. ولكننا نعتقد أن هذا التعبير ينطلق من ملاحظة طبيعة الموضوع من حيث كونه غير حتمي في ذاته كما في تعبير القرآن نفسه عن بعض الأشياء والأفعال بكلمة لعل وعسى التي تفيد معنى الترجي والمقارنة في الفعل مع أن ذلك لا يتناسب مع طبيعة صدوره من الله سبحانه.

وفي الختام أنني أشعر بقيمة هذه الملاحظات الفكرية لأنها استطاعت أن تفتح آفاقاً كانت غامضة بعض الشيء فأتاحت لي الفرصة لتوضيح بعض جوانبها الخفية.. وأرجو أن يتسع صدر سماحة الأخ العلامة شمس الدين لهذه التعليقات، كما أمل من اخواني أن يتفضلوا علي بمشاركتهم النقدية، من أجل أن تكون التجربة العملية التي يمثلها هذا الكتاب بعيدة عن مواقع الخطأ، قريبة إلى تحقيق الهدف الكبير الذي نرجو أن تكون طلائعه الأولى المباركة نقلة في طريق الامتداد والعمق والتركيز في خطوات الثورة الإسلامية المباركة في إيران على طريق الإسلام في إيران وفي العالم من خلال جهاد المجاهدين، وفي طليعتهم المجاهد الكبير آية الله السيد الخميني، ورفاقه الأبرار من العلماء المجاهدين. فقد استطاعت هذه الثورة أن تفتح آفاق العالم كله على الإسلام بكل ما فيه من أصالة وشمول وعمق كما استطاعت أن تبدع أساليب جديدة في طريق الجهاد، وفي طبيعة المعاناة والحركة، مما يقتضينا

دراسات جديدة واسعة لهذه التجربة الحية الفريدة من أجل أن تنطلق منها التجارب المتنوعة في رحاب الوطن الإسلامي الكبير انطلاقاً من وعد الله للمؤمنين المستضعفين في قوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بيروت ١٢ رجب الحرام ١٣٩٩

محمد حسين فضل الله

الفصل الأول

في خطوات الدعوة

١ ـ في طريق العمل.

٢ ـ التدرج في الدعوة كقاعدة للعمل.

٣ ـ الدعوة إلى الدين في مفهومه الأصيل الشامل.

٤ ـ الممارسات الدينية أمام علامات الاستفهام.

٥ ـ العمل بين النظرية والتطبيق.

٦ ـ تحديد الخطوط الفاصلة بين الإسلام وبين غيره.

في طريق العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تعد مسألة العمل في سبيل الله قضية بسيطة يعالجها الباحث كما يعالج أية مسألة جانبية ساذجة، دون أن يواجه تعقيدات المشاكل وارتباكاتها، فهي من القضايا التي تتنوع منعطفاتها حسب تنوع الاتجاهات التي تتجه إليها. وتختلف مشاكلها تبعاً لاختلاف المراحل التي تمر بها.

وقضية الطريق في كل عمل، كموضوع العمل نفسه، من حيث ارتباطها بالهدف والتصاقها به، فقد تؤثر بعض أخطاء الطريق، التي يقع فيها العاملون، على طبيعة العمل نفسه، وقد تنحرف به إلى غير قصده وتتجه به بعيداً عن هدفه إذا انحرفت الخطى في أثناء الطريق أو تبعثرت ذات اليمين وذات الشمال. وربما يستسلم العمل إلى بعض الحالات النفسية التي يمر بها العاملون في أزمات الصراع، فتخبو فيهم جذوة الحماس وتتضاءل في داخلهم قوة الاستمرار.

وعلى هدى هذه الفكرة نجد من الخير لنا أن نقف في بدايات الطريق قليلاً، لنسترجع بعض التجارب، ونحلل بعض الأحداث، فقد يعفينا ذلك من بعض ما نحن فيه من فوضى وارتباك.

وجهة البحث:

وما دمنا في معرض الحديث عن طريق العمل وأسلوبه، فقد يجب علينا ايضاح الوجهة التي ينطلق نحوها الحديث، فلسنا نقصد به الإطار الذي يتحرك العمل في داخله، لندخل في تفاصيل الاتجاهات التي تختلف في تحديد نوعية الأسلوب التنفيذي للعمل، فنلتقي بالاتجاه الذي يتبنى الفردية، إلى جانب الاتجاه الذي يحبذ الجماعية في العمل، بين قائل باتباع النهج السياسي الذي يجمع الأمة نحو هدف يرتكز على القاعدة، وينطلق في عملية بناء من الجذور، وبين قائل باتباع التكتل الاجتماعي الذي يستهدف خلق الأجواء النفسية والروحية التي تهيء للفكرة أن تنمو بهدوء واطمئنان دونما ضجة أو ضوضاء.

لسنا نقصد بأسلوب العمل هذا النوع من الحديث، لأننا في معرض الحديث عن الأسلوب الذي تلتقي فيه كل هذه الاتجاهات، فنحن نريد التعرف على الأسلوب الذي يتبعه كل فريق من هؤلاء، أياً كان اطاره العملي في مجال الدعوة، ومعرفة الأدوات التي يمكن أن يستعملوها في الوصول إلى الهدف الأسمى.

أما قيمة هذا البحث، أو بالأحرى، هذا الاتجاه في البحث، فتكمن في اغناء العمل بالتجارب المختلفة، وتقليل الأخطاء التي يقع فيها العاملون لفقدان التجربة الرائدة أمامهم، كنتيجة لطمس معالم تجارب الآخرين باعتبارها شيئاً شخصياً لا يمثل أية فائدة عامة للعمل نفسه، انسجاماً مع النظرة الخاطئة التي تقرر: أن علينا الاستفادة من العمل نفسه، دون أن تتعب أنفسنا بالتعرف على طريق الوصول إليه لأنه شيء لا يخصنا ـ بشكل عام ـ بل يخص العامل نفسه. ولكننا نعتقد خطأ هذه النظرية فنحن لا نستطيع

الاستفادة من العمل، كنتيجة، ما لم نستطع الاستفادة من المقدمات التي هيأت لهذه النتيجة لارتباط النتائج بمقدماتها، فإن معرفة المقدمات وأساليب العمل يمكن له أن يوجهنا إلى طريقة الاستفادة من العمل، وتوجيهه الوجهة الصحيحة التي يمكن له أن ينفتح عليها ويتجه نحوها.

حفظ التجارب:

وفي ضوء هذا الاتجاه، ونحن في بداية حديثنا، نجد أن من المفيد جداً للعمل، هو التركيز على مسؤولية القيادات العامة للعمل الديني الإسلاميّ ـ بشكل عام ـ في التأكيد على العاملين في تقديم التقارير المفصلة عن أعمالها وأساليبها ونتائجها، وطريق الوصول إليها، وطبيعة الظروف الموضوعية التي عاشت فيها وانطلقت منها، ونوعية المؤثرات الذاتية التي أثرت فيها وانفعلت بها، لتستطيع مثل هذه التقارير التي تمثل تجربة حية في طريق العمل، أن تقدم لمن يأتي بعدهم بعض النور الذي يهديهم ويأخذ بيدهم نحو حل المشكلة في المستقبل، كما تستطيع، أيضاً، تعريف القائمين على العمل بأخطاء العمل ومجالاته وتطلعاته نحو الغد، ليتمكنوا ـ في ضوء هذا ـ من التخطيط للمستقبل، على أساس فهم الواقع الموضوعي للعمل جملة وتفصيلا.

وقد تتعرف إلى قيمة هذه المعرفة، بصورة واضحة، إذا عرفنا أثر اغفالها، في الأخطاء الكبيرة التي قد يقع فيها بعض العاملين عند انطلاقه في العمل في منطقة سار فيها داعية من قبله، حيث ينتهي به الأمر إلى اهدار تجربة الفكرة، لا مرحلة ثانية من مراحلها، وحلقة موصولة بغيرها من حلقات السلسلة.

ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى سوء فهم للواقع، أو الوقوف دائماً في

أول الطريق، فإن معنى بداية العمل من جديد، واغفال التجارب الأولى، هو الرجوع إلى أول الطريق في كل منطلق لعامل جديد.

ولتوضيح ذلك، نطرح مثال المبلغين والمرشدين الذين ترسلهم المراجع الدينية العليا، إلى بعض المناطق لارشاد الناس وهدايتهم إلى الدين الحق، وتعليمهم أحكام الله وتعاليمه من الحلال والحرام، فقد يكون هناك مرشد آخر عاش تجربة سابقة في تلك المنطقة وقضى شطراً من عمره فيها، فانطبع العمل بطابعه الفكري والروحي، وتأثره بأسلوبه العملي، وخضع لعوامل التغيير المرتبطة بتجاربه المتعددة في الوعظ والارشاد والاصلاح، الأمر الذي يجعل أجواء العمل مرتبطة بأجواء هذه التجربة، باعتباره رائداً للتجربة الأولى.

وفي مثل هذه الحالة، قد يكون من بديهيات سلامة العمل أن نحتفظ بمثل هذه التجربة، ونطلع عليها، وندرسها لنختار الداعية الذي ينسجم أسلوبه مع أسلوب سلفه، ليكون عمله امتداداً لعمل صاحبه فيما إذا كانت التجربة ناجحة. أما في حالة فشل التجربة، فيفيدنا الاطلاع عليها معرفة بأسباب الفشل مما يجعلنا أكثر قدرة على تلافي الأخطاء السابقة، وتجنب أسبابها باختيار إنسان تتوفر فيه عوامل النجاح وأجواء تتهيأ فيها مقومات العمل.

ونحسب أن مثل هذا الاتجاه في العمل يوفر علينا الكثير من الأخطاء والكثير من المراحل التي تذهب هدراً عندما نظل في عملية التراجع إلى أول الطريق.

التخطيط للعمل:

وإذا كنا نؤكد على حفظ تجارب الآخرين للاستفادة منها في حركة

العمل، في امتداد الزمن، فربما يكون من المفيد جداً، أن نؤكد على قضية أخرى أكثر ارتباطاً بنجاح العمل، وأشد التصاقاً بحيويته، وهي قضية «التخطيط للعمل».

فقد أصبح من القضايا الواضحة، أن مسألة التخطيط لأي عمل من الأعمال توفر على العاملين كثيراً من الجهود الضائعة، وتجعلهم أكثر قدرة على التركيز في احتياجات كل مرحلة من مراحل العمل على استقلالها، لأن التخطيط يفرض فهم كل مرحلة من المراحل وطبيعة مشاكلها الخاصة، ونوعية الأشخاص الذين يمكن استخدامهم في هذا السبيل، والاختصاصات التي يحتاج إليها في هذا المجال، وعلاقة كل مرحلة بالمراحل السابقة عليها، والمراحل اللاحقة لها، من أجل المحافظة على الروابط العضوية بينها في جميع الأعمال.

فقد لا يكفي للإنسان، من أجل أن يتقدم في عمل ما، أن يؤمن به ويتحمس له ويندفع نحوه لأن ذلك سوف يدفعه إلى الهوة في بعض الأحيان، بل يجب عليه، أن يعرف في أية مرحلة من مراحل العمل، أين تقوده خطاه وما هي نتائج المسير.

فقد تكون الخطة في بعض المراحل تقتضي عملاً ثقافياً، بينما تستدعي في مراحل أخرى عملاً سياسياً، وربما ـ في مرحلة أخرى ـ عملاً خيرياً، وهكذا، فإذا خلطنا بين كل هذه الأعمال في مرحلة واحدة، فمن الطبيعي أن نستسلم لفوضى الأساليب وفوضى النتائج.

ولعل من أوليات التخطيط للعمل الديني الإسلامي، أن نضع لكل بلد ومنطقة، ودورها المعين في العمل الإسلامي العام، بحيث يكون هذا الدور مرتبطاً بالخطة العامة للعمل، في المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية لئلا يكون العمل في منطقة ما، مناقضاً ـ في نتائجه ـ للعمل في منطقة

أخرى، الأمر الذي يقتضي اهدار الكثير من الطاقات، وتجميعاً لكثير من المشاكل، نظراً لاختلاف المناطق في طبيعة التيارات التي تعيش فيها، وتؤثر فيها وتؤثر في اتجاهها، ونوعية التأثيرات التي تمس العمل الديني بوجهه العام. فقد تكون بعض المناطق خاضعة لتيارات ترتبط بالمشاكل والنزاعات الداخلية للفكرة، بينما تكون المناطق الأخرى واقعة تحت تأثير مشاكل واختلافات خارجية تؤثر في سلامة الفكرة وانطلاقها، وربما نلتقي بنوعية ثالثة، تلتقي فيها المشاكل الداخلية بالمشاكل الخارجية مما يقتضينا تفهماً لطبيعة كل منطقة على استقلالها لنستطيع الفصل بين خطوطها المتشابكة، والتوفيق بين مشاكلها المتعددة، لئلا نقع في الخلط بين ظروف القضية من الداخل وبين ظروفها من الخارج.

وقد يكون من فوائد التخطيط، أنه يقتضينا الوقوف طويلاً عند نهاية كل مرحلة من مراحل الخطة، لنسترد أنفاسنا قليلاً، ولنتعرف على نتائج العمل في تلك المرحلة ومدى انسجام الخط النظري للمرحلة، مع الخطة التنفيذية للعمل، ومناقشة موضوع الأرباح والخسائر في ذلك كله، لنضمن للعمل ـ سلامته في المراحل التالية، لأن أقل خطأ في أية مرحلة من المراحل سوف يؤثر على المراحل التي تليه، كنتيجة للترابط العضوي بين المراحل، وستكون النتيجة عكسية إذا أغفلنا ذلك كله وخلطنا بين المراحل، فإن ذلك يقتضينا الخلط بين الأخطاء من دون أن نعرف موقع أي خطأ، ومركز أي انحراف، مما يوجب تشابكاً في الأخطاء وضياعاً لمعالم المشكلة، وبالتالي بداية الانهيار والانحلال.

وقد يكون من نتائج التخطيط أن يعرف كل إنسان دوره في العمل حسب قابليته وفاعليته، فلا يأخذ إنسان دور صاحبه لأن ذلك يقتضينا اضاعة الجهود واهدار الطاقات عندما نوجهها إلى غير مجالها، أو نطلب منها عملاً

لا تملك أدوات نجاحه، وبالتالي اضاعة العمل نفسه عندما لا تتهيأ له مجالات النجاح وأجواءه وذلك كما أخذ الفقيه دور السياسي، وقام الأديب بمهمة المفتي، وانطلق المحامي في عمل المهندس، وحاول كل إنسان من هؤلاء أو غيرهم أن يقوم بغير الدور الذي تقتضيه طبيعة ثقافته ونوعية اختصاصه.

ولست أقصد من هذا التحديد، تحديد الإنسان وحصره في نطاق ضيق، فلا أحاول من هذا أن أبعد الفقيه عن معرفة السياسة، أو نترك الأديب بعيداً عن فهم الفقه، وإنما أقصد من هذا: أن نستفيد من كل إنسان في مجال اختصاصه الذي يمتاز به أياً كان ذلك المجال، لأنه يكون في تلك الحالة أقدر على اتقان دوره، وانجاح عمله، وأبعد عن الخطأ في أسلوبه وغايته.

وبكلمة واحدة: إن سلامة العمل، أسلوباً وغاية، تقتضينا المزيد من فهم العمل، ولن نستطيع فهمه إذا لم تتمكن من معرفة خطواته ومراحله ولن يكون ذلك إلا بالتخطيط المرتكز على فهم الواقع، وفهم الهدف.

●□●□●

التدرج في الدعوة كقاعدة للعمل

من المفيد لنا، ونحن نستعرض خطوات الداعية التي يجبُ أن يخطوها في طريق العمل، أن نستفيد من تدرج الدعوة الإسلامية في التبليغ، لنجعل منها قاعدة للعمل.

فهي، فيما نفهم، ليست طريقة تنبع من الظروف الآنية أو المحلية التي عاشت فيها الدعوة في بدء الرسالة، وإنما تنبع من طبيعة أي تنظيم للحياة وللعقيدة وللعمل يراد له البقاء والاستمرار والخلود انطلاقاً من مبدأ الاعداد النفسي للأمة قبل احاطتها بالحزام الكلي للفكرة ـ لأن العقيدة ـ أية عقيدة كانت ـ عندما تستهدف تغيير الواقع الفكري والحياتي للأمة الذي يعني نقل الأمة من أَجوائها السابقة إلى أجواء العقيدة الجديدة وتبديل مفاهيمها الاجتماعية والروحية وتطوير عقليتها في اتجاه ذلك، أن العقيدة ـ عندما تستهدف ذلك كله ـ لا بد لها من القيام بعملية التغير والتحول بشكل تدريجي، لتعتاد الأمة أجواءها الجديدة شيئاً فشيئاً، دون هزة عنيفة، أو ردة فعل شديدة تفرضها المفاجأة وتدعو إليها الطفرة.

ومما يؤكد انطلاق هذا الموقف في تدريجية التشريع الإسلامي من قاعدة عامة وخطة شاملة، إن القضية لم تقتصر على التدرج في مفردات التشريع بانزال الأحكام على دفعات، وإنما تمثلت في التدرج في طبيعة كل حكم بنفسه، فلم يحاول الإسلام مفاجأة الناس بالحكم، بل حاول تهيئة

الأجواء النفسية واعدادها اعداداً خاصاً على مراحل كما حدثتنا عن ذلك بعض الأحاديث التي عرضت لموضوع تشريع الخمر.

تشريع الخمر كمثل على القاعدة:

فقد ورد في كتاب الكافي: عن بعض أصحابنا مرسلاً قال: إن أول ما نزل في تحريم الخمر قول الله عز وجل:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

فلما نزلت هذه الآية أحس القوم بتحريمها وتحريم الميسر وعلموا أن الاثم مما ينبغي اجتنابه ولا يحمل الله عز وجل عليهم من كل طريق لأنه قال:

- ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

ثم أنزل الله عز وجل آية أخرى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] فكانت أغلظ من الآية الأولى وأشد.

ثم قال عز وجل:

- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] فأمر باجتنابها وفسر عللها التي لهاومن أجلها حرمها.

ثم بين الله عز وجل تحريمها وكشفه في الآية الرابعة مع ما دل عليه في

هذه الآية الكريمة المتقدمة بقوله عز وجل:

- ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال عز وجل في الآية الأولى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ثم قال: إن الإثم في الخمر وغيرها وإنه حرام...».

ثم استطرد الحديث في اعتبار هذه القضية في الخمر قاعدة في كل تشريع «ذلك أن الله عز وجل إذا أراد أن يفترض فريضة أنزلها شيئاً بعد شيء حتى يوطن الناس أنفسهم عليها ويسكنوا إلى أمر الله عز وجل ونهيه فيها وكان ذلك من فعل الله عز وجل على وجه التدبر فيهم أصوب وأقرب إلى الأخذ بها وأقل لنفارهم منها»[1].

الإمام الصادق يتحدث عن الفكرة:

ويحدثنا الإمام الصادق عن ذلك، فيما يرويه الكافي عنه عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: «**إن الله رفيق يحب الرفق، فمن رفقه بعبادِهِ تسلسله أضغانهم ومضادتهم لهواهم وقلوبهم، ومن رفقه بهم إنه يدعهم على الأمر يريد ازالتهم عنه رفقاً بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان ومثاقلته جملة واحدة فيضعفوا فإذا أراد نسخ الأمر بالآخر فصار منسوخاً**».

ويستفاد من هذا النص/ أن مبدأ النسخ في التشريع كان منسجماً مع قاعدة الاعداد النفسي للتشريع النهائي. ومراعاة المرحلة التي تتركز فيها قوة المكلف الإيمانية والروحية على تقبل التشريع والعمل به، لئلا يصبح التشريع ثقيلاً على المكلف في الوقت الذي لا يملك القدرة على عمله.

(١) الكافي ج٥/ ص ٤٠٦/ مطبعة حيدري، طهران.

الأسلوب في مستوى القاعدة:

وما دمنا قد وصلنا بهذا الأُسلوب إلى مستوى القاعدة، فيمكننا استخدامه في مجال التبليغ وعرض الدعوة على الناس فلا نحاول تقديم التشريع إليهم دفعة واحدة بل تتدرج فيه تبعاً لقوة الإيمان عندهم، ولتدرجهم في العقيدة، فلا نحمل على صاحب الخطوة الأولى ما نحمله على صاحب الخطوة الثانية، وهكذا.. لتنسجم الدعوة مع عقلية المخاطبين ومستواهم ودرجة إيمانهم.

ويرشدنا إلى ذلك ما رواه عبد العزيز القراطيسي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال لي أبو عبدالله:

«يا عبد العزيز إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم، يصعد منه مرقاة مرقاة، فلا يقولن صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشرة فلا تسقط من هو دونك فيسقطك من هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره»(١).

ويوضح لنا الإمام الصادق عليه السلام هذه الفكرة في حديث آخر بمثل ذلك في حديثه مع بعض أصحابه وكان خادماً له قال بعثني أبو عبد الله في حاجة ـ وهو بالحيرة ـ أنا وجماعة ومواليه قال: فانطلقنا فيه ثم رجعنا مغتمين قال: وكان فراشي في الحائر الذي كنا فيه نزولاً فجئت وأنا بحال فرميت بنفسي، فبينا أنا كذلك وإذا أنا بأبي عبد الله قد أقبل فقال قد أتيناك أو قال جئناك فاستويت جالساً وجلس على صدر فراشي فسألني عما بعثني إليه

(١) المصدر السابق ج ٢ ١٨٨.

فأخبرته فحمد الله تعالى ثم جرى ذكر قوم فقلت: جعلت فداك إنّا نتبرّأ منهم إنهم لا يقولون ما نقول قال: فقال: يتولونا ولا يقولون ما تقولون وتبرؤون منهم قال: قلت نعم قال: هوذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرء منكم قلت لا ـ جعلت فداك ـ قال هو ذا عند الله ما ليس عندنا أفتراه اطرحنا قلت لا والله ـ جعلت فداك ـ ما تفعل قال فتولوهم ولا تبروءا منهم: إن من المسلمين من له سهم ومنهم من له سهمان ومنهم من له ثلاثة أسهم ومنهم من له أربعة أسهم ومنهم من له خمسة أسهم ومنهم من له ستة أسهم ومنهم من له سبعة أسهم فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين ولا صاحب السهمين على ما عليه صاحب الثلاثة ولا صاحب الثلاثة على صاحب الأربعة ولا صاحب الأربعة على ما عليه صاحب الخمسة ولا صاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستة ولا صاحب الستة على ما عليه صاحب السبعة.

وسأضرب لك مثلاً:

«إن رجلاً كان له جار، وكان نصرانياً فدعاه إلى الإسلام وزينّه له فأجابه، فأتاه سحيراً، فقرع عليه الباب، فقال له من هذا، قال أنا فلان قال: وما حاجتك؟ فقال: توضأ والبس ثوبيك ومر بنا إلى الصلاة قال: فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه قال: فصليا ما شاء الله ثم صليا الفجر ثم مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانياً يريد منزله فقال له الرجل: أين تذهب النهار قصير، والذي بينك وبين الظهر قليل قال: فجلس معه إلى أن صلى الظهر ثم قام وأراد أن ينصرف فقال له: هذا آخر النهار وأقل من أوله، فاحتبسه حتى صلى المغرب ثم أراد أن ينصرف إلى منزله فقال إنما بقيت صلاة واحدة قال: فمكث حتى صلى العشاء الآخرة ثم تفرقا، فلما كان سحيراً غدا عليه، فضرب الباب عليه فقال: من هذا قال: أنا فلان قال وما حاجتك قال: توضأ

والبس ثوبيك، واخرج بنا نصل، قال: اطلب لهذا الدين من هو أفرغ مني وأنا إنسان مسكين وعلي عيالي.

فقال أبو عبد الله (الصادق):

أدخله في شيء واخرجه منه (أو قال) ادخله من مثل هذه واخرجه من مثل هذا»[1].

في خطى الأسلوب:

أ ـ وعلى ضوء ما قدمناه، نستطيع أن نقرر خطأ الأسلوب الذي يحاول عرض التشريع دفعة واحدة أمام مختلف المستويات، أو تبليغ بعض نقاط العقيدة دون بعض لبعض الناس وذلك لأن التشريعات مترتبة في الخفة والثقل فلا يصلح دعوة الناس إلى ما يثقل عليهم تركه بادىء ذي بدء، لاعتيادهم على ممارسته أو حاجتهم إليه، بل ينبغي دعوتهم إلى ما يسهل عليهم امتثاله، لخفته على طباعهم وقربه إلى حياتهم لأن امتثال التكليف الشديد يتطلب قوة لا يملكها الإنسان بادىء ذي بدء، ومرونة يحتاج إلى الاعتياد عليها.

أما امتثال التكليف الخفيف، فيهيىء له هذه القوة، تماماً، كما يتدرج الرياضيون في رفع الأثقال، من الأوزان الخفيفة إلى الأوزان الثقيلة، حسب مراتبها، لأن حمل كل وزن يعطي الجسم حمله في المرتبة الأولى.

ب ـ وفي جانب العقيدة، نلاحظ أن نقاط العقيدة وأصولها متدرجة فلا يمكن فهم مسألة النبوة، بشكل منفصل عن مسألة الألوهية، ولا يجوز عرض مسألة الإمامة بمعزل عن مسألة النبوة، كما لا معنى لعرض مسألة وجود الله وعدله وقدرته وحكمته، منفصلة عن بعضها البعض، لارتباط كل جانب من

(١) الكافي ج٣ ص ٤٣ ـ ٤٤ مطبعة الحيدري بطهران.

هذه الأمور بالجانب الآخر.

ولذلك فإن من الخطأ الواضح عرض، مسألة، الإمام المنتظر، الذي تعتقد به الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، منفصلة عما يتقدمها من أصول العقيدة والمذهب لأنها لن تفهم إلا في هذا المجال ككل نتيجة يحتاج فهمها إلى مقدماتها.

ج ـ ومن بين هذه القضايا التي ينبغي فيها ملاحظة طبيعة الارتباط بين الجوانب المتعددة، قضية (الخوارق للعادة من معجزات الأنبياء والأوصياء) فقد دأب الكثيرون من الخطباء والوعاظ والعلماء، على ذكرها والتحدث بها في المجالس العامة التي تضم المستويات المختلفة في الفكر والعقيدة والإيمان، ممن يفهم جذور هذه القضايا، وممن لا يعرف شيئاً من ركائزها، الأمر الذي يولد في نفوس مستحدثي الإيمان، أو البعيدين عنه، فكرة الخرافة عن الدين، بالنظر إلى أن قضية المعجزات مرتبطة بفكرة الإيمان بالله من جهة، وبالإيمان بالغيب من جهة أخرى، وفهم طبيعة النبي أو الولي الذي تتم هذه القضية على يديه ومعرفة الظروف التي تحدث فيها هذه الأمور، ومدى ارتباطها بقدرة الله التي لا تقف عند حد.

فإذا لم تكن هذه الجوانب معروفة عند السامع، فلا يمكن له أن يفهم طبيعة المعجزة إلا على أساس أنها من الأساطير التي تتعلق بها الأديان لخداع السذج والبسطاء من الناس وبكلمة واحدة: أن على الداعية والمبلغ أن يفكر، قبل أن يقوم بواجب الدعوة والتبليغ، بأن من الممكن أن يكون المجلس الذي يتحدث فيه مشتملاً على مختلف المراتب والدرجات في الإيمان، ليجعل حديثه منسجماً مع الخط المشترك بين هذه المراتب لئلا يفاجىء بالانكار بادىء ذي بدء.

وقد ورد في بعض الأحاديث «ما مضمونه» «لا تحدث بما تتسابق العقول إلى تكذيبه». وفي الحديث النبوي الشريف:

«إنَّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم». وفي ذلك إشارة إلى طبيعة المضمون والشكل والعرض...

بعض النماذج التطبيقية للقاعدة:

وقد نلاحظ في الأحاديث التي تتحدث عن سيرة النبي محمد ﷺ أنه كان يدرس عقلية الشخص الذي يريد هدايته وارشاده ويتعرف إلى ظروفه، وإلى طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه، والجماعات الذين يرتبط بهم، والعادات التي يعتادها، ثم يعطيه التوجيه بالمقدار الذي ينسجم مع هذه الأمور جميعاً، وهذه بعض النماذج الحية من هذه السيرة العظيمة:

أ ـ ففي بعض الأحاديث المروية في سيرته: أن شخصاً جاء إلى النبي ﷺ وقال له: إني لا أستطيع القيام بأداء الصلوات الخمس، ولكني أستطيع الالتزام باداء ركعتين في اليوم. فما كان من النبي ﷺ فيما يقول الحديث ـ إلا أن وافق معه على ذلك.. ومضى الرجل في أداء الركعتين كل يوم، حتى ذاق حلاوة الصلاة، وانسجم مع أَجوائها الروحية وعرف قيمتها وفائدتها، فرجع إلى الصلوات الخمس، يؤديها بكل اخلاص وخشوع.. فما هو السر في ذلك كله إننا نحسب أن النبي قد أدرك ببصيرته النافذة، ونظره الثاقب، إن هذا الإنسان لا يعرف قيمة الصلاة، ولا يفهم معناها، ولذا فهو ينظر إليها نظرته إلى الأعباء الثقيلة عليه التي لا يؤديها إلا كما يؤدي الأشياء المفروضة عليه من خارج ذاته دون إرادة أو رغبة، ولذا فقد حاول التخفيف من هذا العبء، مهما أمكن بهذه الطريقة، ولاحظ النبي ﷺ ازاء هذا الواقع ـ أنه إن لم يوافق على التخفيف في المرحلة الأولى، فسوف لن يربح

شيئاً من هذا الرجل، ولن يكون أمره بالصلوات الخمس شيئاً عملياً على كل حال.

فأراد ﷺ أن يجعله يعيش أجواء الصلاة وروحانيتها، بعيداً عن الشعور بالثقل والتعب فرضي منه بما طلب ليضع قدمه على أول الطريق، فيعرف ما في الدرب من ألوان المتع الروحية، ليسير فيه طواعية واختياراً دون ضغطٍ أو اكراه.

وهكذا رأينا النتيجة التي قدرها النبي ﷺ منسجمة مع الغاية الطبيعية لهذا الأسلوب الرائع الحكيم. أما الفكرة التي نستطيع استفادتها من هذا الحديث، فهي: أن على الداعية والمبلّغ، أن يستعمل أفضل الأساليب وأقربها للسير مع الشخص الذي يدعو نحو بداية الطريق ليطلع على ما فيه من خير وراحة وطمأنينة فيسعى إليه بعد ذلك بنفسه.

وربما نجد في السيرة النبوية الشريفة بعض الأحاديث التي تدلنا على المرونة التي تلاحظ وتدرس طبيعة المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان، في اعطائه بعض التعاليم دون بعض، تبعاً للأهمية التي تتميز بها، أو للنتائج الكبيرة التي تنتج منها، أو للشمول لكثير من الأعمال المرتبطة بمختلف جوانب التشريع، مما يجعل من ربط الإنسان بتشريع معين عملية ربط بكثير من التشريعات الأخرى، كما نلاحظ ذلك في القصة التالية التي رواها في الكافي ـ عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: قال رجل للنبي ﷺ يا رسول الله علمني قال: اذهب ولا تغضب فقال الرجل قد اكتفيت بذلك فمضى إلى أهله، فإذا بين قومه حرب قد قاموا صفوفاً ولبسوا السلاح، فلما رأى ذلك لبس سلاحه ثم قام معهم، ثم ذكر قول رسول الله ﷺ لا تغضب، فرمى السلاح، ثم جاء يمشي إلى القوم الذين هم عدو قومه، فقال: يا هؤلاء ما كانت لكم جراحة أو قتل أو ضرب، فعليَّ في مالي وأنا أوفيكموه

فقال القوم: فما كان لنا فهو لكم نحن أولى بذلك منكم، قال: فاصطلح القوم وذهب الغضب»[١].

فكيف اختار النبي ﷺ هذه الوصية؟ وكيف تمتد هذه الوصية إلى مجالات متنوعة ترتبط بعدة جوانب من التشريعات التحريمية وغيرها؟.

ربما كان السر في ذلك كله، أن النبي ﷺ قد لاحظ طبيعة المجتمع العشائري الذي يخضع لتقاليد العصبية التي تثيرها الكلمة الحادة، وتهزها اللحظة الخاطفة، وعرف حاجة الإنسان الذي يعيش في هذا المجتمع إلى أن يملك أعصابه، ليتصرف بهدوء بعيداً عن نوازع العصبية ومواقفها فاختار لهذا الإنسان وصية ترك الغضب لأنها تمثل الضمانة الوحيدة التي يستطيع معها الإنسان تفادي كل آثار العصبية من القتل والنهب والاعتداء على الآخرين وغير ذلك من الأمور التي حرّمها الله وأراد سلامة المجتمع منها في كل مجالاته وأوضاعه. وقد رأينا كيف استطاعت هذه الوصية أن تؤتي ثمارها في اللحظات الحاسمة التي عاشها هذا الإنسان مع قومه وأعداءهم في أشد المواقف اثارة للغضب، وهو موقف المعركة التي تتفجر فيها الأحقاد بشكل غير معقول.

وقد اكتفى النبي ﷺ بهذه الوصية، ولم يضف إليها شيئاً لأنه رأى ـ بثاقب نظره ـ أن العصبية هي المشكلة الأولى في المجتمع الذي يعيش فيه هذا الرجل، بحيث لو تفادى آثارها ونتائجها لاستطاع أن يجعل من نفسه إنساناً مستقيماً طيباً، لفقدان المشاكل الأخرى التي تثير الإنسان نحو الشر وتقوده نحو الهاوية بالمستوى الذي يرتفع إلى مستوى هذه المشكلة الكبيرة.

(١) الكافي (هامش مرآة العقول) ج ٢، ص ٢٨٥.

وهكذا استطاعت هذه القضية أن تعطينا درساً في مراعاة الظروف الطبيعية التي يعيشها الإنسان أو المجتمع الذي يراد اصلاحه، وملاحظة أكثر المشاكل تعقيداً والحاحاً على حياة الشخص، لمعالجتها، بالدرجة الأولى، واعطائها الأفضلية في التوجيه من أجل أن يكسب الإنسان بممارسة عملية المقاومة فيها قوة يستطيع أن يتغلب معها على بقية المشاكل بسهولة.

ج ـ قد يتساءل البعض:

لماذا يراد منا أن نتدرج في التبليغ وملاحظة ظروف الأشخاص ودراسة مستوى عقيدتهم وإيمانهم، إذا كانوا مسلمين يؤمنون بالإسلام ونظمه فقد يكون لهذا التدرج مبرر في نطاق العمل الذي يتحرك في وسط غير إسلامي، نظراً لابتعاده عن واقع العقيدة الإسلامية وروحيتها، أما المسلمون فإنهم يؤمنون بكل تشريع أنزله الله على قلب النبي محمد ﷺ فلا نحتاج معهم إلى أية عملية «ديبلوماسية» في هذا المجال.

ولكن.. فات هؤلاء أننا نشعر بالحاجة إلى ذلك حتى في مجتمع المسلمين الذي يعيش معنا الآن من دون أن يعني مفاهيم الإسلام وايحاءاتها، وإنما يتقبله بشكل تقليدي، لا يتصل بالمضمون من قريب أو من بعيد بل ربما يتعدى ذلك إلى اعتقاده بعض المفاهيم الخاطئة والأفكار المنحرفة باسم الدين، الأمر الذي يجعل عملية مخاطبته أو التحدث معه في شؤون العقيدة ما داما يشتركان في طبيعة الانحراف العملي عن الخط المستقيم.؟ ولذلك نجد من الخطأ الكبير عرض مفاهيم الإسلام جملة واحدة أمام أبنائنا وبناتنا الذين عاشوا في أجواء غير إسلامية أو تبنوا بعض الأفكار المنحرفة، أو استسلموا لعادات محببة إلى نفوسهم، محرمة في الشريعة، وذلك كالتحدث عن تحريم الغناء لمن تعلقت نفسه به حتى أصبح جزءاً من مزاجه أو الحديث

عن موضوع حلق اللحية وتحريمها في بعض الاجتهادات الفقهية، مع الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع. كانت هذه العادة جزءاً من تقاليده العامة التي يصعب على الإنسان التمرد عليها، أوالحديث عن حرمة لبس الخاتم المصنوع من الذهب، مع الأفراد الذين اعتادوا ذلك في أوضاعهم الخاصة أو غير ذلك من الأحكام الشرعية الثابتة في الشريعة بشكل قطعي، أو بشكل راجح يتبناه أكثر الفقهاء والمسلمين ولكنها تنتج ردود فعل عكسية في حالة التركيز عليها بشكل ابتدائي مع الأفراد أو الجماعات التي لم تلتق بروح الإيمان، ولم تنفتح على القواعد العامة التي ارتكزت عليها الأحكام الشرعية مما يجعلها وحدة مترابطة في نتائجها وآثارها لأن ذلك قد يسبب لهم الارتباك والضلال، وينتهي بهم إلى الجحود والنكران لأنها تتحدى الإنسان في بداية الموقف، في أكثر الأشياء الحاحاً على مزاجه، أو في أصعب الأمور تعقيداً في موضوع الاجتناب عنه والترك له، في الوقت الذي لم ينفتح فيه الإنسان على المعاني الكبيرة والأجواء الخيرة التي تدعوه إلى التضحية، أو تبرر له احتمال المشقة والألم والعذاب النفسي..

وقد تنبه المشركون من قريش إلى هذه النقطة الأساسية من الناحية النفسية، فاستخدموا هذا الأسلوب الذي يختار من الدعوة، أشد تشريعاتها صعوبة في التنفيذ. على النفس، لتروضه تلقائياً، عندما تكون ردود الفعل جاهزة للتحرك والرفض لدى أول كلمة تتحدث عن الموضوع نظراً إلى الفراغ النفسي من المعاني الروحية التي تستطيع مجابهة كل ردود الفعل ونتائجه وقد نجحوا في استعماله مع أحد الشعراء الكبار في الجاهلية وهو الشاعر الأعشى، الذي عزم على القدوم إلى المدينة ليعلن إسلامه على يدالنبي محمد ﷺ بعد أن نظم قصيدة في مدحه أولها:

ألـم تكتحـل عينـاك ليلـة أرمـدا   وعـادك مـا عـاد السليـم المسهـدا

وفيها يقول لناقته:

فـآليـت لا أرثـي لهـا مـن كـلالـة ولا منحفـاً حتـى تـلاقـي محمـدا
نبـي يـرى مـا لا تـرون وذكـره أغـار لعمـري فـي البـلاد وأنجـدا

فبلغ خبره قريشاً فترصدوه على طريقه وقالوا هذا صناجة العرب ما مدح أحداً قط إلا رفع قدره فلما ورد عليهم قالوا أين أردت يا أبا نصير، قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم على يديه قالوا: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك وكلها بك رافق ولك موافق قال: وما هن، قال أبو سفيان ابن حرب: الزنا قال الأعشى: لقد تركني الزنا وما تركته، قال: ثم ماذا؟ قال: القمار قال: لعلي إن لقيته أصبت منه عوضاً عن القمار. قال ثم ماذا قال: الربا قال الأعشى: ما دنت وما أدنت قط. قال ثم ماذا قال: الخمر قال: أوه ارجع إلى صبابة بقيت لي في المهراس فاشربها، قال أبو سفيان فهل لك في شيء خير مما هممت به قال: وما هو قال أبو سفيان نحن وهو في هدنة فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى البلد سنتك هذه حتى ننظر ما يصير إليه أمرنا فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفاً وإن ظهر علينا أتيته. قال الأعشى: ما أكره ذلك، فأخذها فلما كان بقاع منفوخة رماه بعيره فقتله[1].

فإننا نلاحظ أنهم حاولوا أن يثيروا ردود الفعل الذاتية والمزاجية، فذكروا له المحرمات دون أن تثير لديه شيئاً حتى إذا انتهوا إلى الخمر التي ترتبط بمزاجه كشخص وكشاعر، استطاعوا أن ينحرفوا به عن وجهه فيعرضوا عليه شروط الرجوع عن غايته لأنه لم ينطلق بعد، من الإيمان العميق بالإسلام، ليدفعه ذلك إلى الانسجام مع فكرة تحريم الخمر، وهذا ما يدلنا دلالة واضحة على قيمة هذا الجانب من الأسلوب من الناحية النفسية.

(١) محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ج ٦ ص ٤٦٤.

الدعوة إلى الدين في مفهومه الأصيل الشامل

خلفيّات الشعارات والمفاهيم المضادة

لا تزال فئات كثيرة من الأجيال المعاصرة، تحمل فكرة مشوهة عن الدين ورجاله انطلاقاً من مفاهيم مغلوطة تكونت لديها من خلال الأوضاع السيئة التي عاشتها التجربة الدينية للحكم، وللتحرك الاجتماعي والسياسي، والأساليب المنحرفة التي اتبعتها المؤسسات الدينية في كثير من بلدان العالم، والمفاهيم الضيقة التي انطلقت في عصور التخلف الفكري من خلال استغلال بعض النصوص الدينية القلقة، التي تحمل أكثر من وجه، والتركيز على سلوك بعض علماء الدين الذي يوحي بالضيق والارتباك.. وغير ذلك من الأسباب التي أريد لها أن تشارك في اهتزاز صورة الدين في نظر الإنسان وفي وعيه لوظيفته العملية في الحياة.

واستطاعت هذه المفاهيم المغلوطة التي تكونت لديها من خلال ذلك، أن تحدد للدين دوره في زاوية ضيقة من الحياة في ظل شعار «فصل الدين عن الدولة» أو تلغي دوره من الحياة أساساً، لأنه لم ينطلق إلى الواقع من خلال المعاني التي تصنع القوة والحركة والتقدم، بل كانت خطواته في اتجاه الضعف والجمود والتأخر، في ظل شعار «أن الدين أفيون الشعوب» أو «الدين ضد العلم» أو الدين يساوي الرجعية.

وبدأت الخطة التنفيذية في تحويل ذلك كله إلى واقع عملي يحصر الدين في دائرة معينة، ويحبسه في نطاق ضيق، يجتر فيه «ممثلوه الرسميون» أنفسهم وثقافتهم النظرية بعيداً عن التجارب العملية الرائدة التي تغني الواقع والمضمون، ثم امتدت الخطة في أذهان الطلائع الفتية من الأجيال، لتجعل من هذا كله فكرة بديهية لا مجال فيها للمناقشة والجدل تماماً كالقضايا المسلمة التي تحمل قياساتها معها، كما يقول المنطقيون.

وقد ساعد على تعميق الفكرة في وعي الناس، بالإضافة إلى ما تقدم ذكره ـ أن الخلافات الدينية المذهبية قد اتخذت «الطابع الطائفي» الذي يجعل من الدين مؤسسة بشرية، فارغة من القيم الكبيرة، ومملوءة بكل معاني الحقد والبغضاء والأنانية والمصالح الذاتية الضيقة.. ككل التجمعات البشرية الأخرى التي تتجمع على أساس عنصري أو اقليمي أو غير ذلك في واقع يأخذ جانب الإطار في صراعه، ويترك الصورة الرائعة، بعد عملية التشويه ـ صريعة تحت الأقدام، يمرغون قداستها في الوحول في ممارستهم، ويقاتلون باسمها في شعاراتهم، مما جعل من الدين عقدة الأمة التي تبحث عن حياتها في ظل نظام تحكمه شريعة القيم، لا شريعة المصالح والأنانيات الضيقة التي تختبىء خلف جدار سميك من قيم الحق التي لا تعني لها شيئاً، إلا كما يعني الطبل للمتحلقين حوله والمتجمعين لديه.. وكانت الحروب الطائفية التي يثيرها الاستعمار بأساليبه الجهنمية، ويتحلق حولها البسطاء والجهلة، ويسارع إليها المثقفون والعارفون ليركبوا ـ في رحلتها ـ موجة اللهب، إلى حيث يتقدمون الصفوف ليطرحوا أنفسهم كقادة وزعماء.. ويحمل الدين وزر ذلك كله من دون أساس واقعي سليم... إن ذلك كله استطاع أن يجعل من الدين شيئاً لا معنى له في حياة الناس وقضاياهم المصيرية، لأنه من القضايا التي تدخل في خصوصياتهم الشخصية، من حيث

هي علاقة بين الإنسان وربه تماماً كأية علاقة أخرى تربط الإنسان بالآخرين.

وقد كان لهذه المفاهيم المغلوطة، الدور الكبير في الوقوف بوجه التقدم الديني في حركة الواقع المعاصر، وإبعاده الإنسان عن السير بعيداً في هذا المجال، إلى المستوى الذي أصبح الموضوع مثيراً للدهشة والاستغراب، أو للقرف والاشمئزاز، كأي أمر يطرح في غير موضعه، أو يثار في غير أجوائه.

ولعل هذه المشكلة التي تواجه العمل الإسلامي، تعتبر من أكثر المشاكل صعوبة في حركة الإسلام وتقدمه، لأنها لا تتصل بالجانب الفكري فحسب ليصار إلى مناقشتها فكرياً كما في كثير من المشاكل الفكرية، بل تتصل بأبعادها عن الساحة الفكرية رأساً بحيث لم يعد الحديث عنها يثير أي شيء ذي بال، لأنها دخلت في دائرة (اللامبالاة) وأصبحت خارج مجال الفكر والرؤية وقد زاد الخطورة تعاظماً، أن هذا الاتجاه لم يسيطر على ذهنية الأفراد والجماعات البعيدة عن أجواء الدين، بل سيطر على المتدينين من علماء تقليديين، ومؤمنين طيبين، فأصبحوا ينظرون إلى العمل السياسي الحركي نظرتهم إلى جريمة كبيرة تهز الدين وتطعنه في الصميم، وتحركت خطواتهم لاعلان الحرب على الفكرة ورجالها حتى انتهى الأمر بالبعض منهم، أنهم يتسامحون مع الملحدين الذين يدعون إلى نظام الحادي، ولا يتسامحون مع المسلمين الذين يدعون إلى نظام إسلامي لأن أولئك يحاربون الإسلام من خارج. أما هؤلاء فيفجرونه ـ بزعمهم ـ من الداخل، وهذا منتهى الخطورة.

٢ ـ الحاجة إلى ملاحقة هذه الأفكار ضمن خطة مدروسة:

إن على العاملين في سبيل الإسلام أن يواجهوا ذلك كله في جبهتين:

الجبهة الأولى تتجه إلى الأجيال المعاصرة لتخرجهم من أجواء «اللامبالاة» في حركة اثارة فكرية تمثل الصدمة المفاجئة، التي تهز الأعماق هزة الوعي فيتحول الموقف. إلى خلق الأجواء الجديدة التي توحي بالتفكير الموافق إلى جانب التفكير المضاد، ليبدأ الصراع فيهز الداخل من جديد، وتتلاحق الأفكار والحقائق في وعيه ووجدانه، وتتحول إلى جانب التجربة العملية التي تجسد الإسلام في حلوله الجزئية لبعض مشاكل الواقع لتجد هذه الأجيال ـ على الطبيعة ـ كيف يمكن للإسلام أن يخطو خطواته الرائدة في بعض مظاهر الواقع، كدليل على قدرته على السير بعيداً بالخطة الشاملة للواقع كله في نهاية المطاف.

الجبهة الثانية. . . وهي التي تتوجه إلى المؤمنين ليفهموا دينهم الحق، كما هو، بعيداً عن عهود التخلف للعودة إلى الجذور الضاربة في أعماق الأرض، وإلى الينابيع المتدفقة بالماء الصافي الزلال، فإننا سنجد من خلال التجارب الإسلامية الرائدة في العهد النبوي وخلفه، إن التجربة الجديدة التي ندعوإليها، ليست هي التجربة الأولى في الميدان. . بل هي امتداد للتجارب السابقة المتصلة الحلقات. . وسنفتح على النصوص الدينية في الكتاب والسنة، فنتعرف إلى النظام الإسلامي الواسع الذي يتسع لجميع حاجات الإنسان ومشاكله، ويلتقي معه بأحلامه وآلامه، ويتنوع في أوضاعه القانونية التي تحدد للإنسان مسيرته في أكثر من اتجاه فلا تترك له أي فراغ قانوني ليشعر معه بالحاجة إلى استعارة قوانين أخرى، أو استجداء بعض المبادىء والمفاهيم الأجنبية. . لنستطيع من خلال ذلك تطويق جميع السلبيات المنبثقة من هذا الموقف أو ذاك.

وقد تدعو الضرورة الملحة إلى ملاحقة الأفكار الأوروبية التي ساهمت في نشوء الفكرة المشوهة عن الدين، وتحولت إلى شعارات تقدمية ترتبط

بفكرة «علمانية الدولة» و «حرية الفكر» و «الخروج بالإنسان من أجواء الأسطورة إلى أجواء العلم» فتبدأ القضية بتفريغ هذه المفاهيم من سحر الغموض الذي يحيط بها فيلفها في أجواء سحرية حالمة توزع على الناس الأحلام الضبابية التي تحملهم إلى عالم الفردوس الأعلى في آفاق بعيدة عن الواقع.. فإذا استطعنا الخروج بها من اطار القضايا الضبابية، إلى اطار القضايا الواضحة التي نضع فيها النقاط على الحروف، بطريقة تحليلية محددة تخضع فيها المفاهيم لمقارنة بين طبيعة هذه الأفكار وبين طبيعة الأفكار الأخرى في واقع الدين وأصالته حيث لا تعيش المقارنة بين مفاهيم غائمة ومفاهيم غائمة أخرى.. بل تعيش ضمن اطار محدد يحدد الصورة هنا، كما يحددها هناك.

فإذا استقام لنا ذلك كله بدأنا المرحلة الثانية التي تضع هذه الأفكار في ظروفها الطبيعية التي ولدت فيها وانطلقت معها، ليفهم الناس أن الإسلام لا يعاني من عقدة الظروف غير الطبيعية التي حكمت هذه المفاهيم، لأن له موقفاً لا يبتعد عن مصلحة الإنسان وتطلعاته التقدمية، فقد أطلق شريعته الكاملة التي تتصل بكل جوانب الحياة من دون أن يترك فراغاً تشريعياً في أي واحد منها، ولذا فإن فكرة «العلمانية» ليست بذات موضوع، أما فكرة فصل الدين عن الدولة فلا معنى لها في الإسلام، لأن الإسلام كنظام لا يبتعد عن فكرة الدولة في تشريعه، بل عمل ـ في تاريخه ـ على تجسيدها واقعاً عملياً في بضع مئات من السنين.. أما حرية الفكر، فإن الإسلام ليس بدعاً من الأفكار والمبادىء الملتزمة التي تضع الحرية في اطار مصلحة الإنسان، لا في اطار مصلحة أعداءه وأعداء الحرية.. أما العلم.. فقد اعتبره الإسلام طريق الفكر للوصول إلى الله.. وهكذا يظل العاملون في حركة دائبة دائمة تتلمس الثغرات التي يفتحها هؤلاء، وأولئك لينفذوا منها إلى التشكيك في الإسلام والاساءة إلى فكره وشريعته، في عملية ملاحقة مستمرة، لنخرج من

ذلك كله بتحطيم الحواجز الاجتماعية والسياسية والتقدمية التي تحول بين الإسلام وبين الأجيال الطالعة، لننطلق بالإسلام بعيداً عن كل ما يقيد حريته أو يعطل مسيرته.

إننا نشعر بالحاجة إلى ملاحقة هذه الأفكار في ظل خطة مدروسة رائدة لنملأ أذهان أبناء جيلنا وعقولهم بالأفكار الواقعية المضادة، لنفسح المجال للحق أن يزحف إلى ساحة المعركة السياسية والاجتماعية، ويقتحم على الباطل أوكاره ومصادره، بدلاً من أن يبقى منكمشاً في الزاوية الضيقة التي يريدون أن يحبسوه فيها.

وقد يقتضينا ذلك، أن نطلق الممارسات الإسلامية في أبعادها الاجتماعية الواسعة، انطلاقاً من التجمعات الإسلامية، في حرّية الفكر، وفي حركة العلم الصاعدة في البيئة الإسلامية، وفي المشاركة الواعية الحية في السياسة العامة في البلاد الإسلامية، على أساس المفاهيم الإسلامية السياسية الحقة، فإننا نجد في عملية الممارسة أكبر دليل على خطأ تلك الأفكار المنحرفة أمام العالم، وأفضل شاهد على ما يحتويه الإسلام في نظامه وعقيدته من مرونة وعمق وامتداد.

● □ ● □ ●

الممارسات الدينية
في الدعوة أمام علامات الاستفهام

تثار في كثير من الحالات بعض المواقف التي يقفها العاملون في الحقل الديني، فترسم عليها علامات الاستفهام باعتبارها لا تمثل المواقف الإسلامية الصحيحة، بل تشوه صورتها ـ بدلاً من ذلك ـ في نظر الناس، لأن الذين يجسدونها يمثلون الإسلام رسمياً واجتماعياً. . ولا بد لنا من ملاحقتها وملاحظتها لنضع المواقف في اطارها الإسلامي الصحيح كسبيل من سبل توضيح الصورة وذلك في عدة ملاحظات:

١ ـ في الاطار الاجتماعي والأخلاقي:

. . قد يتحرك علماء الدين في مجابهة الانحراف الاجتماعي والأخلاقي، فنراهم يقيمون الدنيا ويقعدونها في الثورة على القمار وشرب الخمر، والزنا، والخلاعة في الملابس، والمظاهر والأفلام والصور والصحف وغير ذلك. ويركزون كثيراً على الميوعة والانحلال لدى الشباب والفتيات ويملأون الدنيا خطباً ومواعظاً تحاسب الشباب على ما يستحدثون من أزياء وأساليب في ارسال شعورهم، وتضييق ثيابهم وتهاجم النساء على الأزياء التي تبتدعها دور الأزياء، مما يتنافى مع الأخلاق الإسلامية العالية لأنها تمهد السبيل إلى الانحراف. . وهذا كله خير لا كلام فيه ولا نقاش من

حيث المبدأ، وإن كان لنا بعض التحفظ في الطريقة التي تعالج فيها هذه القضايا، والأسلوب الذي يستخدم في حياة الناس.

ولكن هل الأخلاق الإسلامية هي أخلاق جنس، وهل الانحراف الأخلاقي، يتمثل بالخمر والقمار.. إذا.. فأين قضايا الرشوة في الحكم، والغش في المعاملة والرأي والكلمة، وأين قضايا السرقة في حياة الفرد على مستوى ما يملك الأفراد من مال وفي حياة المجتمع في الملكيات العامة التي ترعاها الدولة ويسرقها المسؤولون، وأين قضايا الظلم الاجتماعي في داخل الأسرة في ظلم الرجل للمرأة، أو ظلم المرأة للرجل، وأين قضايا الفساد في العلاقات الاجتماعية العامة والخاصة، وأين الجرائم الاجتماعية كالقتل بغير حق، والجرح بغير حق، والبغي في الناس بغير حق، وأين قضايا التحلل الاجتماعي الذي يتمثل في أساليب الفتنة والكذب والغيبة ونقض العهد والحكم بغير حق.. ماذا عن ذلك كله، وعن غير ذلك من المشاكل العامة والخاصة التي تجسد الانحراف الأخلاقي في العلاقات المالية والقضائية والاجتماعية... وتكر علامات الاستفهام لتشمل كل مظاهر الانحراف الموجودة في الحياة، فتقرر حقيقة إسلامية خالدة، وهي أننا نعرف أن الأخلاق لا تنحصر في دائرة معينة في التشريع الإسلاميّ بل تشمل الإسلام كله.. بعد أن أطلق النبي محمد ﷺ كلمته الخالدة «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق..» فكيف حدد التوجيه الوعظي الأهمية في هذا الجانب دون بقية الجوانب مع أننا نعرف خطورة بعض الانحرافات التي ألمحنا إليها، وتأثيرها الكبير على حياة المجتمع وسلامته ولهذا صنف الفقهاء المسلمون بعضها في نطاق الكبائر التي يستحق فاعلها دخول النار، كما صنفوا البعض الآخر في نطاق الصغائر التي لن تكون كبيرة إلا إذا أصر فاعلها عليها، لأن الاصرار على الصغيرة كبيرة في مفهوم الفقه الإسلامي ولكن المفارقة التي نواجهها في سلوك بعض الوعاظ، هو أنه يثير الجو كله أمام كشف المرأة شعرها، بينما لا

يحرك ساكناً أمام قضايا الغيبة والنميمة والظلم الاجتماعي والغش والتطفيف في الميزان والمكيال.. مما يؤدي إلى نتائج خطيرة في وعي المؤمنين الساذجين للمفهوم في الإسلام انسجاماً مع طبيعة التوجيه الوعظي الذي يقدم إليهم، فيصنع لهم تصوراتهم عن الأخلاق على طريقته.. وينعكس ذلك على ممارساتهم العملية ازاء الواقع المعاش.

ولا تقتصر خطورة هذا الأسلوب على تأثيره في وجدان المؤمنين الطيبين، بل يتعداه إلى التصور العام الذي يأخذه الناس عن المفهوم الديني للأخلاق ليحصروه، أو ليحصروا أولوياته، في هذا النطاق المحدود الذي لا يتعدى أخلاقيات الجنس، وأخلاقية الشرب واللعب، فيما يلاحظونه من توجيهات وممارسات واحتجاجات، قد يلفت النظر إن الاحتجاج الذي يقدم إلى السلطات على الفساد الأخلاقي، لا يتعدى جانب الجنس.. ولا يتعرض للجوانب الاجتماعية الأخرى، فلم نلاحظ هناك احتجاجاً واحداً قدم إلى السلطة من قبل الهيئات الدينية ضد عمليات الغش والسرقة والاحتكار، في الوقت الذي تقدم فيه الاحتجاجات الكثيرة ضد فلم خلاعي، أو صورة خليعة أو ما يشبه ذلك، ونحن لا نريد أن نقلل من أهمية الجنس في الفساد الأخلاقي، بل أن الإسلام قد اعتبره في الدرجة الكبيرة من الخطورة انطلاقاً من حديث النبي ﷺ الذي يشرح فيه قيمة الزواج وأهميته، ويعتبر المتزوج محرزاً لنصف دينه أو ثلثي دينه على اختلاف الروايات في ذلك، ولكننا نريد أن نؤكّد على أهمية الجوانب الأخرى وقيمتها في البناء الأخلاقي للفرد والمجتمع، واعتبار الجميع كلاً واحداً يمثل الصورة الحقيقية للإسلام في شموله واتساعه.

٢ ـ في الإطار السياسي:

تطرح القضية التالية، أننا نعرف أن الإسلام ليس رأسمالياً بالمعنى

السياسي والاقتصادي للكلمة، وليس اشتراكياً بما تمثله هذه الكلمة من صيغة فكرية وقانونية محددة، وليس اقطاعياً بما تمثله هذه الكلمة من نظام اجتماعي واقتصادي في التزاماته وأوضاعه.. بل الإسلام يختلف عنها من حيث المبدأ ومن حيث التفاصيل، ولكننا نلاحظ أن هناك حملة شديدة إلى مستوى القسوة والتطرف ضد الاشتراكية والمعسكر الاشتراكي في جميع أفكاره وممارساته، بينما لا نجد مثل هذه الحملة أو بعضاً منها ولو في المستوى البسيط جداً ضد الرأسمالية والاقطاعية وأفكارهما وممارساتهما..
فما هو تفسير ذلك كله؟ ربما يفسر البعض ذلك أن المذهب الاشتراكي يستند إلى القاعدة الفلسفية المادية الماركسيّة، التي تناقض التفكير الديني أساساً، وتعتبره مخدراً للشعوب، ومسألة لا أساس لها في المجال الفكري والعملي، وبذلك كان الجانب الفلسفي المرتبط بالعقيدة يقف بقوة إلى الجانب الاقتصادي والاجتماعي، بينما لا تخضع الرأسمالية والاقطاعية إلى فلسفة شاملة للكون والحياة تضاد الدين أو تناقضه، فليس هناك إلا الجانب الاقتصادي.. وفي هذا الاطار كان التأكيد على المسألة الفلسفية التي تتحرك في حركة الصراع بين الفكر المادي والفكر الديني، بعيداً عن أي نتائج أخرى، أو جوانب أخرى. ولكننا نلاحظ، أن التشهير يتجه إلى الجانب الاقتصادي بالمستوى الذي يتجه إلى الجانب الفلسفي إن لم يكن بمستوى أكبر، مما يجعل علامة الاستفهام مطروحة بدون جواب.. فإننا لا نمانع في تركيز الحملة وتعميقها على الالحاد والمادية، بكل ألوانها، لأن ذلك هو رسالة الدين، كفكر يرتكز على الإيمان بوجود الله وتوحيده، وقضيته الأولى، كخط عريض، يفقد معناه إذا فقد الانطلاق منه، ولكننا نتساءَل عن السبب في اغفال الجوانب الأخرى في ممارسات النظامين وتفكيرهما، ما دمنا لم نغفل ممارسة هذا النظام وطريقته في توزيع الثروة ووسائل الانتاج أننا نسجل ذلك، كظاهرة عامة، لأننا بدأنا نقرأ في الثقافة الإسلامية المعاصرة

المرتكزة على الطبيعة الحركية للإسلام هذا النوع من النقد الموضوعي لجميع الأنظمة المخالفة للإسلام من أجل ايضاح الصورة الحقيقية للإسلام من جهة وللعمل الإسلامي من جهة أخرى.

إننا نسجل هذه الظاهرة العامة في الأساليب العامة للعاملين في الحقل الديني، كنقطة ضعف في حركة العمل، لأن لها تأثيراً سلبياً على نظرة الآخرين إليه حينما يثار الضباب حوله كواجهة من واجهات النظام الرأسمالي والاقطاعي، ظلماً وعدواناً، انطلاقاً من أسلوب الممارسة الخاطىء من قبل اتباعه.. ونأمل أن تتضافر الجهود على تغيير هذه الظاهرة، إلى ظاهرة جديدة تعالج فيها قضية النظام الإسلامي بالأسلوب المقارن الذي لا يغفل أي نظام مضاد، بكل حسناته وسيئاته، بل يعرض الجميع على حد سواء.

٣ ـ في الاطار النضالي أو الجهادي:

تطرح القضية التالية: إننا نعرف من دراسة التشريع الإسلامي، أن الإسلام ليس دين عبادة ينعزل فيه الإنسان عن أحداث الحياة وأوضاعها، بل هو دين حياة متحركة أبداً في الانطلاق نحو الأفضل، ودين جهاد دائم مستمر في كل الجبهات، من أجل تحقيق معنى العزة والكرامة والتحرر من كل أنواع الاستعمار والاستعباد.. ولكننا نلاحظ أن الجهاد لا يشغل جانباً كبيراً من التفكير التشريعي لدى الدعاة المسلمين، أو العاملين في الحقل الديني، بل أن القضية تبدو في جانب كبير من الخطورة حينما نلاحظ وقوف الكثيرين من هؤلاء العاملين ضد إرادة التغيير في المجتمع، أو ضد حركة الثورة على النظام الفاسد، أو على القوى الشريرة في العالم، فيمثلون الاحتياطي الكبير للثورة المضادة، أو للفئات المساندة للجماعات المحافظة أو المساندة للنظام البالي، وبذلك يتحول المؤمنون إلى عناصر خائفة مترددة أمام عوامل

التغيير، ويتحول الإيمان إلى عنصر جمود في الواقع بدلاً من أن يكون عنصر حركة ودفع إلى الأمام.

أما ملاحظتنا على ذلك، فإننا لا نوافق هؤلاء على الحكم الذي يحاول اعتبار ذلك ظاهرة دينية معاصرة فإننا نعرف أن للعاملين في الحقل الديني دوراً كبيراً رائداً في كثير من الثورات المعاصرة، ونعرف ـ إلى جانب ذلك ـ مساندة الكثيرين منهم للثورات التحررية، أو الاجتماعية.. ولكن المشكلة التي تطرح نفسها في الساحة هي أن الدور الفاعل لأي موقف تغييري، أو اصلاحي، أو ثوري، لا يستطيع أن يفرض نفسه إلا في نطاق الأسلوب التنظيمي السياسي أو الاجتماعي، لأن ذلك هو سبيل تحويل أفراد المجتمع إلى قوة اجتماعية أو سياسية.. إذ بدون ذلك تتحول المواقف إلى أعمال فردية متفرقة لا تستطيع أن تتقدّم للعمل إلا الشيء اليسير.. وهذا هو السر في امتناع البعض عن المشاركة الفعلية في الدفع الثوري، لأنه لا يملك القوة التنظيمية التي يحركها في اتجاه التغيير على صورة الإسلام ونظامه، ولا يتمكن من مساندة أو مساعدة القوى الأخرى التي لا تؤمن بالإسلام عقيدة ونظاماً، لأن ذلك يحول الموقف إلى دفع للثورة في اتجاه الباطل والانحراف، وهذا ما لا يمكن له الموافقة عليه، من خلال الاتجاه الذي يمثله أمام الآخرين.. ولكن يبقى لهؤلاء وعليهم أن يدفعوا المجتمع إلى اتباع الطريقة التنظيمية في العمل، ليستطيعوا دفع حركة التغيير من خلال ذلك في الحياة.

● □ ● □ ●

العمل بين النظرية والتطبيق

هناك نقطة أساسية لا بد من ملاحظتها في أسلوب العمل.

إننا نلاحظ أن الاتجاه الموجود في العمل هو محاولة رسم الخطوط العامة للإسلام في ذهنية الإنسان المسلم نحو المفاهيم الواسعة، والأهداف الكبرى للعقيدة كطريق من طرق تركيز العقيدة في حياته وايضاح المفاهيم في فكره، ولكن هناك نقصاً في هذا الاتجاه، وهو فقدانه لعنصر التدريب على ممارسة هذه المفاهيم في مجالها التطبيقي، واغفاله تحديد الوسيلة في الاتجاه نحو الغاية مما قد يؤدي إلى ضياع المسلم في حالات العمل ـ التي هي المجال الطبيعي للتنفيذ ـ بين الطرق المتعددة والمعالم المختلفة، لأن المبادىء المتنوعة قد تلتقي في مفاهيمها وأهدافها العامة ولكن الاختلاف الكبير يكمن في الوسائل التي تحقق الأهداف الكبيرة والتطبيقات التي تتجسد فيها المفاهيم العامة. وفي ظل هذه الحقيقة، قد يتخذ دعاة المبادىء الأخرى ذلك الغموض في الوسائل المطروحة سبيلاً للنفاذ إلى حياة إنساننا المسلم وعقيدته، فيندفعون إلى الخطوط الضائعة في ذهنه ويحاولون أن يرسموا مكانها الخطوط التي تسير عليها مبادئهم باعتبارها شيئاً لا يختلف مع الخطوط العامة للعقيدة.

وقد استطاع هذا الأسلوب العملي في الدعوة أن يحول الإسلام في

ذهنية المسلمين إلى مجرد أهداف تتسع لأكثر من وسيلة، ومفاهيم تنسجم مع أكثر من تطبيق، لأنه انطلق في حياتهم وتصوراتهم ـ من خلال تجارب بعض العاملين في الدعوة الدينية ـ إلى أفكار غائمة تبحث عن الوضوح في كل اتجاه، الأمر الذي جعل واقعنا فريسة سهلة للدعوات المضللة كنتيجة لفقدان القاعدة الفكرية الصلبة للمقاومة الذاتية الذي يؤدي إلى عدم الشعور بالخطر الآتي من الآخرين من خلال وسائلهم المختلفة مع وسائلنا في هذا المجال.

ولعل من أبرز الحالات التي نلاحظ فيها ضياع المسلم بين الوسيلة والهدف، أو المفهوم والتطبيق، هي حالة الضياع الفكري التي يتخبط فيها الكثيرون فيقبلون الخطوات العملية التي تسير فيها بعض المبادىء التي نختلف معها في قاعدة الفكر وأسلوب العمل وإن كنا نتفق معها في بعض الشعارات المطروحة في الساحة، كالاشتراكية... فقد تبناها بعض المفكرين أو العاملين في الحقل الإسلامي بحجة أن الإسلام يريد الخير لبني الإنسان ويدعو للعدالة الاجتماعية في الحياة كفكرة عامة في المجال العملي... ولكنها فكرة انحرفت تطبيقاتها في عقولنا عندما لم نستطع تقديم الغاية المرتبطة بالوسيلة بل تركنا الغاية تحت رحمة المستغلين الذين يعملون في المفاهيم، فلم نوضح ـ مثلاً ـ للناس أن العدالة الاجتماعية في الإسلام لا تتعارض مع الملكية الفردية بل ترفض انفلاتها إلى حد الاستغلال الفوضوي، أو الافساد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي أو الانطلاق من المصادر غير المشروعة، لتصب في الموارد غير المشروعة، ولم نبين لهم أن الإسلام لا يتفق مع الاشتراكية في أسلوب المصادرات والتأميم، كطريق من طرق السيطرة على طغيان الملكية الفردية، وغير ذلك من التشريعات الاقتصادية التي تجد الطريق الإسلامية في ممارسة الأهداف من أجل تحقيقها في حياة الإنسان في أقل قدر ممكن من السلبيات، أو بدون سلبيات أصلاً.

وربما كان من نتائج هذا الاتجاه الذي أخضع الغايات الكبيرة في الإسلام، لتجارب الآخرين في التطبيق هو أن الإنسان المعاصر أصبح يعتبر رفض التجربة الاشتراكية في دعوة أي مبدأ، دليلاً على إيمانه بالتجربة الرأسمالية لفقدان الحل الآخر للمشكلة في تصوراته العامة، وفي الواقع التطبيقي لحركة النظام الاقتصادي في الحياة، الأمر الذي جعل قضية مناقشة الفكر الاشتراكي مثلاً، تمثل ـ في نظر الكثيرين ـ مناقشة لأصل الفكرة العامة التي تعمل من أجل اقامة العدالة الاجتماعية في الأرض، إذ لا بديل لذلك في نظرهم إلا الفكرة التي تشجع استغلال الإنسان للإنسان في مجال استعمال الحرية التي يخضع لها النظام الرأسمالي في كل شيء، الأمر الذي أساء إلى التصور الإسلامي في مفهوم الكثيرين. . . لأننا لم نطرح النظرية الإسلامية في توزيع الثروة وفي ملكية وسائل الانتاج بشكل كامل شامل بل اقتصرت الدعوة على بعض الأفكار العامة غير المحددة بشكل واضح من جهة ـ وفي اطار ضيق لا يشمل كل المجالات الإسلامية في أجهزة الإعلام العامة والخاصة.

وربما كان من تأثير ذلك هو فقدان التركيز في التصور العملي لمفهوم العدالة في الحياة العامة في الإسلام. . فقد نلاحظ أننا نطرح فكرة العدالة في العلاقات الإنسانية من دون وضع النقاط على الحروف، لتحديد الخطوط الفاصلة بين وسائل الإسلام في تطبيق العدالة على أساس من النظرة الإسلامية الشاملة لقضايا الحياة. . مما جعل التصور العام ينحرف إلى السير بالعدالة في الأجواء العاطفية التي تقحم الحالات الشعورية في الحكم على عدالة أي تصرف أو عدم عدالته، فقد يجد بعض الناس من خلال هذا التصور المنحرف، في تشريع تعدد الزوجات أو في ممارسته لوناً من ألوان الخروج عن العدالة، لأن في ذلك اساءة إلى شعور المرأة، من دون نظر إلى الجوانب الواقعية التي تجعل من هذا التشريع مظهراً من مظاهر التوازن في ضغط

العلاقات الجنسية في اطار الرجل والمرأة، لأهمية الأسس التي تدعو إلى ذلك وتفرضه في الواقع.. وتتحول قضية العدالة، إلى اقرار هذا التشريع على أساس الضوابط الاقتصادية التي تدعو الرجل إلى العدالة في النفقة وفي الحقوق الزوجية العامة، بعيداً عن أي انفعال ذاتي يخرج عن دائرة العمل، ولا يبقى للمشاعر الخاصة أي دور في مفهوم العدالة، لأن أي نظام في أي تشريع لا يمكن أن يحقق لجميع الأطراف الرضا الشعوري أو العاطفي بشكل مطلق، لأن ذلك غير واقعي في حسابات التنظيم الدقيق للمجتمع الذي يكتفي بتحقيق الرضا من خلال الجوانب العملية الواقعية فحسب. وربما نجد من نتائج هذا الاتجاه، فقدان التصور الحقيقي لمفهوم الحرية في الإسلام في اطاره الواقعي.. فقد طرحت قضية الحرية في الإسلام كمفهوم غائم يوحي للنفس بالمعاني المشرقة التي تبلغ درجة الأحلام، ويصور الواقع على أنه مجال رحب من مجالات تحقيق الإنسان رغباته وشهواته ومطامعه ومطامحه، فله أن يقول ما يريد، ويفعل ما يحب بدون ضغط أو اكراه، مهما كانت النتائج والأوضاع.. وربما يبدو للناس ـ في تصورهم للحرية في الإسلام ـ صورة الحرية الرأسمالية، لأنها تمثل الحرية المنفلتة إلى مستوى الافساد والاستغلال...

أما السبب في ذلك كله فهو أن المبدأ قد طرح في الساحة بعيداً عن خطوطه العامة وتطبيقاته العملية التي تخضع قضية الحرية للمسؤولية والالتزام، فتضعها في نطاق محدود بالسلوك الذي يلتقي بالأهداف الإسلاميّة العليا، ولا يقترب من الأهداف والممارسات التي تعرض سلامة العقيدة والمجتمع للخطر، مما يجعل المبدأ يتمثل في «الحرية الملتزمة».. للنظام الملتزم الذي يحكمها في تخطيط تشريعي دقيق.

وقد يتمثل هذا الانحراف في مفاهيم الزهد في الدنيا، والاقبال على

الآخرة وجهاد النفس ورياضتها وغير ذلك من المفاهيم التي طرحت بشكل غائم لا تبين فيه الخطوط، ولا تتضح أمامه معالم الطريق، فانطلق الكثيرون يبحثون ويفتشون عن تطبيقاته في الفلسفات الهندية، والممارسات البوذية وغيرها من الأسس الفكرية التي تبتعد عن الإسلام نصاً وروحاً، فنشأت من خلال ذلك الطرق الصوفية التي تنوعت وتفرعت حتى جعلت من الإنسان المسلم إنساناً مشلولاً في حركة الحياة، لأنه يعتبر أن كل حياته تتجمع في أسلوب الرياضة الروحية على الطريقة الهندية ـ مثلاً ـ وغيرها، وفي البقاء ـ حيث هو ـ بعيداً عن مشاغل الحياة لتقترِبَ من الله في غيبوبة صوفية حالمة.

وهكذا أصبحت هذه المفاهيم التي أرادها الإسلام في قاعدة لبناء الشخصية الإسلامية الإيجابية سبيلاً لابعاده عن الخط الإيجابي، وتحويله إلى إنسان سلبي يأخذ من الحياة ولا يعطيها.. وربما يكون بعض السبب في ذلك يتمثل فيما أشرنا إليه من اعطاء المفهوم مجرداً عن التطبيق، مما يفسح المجال للتطبيقات المنحرفة أن تحاصر المفهوم وتطوقه في دائرة غريبة عن أَجوائِهِ وأهدافه.. فقد لا يعرف الكثيرون من هؤلاء أن الإسلام يعتبر كل ما تمثله هذه المفاهيم سبيلاً للحصول على الشخصية القوية التي لا تنحرف ازاء الاغراء، ولا تضعف أمام التحديات وتجابه الحياة بقوة رائدة، وبروح تؤمن بأن طريق القرب إلى الله يمر بالاقبال على خدمة الناس، وبناء الحياة العملية على أسس سليمة ثابتة ولا يتوقف عند العزلة الحالمة التي تجتر أشواقها لله وأحلامها في الجنة في كل الحالمين وتثاؤبهم الطويل.

إن من المفارقات الملفتة للنظر، هو دخول كثير من الشباب المسلمين في كثير من التيارات الحديثة المناقضة للإسلام في فلسفتها وشريعتها.. بدافع المفاهيم الإسلامية الكبيرة في العدالة والحرية والجهاد في غير ذلك مما يعيش في داخل وجدانهم الإسلامي، لأنهم يفقدون الصورة التطبيقية

الجاهزة للإسلام التي يمكن أن تربط النظرية بالتطبيق لغياب النظام الإسلامي عن حكم الحياة، ولأنهم ينطلقون في تصوراتهم من أسلوب الدعاة الذين يهتمون بالنظرية ولا يلتفتون إلى التطبيق، ففقدنا من ـ خلال ذلك ـ كثيراً من الطاقات الإسلامية المبدعة التي انحرفت باسم الإسلام، لجهل الدعاة أولاً واستغلال هذا الجهل من قبل القوى الشريرة من جهة أخرى ثم بدأت عملية تفريغهم من الإسلام تدريجياً حتى تحولوا إلى قوة تحارب الإسلام حرباً لا هوادة فيها.

وعلى هدى هذا الاتجاه، نشعر بضرورة الحذر عند تقديم الفكرة الإسلامية العامة للآخرين، أو عند طرح الشعارات العملية العامة، كشعارات العزة والكرامة والجهاد وما أشبه ذلك.. فنعمل على اقتران ذلك كله بالتطبيق الحي لها في مجال الحياة، لتكون الوسيلة مرتبطة بغايتها، والفكرة مرتبطة بخطوطها العامة والخاصة من أجل تركيز الشخصية الإسلامية المميزة في ذهن المسلمين، ومن أجل أن لا يتحول التصور الإسلامي في وجدان المسلم إلى معرض لمختلف الأفكار والأساليب والتطبيقات التي قد تكون أي شيء، ولكنها لن تكون إسلاماً حقيقياً على كل حال.

●□●□●

تحديد الخطوط الفاصلة
بين الإسلام وبين غيره من الدعوات

قد يكون من شروط سلامة الحركة للعاملين في الحقل الديني، أن يحددوا الخطوط الفاصلة بين الدعوة الإسلامية وبين غيرها من الدعوات الأخرى المضادة، من الأديان والمذاهب الحديثة... لأن ضياع الخطوط، أو اختلاطها يسهل للقوى المضادة القيام بعملية التضليل والتزييف والتحريف، على أساس فقدان الوضوح في الرؤية الذي يعرف الإنسان معه أين يضع قدمه وأين ينتهي به المطاف... وينطلق الناس في اتجاه الباطل وهم يحسبون أنهم سائرون في اتجاه الحق... وربما كان هذا الضياع سبباً في غياب الصورة الحقيقية للإسلام لدى المسلم، مما يفقده الثقة العميقة بالإسلام عندما يعيش اهتزاز الصورة وارتباكها فيخيل إليه أن ذلك هو واقعها الأصيل في الوقت الذي يقدم إليه الآخرون الصورة الكاملة لأفكارهم بالأسلوب الذي يوحي بالقوة والتوازن.

أما إذا كانت الصورة واضحة ومحددة فإن القضية تختلف إذ يمكن للإنسان المسلم أن يشير إلى الحدود الفاصلة التي يجب أن يقف عليها عندما يريد منه الآخرون تجاوزها إلى غيرها، فلا يستسلم لعملية الخداع والتضليل تحت أي قناع، أو ستار، لأن وضوح الصورة يفضح كل الأقنعة ويمزق كل الستائر... ويمكن له في الوقت نفسه أن يزرع الثقة في نفسه على أساس الصورة الكاملة الثابتة في نفسه، للواقع القوي الأصيل، ويحاول، من خلال

ذلك، أن يبدأ عملية مقارنة بين صورة الإسلام كما هو في واقعه وبين صورة المبادىء الأخرى بأمانة وشمول.

وهناك نقطة حساسة جداً في هذا المجال، وهي الابتعاد عن التسويات التي ترتكز على التنازل عن بعض الجوانب في العقيدة والشريعة والموقف لمصلحة الطرف الآخر في مقابل بعض التنازلات التي يقدمها للسلام فإن تحديد الخطوط الفاصلة بين الإسلام وبين غيره يكشف للإنسان خطأ فكرة التسويات والتنازلات في نطاق الدين، لأنه يمثل الالتزام بالشيء ونقيضه كما حدث في بدايات الإسلام عندما قدم المشركون عرضاً إلى النبي ﷺ يتضمن التسوية في اطار المساومة، كما تنقل بعض الروايات التاريخية حول سورة الكافرون فقد جاء في أسباب النزول للواحدي..: أنها نزلت في رهط من قريش قالوا يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك، نعبد، إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة فإن كان الذي جئت به خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك، فقال ﷺ معاذ الله أن أشرك به غيره فأنزل الله تعالى:

- ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾.

فغدا رسول الله إلى المسجد الحرام وفي الملأ من قريش فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة فآيسوا منه عند ذلك... وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصحّ فإن جو السورة يوحي بوجود مساومة من هذا القبيل...[1].

فقد كان في مخطط هؤلاء أن يسلكوا هذه الطريقة التي يحاول

(١) أسلوب الدعوة في القرآن ص ٧٦، طبعة ثانية.

أصحابها الإختباء تحت ستار الحاجة إلى اكتشاف كل من الفريقين عقيدة الآخر وطريقته في العبادة على أساس التجربة المحدودة، ليكون اللقاء ـ لو حدث ـ على أساس القناعة التجريبية، بعيداً عن أي فكرة سابقة غير دقيقة... ولكن الخطة كانت أبعد من ذلك فقد كانوا يريدون اعترافاً من النبي ﷺ بآلهتهم ولو بشكل محدود في نطاق استنطاق التجربة، ليحققوا من ذلك هدفين.

الأول: اضفاء صفة الاحترام على عبادتهم لهذه الأصنام باعتبارها في مستوى العبادة لله من خلال التسوية المتفق عليها ـ لو حدث الاتفاق ـ.

الثاني: تسجيل المحاولة على النبي ﷺ كموقف يفقده الصفة الرسالية التي تمنحه حصانة مقدسة في نفوس الناس، لأن قبوله الاقرار بالأصنام، ولو بالتجربة، يتنافى مع الرسالة وبذلك يفقد تأثيره على الناس، ويترك الطريق مفتوحة أمام المشركين لفتنة من يريدون فتنته وتضليل من يريدون تضليله من دون جهد أو تعب...

ولكن النبي ﷺ فوت الفرصة عليهم برفضه للقضية من ناحية المبدأ، وجاءت السورة الكريمة لتحدد الموقف بشكل حاسم لا مجال فيه لأية مساومة... ليعرف كل من طرفي الصراع، أن القضية تنطلق في اتجاهين لا ثالث لهما، فأما السير في طريق التوحيد وأما الوقوع في قبضة الشرك... ولا لقاء بين الاتجاهين، وبذلك أصبحت القضية في مستوى القاعدة التي جاءت لتؤكد الموقف بطريقة شديدة حاسمة كما نلاحظه في هذا التكرير للنفي المستمر.

ولم يكتف القرآن الكريم بهذا الموقف بل كان يريد أن يختم الحوار بينه وبين الفريق الآخر بتحديد الخط الفاصل الذي يعطي المواقف النهائية صفة الوضوح قبل الافتراق في الطريق.

ـ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]

ـ ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ـ ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥].

وقد نواجه الكثير من المواقف المماثلة في مراحل الصراع الحاضرة والمستقبلة، من خلال حاجة فرقاء الصراع للإستفادة.. من طاقات بعضهم البعض في أوجه الصراعات المتنوعة، مما يجعل الموقف حافلاً بالكثير من العروض التي يطلب فيها التبادل في المواقع، والتنازل عن بعض المفاهيم أو الأحكام أو الأوضاع، في الجوانب الفكرية والتشريعية والاجتماعية، ليصار إلى تعديل الخطوط على أساس ذلك... فقد يجب علينا في هذا الاطار أن نبادر إلى فحص ما لدينا من الخطوط العريضة التي لا يمكن التنازل عنها تحت أي ضغط ظرفي أو غير ظرفي، فنقف عندها وقفة حاسمة لا مجال فيها للتنازل والتراجع... وندقق ـ بعد ذلك ـ في الخطوط الفرعية لندرس موقعها من العقيدة والشريعة وارتباطها بالخطوط الأخرى، وتتعرف ـ من خلال ذلك ـ امكانات التنازل في ظرف معين ـ سلباً أو ايجاباً ـ لنحدد موقفنا الإسلامي في وضوح الرؤية وسلامة الهدف، كل ذلك لنكون حذرين في وعي من الاستسلام للضغوط العاطفية التي تلامس مشاعرنا في انفعالات لذيفة محببة كمثل الخدر الذي يدب إلى أعصابنا فيبعث فيها الضعف والاستسلام فنتصرف من دون إرادة ومن غير تفكير فنقف حيث لا نريد أن نقف ونتحرك حيث لا يجوز أن نتحرك...

● □ ● □ ●

الفصل الثاني

مع الثقافة في خطواتها العملية

١ ـ الثقافة للدعوة لا للاسترخاء.

٢ ـ الثقافة للإسلام لا للمزاج الذاتي.

٣ ـ الثقافة في خط الإسلام لا في خط الانحراف.

الثقافة للدعوة.. لا للاسترخاء

مسؤولية الإنسان المسلم تجاه الدعوة:

كانت الثقافة الدينية، فيما مضى من عصور الإسلام الأولى والوسطى، قضية الإنسان المسلم الشخصية التي ينهل منها ما ينهل ليمارس الإسلام في حياته عن معرفة ويدعو إليه عن وعي، وكانت دعوته إلى الإسلام ـ كممارسته له ـ عملاً عفوياً ينطلق من احساسه العميق بأن الإسلام ـ في وعي الإنسان المسلم حركة في الداخل تحرك فكره وروحه وعمله، وحركة في خارج الذات، تحرك الناس نحوه بالدعوة والبلاغ، وتملأ الحياة من حوله، بالحيوية والقوة فكان من نتيجة ذلك أن رأينا الداعية يتمثل في أكثر من نموذج من نماذج المجتمع، فتجد التاجر الذي يضرب في أقاصي الأرض ليطلب الرزق ويجتهد من أجله، لا يترك أمر الدعوة إلى الإسلام ولا يجد في التجارة شاغلاً عنها، بل يعتبره شغله الشاغل الذي يجد في عمله التجاري فرصة له للانطلاق به في طريق التكامل والامتداد والانتشار وتجد المحارب الذي يشتغل فترات الهدنة، أو السلم، ليشعر أن مهمته لم تنته بانتهاء الحرب ـ بل يجد أن مسؤوليته بدأت بذلك، لأن قضية الحرب ليست هي فتح البلاد، للسلطة وللاستعمار، بل هي، من أجل افساح المجال لكلمة الله أن تقال وتمارس ورها في الاقناع بحرية وقوة وانفتاح. وقد أصبح الإسلام من خلال ذلك دعوة تمتد إلى أقاصي العالم من البلدان التي لم تصلها الفتوحات

ولم يبلغها الحكم الإسلامي في بدايات عهد الإسلام، بل ربما انطلقت الدعوة من المسلمين، المغلوبين على أمرهم، للغزاة الذين كانوا يغزون البلاد الإسلامية بطريقة وحشية مدمرة، كما حدث ذلك بالنسبة إلى المغول الذين هاجموا العالم الإسلامي فدمروا كل شيء فيه، وسيطروا على كل مقدراته، ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوا فيه بشكل عفوي يلفت الأنظار، بفضل الدعاة المسلمين الذين شعروا بأنهم لا يستطيعون مقاومة الغزاة من الخارج بالقوة المسلحة، فقاوموه من الداخل بالعقيدة الإسلامية، ففتحوا قلوبهم لله، وأفكارهم لشريعته، مما جعل الغزاة البرابرة، يتحولون إلى الإسلام ويعملون له، ويحاربون من أجله. يقول «توماس أرنولد» في كتابه الدعوة إلى الإسلام: لا نعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوة من غزوات المغول، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وقضت على كل ما كان بها من مدنية وحضارة... على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال واستطاع بدعاته أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه[١].

وربما كان السبب في ذلك، الشعور العميق بالمسؤولية تجاه الدعوة الإسلامية، لدى كل مسلم عادي، من دون أن يكون مكلفاً من أية هيئة رسمية، أو أية مؤسسة دينية في عدة نقاط:

١ ـ الحديث النبوي الشريف، «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

«فقد وعاه المسلمون وفهموه كقاعدة إسلامية عامة تثير فيهم حس المسؤولية كأعمق ما يكون، وأرحب ما يمكن، حيث يجد الإنسان المسلم

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤٨ ـ ١٥٠.

ـ من خلال هذه القاعدة ـ أن دوره في المجتمع الإسلامي ليس دور الفرد الذي تحكمه مسؤولية الآخرين، أو الذي يتلقى المسؤولية من الخارج، ليكون دوره سلبياً يمارس فيه عملية الأخذ دون أن يتسلم زمام المبادرة في شيء من شؤون الحياة العامة، بل هو دور ايجابي فعال ينطلق من صفته جزءاً من كل مترابط، يرتبط أفراده برابطة عضوية لا انفصال فيها ولا انفصام. فإن ذلك هو الذي حدد له موقعه الحركي في داخل المجتمع، ليجعله يشعر بمسؤولية عن كل القضايا التي يملك المقدرة على القيام بها، أو المشاركة ببعض منها مشاركة فعلية، مما يجعله يفكر للمجتمع، ومعه، في كل شيء يهمه ويتعلق به ويصب في قضاياه المصيرية الكبيرة، ثم يبدأ عملية الممارسة من موقع مسؤوليته الإسلامية الداخلية التي تستمد رقابتها الواعية من الاحساس بوجود الله ورقابته في كل شيء... وعلى ضوء ذلك فإن الإنسان المسلم، لا يعاني من الاحساس بالازدواجية بين شخصيته الفردية وبين شخصيته الاجتماعية لأن كلتا الشخصيتين خاضعتين في تكوينهما وحركتهما للقواعد الإيمانية التي تحدد لكل منهما مجالات اللقاء والاندماج ومجالات الافتراق الذي يغذي كلا منهما: وينميه، من دون أن يؤدي إلى التنافر والتصادم، فللشخصية الفردية منطلقاتها في اطار الحاجات الذاتية التي ينمي فيها جسمه وعقله وعاطفته، ويسمح فيها لنزواته الشخصية أن تعبر عن نفسها في ألوان من اللهو البريء، أو يقيم بعض العلاقات الخاصة التي لا تترك أي تأثير سلبي على أوضاعه الاجتماعية العامة، أما الشخصية الاجتماعية، فلها منطلقاتها في كل العلاقات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي تتعداه إلى غيره، لأنها تتصل بأفكار الآخرين واقتصادهم ونشاطهم الاجتماعي، وتنعكس عى أوضاعهم العامة، وقضاياهم المصيرية ومن خلال ذلك يلتقي الإنسان المسلم بقضية الدعوة، ليشعر بارتباطها بمسؤوليته الاجتماعية لأنها تمثل الامتداد البشري والحضاري لقوة الأمة ووجودها

وحضارتها، مما يجدد لها حياتها ويمنحها طاقة جديدة من أجل مستقبل جديد.

٢ ـ الآيات القرآنية الكثيرة:

التي تجعل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسؤولية المسلمين في كل زمان ومكان، ككل المسؤوليات والواجبات العامة التي يطلق عليها الفقه الإسلامي صفة «الواجبات الكفائية» التي توجه إلى الأمة بشكل عام، فلا تختص بفرد معين، فإذا قام بها البعض الذي يحقق لها غايتها سقطت عن الكل، وإذا لم يقم بها أحد، عصوا جميعاً وتحملوا مسؤولية اهمالها أمام الله، ولذلك اعتبروا الدعوة إلى الله وإلى الإسلام، مسؤولية كل مسلم، وقضيته الأساسية التي تمتد في الحياة الإسلامية من جذورها الضاربة في أعماق النفس، ولم يخصوا بها أحداً، فيعتبرونها مسؤوليته الخاصة التي لا ترتبط بهم من قريب أو من بعيد، بل قد ترتفع القضية إلى أبعد من ذلك، فلا يقف العمل عند حدود المسؤولية القانونية الإلزامية التي تثقل كأهل الإنسان، وتشعره بالتعب والعناء. بل كانت تمثل بدلاً من ذلك الرغبة المحببة التي يتجه الإنسان إلى تحقيقها بمحبة وسرور يحس معهما بلذة التعب وحلاوة الجهد كأي نشاط شخصي، يرتبط برغبات الذات وحاجاتها الطبيعية لأنهما يرتفعان به إى الله في مدارج القرب والرضى، ويحققان له هدفه في الوصول إلى الدعوة التي يؤمن بها، إلى كل مكان في العالم، وإلى كل شخص في الحياة. ومن هذه الآيات التي تركز على جانب شمول الدعوة قوله تعالى:

ـ ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

وقد نلتقي في هذا المجال، ببعض الآيات الكريمة التي تجعل من هاتين الصفتين، أساساً للقيمة الإنسانية للأمة كلها، وذلك هو قوله تعالى:

- ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ١١٠].

٣ ـ شريعة الجهاد:

فقد كان الجهاد الإسلامي يشمل المسلمين جميعاً، على سبيل الواجب الكفائي من أجل اعلاء كلمة الله في الأرض، والدفاع عن الإسلام ضد قوى الأعداء من الكفار والمتمردين وافساح المجال أمامهم ليمارسوا دوره في الدعوة من موقع الحرية والقوة، والانتصار للضعفاء والمضطهدين من المسلمين، فكانت الممارسة الإسلاميّة، تجعل كل مسلم جندياً من أجل الإسلام، مما يخلق في وعيه روح الجندية للدعوة، باعتبارها مسؤوليته التي يقاتل من أجلها ويضحي بنفسه في سبيلها، فكيف لا يعمل من أجل انتشارها وامتدادها وايصالها إلى كل مكان وإلى كل إنسان.. وقد أشرنا في بداية هذا الحديث، إلى أن الجندي المحارب يتحول في فترات الهدوء والسلام إلى داعية متحرك ينفذ إلى الداخل بالفكر والمحبة، ليدعوهم إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلهم بالتي هي أحسن، ولا يقتصر على دعوتهم باللسان، بل يمتد ذلك إلى السلوك العملي الذي يجعل من الإنسان المسسلم إنساناً حياً متجسداً يتحرك على الأرض، ليشاهد الإسلام في صورته التطبيقية على الطبيعة انطلاقاً من الحديث الإسلامي الشريف: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الصدق والأمانة فإن ذلك داعية».

٤ ـ الأحاديث النبوية الشريفة:

التي تؤكد على الثواب الأخروي الذي يمنحه الله للناس الذين يعملون

على هداية الكافرين والضالين والمنحرفين إلى الطريقة المستقيمة كما في الحديث النبوي الذي خاطب به النبي محمد ﷺ الإمام علياً عليه السلام عندما بعثه إلى اليمن. . فقد ورد في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب عليه السلام) بعثني رسول الله ﷺ، إلى اليمن فقال:

يا علي لا تقاتلن أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لئن يهدي الله عز وجل على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»[1].

٢ ـ شخصية الداعية المسلم (أو روحية الداعية المسلم):

قد يكون السبب في هذه الروح ـ هذه الأمور كلها، أو غيرها مما يضاف إليها من الدوافع الذاتية التي تحدث لدى الإنسان كنتيجة لقوة الإيمان التي تجعل العقيدة حالة شعورية يندفع الإنسان إلى تلبيتها وخدمتها بعفوية ومحبة، فإن كل هذ العناصر قد استطاعت أن تخلق الشخصية الداعية المسؤولة، التي لا تستمد حركتها من ارتباطها بمؤسسات تقليدية أو رسمية بل تستمدها من ارتباطها بالينبوع الروحي المتدفق من الإيمان بالفكرة، وبالخط المستقيم الذي تمتد الفكرة بامتداده وقد كان من الطبيعي لهذا كله أن لا يجد هؤلاء العاملون ـ في عملهم ـ ما يستحقون عليه أجراً مادياً. كضريبة مفروضة على المجتمع، لقاء ما قاموا به من خدمات إسلامية في مجال الدعوة، لأنهم لا يشعرون بمسؤوليتهم أمام المجتمع، كوجود منفصل متميز تماماً، كما يكون موقع العامل من صاحب العمل، بل يشعرون بأن نتائج العمل تعود إليهم كجزء من المجتمع، يعيش التكافل والتضامن والتعاون في كل مجالاته، ثم. . . كأصحاب عقيدة، عملوا لعقيدتهم التي يحبونها

---

(١) وسائل الشيعة: ج٦ ص ٣٠.

ويؤمنون بها.. ثم كعمال كادحين إلى الله فهم يقصدون الله في عملهم، ويعملون للحصول على ثوابه الذي وعدهم به ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

وقد كانوا يقرأون الآيات الكريمة التي جاءت على لسان الأنبياء في القرآن الكريم التي تعبر لنا عن موقف النبي ﷺ مع قومه ليعلن لهم بكل قوة وبكل صراحة، أنه لا يطلب أجراً على الدعوة، لأن أجره على الله، بل ما يطلبه من الناس أن يتجاوبوا مع دعوته ويتعاونوا معه في تنفيذها وانتشارها، فكانت قراءتهم لهذه الآيات، تخلق عندهم انطباعاً، بأن شعارات الأنبياء هذه، لم تنطلق من مركزهم كأنبياء يتصلون بالله عن طريق الوحي، بل انطلقت من موقعهم كدعاة يبلغون رسالات الله في الأجواء التي لا توحي للناس بأنهم يقدمون للناس الكلمة بالثمن المعين.. بل توحي لهم بأن كلمة الله، ليست من السلع التجارية، بل هي من معدن الرسالات التي تنطلق من روح العقاء، لتدفع الإنسان إلى العطاء الكبير في الكلمة والفكر والعمل، من دون مقابل، وبذلك يرون، في هذه الشعارات خطاًعريضاً للدعوة ومنهجاً عملياً للدعاة، كل الدعاة، في أن يتحركوا في دعوتهم من موقع الإحساس بالمسؤولية المدفوعة الثمن من الله لا من الناس، إن كانوا ممن يبحثون عن الثمن،.. أما تأمين حياتهم ومستقبلهم المادي فقد يكون من الخير لهم أن يفتشوا عنه في مجال آخر غير مجال الدعوة لأن أبواب الرزق ومجالاته كثيرة في الحياة، ولا تنحصر في هذا المجال بعينه.

٣ ـ دور الذاتية في حياة الداعية المسلم في عصور الانحطاط:

ذلك هو بعض ما عاشه المسلمون فيما مضى، أو بالأحرى ما عاشته جماعات كثيرة منهم في الماضي، انطلاقاً من إيمانها بالله وبرسالاته، الذي

انعكس على نشاطها في الدعوة، مما شارك في امتداد الإسلام وانتشاره في أرجاء كثيرة من العالم.

ودخل المسلمون عصور الظلمات.. واستسلموا للآفاق الضيقة من الحياة، فوقعوا في قبضة الجهل والتخلف، وفقدوا النور الذي يحقق لهم النفاذ إلى حياة الآخرين، وتحولت الاهتمامات إلى الذات تغرق فيها كل همومها وتطلعاتها فللذات دور كبير في الحياة الدنيا، التي تعمل للحياة وللراحة الجسدية والنفسية، فتسخر كل النصوص التي تدعو إلى المحافظة على الحياة والابتعاد عن القاء النفس في التهلكة لتحمي بها نفسها من الانطلاق مع أي تحرك حتى لحساب المصلحة العامة.. وقد صرح بعض الفقهاء المحققين، بأنه قد يقال بالحرمة لو أراد الكفار ملك بعض بلدان الإسلام أو جميعها في هذه الأزمنة من حيث السلطنة مع ابقاء المسلمين على اقامة شعار الإسلام وعدم تعرضهم في أحكامهم بوجه من الوجوه، ضرورة عدم جواز التغرير بالنفس من دون اذن شرعي بل الظاهر أنه راجح في النواهي عن القتال في زمن الغيبة مع الكفار في غير بل الظاهر أنه راجح في النواهي عن القتال في زمن الغيبة مع الكفار في غير ما استثنى، إذ هو في الحقيقة اعانة لدولة الباطل على مثلها. نعم لو أراد الكفار محو الإسلام ودرس شعائره وعدم ذكر محمد ﷺ وشريعته فلا اشكال في وجوب الجهاد حينئذٍ ولو مع الجائر لكن بقصد الدفع عن ذلك لا اعانة سلطان الجور.

فنحن نرى في هذا المجال، أن هذا الفقيه الكبير لا يمانع من الرضوخ لسلطان الكفر والشرك ما دامت حرية المسلمين مؤمنة في شعائرهم وعباداتهم وأحكامهم، ولا يجوز للمسلمين أن يقاوموه لأنه تغرير بالنفس، لأن قضية العزة الإسلامية لا تمثل ـ في مفهومه ـ شيئاً كبيراً في حساب الإسلام، فتبقى

القضية قضية الشريعة، من دون أن يكون للإنسان أي اعتبار في ذلك، أو للنتائج العملية التي سينتهي إليها الاستعمار في البلاد.. مع أننا نجد في شعار كربلاء الذي أَطلقه الإمام الحسين عليه السلام، تأكيداً على جانب العزة والكرامة، كمنطلق من منطلقات الثورة كما في قوله عليه السلام:

«ألا وأن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك والمؤمنون وحجور طابت ونفوس طهرت من أن نؤثِرَ طاعة اللئام على مصارع الكرام..».

إننا لا نملك تفسيراً لهذا الاتجاه في معالجة القضايا العامة، سوى الاغراق في الجوانب الفردية في الحياة والابتعاد عن الجوانب العامة التي تفتح النوافذ على الآفاق الواسعة وتواجه الواقع بعقلية منفتحة واعية تحسب لكل حالة حسابها الدقيق في اطارها الشامل. ولا تعتبر الذات عالمها الكبير في دنيا الناس...

أما في الحياة الآخرة، فقد بدأ الاتجاه في النظر إليها نظرة ذاتية، فانطلق التركيز على الجوانب العبادية الفردية الخاصة التي تجعل طريق الدار الآخرة، لا تمر بالمجتمع والحياة العامة بل تمر بالمسجد فقط لتكون الآخرة للعابدين الذين ينعزلون عن كل نشاط عملي في حياة الأمة.

وكان للدعوة إلى الله نصيبها الكبير من هذا لاتجاه، فقد دخلت في اطار الذات واختفت فيها، وأصبحت مجرد نشاط ذاتي يخضع في وجوده وامتداده إلى الحالات النفسية التي يتحرك فيها المكلف، بحثاً عن «العذر الشرعي» الذي يبرر له الترك، لأن القضية عادت قضية صفته كمكلف يخاف من العقوبة، لا كداعية يحب دعوته.. فإذا وجد بعض الأوضاع التي يمكن للرخصة أن تنطلق معها، أقبل عليها بلهفة وشوق لأنه استطاع أن يتخفف من عبء المسؤولية ويتخلص من خطر العقاب، فليس للقضية في تفكيره، أي

بعد اجتماعي أو إسلامي عام يتعلق بحياة الآخرين، بل كل ما هناك، أنها تأخذ بعداً فردياً ينظر فيها إلى الأمور من خلال حياته الفردية مما يجعل لها انعكاساً على تصوره للواجبات، فهو يمارسها، من خلال صفة الواجب المغلق «الذي لا ينفتح الإنسان عليه ءلا من خلال العقاب الذي يريد أن يتخلص منه في حالة تركه، لا من خلال مدلوله الاجتماعي في حركة الحياة».

٤ ـ الصورة القلقة عن دور رجال الدين في الحياة العامة (في الدعوة):

وقد شاركت هذه النظرة، في افساح المجال للفكرة القائلة: إن مسؤولية علماء الدين أن يتعلموا، ويعلموا العلم ويبذلوه لمن يطلب ذلك منهم ويقصدهم ويسألهم عن أحكام الدين وتعاليمه، فيجيبوه بالحكم الذي يتعلق بعمله من دون زيادة ولا نقصان، أو توضيح للفكرة، وتقريب لآفاقها إلى فكره ووعيه، لأن ذلك ليس من واجباته لأن واجبه أن يسمع ويطيع من دون جدال وليس من واجباتهم، لأن كل واجباتهم، أن يشرحوا للإنسان حكمه الشرعي فقط..

وقد حاولوا أن يوضحوا هذه الفكرة ليقربوها إلى وجدان الناس بمثال توضيحي، فطرحوا موضوع الطبيب وقالوا: إننا لا نطلب من الطبيب أن يتسلم زمام المبادرة فيطوف على المرضى في بيوتهم، وفي مراكز عملهم ـ فلماذا نطلب من العالم الديني أن يقوم بذلك، في الوقت الذي لا نجد فيه فرقاً بين مهمة الطبيب وبين مهمة العالم الديني إلا في تعلق عمل هذا بالصحة الروحية، وعمل ذاك بالصحة الجسدية، فلا بد للمريض في كلتا الحالتين أن يذهب إلى الطبيب ليعالجه أو يرشده في هذا اللون من المرض، أو في ذلك اللون منه من دون تفريق.

ويأخذهم الاعجاب بالفكرة فيطرحون لك مثال الشجرة المثقلة بالأثمار التي لا بد لك من أن تهزها ليتساقط عليك الثمر الجني، فإن العالم شجرة علم مثقلة بالشهي من ثمار العلم والدين. فعليك أن تسأله، فتهز فكره وعقله وعلمه ليعطيك ما تريده وما تشاء.

وهكذا يخلقون أو يختلقون لأنفسهم الأعذار والمبررات في التقاعس عن العمل والاخلاد إلى الراحة.. ويعيشون في عزلة خانقة عن العالم.. حتى لا يتعرف عليهم أحد، ولا يشعر بهم أحد، فلا يستفيد منهم الناس في قليل أو في كثير، لأن الاستفادة فرع السؤال، والسؤال فرع معرفة الشخص، وقد لا يتيسر ذلك إلا للقريبين القريبين منه، أما البعيدون عنه فقد لا يجدون ما يغريهم بالبحث والتفتيش، لأنهم لا يحسون بالشخص، ولا يشعرون بالمشكلة التي نغريهم بذلك كله.

وقد يستمر بعضهم في عزلته العاجية التي يخلد فيها إلى الراحة والسكينة للحصول على مزيد من التأمل الذاتي أو الاجترار الآلام أو الأفراح (لا فرق).. ويبتعد بذلك عن أحداث الحياة ومشاكلها، فلا يشعر بها، ولا يحاول أن يفهمها ولا يستطيع ذلك لو أراد.. ولكنه ـ في المناسبات الطارئة ـ يجلس ليصدر أحكاماً على الحياة وقضايا المصير، بطريقة سطحية مرتجلة تطوف في عالم الخيال، أكثر مما تنطلق من صعيد الواقع، ثم تتهاوى صريعة من دون فهم أو وعي.

وينعكس ذلك على ثقافتهم الاجتماعية والسياسية، وربما الدينية المتعلقة بواقع الحياة المتحرك وتحدياتها المتطورة.. فهم لا يحاولون ملاحقة قضايا العصر ومشاكله، ولا يعلمون على اغناء ثقافتهم الإسلامية والاجتماعية وغيرها بالمستوى الذي تستطيع أن تواجه فيه كل ألوان التحديات المعاصرة.. لأنهم لا يشعرون بالحاجة إلى ذلك كله، ما دامت

حياتهم فارغة من التحديات، وأفكارهم مغلقة على الماضي فلا تنفتح على الحاضر فضلاً عن المستقبل، ونشاطاتهم خالية من المشاكل.. لأنها لا تلامس وجدانهم.. فإذا اصطدموا بالتحديات، أو التقوا بالمشاكل، فإنهم يكتفون بردود الفعل السلبية الانهزامية في ذلك كله، فاللعنات هي إحدى مظاهر التعبير عن الاحتجاج، والحديث عن آخر الزمان هو التفسير الوحيد للواقع كله، والتعوذ بالله من الشيطان ومن الزمان الذي يكون القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، هو الحل المنشود، مما يوحي بالاستسلام للواقع واظهار العجز ـ مقدماً ـ عن امكانية معالجته ثم الأمر بالبقاء بعيداً عن ساحة الصراع لأن الجلوس على التل أسلم، ودفع الضرر المظنون لازم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وكفى الله المؤمنين شر القتال.

وقد شاركت هذه الجماعة من الناس في اعطاء الصورة القلقة عن الدين ورجاله من حيث أنه يمثل المواقف السلبية الخائرة، التي لا تقدم للحياة إلا بعض الطقوس والخدمات الدينية فلا تضيف إليها شيئاً يبلغ مستوى كبيراً من الأهمية، وفي اقتناع الممثلين للدين بالرضا بالأمر الواقع، والانسحاب من المعترك كقيمة كبيرة من قيم القداسة الروحية، حتى تحوّل الانحراف إلى قيمة دينية، ترى في اعتزال الحركة، والبعد عن الصراع دليلاً على التقوى والزهد والاخلاص وقوة الإيمان.

٥ ـ الصورة الواضحة لدور رجال الدين الإيجابي:

بينما تعتبر التحرك الإيجابي الذي يشارك في عملية الصراع ويدفعها بعيداً إلى المجالات التي يمكن أن تستفيد منها قضايا الإنسان والحياة، عملاً دنيوياً بعيداً عن الدين وصفائه وقداسته. ونحن هنا في محاولة جادة لملاحقة هذه المفاهيم المغلوطة، نقدم الملاحظات التالية:

١ ـ إن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، لم تطرح الدعوة، في حركة الداعية، كواجب مغلق بعيد عن المدلول النفسي الذي يجيش في روحه وضميره، فقد أعطت للفكرة مفهوم الدعوة إلى الخير، والهداءة إلى الحق من حيث أنهما هدفان أساسيان للمؤمن فيما يمثله الإيمان من معنى، ولعل القضية تتصاعد وتتسامى عندما نقف أمام الحديث الذي يحدد للإنسان المؤمن صفة الراعوية، ويجعل للعمل معنى المسؤولية، ليوحي له بمضمون الامتداد في إيمانه العميق بالحياة، ويطرح القضية في واقع الشمول في طبيعة الحركة، فيبقى الإنسان في حيوية دائمة تتلمس المواقف من خلال كل هذه المعاني لتجسدها واقعاً حياً يتفجر بالمعاني الروحية الكبيرة والقيم الإنسانية العظيمة، فلا يبقى للتفكير الفردي مجال في ذلك، حتى قضية العقاب والثواب لا يخضعان للسلوك المغلق، والعمل الرسمي، بل يتبعان النتائج العملية المنطلقة من مقدمات حقيقية، فقد لا يكون من المفهوم أن يقبل الله من الإنسان القيام بواجب الدعوة بأسلوب ميت، ومضمون جامد، لأنه لا يحقق أي نتيجة، بل يريد منه، أن يعطي العمل كل ما لديه من طاقة وحيوية، ليفجر الإيمان في قلوب الآخرين حباً وحياة، ويحقق للدعوة معناها في حركة العمل، فإذا لم يقم بذلك فكأنه لم يفعل شيئاً، ولعل الدعوة إلى الله تختلف عن بعض الواجبات الأخرى في طبيعتها الداخلية، لأنها لا يمكن أن تتحول إلى طقس وشعائر ظاهرية تقليدية، فإنها تعتمد على الوصول إلى قناعات الآخرين ومواجهتها بالتغيير والتبديل.. ثم الالتقاء بالمشاعر الإنسانية لإغنائها بالمعاني الروحية النابضة بالإيمان، مما لا يمكن أن يبتعد عن الحركة والحس الاجتماعي الأصيل.

٢ ـ إن القضية لا تعيش في الإطار الذي وضعها فيه هؤلاء بل القضية تتحرك في اطار سؤال محدد: لماذا يصر هؤلاء الناس على أن يحصروا

العمل في هذا النطاق الضيق ولماذا يكلفون أنفسهم عناء الدفاع عن هذا الموقف بهذه الحرارة.

فإذا كانت القضية قضية احراز تكليف ـ كما يقولون ـ فقد يطرح السؤال نفسه عليهم من جديد. لماذا يعملون على الخروج عن عهدة التكليف أو ابراء الذمة منه؟ هل هناك غير الحصول على رضا الله والتخلص من عقابه؟، فإذا كان الجواب ايجاباً، فلماذا يمتنعون ويصرون على الامتناع، عن القيام بالعمل المرتبط بالمسؤولية، وإن كان منسحباً، في الوقت الذي يستطيعون أن يحققوا ـ من خلاله ـ الحصول على رضا الله بنسبة أكبر وبشكل آكد.. وهل هناك مجال للقناعة بالقليل من رضوان الله مع التمكن من الحصول على الكثير ثم نثير السؤال من جانب آخر.. ما هو العمل الذي يريدون الانصراف إليه والتفرغ له، بعيداً عن عمل الدعوة إلى الله. هل هو العبادة المعروفة من صلاة وصوم وغيرهما، أو هو الأخذ بأسباب اللهو والعبث البريء أو هو العمل الدنيوي الذي يرتبط بتحصيل المال وغيره.. فإن كانت العبادة هي العذر، باعتبارها المؤمن إلى الله، أفلا يرى معنا أن هداية الناس أفضل من ذلك بل هي قمة العبادة لأنها ترقى إلى مستوى عمل الأنبياء، الذي لا يدانيه عمل، وإن كان غير العبادة، فما أشد خسارة الصفقة، عندما يترك العمل الذي يحصل به خير الدنيا والأخرى ـ لأجل العمل الذي لا يجديه شيئاً.. إلا ما كان من عمل يتوقف عليه معاشه ومعاده فإنه عبادة كبيرة عند الله، ولكنها لا تمنع من العمل في سبيل الله. وفي غمار علامات الاستفهام هذه، لا يجد الإنسان تفسيراً لذلك كله ـ إلا الحالة التي توحي له بحب الراحة من مشاكل الدعوة ومتاعبها ومضاعفاتها، وانعكاسها على علاقته بمجتمعه لأنه يتحول عنهم ـ إلى شخص غير مألوف، وغير محبوب، وهذا ما لا يريده لنفسه، ولذا يلجأ إلى التعبد ليعوض به ما يفوته من ذلك ولكننا نكتشف من هذا الموقف أنه غير جاد في محاولته الحصول على مرضاة الله بشكل عميق، بل

كال ما هنالك أن التعبد لا يكلفه شيئاً بل ربما يمنحه امتيازاً اجتماعياً، هذا بالإضافة إلى أنه يعتبر الأسلوب التقليدي للعمل الديني الكبير في نظر الناس.

٣ ـ إننا نفهم من الآيات القرآنية الكريمة التي عرضت لرسالات الأنبياء ومواقفهم في مجالات ابلاغ الرسالة والتأكيد على ملاحقة التجارب العملية لينتقل الموقف من تجربة إلى تجربة حتى تستنفد التجارب والمشاعر النفسية الحزينة التي يواجه بها الأنبياء حالة الجمود والكفر من قومهم، أسفاً على أن لم يؤمنوا، واشفاقاً عليهم من العذاب في الدنيا والآخرة، من خلال الشعور الإنساني النابض بالعاطفة الرسالية، لا من خلال الفشل الذي ينعكس على تقييم الذات ونظرتها إلى نفسها وعملها أو نظرة الآخرين إليها فإن ذلك من أكثر الأشياء بعداً عن خلق الأنبياء وسلوكهم.

إننا نفهم من ذلك كله أن هذه الآيات لا تريد أن تطرح هذه المواقف والأساليب والمشاعر كأمور انتهت بانتهاء الأنبياء، فلا مجال للعمل على تجسيدها من جديد في عصر ما بعد الأنبياء. بل تريد لنا أن نعتبرها منهجاً للدعوة، وخطاً عريضاً لأسلوب العمل، وتركيزاً على ما يمثله هذا النموذج الأعلى من قيمة إنسانية في حساب الدين لتكون مثلاً يحتذيه الآخرون في صناعة أنفسهم على صورة الرسل الدعاة وقد يرتكز فهمنا هذا، مِنَ الدعوة القرآنية الموجهة إلى المؤمنين في القيام بنفس المسؤوليات التي جاءَ بها الأنبياء من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحكم بالعدل وغير ذلك من الأمور التي بُعِثَ الأنبياء من أجل اقامتها في الحياة.. فإننا نرى في هذه الدعوة، تركيزاً على امتداد خط النبوات بكل عناصره الكفرية والروحية، وبكل أساليبه وخطواته العملية، إلى الدعاة المؤمنين في مدى الزمن، وامتداد العمل، ون ذلك هو الذي يحقق للرسالات خلودها في حياة الناس. وقد نستند في فهمنا هذا، إلى الحديث النبوي المشهور:

«العلماء ورثة الأنبياء»[١] أو «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» أو «العلماء أمناء الرسل»[٢].

فإن البعض قد فهموا جانب الفضل والقيمة، فجعلوها دليلاً على علو منزلة علماء هذه الأمة، وارتفاع درجتهم، ونحن لا نمانع في هذا الاتجاه في فهم هذه الأحاديث، ولكننا نتساءَل عن السبب في هذا الولع بالحصول على الامتيازات من دون الالتفات إلى تحمّل مسؤولياتها فإننا نحسب أن هذه الأحاديث تعبر عن العنصر الرسالي الذي يتميز به علماء هذه الأمة في جهادهم وتضحيتهم بكل شيء في سبيل ابلاغ الرسالة وتطبيقها ومواجهة أعدائها بكل عناد واصرار، وبهذا نفسر وراثتهم للأنبياء لنفهم منه ارث الرسالة في حملها والدعوة إليها، لا في مجرد الالتزام بها والاقتصار على طرح شعاراتها في الهواء، وبهذا نفهم كيف يكونون أمناء الرسل فيما يؤدونه عنهم من تعاليم وعقائد ومفاهيم وأحكام، فيتحقق لنا من ذلك كله المضمون الإسلامي للدعوة، الذي يرتبط بالموقف لا بالكلمة، وبالمعاناة لا بالمباهة، وبالواقع لا بالخيال. وأخيراً أن الرسالة في حركة النبوة، ليست نهاية المطاف، بل هي البداية الضخمة الكبيرة، لحركة مستقبلية ضخمة وليس النبي هو كل الظاهرة الرسالية، بل هو الذي ينطلق بالظاهرة على أساس متينة من الوحي والمعرفة والإيمان، لتتلاحق ـ من بعده ـ الظواهر الرسالية المتنوعة من خلال الدعاة الذين يحملون على أكتافهم عبء امتداد الرسالة في ضمير الخلود.

٤ ـ إننا نرفض معالجة القضايا الكبيرة، كقضية الدعوة إلى الله، بهذا الأسلوب الذي يحاول استجداء الشواهد من بعض الوقائع العادية التي لا

---

(١) الكافي: ج ١ ص ٣٤.
(٢) الكافي ج١ ص ٤٦.

ترجع إلى قاعدة عامة، بل ترجع إلى بعض الظروف الموضوعية التي ساهمت في حدوث ما يحدث من مؤثرات ونتائج وظواهر.. والسبب في ذلك كله، هو أن مثال الطبيب يخضع لطبيعة تأثير المرض في الإنسان، فيحاول المريض بأقصى ما يمكن من السرعة لمعالجة نفسه بالذهاب إلى الطبيب فلا تعود هناك حاجة إلى أن تستثير الطبيب في حركة ابتدائية يتسلم فيها زمام المبادرة من المرضى، بينما نجد المرض الروحي أو النفسي يختفي وراء كثير من الأوضاع والعلاقات الإنسانية التي لا تواجه الإنسان بمشكلته إلا بعد أن تتفاقم وتتعاظم ولو بعد حين.. وربما يعيش جو اللامبالاة منها في أكثر الحالات التي يعاني فيها المجتمع نفس المرض ونفس المشكلة مما يبعد الإنسان عن الشعور بطبيعة المرض ولو من بعيد.. فتبقى الحاجة ملحة إلى أن يواجه الطبيب الروحي المريض بجذور المرض وثمراته ونتائجه ليلتفت إلى خطورة حالته ليتدارك نفسه قبل فوات الأوان.

٥ ـ إننا نقف من جديد، هنا، أمام المثال، لنعالجه من جانب آخر، وهو أن المؤسسات الصحية تنبع تخطيط السياسة الصحية للمواطنين، خطين:

١ ـ الخط الاختياري:

الذي يترك للمواطن اختيار معالجة نفسه من خلال المراكز العامة المعدة لذلك، كالمستوصفات والمستشفيات، ومن خلال المراكز الخاصة كعيادات الأطباء، وذلك في الحالات الطبيعية التي يكون فيها المرض فردياً، وغير قابل للعدوى والامتداد من المريض إلى الآخرين.

٢ ـ الخط الإلزامي:

الذي يجبر المواطنين على التلقيح والعلاج، فتغلق مفارق الطرق

بالمفارز الصحية التي تدقق في شهادات التلقيح، أو تقوم بممارسته، وتوجه القوى النظامية إلى بيوت الناس، للقيام بذلك، أو لحمل المرضى إلى أماكن العلاج، أو مراكز الحجر الصحي، لمواجهة امكانيات العدوى بالضبط والقوة، وذلك في الحالات الطارئة التي يتحول فيها المرض إلى وباء يفتك بالصحة العامة، في نفس البلد، أو البلدان المجاورة، أو غير المجاورة التي ترتبط بملاقات سياحية أو تجارية تسمح لأبنائها بالقدوم إلى هذا البلد، أننا نلاحظ في هذا المجال، تحول القوى المسؤولة عن الصحة إلى ما يشبه حالات الطوارىء، من أجل القضاء على المرض من جذوره.. أو المنع من حدوثه.. حتى الحالة الواحدة تعتبر أساساً لكل هذه الاستعدادات الاستثنائية، نظراً إلى الأهمية التي يرتفع إليها موضوع الوقاية الصحية، أو السلامة العامة للمواطنين في نظر الدولة، ولذلك نرى تلك الاجراءات تختلف شدة وضعاً حسب اختلاف اهتمام الدولة بالمواطنين، هذا عن الجانب الصحي، فماذا عن الجانب الروحي أو الجانب الديني..

إننا لا نجد فارقاً بين الجانبين والالزام، لأن الأوضاع الدينية إذا سارت في مجراها الطبيعي، فلم يتحول الانحراف الفكري أو العملي إلى ما يشبه الوباء، ولم تتقدم التيارات الالحادية والإنحرافية إلى داخل معاقلنا، فنقتحم علينا بيوتنا، وتغزو أولادنا وبناتنا، بأفكارها وانحرافاتها، فلا نشعر بالحاجة إِلى أي نوع من أنواع المواجهة والمجابهة، لأن الأجواء لا توحي للإنسان بشيء من هذا القبيل، فيمكن للعامل أو للداعية أن يكتفي بأقل قدر ممكن من الحركة، ويترك للناس زمام المبادرة في الاتصال به لمعرفة ما يجهلونه من أمور العقيدة والشريعة، إذ لا تعوزه الحوافز الداعية إلى ذلك ولعل هذا هو الوضع الطبيعي الذي ولدت فيه هذه الأفكار وعاشت وتطورت في بعض المراحل التاريخية من حياة المسلمين، كما نلاحظه في هذه الظروف، في المجتمعات الدينية الصغيرة والكبيرة، التي تعيش مسؤولية الإيمان فيما

تعتقد، والعمل بما تؤمن به، فتبادر إلى الاتصال بأهل المعرفة من علماء الدين وغيرهم من أجل الحصول على الانفتاح الواعي فيما تجهله من ذلك.

أما إذا سارت الرياح بما لا تشتهيه السفن، وبدأت العاصفة تقترب، وارتفعت الأمواج كمثل الجبال لتهز السفينة بعنف، فتحطمها شر تحطيم.. فهل يقف الربان مكتوف اليدين في الوقت الذي يملك فيه أمر الدخول في عملية صراع مرير لانقاذ السفينة وايصالها إلى الشاطىء الأمين، أو يبدأ عملية الاقتحام في ذكاء وقوة وصبر، فيستثير كل ما يملكه من خبرة وقوة إرادة ومرونة عضلات لتحقيق الهدف المنشود في السلامة... إننا نقف في هذا الموقف، ونواجه هذا المأزق، فالإسلام يواصل انسحابه من حياة الناس وأفكارهم فلا تجد منه في الأجواء العامة، إلا ما يشبه الشبح الذي يوحي لك بالصورة في خجل واستحياء، ولكنه لا يملك أن يقدم لك الكيان.. والتيارات تتقدم في عملية غزو كاسح، يستخدم كل القوى التي تضلل وتهدم وتفسد، سواء في ذلك قوة الفكر المتمثلة بالمؤسسات الفكرية التي تعمل في خدمته في كل أنحاء العالم، أو قوى الانحراف العملي، المتمثلة بالأوضاع والمماسات الشاذة التي تخاطب الغرائز والشهوات لتستثيرها في حركة تطويق تأخذ عليها كل جوانبها فلا تترك لها أية حرية في الاختيار إلا من جانبه الصعب، أو قوى السلاح الحربي المتمثل بالأكداس الهائلة مما تنتجه مصانع السلاح في العالم الذي تهدد به القوى الخيرة في كل مكان، فتمنعها من تحقيق أهدافها في الحياة الحرة الكريمة. أو قوى الاقتصاد والسياسة التي تحرك ما تملكه من وسائل الضغط لتضعف المقاومة المضادة لخططها ومؤامرتها في جميع المجالات.. إلى غير ذلك مما تمثله قوى الشر والكفر والضلال.. مما جعل القضية تتخذ شكلاً من أشكال الصراع بين الحياة والموت، الذي يعتبر الحركة بكل ما تستطيع من حركة، وجوداً مستمراً، بينما يمثل السكون الموت والفناء.

إننا نقف في هذا الموقف، فهل يكون من المعقول أن نجلس في استرخاء لنمارس مسؤولياتنا في كسل سلبي، يستجدي المنطق الانهزامي الكسول، ليبرر لنا أمر الاستسلام لليأس، أو النظر إلى الواقع بطريقة لا توحي بوجود مشكلة، أو لا تؤمن بخطر التحديات العاصفة التي تهز الكون من حولنا دون أن نشعر بها ولو من بعيد.. ونبقى جالسين في انتظار سؤال من سائل، لنتصدق عليه أو لنتفضل بالجواب.

إننا نشعر بالرثاء والدهشة لوجود أناس يفكرون هذا التفكير.. فكيف يكون شعورنا ازاء أناس يمارسونه.

إن القضية في تقديرنا، تخضع لما يشبه حالة الطوارىء التي تقتضي تجنيد كل الطاقات الموجودة لدينا في سبيل الدفاع عن ثبات القاعدة وصمودها من أجل المحافظة على وجودها.. ثم البدء بتركيز القوى التي أصابها الضعف لانقاذها من الانهيار، ثم مواجهة عمليات كسب القوى الجديدة للدعوة الإسلامية في اطار خطة تعتمد على الموضوعية والحكمة والإيمان.

وقد نجد هذه المواجهة للموقف في بعض الآيات والأحاديث الشريفة المأثورة التي كانت ترصد المستقبل البعيد، بالنظرة الواقعية الدقيقة التي تخطط للموقف بما يشبه التعبئة الجهادية لكل القوى الفكرية الدينية، في حركة دفاع أو هجوم فمن الآيات، ما قدمنا الحديث عنه من آيات الدعوة إلى الخير والآخر بالمعروف والنهي عن المنكر.. التي توحي للإنسان المسلم بأن عليه أن يتسلم زمام المبادرة تحت طائلة العقوبة الأخروية في حالة الابتعاد عن القيام بالمسؤولية.

وقد نستوحي ذلك من الآيات الكثيرة التي هاجمت أهل الكتاب على كتمانهم لما عندهم من العلم في شأن النبي محمد ﷺ وعلاماته، وما جاء

في التوراة والانجيل مما يثبت الحق للإسلام.. وذلك في قوله تعالى في الآيات التالية:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

٢ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

[البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

٣ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

٤ ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

[آل عمران: ١٨٧].

فإننا نفهم من الجو الذي يهيمن على هذه الآيات، إن العلم الذي يملكه الإنسان في القضايا التي تتعلق بعقائد الناس وأحكامهم، يعتبر مسؤولية العالم به، التي تفرض عليه أن يبينه للناس ولا يكتمه عنهم، فإذا لم يقم بمسؤوليته، كان مستحقاً للعذاب وللبعد عن الله، ولم تذكر لنا الآيات أي اشارة إلى اختصار المسؤولية في بيان العلم وعدم كتمانه، بالحالات التي يطلب منهم ذلك بسؤال أو بغيره، بل الظهر أن الحكم شامل لجميع الحالات.

وقد نستوحي من ذلك، أن مهمة العلماء الذين أتاهم الله الكتاب وعرفهم إياه، بما رزقهم الله من وسائل المعرفة، هي امتداد لمهمة الأنبياء،

سواء في ذلك، شؤون العقيدة أو شؤون الحكم الشرعي وهذا هو ما يظهر من الآية الأخيرة التي اعتبرت بيان الكتاب وما فيه، عهداً بين الله وبين الذين أوتوا الكتاب.. مما يوحي بأن عليهم أن يتسلموا زمام المبادرة فيه ولا ينتظروا أن يسألهم الناس عنه.. لا سيما في الحالات التي لا يلتفت الناس فيها إلى طبيعة الحق ليسألوا عنه، لأنهم لا يعرفونه، من ناحية المبدأ، أو من ناحية التفاصيل ليثير في أنفسهم علامات الاستفهام وقد يحاول البعض أن يجعلوا هذه الآيات واردة في كتمان اليهود لعلامات النبوة الواردة في التوراة عن النبي محمد ﷺ فلا يجوز لنا أن نسير بها إلى أبعد من ذلك في القضايا الأخرى.. ولكننا نعلم أن هذه الآيات قد حملتهم المسؤولية في هذا الأمر الخالص، من خلال انحرافهم عن المبدأ العام والمسؤولية العامة، في كل ما يحتاجه الناس مما هو مذكور في الكتاب..

ومن الطبيعي أننا لا نعقل فرقاً في المسؤولية بين اليهود فيما يعرفونه من الكتاب، ولا يبينونه للناس، وبين المسلمين فيما يعلمونه ويكتمونه.. من دون فرق بين أن يكون السبب في ذلك، الطمع المادي، أو المحافظة على المركز، أو الكسل وحب الراحة والسلامة.. ومن الأحاديث ما رواه في الكافي عن رسول الله ﷺ:

«إذا ظهرت البدع فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله».

فقد نفهم منه أن عليه القيام بمهمة اظهار العلم انطلاقاً من حاجة الموقف إلى ذلك لمواجهة التحديات التي تطلقها البدع، لا استجابة للسؤال العادي من الجاهلين، لأن انتظار ذلك لا يفي بعملية المجابهة القوية للتيارات الكافرة أو الضالة.. فقد يجهل الناس من أمر هذه البدع، ومن تضليلاتها، الشيء الكثير، لأنها لا تقوم للناس بشكلها السافر الذي يوحي بردات الفعل العفوية التي تحدث لديها دفاعاً عن إيمانها، بل تعرض عليهم

في اطار لا يبتعد عن أساليب الحق وأفكاره كما تحدث الإمام علي (أمير المؤمنين) عن ذلك فيما روى عنه في بعض خطبه: «أيها الناس إنما بدوء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع يتولى فيها رجال رجالاً فلو أن الباطل خلص لم يخف على ذي حجى، ولو أن الحق خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا وذاك. فيمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه ونحن الذين سبقت لهم من الله الحسنى»(١).

وفي ضوء هذا نستطيع أن نقرر مسؤولية الدعاة الإسلامية، في ملاحقة الأضاليل والبدع والشبهات والخرافات التي تتعرض لها الأمة من قبل المبدعين والمضللين والمشككين والجهال لمحاربتها وكشفها للناس، واظهار ما فيها من زيف وانحراف وخداع وتضليل، لأن اهمال ذلك والوقوف منه موقف اللامبالاة يسمح لها بالامتداد والانتشار والنفاذ إلى عقول الناس وأفكارهم، ويدفع بها ـ بالتالي ـ إلى أن تدخل في صلب العقيدة كشيء مقدس لا يملك الإنسان أمامها ـ مستقبلاً ـ إلا الاستسلام أو اعلان الحرب عليها في مجابهة لعناصر الانحراف من الداخل.. ومن الأحاديث التي تمثل الدعوة إلى الدخول في مجابهة القوة ضد أهل البدع، ما رواه صاحب الكافي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا رأيتم أهل البدع والريب من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم حتى لا يطمعوا في الفساد في الإسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلمون من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات»(٢) فقد أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث أن يبدأ الناس الحملة المضادة على أهل البدع والريب، من كل جانب، فلا

---

(١) الكافي ج١ ص ٥٤.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٧٥.

تقتصر على الأسلوب الذي يجابه الفكرة، بل يمتد إلى الأسلوب الذي يتحدى الذات ليشوه صورتها في نظر الآخرين كعملية وقائية يقوم بها الدعاة، ولشلهم عن الحركة والتأثير في حياة الناس وأفكارهم.

٦ ـ إننا نلاحظ في الاتجاه السلوكي لأمثال هؤلاء الذين يمثلون تلك الفكرة، أنهم يفضلون التفرغ للعبادة، والانقطاع إلى الصلاة والدعاء والتهجد، أو التنقل بين الأماكن المقدسة للحج أو للعمرة، وزيارة قبور الأنبياء والأئمة والأولياء، ولكنهم في الوقت نفسه يضيقون بمستلزمات العمل الديني التوجيهي، أو يقتصرون على الأساليب التقليدية التي اعتادوها أو اعتادها الناس منهم، ولا يجهدون أنفسهم البحث عن وسائل جديدة، وأساليب جديدة لأنها قد تكلفهم تعباً وعناءاً وجهداً لا يريدون أن يثقلوا أنفسهم به وفي ضوء ذلك نقدم أمامهم الملاحظات التالية:

أ ـ أن هذا السلوك يعطي للمؤمنين الطيبين انطباعاً خطيراً ينعكس على التصور الإسلامي للحياة، فيعتبرون الجانب التعبدي أساساً للتقييم الديني الإسلامي للأشخاص، ولا يرون لأي عمل آخر في مجال الدعوة إلى الله، وفي خدمة المجتمع في حقول الاجتماع والسياسة والاقتصاد، أية قيمة دينية... بل ربما يحاولون أن يصنفوا هذه الأعمال، في عداد القيم الدنيوية، التي يتولى أهل الدنيا تقييم بعضهم البعض على أساسها، بعيداً عن الدين، مما يوجب الانحراف في التصور من جهة، ويفسح المجال لظهور بعض الأشخاص المزيفين الذين يتوصلون إلى الحصول على الثقة الاجتماعية الدينية من خلال ممارسة هذا اللون العبادي من السلوك... باعتباره مفتاحاً للدخول إلى أجواء القداسة الدينية في تصور الناس المتدينين.

ب ـ إن دراسة النصوص الدينية، التي تتحدث عن الجوانب العامة للدعوة، وعن الأوضاع الاجتماعية التي تحتاج إلى تقديم الخدمات، وإلى

الحالات الإنسانية التي تنتظر المعاونة والمساعدة، تدلنا على اهتمام الإسلام بها، وتقديمه لها على كثير من أنواع العبادات، من حيث القيمة الدينية عند الله سبحانه وتعالى، كما في الحديث الذي ذكرناه في بداية هذا الحديث «يا علي لئن يهدي الله بك شخصاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس»، وكما ورد في حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «لأن أعول أهل بيت من المسلمين أسد جوعتهم وأكسو عورتهم واكف وجوههم عن الناس أحب إلي من أن أحج حجة وحجة وحجة حتى عد عشراً ومثلها حتى بلغ السبعين»[1].

فإننا نستوحي من هذا وذاك، إن طريق الوصول إلى الله لا ينحصر بالجوانب العبادية كقاعدة كبرى للتقييم الإسلامي، بل ربما نجد الكثير الكثير منها مما يدخل في اطار الدعوة والمجتمع، في مركز أفضل وأقوى وأقرب إلى الله... ولعل من واجب علماء الدين، أن يجسدوا القيمة الدينية في سلوكهم العملي، في طبيعتها الذاتية، وفي درجتها الدينية، في مركز القيمة ليعرف الناس تفاضل الأعمال في حساب القيمة، بالعمل، كما يعرفونه بالكلمة والأسلوب.

ج ـ إن سلوك هؤلاء الناس، ازاء قضية الدعوة، في هذا الاطار السلبي، يوحي لنا بالطبيعة السلبية لهم في مواجهتهم للمسؤوليات الكبيرة، ويخلق عندنا احساساً بأن القضية الدينية ـ في مفهومهم ـ لا تتعدى الروتين، أو «العادة» من دون أن يكون لها جذور في أعماقهم وفي مشاعرهم، مما جعلهم، بطريقة لا شعورية، يعتمدون على التحليلات والتأويلات البعيدة التي تخلق لديهم راحة التبرير، وطمأنينة العذر.. ويعتقدون بأنهم إذا استطاعوا أن يقعنوا أنفسهم، فليس من الضروري أن يحصلوا على قناعة الناس. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه أمامهم.. هل يعتقدون أنهم

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٣.

يستطيعون اقناع أنفسهم بذلك، ما دامت الحياة والشريعة تفرضان على الإنسان أن يواجه الحياة من موقع الإيجابية المتحركة، لا من موقع السلبية الانهزامية، التي تعتزل الحياة في غيبوبة صوفية خاشعة.

٧ ـ إن الأغلبية من هؤلاء الذين يمارسون الحياة العملية في استرخاء لذيذ، يسمح لهم بأن يعطوا أنفسهم أوقاتاً إضافية لكي يتفضلوا على الرسالة بالعمل الذي يتفق مع مزاجهم قد (كلفوا) (بيت مال المسلمين) مالاً كثيراً، من أجل دراستهم وحياتهم العلمية التي قد تمتد إلى ما يزيد على العشر سنوات قليلاً أو كثيراً. . . فإن المصاريف في هذه الفترة، تؤخذ من الحقوق الشرعية التي يدفعها المؤمنون، كفريضة دينية مقدسة، أما السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المجال: ما هي الفائدة التي يجنيها الإسلام من دراسة هؤلاء الناس، ومن وجودهم بالذات، في حركته ونموه وتقدمه. . وهل يمكن أن يكتفي في تحصيل القناعة بذلك، أن نذكر المستوى العلمي في تحقيق الفقه وأصوله، من دون حركة علمية حتى في هذا المجال. . وهل يكفي هؤلاء أن يبرروا ذلك بأنهم يعملون على تربية أنفسهم، لتكون الدراسة شأناً ذاتياً لهم، إذاً لماذا يحملون (بيت مال المسلمين) المعد للمصالح العامة للمسلمين هذا الجهد الكبير، وهل يجوز لنا أن نحرم القضايا العامة أو الفئات المحرومة أو الجماعات العاملة للإسلام لتعطيه لجماعات (تتفضل) على الإسلام، بأنها تدرس شريعته وإن لم تفده هذه الدراسة شيئاً بشكل عادي، إننا قد نفهم أن يمارس الإنسان حريته في العمل، إذا كانت ثقافته الدينية مدفوعة التكاليف من ماله الخاص، أما إذا كان من مال الأمة. . فإنه يخضع في حركته لما تمليه مصلحة الأمة عليه في حاضرها ومستقبلها. . تماماً كما نجده لدى الدول التي تقدم لبعض الطلاق منحاً مالية للتخصص العلمي من أجل أن يخدموا الأمة فيما تحتاج إليه من اختصاصاتهم في مدة قد

تطول وقد تقصر. . وبهذا تخرج القضية عن دائرة التكليف الشرعي، الذاتي، لتدخل في نطاق القيام بالمسؤولية الإسلامية في مقابل الخدمات التي قدمها إليه الإسلام في دراسته الطويلة.

وفي نهاية المطاف، إننا نشعر بأن الإسلام في المراحل الصعبة التي يمر بها من وجوده، يحتاج إلى كل طاقة من طاقات اتباعه مهما كانت صغيرة، ليستطيع من خلال تجميع هذه الطاقات وتفجيرها، من مواجهة التحديات الكبيرة التي تستهدف القضاء عليه، أو احتواءه وتسخيره لخدماتها، ولذا فإننا نعتقد أن تجميد أية طاقة إسلامية، يؤدي إلى اضعاف قوة الإسلام في معركته المصيرية التي تحولت إلى معركة حياة أو موت، مما يجعل مواقف المترددين والمنعزلين والخائفين تلتقي في صعيد واحد مع قوى الكفر والضلال والانحراف، في اضعاف الإسلام بين المؤثرات الإيجابية التي يمارسها أعداؤه، وبين المؤثرات السلبية التي يمارسها أتباعه، ولن نحتاج إلى التفكير طويلاً لنعرف أن هذا الموقف يعتبر خيانة للإسلام، وإن لم يلتفت أصحابه إلى طبيعته ونتائجه وانعكاساته على وجود الإسلام ومصيره.

●□●□●

الثقافة للإسلام لا للمزاج الذاتي

هل يملك الداعية الذي أوقف حياته على الدعوة إلى الإسلام، أن يجعل ثقافته خاضعة لمزاجه الذاتي فيما يحبه وفيما يرغبه، مما ينفع الدعوة أو يضرها، أو لا يفيدها على الأقل، أو لا يملك من حريته إلا ما يتفق مع حاجة الدعوة في مسيرتها الصاعدة المتحركة..

ربما يحسب بعض الناس أن الداعية إنسان، له كل ما للناس الآخرين من رغبات ومشتهيات وحاجات ذاتية تنطلق معها نفسه، ويصفو بها مزاجه، وترتاح لها حياته، فيجوز له أن يمارس منها ما لا يحرمه الشرع، وما لا يسخط الله من الأمور المباحة، فإن للنفس أن تأخذ برخص الشريعة، كما أن عليها أن تمتنع عن محظوراتها، سواء في ذلك ما يأكله أو ما يشربه أو ما يلبسه أو ما يقرأه وما يتعلمه.. ويبقى له بعد ذلك مجال كبير في الوقت الذي يعمل على أن يستغله في الثقافة اللازمة له في شؤون العقيدة والشريعة..

١ ـ حاجة الداعية إلى ثقافة عامة هادفة:

ولكننا نعتقد أن القضية لا تخضع لهذا الاتجاه في معالجة هذا الواقع، لأننا لا نطلب من الداعية الإسلامي أن يحصر نفسه في الإطار الثقافي

الإسلامي، بالمعنى الذي يحدد له قراءته في الأمور الإسلامية الخاصة من كتاب أو سنة أو فقه وغيرها، من الأمور التي تتصل بالعقيدة والشريعة والمفاهيم العامة.. فنحظر عليه المشاركة في الثقافة الأدبية والاجتماعية والنفسية والفنية، أو الثقافة العلمية المتعلقة بشؤون الطبيعة وظواهرها وأسرارها، إننا لا نتطلب منه أن يحصر نفسه في هذا الاطار الضيق من المعرفة.. لأن ذلك سوف يبعده عن فهم الإسلام نفسه، لحاجاتنا الماسة إلى كثير من هذه الثقافات في تعميق معرفتنا الإسلامية ومدى سلامة حلوله العمليّة لمشاكل الحياة فإذا لم يكن لدينا بعض المشاركة في قضايا النفس والمجتمع، لم نستطع فهم كثير من التشريعات في الشريعة، أو كثير من الظواهر الفردية والاجتماعية في حياة الناس، وإذا لم نحصل على الثقافة الأدبية التي تتجاوز القواعد النحوية والصرفية والبلاغة إلى الحس الأدبي الصافي الذي يلتقي بالمضمون في صفائه ونقائه من خلال احاطته بالعناصر الأصيلة التي يكشف فيها الشكل عن طبيعة المضمون، وهكذا في المجالات الأخرى للمعرفة.

بل كل ما نحاوله هو أن يكون الداعية هادفاً فيما يأخذه من أسباب الثقافة، فيدرس حاجته منها تبعاً لحاجة الدعوة إلى ذلك، ثم يطبع كل ما يحصل عليه من ألوان المعرفة بطابع إسلامي، فينظر إليها بعين مفتوحة على الحياة من خلال ارتباطها بالإسلام، وارتباط الإسلام بها، ويدرس حاجة الدعوة إلى ذلك، من خلال المجال الذي تتحرك فيه الدعوة، فقد تمس الحاجة إلى بعض الثقافات التي لا يحتاج إليها العمل من حيث هو دعوة إلى الله ولكن يحتاج إليها العاملون في حياتهم العملية التي يتحركون فيها من أجل المعاش. فلا يجدونها إلا عند الذين يستغلون حاجتهم إليهم، فيضغطون عليهم من أجل الانحراف، أو يضللونهم فيما لا خبرة لهم فيه ولا معرفة لهم به، أو يربكون خطاهم فيدعونهم عرضة للحيرة والقلق والضياع

بشكل يدمر طاقاتهم المتطلعة إلى خدمة الله، في خدمة دينه القويم، فقد يجد العاملون أنفسهم في حاجة إلى أن يأخذوا بأسباب هذه الثقافات، لينقذوا اخوانهم من خطر الوقوع في التجربة المريرة، فيبعدوهم عن خطوات الضلال، أو ليدفعوا الآخرين إلى أن ينفتحوا على الإسلام من خلال انفتاحهم على لعلاقة الثقافية بالعاملين للإسلام، كما نلاحظه في الطريقة الذكية المدروسة التي انطلق بها التبشير في البلاد الإسلامية وغيرهما عندما كان يلبس الأقنعة العلمية التي تخفي وراءها الطابع التبشيري لأصحابها، فيدخلون المعاهد والمراكز التربوية كمدرسين للفيزياء أو الكيمياء أو الرياضيات وغيرها مما تحتاج إليه البلدان المتخلفة في بناء حياتها من جديد على أساس من العلم والمعرفة، فتكون النتيجة أن تلتقي العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها بالتبشير على صعيد واحد، من أجل صنع شخصية المواطن على صورة التبشير، في وسائله وأهدافه الدينية والسياسية.. ونحن لا نقلل من قيمة هذا الأسلوب، بل نشعر بنتائجه الكبيرة على الطبيعة.. وربما كان المسلمون الأولون قد أخذوا ببعض نصيبهم من ذلك فكانت مشاركتهم في كثير من علوم الفلسفة والطبيعة سبيلاً إلى دخولهم إلى كثير من الشعوب والأمم بصورة مباشرة، بارتباطهم بهم شخصياً، أو بصورة غير مباشرة، بارتباط ثقافتهم بهم في عملية تفاعل وتأثر حضاري يرتكز على الثقافة العامة والخاصة.

٢ ـ مخاطر انطلاق الداعية في مجالات الترف الفكري:

إننا لا نريد أن نحدد للداعية ثقافته، بل نريد له أن يدرس موقعه، ويتخذ لنفسه من الثقافة ما يتناسب مع هذا الموقع من ناحية الحاضر والمستقبل، وأن يبتعد ـ مهما أمكن ـ عن كثير من أنواع المعرفة التي تدخل في اطار الترف الفكري الذي عبر عنه النبي محمد ﷺ في بعض أحاديثه

مع أصحابه، فقد روى عنه أنه دخل ذات يوم على المسجد فرأى المسلمين مجتمعين حول رجل يحدثهم فيستمعون إليه باصغاء وشغف فقال لهم النبي ﷺ ما هذا فقالوا: علامة قال ﷺ: وما العلامة، فقالوا إنه عالم بأنساب العرب وأيامها وأشعارها فقال لهم النبي ﷺ ذاك علم لا ينفع من علمه ولا يضر من جهله، إنما العلم ثلاثة آية محكمة وفريضة قائمة وسنة متبعة[١].

ولعل من الطبيعي للإنسان أن لا يأخذ بأسباب الترف، ويترك ما هو بحاجة إليه، لأنه يكون بمثابة الإنسان الذي يبحث عن الكماليات وهو بحاجة إلى الضروريات، أو الذي يطلب الترف، وهو لا يمسك نفسه من السقوط تحت وطأة الجوع..

إن الانطلاق مع الرغبة في الترف الفكري يفوت على الإنسان كثيراً من الجهد الذي ينبغي أن يصرفه فيما يحتاج إليه من معرفة عملية مرتبطة بحركة الدعوة الإسلامية في الحياة، لأن الإنسان لا يملك الوقت الذي يسمح له باستيعاب المعرفة وشمولها لكل شيء، فلا بد له من الدخول في عملية الاختيار وتقديم الأفضل فالأفضل، أو الأشد حاجة حسب الأفضليات ليستطيع الإنسان أن يصل إلى هدفه في أقل قدر ممكن من الوقت والجهد معاً.

ولعل من هذا اللون من الترف الفكري، هو ما كان يخوض فيه الكثيرون من العلماء المسلمين القدامى من ألوان المعرفة اللفظية التي تدير الفكر في حل الألغاز اللفظية، أو في تعقيد الأسلوب العلمي للحصول على الدقة الفكرية في فهم الألفاظ وتخريجها على أكثر من معنى أو احتمال مما يتعب الفكر ويجهده في أمور لا غناء فيها ولا فائدة بل كل ما هناك أنها تعطيه

(١) الكافي ج١ص ٣٢.

مزيداً من (الحذلقة) والشطارة، والغيبوبة الطويلة في ضباب الألفاظ، وكثيراً ما يلتقي الطلاب ـ في هذا الجو بالتحقيقات والتدقيقات التي تدير الفكر حول سبب التعبير بهذه الكلمة، ولماذا لم يختر الكلمة الأخرى وما هو المحذور في هذا، وما هو المحذور في ذاك، ويضيع الطلاب في هذا الخضم من الاحتمالات التي يتيه فيها الفكر ويضيع حتى ليحار بعد ذلك فيما يأخذ وفيما يدع. . وما ندري ما هو الذي يدفعهم إلى هذا اللغو الفارغ. . إننا لا نملك تفسيراً له إلا التخلف الذي يسخر الفكر إلى آفاق مظلمة تبحث عن الضوء الباهت في دياجير الظلام، ويبتعد عن الآفاق المضيئة التي تنفتح على النور وهو يطرد كل شبح من أشباح الليل بكل قوة. .

ومن الظريف الطريف أنهم يعللون ذلك بالحاجة إلى تشريح الفكر وتشقيقه، كسبيل من سبل الحصول على العمق والدقة في الفهم والاستنتاج ومواجهة القضايا الفكرية المعقدة. . ولكن ما ندري هل فقدنا القضايا الفكرية الدقيقة النافعة لنا في مجالاتنا الإسلامية العامة، التي يمكن لنا أن نخوض فيها، ونثير فيها تفكيرنا، وننطلق معه في عملية تدريبية منتجة. . هل يتوقف الحصول على هدف تعميق الفكر وتدريبه، على الدخول في دهاليز الألفاظ المعتمة التي تتنوع مداخلها ومساربها ومحتملاتها. إن الواقع الفكري يرفض ذلك لأن فيما يواجهنا من قضايا المضمون والمعنى أكثر من جانب نلتقيه، وأكثر من منطلق يطوف بنا في آفاق الفكر ومجاهله. . وقد شارك هذا الأسلوب في عرض الأفكار العلمية، وفي الوقوف أمام هذا التيه من الاحتمالات للفظ الواحد. حتى لا يستقر على احتمال. . في ارباك الذوق الأدبي، في فهم اللغة العربية بالاعتماد على ظواهرها لأن الفكر لم يعد يواجه النصوص في صفاء، بل أصبحت الاحتمالات تقفز إلى ذهنه قبل أن يواجه النص في عملية استنطاق طبيعية، وقد انعكس ذلك على فهم الشريعة، وأحكامها ومفاهيمها، حيث ارتبكت مداليلها في ذهنه، وانحرفت عن

مجراها الطبيعي في قناعاته. . ـ هكذا بدأنا نعاني من كثير من الفهم القلق للنصوص الدينية في الكتاب والسنة، كنتيجة للاتجاه اللفظي في مواجهة قضية (الشكل والمضمون) مما جعلنا نواجه بعض الاجتهادات الفقهية، الخاضعة لهذا الاتجاه، التي تبتعد عن روح الشريعة وحيويتها، تبعاً لبعدها عن روح النص وظاهره. .

ولعل من بين هذه الألوان المترفة أو المنحرفة من الممارسة الثقافية لدى بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، هو ما نلاحظه من اهدار طاقاتهم الأدبية وغيرها في مجالات بعيدة عن الأجواء الإسلامية العملية، بل ربما تكون. . في بعض الحالات ضد هذه الأجواء، كما نلاحظه لدى بعض الذين يملكون الموهبة الشعرية أو القصصية أو الفنية، عندما يوجهونها في خطوط تنطلق من القواعد الفكرية غير الإسلامية أو لا تنفع في اغناء الحياة في تصوراتها وانطلاقاتها بأي معنى إسلامي يوحي للآخرين بواقعية التصور الإسلامي للحياة وجماله، أو تضاد هذه التصورات أو المفاهيم، كما نجده في كثير من النتاج الأدبي، بألوانه المتنوعة، يتحرك في خطوط ماركسية في النظرة إلى الأحداث وفي مفردات التعبير أو يتحرك في اطار الفلسفات القديمة، كاليونانية مثلاً، التي كانت تعيش في خيال الآلهة المتعددة المتنازعة المتصارعة، فنجد في انتاج البعض منا، مفردات إله الحب وإله الخير وإله الشر وإله الجمال. . وغيرها من المفردات التي تعبر عن أساطير «آلهة الأولمب» وقد نجد كلمة «العبادة» خطاباً للحبيبة أو الحبيب، كما قد نلاحظ كلمة ناقوس الخطر المنطلقة من الاتجاه المسيحي. . فإذا انطلقنا من هذا الأسلوب، فإننا نلتقي بالأغراض التي تحكم الشعر أو القصة أو غيرهما فنلاحظ الاغراق في الغزل، أو الاتجاه إلى الغزل المكشوف، أو إلى التفكير التشاؤمي، أو الانطلاق في الأغراض السياسية في الاطار القومي أو الاقليمي أو غيرهما مما لاعلاقة له بالمضمون الإسلامي للتفكير، بل هو ضد هذا

المضمون في أكثر من مجال. وقد يبرر البعض ذلك، بأن شخصية النان شيء وأدبه شيء آخر، فلا مانع من أن يمارس في أدبه ما لا ينسجم مع الخط الفكري أو العملي لشخصيته، لأنه في اطار الشخصية يمارس حياته، أما في اطار الأدب فهو يصور الواقع ويجسد الفن الأصيل..

ولكننا نعتقد أن الأدب صورة الشخصية، كما هو صورة الواقع، بل ربما كانت قيمة الفن الأدبي، بمختلف أنواعه، أنه يعطي الواقع صورة حية من الداخل، ليستطيع أن يحرك الواقع في داخل ذاته، من أجل أن يتحرك في خارج الذات كما يريد.. ثم إننا نتكلم عن الأديب، من خلال شخصيته كداعية، يعتبر الحياة مجالاً لرسالاته، بكل ألوانها وجوانبها وثقافتها وفنها، فلا يمكن أن ينفصل فيه جانب الأديب عن جانب الرسالي، لأن الرسالة ليست شيئاً غريباً عن الحياة في امتدادها وسعتها، وتلونها باللون الرائع من الابداع، وليست بعيدة عن مطاح الإنسان ومطالبه في كل ما يرغبه وفي كل ما يشتهيه، وفي كل ما يحلم به، فبامكان الأدب أن ينطلق ليبدع في أكثر من مجال فإن الرسالة.. التي انطلقت من روعة الابداع في الكون حيث التقت، ـ من خلاله ـ بخالق الكون، في عملية معرفة وعبادة، تعرف أكثر مما يعرف الآخرون، كيف تكون الكلمة المبدعة طريق الإنسان إلى فهم الحياة والالتقاء بخالق الحياة.

إننا لا نريد من الأديب أن يفتعل الفكرة الملتزمة، ليكون ملتزماً، فإن ذلك ضد رسالة الأدب المرتكزة على العفوية والابداع، بل نعتقد أن الرسالة، حين تمتد في وعي الأديب وضميره وفكره، تحول كيان الإنسان إلى الالتزام العفوي الذي ينساب مع النفس بكل بساطة واندفاع.

وخلاصة الفكرة:

إن مسؤولية الداعية المسلم تنطلق من احساسه بالحياة وهي تتحرك في اطار الرسالة وفي ضوء ذلك نشعر بأن المزاج الذاتي، بكل تطلعاته ورغباته، لا يمثل شيئاً بالنسبة إليه إلا بقدر ارتباطه برسالته فلا بد له أن يثير الرسالة في كل قضاياه الثقافية، فيسخر الثقافة لها، فيما يأخذه وفيما يمارسه، فلا يستريح فيه إلى ترف لا يجني منه إلا العبث، ولا يطمئن للنزوات الفكرية التي تستسلم لأوضاع الانحراف وخطوطه بعيداً عن خط الرسالة وتطلعاتها في الحياة، مما يسيء إلى عمله فيها وجهاده من أجلها، أو يضيع جهده فيما يحتاج إلى عمله فيها وجهاده من أجلها، أو يضيع جهده فيما يحتاج إلى أن يربحه ويحصل عليه كضرورة عملية، لأننا نؤمن بأن ما يملكه الداعية من وقت وجهد وفكر، هو للرسالة، فحسبه من حياته وقوته ومواهبه أنها تحقق له فكره ورسالته وتجسد له أهدافه الكبيرة في الحياة.

●□●□●

الثقافة في خط الإسلام
لا في خطّ الانحراف

١ ـ التركيز على المقياس الحقيقي للتمييز بين الخط المستقيم والخط المنحرف (بين الحق والباطل):

إن النظرة الإنسانية للحياة، وللمفاهيم وللتشريع تختلف حسب اختلاف المقياس الذي يقيس به الإنسان الأشياء في ضوء مفهومه عن الكون والحياة، الذي يتكون لديه من الجذور العميقة للمعرفة فتتحدد من خلال ذلك، خطوطه التي يتحرك فيها أو يسير عليها، وعلاقته بالقضايا الإنسانية العامة والخاصة.. وعلى هذا الأساس، ربما ينبغي لنا أن نتباع قراءتها بحذر، ونواجهها بوعي. لأننا قد نستسلم إلى بعض أفكارها فنألفه ونستسيغه ونتبناه، من دون التفات إلى ارتباطه بالإسلام أو ابتعاده عنه، لغفلتنا عن العلاقات التي تحدث بين الأفكار سلباً أو ايجاباً مما يجعلنا نأخذ كل فكرة بشكل مستقل عن الأخرى فنصطدم في نهاية المطاف بالحقيقة الصارخة التي تشعرنا بأننا نرفض حكم الإسلام، باسم الفكر الإسلامي أو نتبنى مفهوماً مضاداً للمفهوم الإسلامي، باسم القيم الإسلامية.

وقد حدثت بعض هذه الممارسات في التاريخ الإسلامي، حيث أدت الانطباعات الذاتية الحاصلة من قراءة معينة أو ثقافة خاصة، إلى أن يرفض الإنسان حكماً شرعياً ينسجم مع الخط العريض الذي يؤمن به. ويتبنى حكماً

آخر يختلف من منطلقات مذهبه الشرعي وذلك في قضية اجتهادية اختلف فيها مذهب أهل البيت مع مذهب غيرهم من مذهب أهل السنة، وهي قضية القياس، من حيث هو دليل اجتهادي على الحكم الشرعي بالإضافة إلى الأدلة المعروفة لدى المسلمين، العقل والاجماع والسنة والكتاب ـ أو أنه لا يصلح حجة على الحكم الشرعي فقد عارض أئمة أهل البيت وقالوا: «إن السنة إذا قيست محق الدين» وذهب أبو حنيفة وأتباعه إلى حجيته واعتباره. ولما كان القياس أمراً مألوفاً لدى الناس في حياتهم العادية فقد انسجموا مع الرأي الذي يقره كدليل من أدلة الأحكام. وساعدهم في ذلك الضغط الذي مارسه الحكام المسلمون من خلفاء بني العباس. لابتعادهم عن خط أهل البيت عليهم السلام. ومحاولتهم ابعادهم عن الساحة الفكرية الاجتماعية كأسلوب من أساليب أبعادهم عن الساحة السياسية.. فأدى ذلك إلى أن يشيع هذا الاتجاه في حياة الناس وأفكارهم ويتقبلوه بشكل عفوي وطبيعي. وقد كان من هؤلاء الناس الذين تأثروا به وانطبعوا بطابعه أحد الأشخاص الذين يتبعون أهل البيت عليهم السلام في فهمهم للإسلام. وفي شرحهم لشريعته فقد سمع ببعض الأحكام الشرعية المروية عن الأئمة عليهم السلام فاستنكره «تلقائياً»، واعتبره غريباً عن القاعدة الفكرية التي ارتضاها لنفسه، لغفلته عن طبيعة الجذور التي يرتبط بها وتنطلق منها الفكرة، ولنستمع إلى الحوار الذي دار بين هذا الرجل وهو ابان بن تغلب، وبين الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال ابان بن تغلب: «فيما روي عنه» قلت: رجل قطع اصبعاً من أصابع المرأة كم فيها من الدية. قال: «عشر من الابل»، قال: «قلت قطع أصبعين، قال: «عشرون» قلت: قطع ثلاثاً، قال: «ثلاثون»، قلت قطع أربعاً، قال: «عشرون» قلت: قطع ثلاثاً، قال: «ثلاثون»، قلت قطع أربعاً، قال: «عشرون» قلت: سبحان الله يقطع ثلاثاً فيكون عليه ثلاثون ويقطع أربعاً فيكون عليه عشرون، كان يبلغنا هذا ونحن بالعراق فنبرأ ممن قاله ونقول:

الـذي جـاء بـه شيطـان قـال الإمـام عليه السلام: «مهـلاً يـا أبـان هـذا حكـم رسول الله صلى الله عليه وآله إن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية فإذا بلغت الثلث رجعت إلى النصف يا أبان إنك أخذتني بالقياس والسنة إذا قيست محق الدين»(١).

فقد رأينا كيف انطلق هذا الرجل بطريقة عفوية في رفض الحكم الشرعي الذي جاء به أئمة أهل البيت عن رسول الله صلى الله عليه وآله بكل قوة، لأنه كان يختلف عما ارتكز عليه في فهمه للشريعة وهو مبدأ القياس، وقد غاب عن ذهنه أن القياس مرفوض عند أهل البيت عليهم السلام الذين يدين الله بحبهم وإمامتهم، لأنهم يرون أن دين الله لا يصاب بالعقول، ويعتقدون أن «لا شيء أبعد عن دين الله من عقول الناس»، لأن مناطات الأحكام أو حيثياتها التشريعية ليست في متناول الناس، ولم يبينها لهم صاحب الشريعة ليرتكزوا في ذلك على أساس من حجة أو دليل، فلم يعد أمامهم إلا الظن والحدس والتخمين يخوضون فيها خوض الحائرين فيجمعون بين الأمور المتشابهة في جهة من الجهات، في حكم واحد، ظنا منهم أن الحكم المتعلق بالأصل هو الأساس في تشريع الحكم فيعتبرونه للفرع. نظراً لاتحاد الصلة.. ولكن أهل البيت عليهم السلام يرون أن الظن لا يغني من الحق شيئاً، كقاعدة عامة، لا بد لنا في الخروج عنها من دليل خاص، ولا دليل، ويرون أن عملية الحاق شيء بشيء في حكمه. تتوقف على احراز الصلة بشكل قطعي. فإذا لم يحصل القطع فلا بد لنا من التوقف لأن مشابهة شيء لشيء لا تقتضي اتحادهما في الحكم في أية حالة من الحالات إلا إذا كانت المشابهة من جميع الجهات وعرفنا أن حيثية التشريع هي جهة الاشتراك.

ومهما كان الموضوع.. فلسنا هنا من أجل بحث قضية حجية القياس

(١) وسائل الشيعة ج١٩، ص ٢٦٨.

سلباً أو ايجاباً فلذلك محل آخر في علم أصول الفقه، ولكننا نهدف في حديثنا هذا، إلى الإشارة للمبدأ العام الذي نحاول تركيزه في دعوتنا إلى الله وهو أن الانحراف في تركيز القاعدة الفكرية الإسلامية على أساس ثابت مستقيم، يدعو إلى الانحراف عن الخط في حركة الفكرة المنطلقة أبداً نحو الهدف السليم مما يدعونا إلى الحذر فيما نقرأه وفيما نسمعه وفيما نتبناه من أكفار، فنوازن بينها وبين ما نملكه من أسس فكرية صحيحة ومفاهيم عامة شاملة ليخلص لنا الحق من الباطل والخيط الأبيض من الخيط الأسود، والخط المستقيم من الخط المنحرف. . .

وهناك مثل آخر يسبق في تاريخه المثل المتقدم، فقد حدث في عهد خلافة الإمام علي عليه السلام أن جاءه أحد الأشخاص ليحاوره في موضوع حربه لأهل الجمل في البصرة، فطرح عليه هذا السؤال الانكاري: «أتراني أظن أن أصحاب الجمل كانوا على باطل» فأجابه الإمام ـ وقد عرف نقطة الضعف في فهمه للأشياء ـ «يا هذا إنك نظرت إلى فوقك ولم تنظر إلى تحتك فحرت أنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه».

فقد كان هذا الرجل خاضعاً لفكره خاطئة تلح على فكره بقوة، وهي استبعاد ضلال الناس بمثل هذا العدد الكبير، فخيل إليه أن مجرد الكثرة كاف في فكرة الحكم بالضلال وبالباطل عليهم. . ولكن الإمام أجابه بالتركيز على القياس الحقيقي للتمييز بين الحق والباطل في حياة الناس، وذلك بمعرفة طبيعة الحق في ملامحه الفكرية، وطبيعة الباطل في خصائصه الذاتية، بعيداً عن عنصر الكثرة والقلة وبذلك يستقيم له الحكم، فترتكز القناعات الفكرية على أساس الرؤية الواضحة المحددة للمبادىء التي تحكم الأشياء لتكون أساساً للتقييم في جانب القلة والكثرة، لا على أساس النظر إلى طبيعة الكم

لنأخذ منها المبادىء التي تحكم الحياة[١].

٢ ـ دور القوة والاعلام الموجه في انحراف بعض مفكري الإسلام:

وربما نجد الكثير من النماذج البشرية التي تسير في هذا الاتجاه، في واقعنا المعاصر، فإننا نعيش في عصرنا هذا، معركة العدالة الاجتماعية، ضدَّ الأنظمة الطاغية والظالمة التي تشجع الإحتكار والطغيان، وتتعامل بالاثم والعدوان.. وقد تعددت الدعوات الاصلاحية والثورية في هذا المجال تبعاً للتيارات السياسية والاقتصادية التي تحكم القوى والحركات السائرة في سبيل هذا الهدف.. وقد انطلقت كل هذه التيارات، في حياة الناس، لتخوض المعركة الإعلامية التي تريد أن تربح قناعات الناس إلى فكرها وخططها وأهدافها العامة، فكان لكل واحدة منها أجهزة اعلامية، تحاول أن تشوه صورة الفريق الذي تريد أن تحاربه وتهزمه، بكل ما يحمل من أفكار وقيم وممارسات.. وتعمل ـ في مقابل ذلك ـ على أن تلفت الأنتباه إلى الصورة التي تجسِّد أفكارها وأهدافها، ولو في اطار ضيق من الحياة.. وكان الواقع المعاصر المشوه الذي تتمثل فيه صور الاحتكار والاثرة والأنانية والظلم والطغيان، بشكل بشع مخيف يرعب الناس، في منظره، ويسحقهم في مخبره.

وكانت الملكية الفردية «من بين القضايا التي أثارها الفكر الماركسي كهدف من الأهداف الاقتصادية التي يرتكز عليها واقع النظام الرأسمالي، المعاصر، من أجل أن يهزمها في نفوس الناس، قبل أن يهزمها من حياتهم، أو بالأحرى، أنه يدمر قداستها في نفوسهم كمقدمة لازالتها، من واقع الحياة وقد تركزت الحملة على الفكرة من خلال توجيه الأنظار إلى الملكيات

(١) محمد حسين فضل الله: الإسلام ومنطق القوة، فصل (القوة العددية).

الكبيرة الممتدة التي تسحق العمال والفلاحين في ظل ملكية الاقطاعيين والرأسماليين، وإلى المصانع التي تنتج الأسلحة لتدمر الحياة وتثير الفتن والحروب من أجل زيادة الرأسمال، وإلى المعامل التي تنتج الأدوات الاستهلاكية لتزيد الأسعار وتضخمها على حساب الفقراء والكادحين الذين لا يحصلون من الأجر بمقدار يفي بقوتهم في الوقت الذي يعاني فيه الرأسمالي من التخمة، ويمل فيه من الترف، الذي حصل عليه من جهد العامل وعرق جبينه.. ويظلون يلاحقون كل صغيرة وكبيرة ليدخلوا في عملية مقارنة يبرز فيها الظلم الصارخ والتفاوت الفاحش.. بين واقع القمة وواقع القاعدة.. إن صح التعبير.. ثم ينطلقون رأساً بعد أن تتضخم المشكلة ويتحول الشعور الإنساني ازاء هذا الواقع إلى ما يشبه القرف والتقزز والثورة عليه، فيطرحون عليه الحل السحري الوحيد الذي لا حل غيره، وهو «الاشتراكية» كهدف مرحلي والشيوعية «كحل أخير» فهي التي تحل التناقضات المتصارعة في المجتمع، وهي التي تحقق العدالة والمساواة بين الناس عندما تقضي على الطبقية، بازالة الفوارق الطبقية، فيتساوى الناس في العمل الذي يحقق للجميع الحياة كل الحياة.

وهكذا استطاعت هذه الأجهزة الاعلامية التي استغلت كل امكانيات الواقع للاستفادة منه في دعوتها إلى أفكارها، أن تجعل من فكرة «الملكية الفردية» شيئاً غير محبوب لدى الناس، أو بالأحرى فكرة مبغوضة في تفكيرهم.. وأصبحت «الملكية الجماعية» أو ما تعبر عنه «الاشتراكية» تمثل «العدالة الاجتماعية» المنشودة.

وبدأت هذه الأفكار أو هذه المشاعر تغزو أفكار المسلمين حتى المفكرين منهم، مما خلق لدى البعض منهم «عقدة مستعصية» ضد التشريعات التي تقر «الملكية الخاصة». أو ترفض بعض وسائل «الاشتراكية»

كالتأمين بالقوة.. وأصبحت «الملكية الفردية» تساوي «الرأسمالية» كما أصبحت مناقشة الاشتراكية أو رفضها من جانبها القانوني مناقشة أو رفضاً للعدالة الاجتماعية في مفهومها الإنساني.. وبدأ البعض من هؤلاء «المفكرين الإسلاميين» يفتش عن نص هنا، أو نص هناك يبرر لهم التصرف في ظواهر الآيات والأحاديث ليعطوا الإسلام لوناً من الاشتراكية، أو ليبعدوه عن الجانب الفردي للملكية، ليوحدوا بين الخطين أو ليقربوا بينهما.. وبذلك شاعت الكلمات التي تضفي على الإسلام هذه الصفة كتدليل على تقدميته وسبقه المبادىء الحديثة في التحضير لهذه الثورة، ولهذا الاتجاه في ممارسة العدالة.

٣ ـ الموقف العملي أمام هذه الانحرافات:

ونحن لا نريد أن نفيض فيما أفاض فيه البعض من المخلصين للإسلام الحق، المتحمسين له، من اتهام هؤلاء «المفكرين» بالمروق والخيانة والعمالة إلى غير ذلك من كلمات السباب والشتائم التي تعودنا اطلاقها بكل سهولة على كل إنسان يخطىء في فهمه لبعض الجوانب الإسلامية في العقيدة والشريعة أو ينحرف في تقييمه لبعض الأفكار مما يستفيد منه اتباع الأفكار الأخرى لانسجامه مع الخط العريض الذي يسيرون عليه.. إننا لا نريد الإفاضة في ذلك كله، لأننا نؤمن بأن الخطأ، أو الانحراف، لا يساوي الخيانة والعمالة دائماً لأنه قد يلتقي بالغفلة والجهل في بعض الحالات، كما قد يلتقي بالأغراض الشريرة.. وربما كان هؤلاء الذين ألمحنا إليهم من المغفلين أو الجاهلين، وإن ادّعوا لأنفسهم العلم الواسع الغزير، لأن قضية الجهل والعلم، قد تكون قضية وعي وذكاء قبل أن تكون قضية معرفة، إذ ربما يقع الإنسان تحت تأثير توجيه تدريجي معين يطبع فكره بطابع خاص في ظل خطة محكمة تستهدف محاصرة ذهنه وتطويقه من دون أن يشعر بذلك،

حتى يخيل إليه أنه هو الذي يقود نفسه بينما يكون العكس هو الصحيح حيث تكون الأجواء المحيطة به عنصراً ضاغطاً ينفذ إلى كيانه بهدوء واطمئنان.

وإذا أردنا أن نقترب من الصورة أكثر، فإننا سنجد الواقع يحتضن التيارين الرأسمالي والاشتراكي، اللذين يقف كل منهما إزاء الآخر، كما ألمحنا لذلك، ولا نجد للإسلام أثراً في مرحلته التطبيقية.. ونحن نحسّ بفظاعة الجرائم التي يفرزها النظام الرأسمالي، لأننا نعيش ـ معه ـ تجربة الاستعمار السياسي والاقتصادي، بينما لا نحس بأعمال النظام الاشتراكي إلا من خلال الدعايات التي يطلقها اتباع الرأسمالية، مما يخلق في نفوسنا رغبة في رفض التصديق بشكل لا شعوري، لأنها دعايات عدونا المباشر.. وهكذا تتظافر الجوانب الوطنية والاقتصادية والمشاعر الذاتية والإنسانية لإبعادنا عن ذلك وتقريبنا من هذا.. وفي مثل هذا الجو، لا يجد الإنسان أمامه المؤثرات الفكرية التي تجعله يراجع حسابات الكلمات التي تقال، أو الدعايات التي تعلن، ليفهم الفرق بين الملكية الفردية التي تقوم على أساس الاحتكار والاستغلال وبين الملكية الفردية التي تقوم على أساس الجهد والعمل، والشعور الإنساني بما تمثله من وظيفة اجتماعية إنسانية، ليعرف أن الإسلام يرفض النوع الأول، ويتبنى النوع الثاني من الملكية وبذلك لا تكون الملكية الفردية الشر كله، بل الشر في اساءة استعمالها من حيث مصادرها ومواردها، فلا ضرر من إبقائِها كمبدأ، بل الضرر كله من اعطاء الحرية للمالكين لكي يقوموا بما يشتهون من دون تقيد أو ر قابة أو ردع.. ثم يجد نفسه، لو أراد أن يسلك سبيل المعرفة، وجهاً لوجه أمام الملكية العامة، وهي ملكية الشعب التي قررها الإسلام للمواطنين، وملكيّة الدولة، التي جعلها للمؤسسة العامة التي تكفل لهم الخدمات العامة من إدارية وتربوية واقتصادية وسياسية وعسكرية.. مما يجعل الإسلام ثورة تشريعية تجمع بين كل أشكال الملكية في نظامه الرائع الحكيم.

ولسنا ـ على كل حال ـ في معرض التحليل الدقيق لهذا الجانب من موقف الإسلام من قضية العدالة الاجتماعية. ولكننا، في مجال الحديث عن تأثير الثقافة المضادة ـ التي لا يقف الإنسان منها ـ في البداية، موقف الحذر في رفض الإنسان ما لا يجوز له أن يرفضه، أو الاقتناع بما لا يحل له الاقتناع به من منطلق العقيدة، ليتعلم الإنسان كيف يقف من كل المواقف الثقافية المعروضة عليه، أو المحيطة به موقف الباحث الذي ينظر إلى هذه المواقف بعين ويتطلع إلى المواقف الإسلامية الفكرية بعين أخرى أكثر انفتاحاً ووعياً واخلاصاً. ليظل في موقع التوازن الحقيقي بين ما يأخذه من فكر، وبين ما يدعه من تضليل.

وقد نجد من الخير لهذا الحديث أن نختمه بمثال آخر، وهو التأثيرات الفكرية التي أخضعت تفكيرنا في مواجهته لكثير من القضايا إلى مبدأ الديمقراطية، فبدأنا ننظر إلى الحرية نظرة تنطبع بالطابع الديمقراطي الذي يرفض تقييد أي حرية من الحريات الإنسانية، لأي اعتبار كان، إلا فيما ندر، وفي وضوء هذا نرفض احترام القيود التي تفرضها بعض الدول الملتزمة فكرياً، على الحريات للمصلحة العامة، كما نحاول أن نتأمل في التشريعات الإسلامية التي تمنح الإنسان الحرية في نطاق خاص لا يتعداه، فلا تبيح له ممارسة الحرية في الافساد الخلقي والاقتصادي والديني والاجتماعي والسياسي وغيرها حفاظاً على مصلحة العقيدة والإنسان. . وبدأنا ننظر إلى طريقة نظام الحكم، فلا نجد احتراماً في أنفسنا لأي شكل من أشكال الحكم، إلا للأسلوب الديمقراطي، ومضينا ـ في ضوء هذا ـ نحاول أن نبحث عن الصيغ الملائمة التي تسبغ على الإسلام صنعة الديمقراطية للتدليل على سلامته وإنسانيته. ولكننا لا نحاول بأن نفتش عن الطريقة التي نكتشف فيها الجانب الإنساني للإسلام في قضية الحكم أو الحرية، بل إننا نحاول أن

نكتشف في الإسلام طريقة الغرب في فهمه للإنسانية في ممارسة الإنسان للحرية أو للحكم واعتباره النظام الديمقراطي أساساً لذلك، كنتيجة لتأثرنا بمفاهيمه فكان من نتائج ذلك أن تناسينا الفكرة التي تجعل من الحرية منطلقاً للنظام، لا للانفلات والفوضى، ثم.. إن الديمقراطية، هي اعطاء الحق التشريعي للإنسان، فكيف يمكن أن يلتقي مع النظام الذي يحصر حق الشريعة في الله. أما موضوع الحكم، فإن طبيعته تختلف بين النظام الملتزم، وبين النظام غير الملتزم لأن لكل منهما طريقة ومنهجاً يختلف عن الآخر..

وفي خاتمة المطاف، نجد من مسؤولية الدعاة أن يجلسوا جلسة تأمل ليراجعوا حساباتهم الثقافية ليتأملوا فيها وليقارنوا مقارنة واعية بين ما هو حكم الله وبين ما هو حكم الشيطان، لئلا ينحرفوا من حيث لا يعلمون، أو لا يريدون ليكون الوعي الشامل أساساً لذلك كله.

●□●□●

الفصل الثالث

العاملون في الطريق

١ ـ روح المهنة وروح الرسالة في شخصية الدعاة.

٢ ـ الداعية يتحرك بروحية المحبة.

٣ ـ الحس الاجتماعي في شخصية الدعاة.

٤ ـ الداعية بين القول والعمل.

٥ ـ الدعاية أمام حالات الانفعال.

روح المهنة وروح الرسالة
في شخصية الدعاة

بين طبيعة الرسالة، وبين طبيعة المهنة، بون شاسع في الحياة، ففي الرسالة معنى الامتداد الإنساني إلى الأفق الأرحب والذروة العليا، لأنه ينطلق من إيمان الإنسان بهدف أو فكرة، أو قضية تمس حياة المجموع وتخدم واقعهم وبذلك ترتبط خطوط العمل واتجاهاته بالقضية العامة دون القضية الخاصة وتتغير عقلية الإنسان ونظرته إلى الأمور فلا تتجمد عند المحاور الضيقة أو تقف في المجال المحدود، بل تتسع لكل المحاور لتضمها في وحدة رائعة تتجاوز الجزئيات إلى الكليات فيتحول الإنسان إلى الموقف الذي يفكر بالآخرين قبل أن يفكر بنفسه ويعمل للقضايا الكبيرة حتى على حساب القضايا الصغيرة وتشف روحه وتتسامى وتصفو حتى تصل إلى ما يشبه التصوف الروحي في علاقته بالرسالة وفنائه فيها وقد يلتقي بالعقبات في الطريق فلا يتخذ منها حجة للهروب وعذراً للراحة بل يعتبرها مجالاً جديداً للجهاد من أجل الرسالة يمتحن به قوته ويستثير به صبره على مواجهة الصعوبات ومجابهة المراحل الشاقة في العمل على تحطيمها وازالتها من الطريق لتبقى مفتوحة أمام الرسالة.

وقد يتعصب الآخرون ضده ويتعسفون في تصرفاتهم معه فيضيّقون عليه سبل الحياة ويهددونه في نفسه وماله وأهله ليزحزحوه عن الطريق وينحرفوا به

عن الخط ويبعدوا به عن الهدف فلا يزيده ذلك إلا إيماناً برسالته، واصراراً على موقفه، وتشديداً على مواصلة العمل في نفس الطريق، في اتجاه الهدف... وقد تضعف به قوته فلا تعينه على مواصلة الحركة والاستمرار في الجهاد سواء في ذلك قوة الجسد أو المال، أو السلاح أو غير ذلك... فلا ترتاح نفسه لهذا الضعف، ولا تطمئن لهذه الفرصة المؤاتية التي تمنحه المبرر الشرعي للابتعاد عن المعركة، والاخلاد إلى الراحة، بل يظل يعيش هموم القضية في حزن المجاهدين وصمت العاملين، ورجاء المتفائلين الذين يفكرون بالفجر، وهم يعيشون أحلك ساعات الظلام.. إن شخصية الرسالة تمثل التحول الإنساني من الذات التي تعيش الهموم الصغيرة والقضايا المحدودة إى الرسالية التي تعيش الهموم الكبار، والقضايا الممتدة الواسعة ليكون الإنسان رسالة تتحرك على الأرض لتبسط ظلالها على الحياة لا جسداً يخطو معه ظله، فيعيش مع حياته ويموت بموته.. وبذلك يسبق الرسالي نفسه، ويتجاوز حياته إلى حياة الآخرين على امتداد الرسالة في الزمن...

أما أسلوب الرسالي، فيخضع للروحية الرسولية التي تتحرك من أجل أن تدخل الرسالة في كل قلب، وتعيش في كل فكرة وتنطلق في كل حياة، وتتلمس الواقع الموضوعي الذي يغذي العمل وينميّه ويطوره فيصل به إلى الغاية، بأكبر قدر ممكن من الايجابيات وأقل قدر ممكن من السلبيات، وتواجه العلاقات العامة والخاصة بالأشخاص والمؤسسات والأوضاع من خلال ارتباطها بمواقف الرسالة الحاضرة وتطلعاتها المستقبلية.. وبذلك يتحدد أسلوب الحوار في عرض الفكرة، بعقلية الناس الذين تتجه الرسالة إليهم لهدايتهم إلى الحق فيضيق ويتسع، تبعاً لما تقتضيه آفاقهم الفكرية من ضيق واتساع، تماماً كما يقول علماء البلاغة: «إنَّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال».

ثم... تخضع الخطة العملية في أسلوبها العملي والحركي إلى المؤثرات التي تحكم الواقع، وإلى طبيعة العلاقات التي تربط بين عناصره وأشخاصه، لتكون الخطة قريبة إلى الواقع، في فكرها وأسلوبها، لتستطيع أن تدفع خطواتها بعيداً في اتجاه تحقيق الهدف في اطار واقعي وموضوعي، ولئلا تغرق اقدامها في الرمال المتحركة في أكثر من اتجاه، مع حركة الرياح المجنونة.

وعلى ضوء ذلك يرتبط الفكر الرسالي بالواقع الفكري، كما ترتبط حركة الرسالة بحركة الحياة في عملية ملاحقة لكل تطوراته وتغيراته، مما يجعل شخصية إنسان الرسالة قريبة إلى فكر العصر وتجاربه وواقعه، في أفكارها وتجاربها وحلولها بعيدة عن الخيال الغارق في الضباب، الباحث عن الواقع المعاصر في أفكار الماضي، من دون موازنة ومحاكمة...

أما المهنة التي تمثل معنى المحدودية في حركة العمل وهدفه، ففي المهنة يتجه الإنسان إلى حياته الخاصة فيما تمثل من مسؤولية حياتية ترتبط بالذات ارتباطاً عضوياً، ليؤمن لها سبل العيش الكريم الذي يتمثل بالرفاهية والرخاء، فيما يقبل عليه الإنسان من شؤون وفيما يريد تحقيقه من رغبات، وفيما يستهويه من لذائذ الحياة وشهواتها.. وبذلك ترتبط كل حدود العمل وخطواته واتجاهاته، بالقضية الخاصة، والمصلحة الشخصية.. فتخضع لما يخضع له قانون التجارة من قضايا العرض والطلب، وتتحول بالفكر والممارسة إلى الآفاق المادية التي تبحث عن «الكم» في الأشياء، قبل أن تبحث عن «الكيف» مما يجعل العمل تابعاً لمن يدفع قدراً أكثر من المال الذي يحقق المهنة نجاحاً أكبر، لأن طبيعة المهنة في أساسها ونتائجها، طبيعة مالية، مما يجعل مشاعرها وأفكارها وممارساتها، ذات طبيعة مالية.. فيمتد ذلك إلى تكوين الإنسان الذي يتحول إلى روحية مادية، تخضع قضايا

الروح لقضايا المادة، فتتجمد في داخله لتجمد كل امتداد للروح الخالص في قضايا الحياة وتطلعاتها.

أما موقف المهنة من عقبات الحياة، فإنه يخضع لموقع العقبة من قضايا الربح والخسارة، فإذا لم تقلل الربح ولم تنتج الخسارة... لم تحدث أثراً سلبياً في نفس صاحب المهنة، بل ربما أحدثت نتيجة ايجابية تستريح للراحة، وتطمئن إلى الدعة... فما دام العيش مؤمناً والربح وفيراً، فليتعطل العمل، وليخرب كل شيء... لأن العيش هو الهدف، فلا قيمة للوسيلة إذا تحقق الهدف بدونها، وبهذا نلتقي بكثير ممن يعملون في الوظائف الحكومية الإدارية، أو التعليمية، أو في المصالح الخاصة، فإن القانون يكفل لهم استمرار معاشاتهم حتى في حالة شلل الإدارة والمصلحة نتيجة أوضاع سياسية أو عسكرية أو غيرها، أو في حالة مرض الموظف، فقد نلاحظ، في سلوك هؤلاء، مظهراً للراحة النفسية ازاء حدوث ما يمنع استمرار العمل، لأنه يوفر لهم الحصول على مكاسب الراحة والعطلة الشرعية، إلى جانب مكاسب العمل المالية.. وقد يتوسلون إلى الحصول على مثل هذه الراحة المدفوعة التكاليف، بادعاء المرض بشهادة مدفوعة الثمن، تمكنهم من أخذ اجازة مرضية، وليس من المهم في ذلك كله، أن يتعطل العمل، أو ترتبك مصالح الناس ما دام المعاش مؤمّناً، والراحة موفرة إذ ليس الهدف من عمله المحافظة على العمل، أو تسهيل حياة الناس، فإنه ليس مسؤولاً عن العمل، أو حياة الناس ليهتموا بذلك أو يتعب نفسه من أجله.

ويختلف اهتمامه بالاخلاص للعمل واتقانه وتجويده، تبعاً لقانون الربح والخسارة، فإذا كان الغش والتلاعب أو اهمال تجويد العمل، سبيل العمل إلى تحقيق الربح، ولو في بعض الحالات الطارئة، فلا سبيل إلى الاتقان ولا حاجة إلى الجودة فيه، بل الحاجة تتجه إلى تحقيق العكس من

ذلك لأنهما يقللان من الربح، وقد يوجبان الخسارة... أما إذا كان الاخلاص بكل مظاهره، طريق تحصيل الربح، أو تفادي الخسارة، اتجه العمل إلى ذلك. فليست القضية قضية مصلحة الآخرين، بل كل ما هنالك مصلحة الرأس مال أو مصلحة صاحب المهنة، وقد نجد مثال ذلك في بعض المربين الذين اتخذوا التربية مهنة يتعيشون بها في حياتهم، فنلاحظ أن سلوك البعض يختلف في اهتمامه برفع مستوى الطلاب، حسب اختلاف الشعور بالرقابة الواعية للإدارة التي تحقق في طريقة تعليمه، وفي طبيعة اهتمامه بالدرس وفي مقدار نجاحه في ذلك.. فإذا وجد أن مستقبله في المدرسة يخضع لاخلاصه في العمل، أخلص له، اخلاصاً مهنياً، أما إذا لم يجد أهمية لذلك في قضية المستقبل الذاتي ابتعد عن خط الاخلاص ليستسلم إلى أقل قدر ممكن من القيام بالعمل، ولا مانع لديه، بعد ذلك، أن يفشل الطلاب في سنتهم المدرسية، أو ينخفض مستواهم العلمي، لأنه ليس مسؤولاً عن الطلاب إلا بمقدار مسؤوليته عن المحافظة على معاشه كهدف للحفاظ على أسرته وحياته الخاصة.

إن شخصية المهنة، تحول الإنسان إلى كائن مالي، تتحول أفكاره إلى مال وأعماله إلى مال، وأهدافه في الحياة إلى رصيد مالي كبير، وعلاقاته الإنسانية إلى وسائل عملية لتحصيل المال.. وبذلك فإن نظرته إلى التطورات الحياتية، والمآسي الإنسانية، وقضايا الثورات والمشاكل الداخلية والخارجية في العالم وشؤون العقيدة والمذهب، تتحدد حسب علاقة هذا كله، بأوضاعه المالية الخاصة، لا بأوضاع البلاد الاقتصادية وغير الاقتصادية، بشكل عام وحتى الدموع التي تجري من عينيه، لا بد من أن يحسبها حساباً مالياً ليفكر في المعادلات الحسابية، التي تخضع لها هذه القطرات..

أما أسلوب المهنة، فهو تابع لعلاقة المهنة بالربح والخسارة.. فلا

أهمية للعنصر الإنساني، أو للقضايا الكبيرة المصيرية في ذلك، بل الأهمية الكبيرة، للعلاقات المالية للمهنة، وللواقع الموضوعي الذي يحدد أمر نجاحها وفشلها، وبذلك يرتبط أسلوبها، بالحياة المالية، في جانب الخطة والتنفيذ، وتنطلق حركتها بالظروف المالية الملائمة وغير الملائمة ولا مانع ـ بعد ذلك ـ من أن ينعكس على حياة الناس بشكل سلبي، أو بشكل ايجابي مضاد، وليس من المهم أن يصنع المأساة في قلب الواقع، لأن مهمة المهنة ليست إنسانية، كما أن أصحاب المهن ليسوا بأنبياء أو رسل وليسوا بمصلحين أو ثوريين، فلا يجب عليهم ـ بالتالي ـ أن يماسوا أسلوب الأنبياء والمصلحين، ويجسدوا أهدافهم في الحياة. . .

وقد نقترب من ملامح الصورة، بمثال يكشف لنا عن بعض خصائصها في الحياة.

فقد يقوم فرد أو جماعة بانشاء معمل في البلد، لانتاج بعض الحاجات الاستهلاكية وغيرها، من الأشياء التي توفر للبلد الاكتفاء الذاتي في هذا الجانب أو ذاك من حاجاته الاقتصادية. ولكن الدوافع الباعثة نحو هذا المشروع تختلف أمام حالتين، فقد يكون الدافع إلى ذلك، هو مجرد الربح الشخصي الذي لا يعتبر هذا المشروع إلا فرداً من المشاريع التي تقوم بها من أجل انماء ثروته وزيادة رأس ماله، ولن يكون لبلده أية ميزة تميزه عن سائر البلدان إلا ما يميز بعض مجالات العمل عن الأخرى، ولذلك فهو، لا يمتنع من الاحتكار والمضاربة واهدار مصلحة البلد في عمليات التصدير والاستيراد، لأن الغاية هي الربح، ففي أي مورد وجدت الزيادة في الربح، توجد الحوافز الدافعة للعمل، من دون نظر إلى مدى ملاءمة ذلك كله للوضع الاقتصادي للبلد وعدم ملاءمته فلا مانع من القيام بعملية مضمونة الربح وإن استلزمت انهيار اقتصاد البلاد العام. . وذلك هو ما تقتضيه طبيعة أسلوب المهنة.

وربما يكون الباعث على هذا المشروع، هو المشاركة في النهضة الاقتصادية للبلد وتخفيف الأعباء التي تثقل كاهل الأمة وتضعفها وتدمر قواها، والاتجاه بالبلد نحو الاكتفاء الذاتي من أجل تركيز قواعد استقلاله الاقتصادي عن الدول الأخرى كشرط من شروط الاستقلال السياسي مما يحقق للعمل في بلده ميزة تميزه عن العمل في البلدان الأخرى، لأنه المركز الطبيعي لتأدية رسالته في الحياة، ولذلك فهو يعمل على أن يجعل ميزان الانتاج في جانب الكثرة والقلة، أو في جانب الجودة والرداءة، تابعاً للمصلحة الاقتصادية العليا للبلد، ومدى انسجام ذلك مع طبيعة حاجاتها الاستهلاكية والتصديرية، لأن الغاية هي تركيز البناء الاقتصادي للبلد من دون نظر إلى الربح الشخصي المجرد، وفي ضوء ذلك فإنه لا يحاول القيام بأي عمل يسيء إلى الاقتصاد العام لوطنه، أو يختلف مع طبيعة الاستقلال لدولته، مهما كانت الأرباح وفيرة ومهما كانت النتائج مضمونة، ومن الطبيعي ـ في ذلك كله ـ أن يراعي الإنسان مصلحة عمله الخاص وحياته الخاصة، إلى جانب الخطة العامة، والمصلحة العامة، كشرط من شروط استمرار العمل وواقعيته، وهذا هو الفارق بينه وبين النموذج الأول.. ففي الحالة الأولى، لا مكان إلا للمصلحة الخاصة أولاً وأخيراً، أما في الحالة الثانية، فتمثل التوازن بين المصلحة العامة وبين المصلحة الخاصة، وربما تطغى الأولى على الثانية في بعض الحالات. وذلك هو ما تقتضيه طبيعة أسلوب الرسالة.

وتتنوع النماذج في الحياة، في أكثر من جانب، فتمتد إلى الجانب السياسي والتربوي، والديني، لأن القضية لا تتصل بطبيعة العمل الذي تعيش معه، بل تتصل بالبواعث الدافعة إليه. ونحن هنا.. في منطلق هذا الحديث نحاول التركيز على الجانب الديني في حياة العاملين في سبيله والداعين إليه، فقد يستسلم العمل الديني في حياة إنسان ما، إلى حافز ذاتي يستهدف من

عمله تأمين مستقبله المادي، وتركيز مجده الشخصي، تماماً كأية مهنة من المهن التي يقصد منها الإنسان توفير الربح بأكبر قدر ممكن في عمليات البيع والشراء فلا يمثل الدين عنده، إلا أداة من أدوات الانتاج، وسبيلاً من سبل الربح، ولذا فإنه لا يحب طبيعة العمل وروحه، بقدر ما يحب نتائج العمل الذاتية وأرباحها، وفي ضوء ذلك تتحدد علاقته بالأشخاص فلا قيمة عنده لأي شخص مهما كانت قيمته في الحياة، ودرجته من الإيمان، ومهما بلغت منزلته من الجهاد إذا لم يمثل ـ هذا الشخص ـ لبنة صغيرة أو كبيرة في بناء مجده المادي والمعنوي لأن علاقته به لا تنسجم مع قانون الربح في عملية البيع والشراء. أما الأشخاص الذين ترتبط مصالحه بهم، وتنحني أعمالهم لرغباته فهم الأصحاب والأحباب، وهم الخلان والأصدقاء، مهما بلغت درجة انحرافهم عن الدين وابتعادهم عن تعاليمه وأحكامه ولا مانع عنده من أن يساومهم ويساوموه، ويداهنهم ويداهنوه ويماكسهم ويماكسوه، لأن هذه العلاقة تختلف عن أية علاقة أخرى من علاقات التاجر بزبائنه.

إنها طبيعة المهنة، وعملية التجارة، فهو تاجر في كل أعماله وعلاقاته الدينية الرسمية يعيش الفكرة لحسابه، ولنفسه، ويخضعها لمطامحه ومطامعه، تماماً كأي إنسان يبيع دينه بدنياه، وشريعته بشهوته وقد يدعوه ذلك إلى أن يحرّف مفاهيم الدين فيوجهها إلى غير وجهتها الصحيحة ويسخرها لخدمة السلطة المنحرفة والحاكم الجائر، ويبيعها بثمن بخس دراهم معدودة ويتلاعب بها كما تشاء له أهواؤه وأطماعه، فيديرها ذات اليمين وذات الشمال، فقد يبارك بها الاستعمار وعملاءه، وقد يبرر بها الالحاد ومشاريعه، وقد يعطي بعضاً منها لهذا، وبعضاً منها لذاك، تبعاً لحركة السوق السياسية، وحاجتها إلى شعارات الدين وقداسته، لتعطي أوضاعها شيئاً من القداسة الروحية التي تثير فيها عاطفة الجماهير الساذجة لما تريد القيام به من مشاريع، ولما تحتاج إلى تنفيذه من خطط وأهداف. وقد

حدثنا القرآن الكريم عن بعض هذه النماذج، في تاريخ النبوات، فيما حدثنا به عن بعض أهل الكتاب من اليهود وغيرهم، من الذين حرّفوا كتاب الله وغيره وبدلوه وباعوه، لقاء مصالح وأموال وامتيازات، فمن ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾

[آل عمران: ١٨٧].

- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وقد جاءت بعض الآيات الكريمة لتنهى عن ذلك بشكل مباشر كما في قوله تعالى:

- ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۞ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١ ـ ٤٢].

وقد نجد في واقعنا المعاصر الكثير من الممثلين الرسميين للدين أو للفكر الديني الذين باعوا أنفسهم للشيطان الاستعماري، أو الملحد، فتعاونوا مع الاستعمار، ومع الشيوعية، باسم الدين، ليغرروا البسطاء والساذجين من الناس، طمعاً في الحصول على بعض المال، أو بعض الامتيازات المادية

والمعنوية، مما يحقق لهم كسباً شخصياً على مستوى الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فأدى ذلك إلى اضلال كثير من الناس، باسم المفاهيم الدينية الحقة.

وقد يرتكز العمل الديني على قاعدة ثابتة في داخل النفس، يعيشها الإنسان في فكره، ويحياها في شعوره، فهي همة الدائم في كل لحظة، وشغله الشاغل في كل مكان، وهي سر حياته ومعنى وجوده، يعيش لها ويعمل من أجلها، قد سخر طاقاته لخدمتها، ونذر نفسه لها فهي ميزان علاقاته العامة والخاصة، فلا يسير في طريق يمكن أن يسيء إليها، ولا يتصل بأي شخص يعمل ضدها، ويوالي كل إنسان مخلص لها، من أجلها، قد سخر طاقاته لخدمتها ونذر نفسه فهي ميزان علاقاته العامة والخاصة، فلا يسير في طريق يمكن أن يسيء إليها، ولا يتصل بأي شخص يعمل ضدها، ويوالي كل إنسان مخلص لها، من أجلها، وأن اختلفت ميوله عن ميوله، وابتعدت أفكاره عن أفكاره، ويعادي من أجلها الأقرباء، وإن اتصلت لحمتهم بلحمته وارتبطت حياتهم بحياته، ولا يقبل المساومة في عقيدته، مهما كان العرض سخياً، ولا المداهنة في دينه، مهما كانت النتائج طيبة، يعيش الوسيلة في اطار الغاية ويطبع الأساليب بطابع الفكرة، فهو صاحب رسالة ترتبط حياته برسالته، ويتصل عمره بأفكاره، وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض هذه النماذج التي باعت نفسها لله سبحانه وتعالى، فمن ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا

فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

[التوبة: ١١١].

إنها روحية الرسالة التي تجعل من الإنسان رسالة تتحرك لتكون قوة تدمر الباطل، وتكون فداء الحق.

وقد نجد في تاريخنا الإسلامي تجسيداً عملياً لهذه الروح الرسالية الرائعة في المجاهدين المسلمين الأولين، من المقاتلين وغيرهم، من الذين كانوا يعيشون الجهاد في سبيل الله، رسالة يحبونها كما يحبون أنفسهم أو أشد حباً لها، لأنهم يشعرون أن ذلك يمثل التجسيد الحي لمحبة الله والاخلاص له، فمن هذه النماذج في المقاتلين أولئك الذين كانت لهم أعذارهم الشرعية في ترك القتال والجهاد مع النبي محمد ﷺ لأنهم لا يملكون الراحلة التي يركبون عليها، ولا يملكون المال الذي يعينهم على ذلك، ولا يجدون لدى النبي ﷺ ما يحملهم عليه، فلا يرتاحون للرخصة، ولا يسكنون للعذر ـ بل يشعرون ـ بدلاً من ذلك ـ بالحسرة على ما فاتهم من الجهاد الذي يحققون به أهدافهم، ويرضون به خالقهم، ويوفون ـ من خلاله ـ بعهد الله الذي ألزموا به أنفسهم أن يجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم ـ حتى آخر نقطة من دمائهم، وآخر لحظة من لحظات حياتهم.. وهو قوله تعالى:

ـ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[التوبة: ٩٢ ـ ٩٣].

وقد أراد القرآن أن يوضح لنا روعة هذه الصورة، فوضع إلى جانبها صورة أخرى ـ مضادة ـ وهي صورة أولئك الذين يلتمسون العذر حيث لا عذر، ويبحثون عن المبرر، حيث لا مبرر... وينسحبون من المعركة ويصرون على أنهم لم ينحرفوا عن الخط ولم يخرجوا عن الجماعة وذلك هو قوله تعالى:

ـ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾

[التوبة: ٩٣ ـ ٩٦].

إنها الصورة الحية التي تمثل جماعات المؤمنين الذي سينطلق الإيمان في حياتهم كرسالة، فتفيض عيونهم حزناً لأنهم يرون العقبات التي تعترض في الطريق، دون أن يملكوا أمر ازالتها منه، وفي الجانب المقابل نجد جماعات المنافقين الذين ينطلق الإيمان في حياتهم كمهنة ولكنهم يظلون في حالة استجداء لرضا المجتمع عنهم حتى لا يخسروا امتيازات الإيمان، إذا خسروا ثقة الناس بهم.. ولهذا انطلق القرآن الكريم ليركز على ضرورة رفض المسلمين للتعامل معهم على أساس الثقة والرضا والإيمان لأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

ومن هذه النماذج الإسلامية المجاهدة في غير حالة القتال تبرز أمامنا في التاريخ الإسلامي شخصية الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه، الذي كانت حياته جهاداً في سبيل الله والإسلام مع النبي، في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته، حيث وقف، في عناد واصرار، ينكر على المنحرفين انحرافهم وإن كانوا في القمة من مركز المسؤولية، وينكر على المتزلفين تزلفهم إلى الحكام على حساب المفاهيم الصحيحة للإسلام، ويعمل من أجل فتح عيون المسلمين على واقع الانحراف، ليعرفوا أين يقف الخط المستقيم في حياتهم وحياة الآخرين لئلا يضيعوا في غمار المفاهيم القلقة التي تتأرجح بين الشك واليقين، وتضيع في الخطوط المتحركة في أكثر من اتجاه.

فقد أثاره أن يجد الحكم يستغل مركزه من أجل أن يخوض في مال المسلمين خوضاً، ويجعله طعمة للأقرباء والأنسباء كما أثاره أن يأخذ المسلمون بأسباب الترف والنعيم، ويتركوا الجماعات الفقيرة تتضور جوعاً وتعاني مرارة الفقر والحرمان، بحجة أن الله لم يفرض عليهم غير الزكاة من الحقوق، فقد روى الطَّبري أنه دخل على عثمان وعنده كعب الأحبار فقال لعثمان لا ترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والاخوان ويصل القرابات فقال كعب من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجه وقال له يا بن اليهودية ما أنت وما ههنا. . ثم قال لعثمان والله لتسمعن مني أو لا أدخل عليك. . .

وروى اليعقوبي[1] في تاريخه، أن أبا ذر كان يقعد في مسجد

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٢ طبعة النجف.

رسول الله ﷺ ويجتمع إليه الناس فيحدث بما فيه الطعن عليه ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول الله ﷺ وسنن أبي بكر وعمر فسيّره عثمان إلى الشام إلى معاوية. وكان يجلس في المجلس فيقول كما كان يقول ويجتمع إليه الناس حتى كثر من يجتمع إليه ويسمع منه وكان يقف على باب دمشق إذا صلى صلاة الصبح فيقول: جاءت القطار تحمل النار لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له الناهين عن المنكر والآتين له.

وكتب معاوية إلى عثمان أنك قد أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر فكتب إليه: أن أحمله على قتب بغير وطأ فقدم به إلى المدينة وقد ذهب لحم فخذيه فلما دخل إليه وعنده جماعة قال بلغني أنك تقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلاً اتخذوا بلاد الله دولاً وعباد الله خولاً ودين الله دغلاً فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك فبعث (عثمان) إلى علي بن أبي طالب فأتاه فقال يا أبا الحسن أسمعت رسول الله يقول ما حكاه أبو ذر (وقص عليه الخبر) فقال علي عليه السلام نعم قال فكيف تشهد؟ قال لقول رسول الله ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، فلم يقم بالمدينة إلا أياماً حتى أرسل إليه عثمان، والله لتخرجن منها، قال أتخرجني من حرم رسول الله قال نعم وأنفك راغم، فأخرجه إلى الربذة.

ويروي ابن أبي الحديد خلاصة القصة فيقول: إن عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيت الأموال واختص زيد بن ثابت منها جعل أبو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع، «بشر الكافرين بعذاب أليم» ويرفع بذلك صوته ويتلو قوله تعالى:

- ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ

﴿يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

فرفع ذلك إلى عثمان مراراً وهو ساكت ثم أنه أرسل إليه مولى من مواليه إن أتته عما بلغني عنك فقال أبو ذر «أينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك أمر الله فوالله لأن أرضي الله تعالى بسخط عثمان أحب إلي وخيراً لي من أن أسخط الله برضا عثمان» فأغضب عثمان ذلك وأحفظه فتصابر وتماسك إلى أن قال عثمان يوماً والناس حوله: أيجوز للإمام، أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً فإذا أيسر قضى فقال كعب الأحبار لا بأس بذلك فقال أبو ذر: يا بن اليهودية أتعلمنا ديننا فقال عثمان: «قد كثر أذاك لي وتولّعك بأصحابي»، الحق بالشام فأخرجه إليها فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها فبعث إليه معاوية يوماً ثلاثمائة دينار فقال أبو ذر لرسوله إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها وردها عليه. ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق فقال أبو ذر يا معاوية إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة وإن كانت من مالك فهي الاسراف، وكان أبو ذر يقول بالشام والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه والله إني لأرى حقاً يطفأ وباطلاً يحيا وصادقاً مكذباً واثرة بغير تقى وصالحاً مستأثراً عليه، فقال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية إن أبا ذر أفسد عليكم الشام فتدارك أهله إن كان لك فيه حاجة(١).

وأخرج أحمد في مسنده: ١٦٤ ـ ١٧٦ من طريق الأحنف بن قيس قال: كنت بالمدينة فإذا برجل يفر الناس منه حين يرونه قال: قلت: من أنت قال أنا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قال: قلت ما يفر الناس منك قال: إني أنهاهم عن الكنوز بالذي كان ينهاهم رسول الله ﷺ. وفي لفظ مسلم

---

(١) الغدير ج٨ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

في صحيحه ٣: ٧٧ قال الأحنف بن قيس كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر رضي الله عنه وهو يقول: بشر الكافرين بكي في ظهورهم يخرج من جنوبهم وبكي في أقفيتهم يخرج من جباههم قال: ثم تنحى فقعد إلى سارية فقلت من هذا قالوا أبو ذر فقمت إليه فقلت ما شيء سمعتك تقول قبيل، قال ما قلت إلا شيئاً سمعته من نبيهم ﷺ قال: قلت ما تقول في هذا العطاء قال خذه فإن فيه اليوم معونة فإذا كان ثمناً لدينك فدعه[1].

وأخرج أبو نعيم في الحلية ١: ١٦٣ من طريق سفيان بن عيينة بإسناده عن أبي ذر قال: إن بني أمية تهددني بالفقر والقتل، ولبطن الأرض أحب إلي من ظهرها، وللفقر أحب إلي من الغنى)[2].

فقد رأينا من خلال هذه الجولة السريعة من النصوص التاريخية كيف وقف هذا الرجل هذه الوقفة الإسلامية القوية، ليقول كلمة الله، وليدعو الناس إلى حكم القرآن، وليصحح الانحراف الذي حاول الحكم وجماعته أن يفرضه على المسلمين، ولم يكن يعمل في الخفاء، بل كانت دعوته علنية، على رؤوس الأشهاد، في المسجد وفي الأمكنة العامة، سواء في ذلك في المدينة في ظل حكم الخليفة أو في الشام في ظل حكم الوالي.. وكانت دعوته تلقى تجاوباً واقبالاً من الناس لأنهم يرون فيها صفاء الشريعة الإسلامية، وواقعية حلولها العملية وبساطتها.. واضطهده الحكم وأبعده وهدده وتعسف في كل هذا الاضطهاد والابعاد والتهديد، ولكن ذلك لم يثنه عن دعوته الإصلاحية حتى مات وحده في منفاه بالربذة. وقد عبر الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام عن طبيعة الموقف الذي وقفه أبو ذر عندما ودعه مع ولديه وأخيه وعمار بن ياسر، فقال له:

---

(١) الحديثان منقولان عن كتاب الغدير ج ٨ ص ٣٢٠.

(٢) عن الغدير: ج٨ ص ٣٢١.

(يا أبا ذر إنك غضبت لله فارج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه فما أحوجهم إلى ما منعتهم وما أغناك عما منعوك وستعلم من الرابح غداً والأكثر حسداً ولو أن السماوات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً لا يؤنسنك إلا الحق ولا يوحشنك إلا الباطل فلو قبلت دنياهم لأحبوك ولو قرضت منها لأمنوك[1]). إن هذه الكلمات الرائعة تلخص لنا طبيعة الرسالة في كل ما فعله هذا الرجل العظيم وفي كل ما قاله، وفي كل ما تحمله في سبيل الله، فقد كان له مندوحة في بعض ذلك، ولكنه أراد للحق أن يظهر وللباطل أن يمحى، وللرسالة أن تمتد في حياة الناس ـ فلم يأخذ بالسعة، بل أخذ بالشدة، لأن القضية ليست قضية الإنسان الذي يبحث عن العذر في سبيل الراحة، بل هي قضية الإنسان الذي يبحث عن المتاعب في سبيل الرسالة، وشتان بين الموقفين.

●□●□●

(١) نهج البلاغة: ج١ ص ٣٤٧.

الداعية يتحرك بروحية المحبة

قد يكون من نافلة القول، أن تؤكد على ضرورة تعميق الصلة الروحية بين العاملين الدينيين وبين الأمة، في علاقة محبة واخلاص متبادلة، تنبع في البداية من روحية الداعية المنسابة بالطهر، الفياضة بالحب، النابضة بالإنسانية الممتدة في أعماق النفس ونوازعها، فتنعكس على الآخرين رحمة وحباً وسلاماً، فإن ذلك يعتبر شرطاً أساسياً للدخول إلى قلوبهم وضمائرهم وحياتهم، فإن الإنسان إذا عاش مشاعر الحب في الآخرين، تفاعل معهم في شعوره وأفكاره، مما يجعل القناعات تبدأ من الشعور لتنتهي إلى الفكر كما في كثير من الحالات التي تبدأ فيها الفكرة من موقع المحبة لصاحبها، لتصل ـ في نهاية المطاف ـ إلى موقع القناعة الذاتية بالفكرة.

وقد حدثنا القرآن عن بعض من علاقة النبي بالناس في انفعاله بمتابعهم وآلامهم وفي حرصه عليهم ورأفته بالمؤمنين ورحمته لهم.. كخلق رسالي عفوي، ينطلق معه في استرسال وعفوية، لا في تكلف وجهد مما يدل على مستوى القيمة الرسالية في علاقة الخلق الإنساني بحركة الدعوة وذلك قوله تعالى:

ـ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]

وقوله تعالى:

ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإننا نستوحي من الآيتين، ولا سيما في الآية الأخيرة، أن إنسانية القلب التي تنعكس على إنسانية الأسلوب تطبع العمل بطابعها انفتاحاً وانغلاقاً.. وتلتقي بالنتائج الكبيرة في المجال العملي بشكل رائع يلفت النظر.. ونفهم منها ـ في الوقت نفسه ـ سلبيات المشاعر القاسية والأحاسيس غير الإنسانية، على التفاف الناس حول الدعوة، وذلك فيما تعبر عنه الآية الثانية التي تربط بين انفضاض الناس عن النبي وبين غلظة القلب وفظاظة اللِّسان.

وقد حدثنا القرآن الكريم في آيات أخرى عن الحالة النفسية التي كانت تمر بالنبي أمام عناد قومه واصرارهم على الكفر، انطلاقاً من اشفاقه عليهم ومحبته لهم وخوفه على مصيرهم الذي ينتظرهم في الدنيا والآخرة إذا استمروا على الكفر.. ونلاحظ في بعض الآيات عمق الشعور الإنساني الذي يجيش في قلبه ويغمر آفاق نفسه.. كما في قوله تعالى في الآية الكريمة:

ـ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

[فاطر: ٨].

ـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

ولم يقتصر القرآن الكريم على تصوير المشاعر العميقة التي تجيش في قلب النبي محمد ﷺ ازاء قومه، بل صور لنا في أساليب الأنبياء في

دعوتهم قومهم، إلى أن يؤمنوا بالله.. كل معاني الحب والعطف والإنسانية التي تغمر قلوبهم ونفوسهم فلا ينطلقون في أساليبهم من منطق الواجب، بل من طبيعة الاحساس الذاتي بالمسؤولية الرسالية الذي يتفاعل مع الشعور بالواجب ويتحد معه، لتتكون من خلال ذلك الشخصية الرسالية الموحدة في مشاعرها وأفكارها، فلا يختلف فيها جانب المسؤولية عن موقع الاحساس، ولا تنفصل فيها شخصية الإنسان عن شخصية الرسول.. وهذا ما تتحسسه في أساليبهم المتنوعة التي تتصاعد فيها انفعالات اللهفة والعاطفة والمحبة، لتمتزج الدعوة بالروح الإنسانية المرهفة، فتتوجه إلى عقولهم بالفكر، وإلى قلوبهم بالعاطفة، فيشعروا بأن القضية ليست قضية فكر يريد أن يفتح حياتهم لمصلحته، بل قضية رسالة تريد أن تنقذهم من ظلمات ماضيهم واهتزازات حاضرهم التي تعمل على أن تزلزل قواعد المستقبل، ليسيروا على الأرض الصلبة في طريقهم إلى الحياة الصاعدة أبداً في آفاق الله إلى مراكز القمة في الدنيا وفي الآخرة(١).

ويحدثنا القرآن الكريم في صورة أخرى عن المؤمن الداعية الذي جاء الحديث عنه في سورة (يس) حينما انطلق ليدعم موقف الرسل الثلاثة ويطلب من قومه تأييدهم واتباعهم، فقد جاء الدور (في الآخرة) لهذا المؤمن ـ الظاهرة ـ الذي قال كلمة الحق وحده ـ في مجتمع الكفر كله.. فيطلب منه أن يدخل الجنة جزاء إيمانه وعمله، ولكن الرجل يقف قليلاً ليتذكر قومه الذين غفلوا عن هذا الموقف، وعن تذكير الأنبياء به، وعن نتائج الإيمان، ويحس بالوحشة الشديدة، والوحدة الموحشة، فقد كان يتمنى أن يدرك قومه ذلك قبلاً، أو يعرفوا الكرامة التي أكرمه الله بها ولكن دون جدوى.

---

(١) يقرأ في هذا الموضوع «أسلوب القرآن في الحوار» فصل «الحوار القصصي في القرآن الكريم.

وربما نفهم من هذه الآية أن المؤمنين يظلون مع الاحساس الطيب الطاهر الذي يدفعهم إلى مشاركة الآخرين لهم فيما يحصلون عليه من ثواب، أو يصلهم من خير، حتى إذا أعطاهم الله ذلك ـ أحسوا بالألم الشديد لحرمان قومهم من الأجر الكبير والثواب العظيم[١].

وقد رأيت في كتاب الاقبال في الدعاء للسيد رضي الدين علي بن طاووس رحمه الله بعض ما يتصل بحديثنا هذا في تجسيد الروح المؤمنة الصافية التي تفكر بالكافرين في اللحظات القدسية المشرقة بالاتصال بالله في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.. يقول السيد ابن طاووس في كتابه المذكور: .

فصل:

أقول وكنت في ليلة جليلة من شهر رمضان.. وأنا أدعو في السحر لمن يجب أو يحسن تقديم الدعاء له ولي ولمن يليق بالتوفيق أن أدعو له فورد على خاطري أن الجاحدين لله جل جلاله ولنعمه والمستخفين بحرمته والمبدلين لحكمته في عباده وخليقته، ينبغي أن يبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضلالتهم فإن جنايتهم على الربوبية والحكمة الإلهية والجلالة النبوية أشد من جناية العارفين بالله وبالرسول صلوات الله عليه وآله فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله عليه السلام وحقوق هدايته بمقاله وفعاله أن يقدم الدعاء بهداية من هو أعظم ضرراً وأشد خطراً حيث تعذر أن يزال ذلك بالجهاد ومنعهم من الإلحاد والفساد.

أقول فدعوت لكل ضال عن الله بالهداية إليه ولكل ضال عن الرسول بالرجوع إليه، ولكل ضال عن حق بالاعتراف به والاعتماد إليه.. ثم قال.

---

(١) المصدر السابق «فقرة» وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى.

فصل:

أفلا ترى ما تضمنه مقدس القرآن من شفاعة إبراهيم عليه السلام في أهل الكفران فقال الله جل جلاله «يجادلنا في قوم لوط أن إبراهيم لحليم أواه منيب فمدحه ـ جل جلاله ـ على حلمه وشفاعته ومجادلته في قوم لوط الذين قد بلغ كفرهم إلى تعجيل نقمته.

فصل:

أما رأيت ما تضمنه أخبار صاحب الرسالة وهو قدوة أهل الجلالة كيف كان كلما آذاه قومه الكفار وبالغوا فيما يفعلون قال صلوات الله عليه وآله اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

فصل:

أما رأيت الحديث عن عيسى عليه السلام «كن كالشمس تطلع على البر والفاجر» وقال نبينا صلوات الله عليه وآله «اصنع الخير إلى أهله وإلى غير أهله فإن لم يكن من أهله فأنت من أهله»، وقد تضمن ترجيح مقام المحسنين إلى المسيئين قوله جل جلاله:

ـ ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ويكفي أن محمداً صلوات الله عليه وآله، بُعِث رحمة للعالمين»[١].

فإننا نلاحظ في هذا الجو الذي يحيط بهذا الحديث، الروح الفياضة بالمحبة والمسؤولية، فإن هذا العالم التقي، يفكر بالكفار من حيث تمردهم

(١) الاقبال ص ٣١٢ ـ ٣١٣.

على الله، وتحديهم لمقام جلاله فيشعر بأنه إذا لم يستطع ارجاعهم عن الكفر والباطل بالقوة فليحاول أن يصلحهم بالدعاء والتوسل إلى الله بأن يهديهم سواء السبيل.. ويفكر بهم من جهة الروح الإسلامية الفياضة بالمحبة التي تهتم بمصير الكفار فيتألم لهم ويعيش الرحمة بهم فيدعو لهم ليهديهم الله لينعموا برحمة الله ورضوانه في الدنيا والآخرة.

وقد نلاحظ في هذا المجال أن الإنسان الذي يعيش في الأجواء الروحية السامية التي ينقلها الدعاء إليه، ويغمر كيانه بها، لا يعيش العقد النفسية التي يعيشها أولئك الذين يمارسون العقيدة في أجواء مادية جافة، كما يمارس الإنسان الحالات الفكرية والقانونية المجردة فينظر إلى الحياة وإلى الآخرين الذين يختلف معهم في الرأي، على أساس الحسابات والأرقام العددية، بلا قلب وبلا روح.. ومن خلال ذلك انطلق هذا الرجل التقي إلى أجواء الأنبياء فعاشها من خلال المعاني الروحية الكبيرة من دون أن يدخل في الأساليب الجافة المتكلفة التي تصرف الله عن ظاهره، وتبعده عن روحه، لتتركه هزيلاً مشلولاً لا يستطيع أن يرتفع بالإنسان إلى أبعد من موطىء قدمه، كما يفعله الكثيرون الذين يقيسون المحبة ويزنونها بميزان الأمتار والمقادير الحسابية.

إننا نؤكد على هذا الجانب الروحي من شخصية الدعاة والعاملين في سبيل الله، لأننا نشعر بأن المحبة التي يعيشها الدعاة تجاه الآخرين تحقق للعمل الديني عدة أمور:

١ ـ أن يتفاعل الآخرون بالعلاقة الروحية الذاتية التي تربط بينهم وبين الداعية فيشعرون بالانجذاب إليه وإلى ما يفكر به ويدعو إليه على أساس القاعدة المعروفة، أن الإنسان إذا أحب شخصاً أحب كل ما يتعلّق به وينتمي إليه.

٢ ـ أن يكسبها طاقة جديدة من الصبر على كل المصاعب التي تعترض طريقه في مجال الدعوة، لأن العمل لا ينطلق من موقف المسؤولية المجرد الذي يبحث عن ابراء الذمة والخروج عن العهدة، بل ينطلق من عمق المحبة للإنسان الموجود فيهم بالإضافة إلى محبة الله ورسالته التي تقتضيها طبيعة العمل الرسالي والروح الرسالية، فإن المعروف أن الإنسان يصبر على من يحب وعلى ما يحب أكثر من صبره على ما لا يشعر بوجود رابطة ذاتية معه.

٣ ـ أن ينفتح على الظروف الموضوعية المحيطة بالآخرين الذين يواجههم بالدعوة، عندما يواجهونه بالانكار والجحود فيعمل على دراسة المؤثرات التي شاركت في ولادة هذا الموقف السلبي لديهم، فيبدأ من جديد الحركة الجديدة، في تغيير تلك الظروف بخلق ظروف جديدة، أو انتظار فترة زمنية تسمح بتغير الظروف والمؤثرات تلقائياً كما كان يفعله النبي محمد ﷺ عندما كان يواجه المواقف الجاحدة الرافضة لدعوته من قبل قومه.. بالدعاء الرسالي الحنون «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» فإننا نستوحي منه الموقف النبوي الواقعي الذي كان منطلقاً من دراسة الموقف بهدوء، وعلاقته بالجهل المطبق، بالقواعد التي ترتكز عليها الرسالة الإلهية، وبالمعطيات التي تشتمل عليها، ووعيه الرسالي لطبيعة المراحل الطويلة التي تتطلبها عملية التغيير، فقد لا يكفي في التغيير المجتمع تغييراً جذرياً، أن تدعوه إلى فكرتك وعقيدتك، بل ينبغي لك أن تعطيه فرصة التفكير ـ في البداية ـ لتصبح الفكرة موضع اهتمام فكري، ثم تتقدم في حشد الضغوط النفسية، لتصبح موضع اهتمام نفسي واقعي، ثم تتطور القضية في تكثيف عوامل الصراع الداخلية والخارجيّة كطريقة عملية لتفجير الركائز الفكرية والنفسية القديمة، والعمل على نسفها من الأساس ولافساح المجال أمام القواعد الجديدة للعقيدة والفكر من أجل ولادة الشخصية الجديدة في نهاية

المطاف بالطريقة الواقعية الحكيمة الممتدة بالدعوة المنطلقة من المحبة، وبالقوة المرتكزة على الواقع.

٤ ـ إننا نلاحظ ـ في الجانب المقابل للروح التي ينبغي للداعية أن يتصف بها ـ أن كثيراً من العاملين في الحقل الديني كانوا يعيشون روح الحقد والقسوة أو اللامبالاة في نظرتهم إلى الناس، مما يجعلهم يهملون دراسة الأساليب الواقعية التي ينبغي أن تتخذ في الدعوة والاقناع ومحاولة التعرف على شخصية الأشخاص الذين يدعونهم إلى الإيمان، من حيث ثقافتهم وعلاقاتهم وتاريخهم وبيئتهم، والتدقيق في خطة العمل من حيث علاقة الهدف بالمراحل، وعلاقة الحركة بالمرحلة.. وبذلك يتجه أسلوبهم في التعامل مع الآخرين إلى القاء كل المسؤولية عليهم، ووصفهم بأبشع النعوت وأقذعها فهم لا يهتدون لأنهم لا يريدون لأنفسهم السير في هذا الطريق عناداً واستكباراً وجحوداً، وهم لا يتقبلون الدعوة إلى الله قبولاً حسناً، لأنهم يفضلون شهواتهم على مبادئهم، ويقدمون دنياهم على دينهم.. ولا يخطر ببال هؤلاء الدعاة أن يرحموا هؤلاء بالنظر إلى الواقع من خلال العناصر التي تحكمه وتقوده وتؤثر فيه ولا يحاولون أن يعيدوا النظر في أساليبهم في الدعوة، وخطواتهم في العمل، ليكتشفوا بعض الخطأ فيها من جهة أو يتعرفوا إلى بعض جوانب العذر لهم في صعيد الواقع، لأنهم ينظرون إلى القضية بعين واحدة في الوقت الذي يجب أن ينظروا إليها بعينين مفتوحتين تتطلعان إلى الأمور من جميع الجهات لتحيط بجميع أبعادها ككل الأعمال التي ترتبط بالعلاقات البشرية في موقف كل إنسان تجاه إنسان أخر حيث يجب على كل طرف من الأطراف أن ينظر إلى الخطأ في الواقع من خلال تصرفه وتصرف الآخرين، لتكون النظرة العادلة التي تتولى الحكم له أو عليه بميزان متعادل لا هبوط فيه ولا صعود.

وقد ساهمت هذه الروح التي تعيش في داخل العاملين في الحقل الديني، في ابعاد كثير من الناس عن الدين، أما من خلال النظرة المشوهة التي يأخذونها عن سلوكهم ونفسياتهم، وأما من خلال الاهمال الذي يمارسونه تجاهه في اغفال ظروفه وتطلعاته، لأنهم لا ينظرون إلى هدى الناس وضلالهم بالمستوى الذي تفرضه طبيعة الرسالة فلا يعبأون بضلال الضالين، وقد يلتفت بعضهم ليعلق على كلمة تقال في هذا المجال، بأن الإسلام يخسر كثيراً من الناس بسبب قوى الكفر والضلال، فيقول: إن الإسلام لا يخسر شيئاً ولكنهم يخسرون، ونحن لا نمانع في صحة الكلمة من حيث المبدأ، ولكننا نكتشف منها روح اللامبالاة التي تختلف عن الروح التي كان يحس بها النبي ﷺ ازاء جحود الجاحدين فقد كانت نفسه تنقطع عليهم حسرات على ضوء الآية الكريمة المتقدمة.. ثم ما معنى أن لا يخسر الإسلام من جراء ضلالهم، بعد أن كان رصيد الربح والخسارة لأي دين من الأديان، أو لأي فكرة من الأفكار، هو مقدار ما تملك من أتباع ومؤمنين، قلة وكثرة.. ولهذا رأينا الله سبحانه ينزل سورة كاملة من السور القصار ليسجل فيها نجاح الفتح النبوي لمكة، في ادخال الناس أفواجاً إلى الإسلام، بعد أن كان الناس متخوفين من الدخول فيه بسبب قوة قريش العسكرية والاقتصادية... وربما... السياسية لو اعتبرنا طبيعة العلاقة خاضعة، للأساليب السياسية.. وذلك هو قوله تعالى في سورة النصر:

ـ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۞ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

فإننا نستوحي جو الفرحة والابتهاج العظيم بنتائج النصر والفتح، واعتبارها نعمة كبيرة من النعم التي تستحق تسبيح الله وحمده.

ولعل هؤلاء الذين يقولون مثل هذا القول، يقصدون به الفكرة التي

عبرت عنها الآية الكريمة التي خاطب بها الله نبيه:

ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وهي فكرة تفرضها العقيدة الدينية التي ترتكز على أن الله هو الغني المطلق الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا هدى من اهتدى إليه، ولا تضره معصية من عصاه ولا ضلال من ضل عن سبيله.. ولكن أي ربط لذلك، بفكرة انتفاع الإسلام وضرره أو ربحه وخسارته، بضلال الضالين وهدى المهتدين.. فقضية الإسلام شيء في حركته في الحياة، وموضوع الذات الإلهية شيء آخر.

الموادة في القرآن وعلاقتها باتجاه البحث:

٥ ـ قد يظن بعض الناس أن هذا الاتجاه الذي ندعو إليه، يختلف مع الاتجاه القرآني الذي ينهى عن موادة الكافرين والضالين، ويأمر ببعضهم وتحديد الموقف، بالمضادة لهم، وهذا ما تعبر عنه الآيات الكريمة:

١ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

٢ ـ ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[المجادلة: ٢٢].

٣ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

[الممتحنة: ١].

فقد دلت هذه الآيات دلالة واضحة على أن مشاعر المحبة والتعاطف والمودة مرفوضة أساساً في موقف المسلمين من الكافرين لأنها تشير ـ في دلالتها الإيمانية ـ إلى أن ارتباط الإنسان بالله وانفصاله عنه لا يمثلان شيئاً في علاقة المسلم بالآخرين، وبالتالي لا يمثلان لديه شيئاً في عقيدته وإيمانه، لأن علاقة الإنسان بالأشياء كلها تتحدد بمدى ارتباطها بالقضايا الأساسية في فكره وقناعاته.

ولكن القضية ليست كما يتصور هذا البعض، فإن المبدأ الذي نقرره يرتبط بجانب يتعلق بقضية الدعوة وحاجتها إلى الروحية التي تحكم علاقة الدعاة بالناس من حيث أنهم يعيشون مشكلة الكفر والضلال والانحراف التي يريد الدعاة أن يحلوها لهم وينقذوهم من نتائجها، فهم بالنسبة إليهم أشبه شيء بالطبيب مع المريض إذ لا مرض أعظم من مرض الكفر والضلال، لأنهما يقضيان على كيان الإنسان في الدنيا والآخرة إذا كان المرض الجسدي يقضي على حياته، أو يضعف جسده.. وفي هذه الحال لا بد للداعية أن يشعر بكل معاني العطف والرحمة والمحبة، يستطيع أن ينشىء العلاقة الطبيعية بينه وبينهم، وإلا.. فكيف يمكن أن يبدأ الدعوة في جو مكفهر عابس يوحي بالعداوة والبغضاء.. هل تكون النتيجة لذلك غير أحداث ردود فعل ذاتية شديدة ضد الدعوة والدعاة..

إن خلاصة الفكرة التي نريد أن ندعو إليها، هي أن يعيش الإنسان الشعور بالمحبة التي تتفجر حركة ودعوة وحياة في اكتشاف جوانب الخير الأصيلة في الإنسان، والتعامل معه على هذا الأساس، وفي هذا الجو من دون نظر إلى طبيعة العلاقات الذاتية التي تحكم بعضهم البعض كفريقين يريدان أن يواجها الحياة الاجتماعية من موقع المصالح المتباينة، أو المواقف المختلفة..

أما المبدأ الذي تقرره الآيات الكريمة التي تنهي عن موالاة أعداء الله وموادتهم، فإنها تخضع لعلاقات الناس العامة التي تتحدد فيها المواقف، باعتبار ما يمثله كل فريق من قوة سياسية أو اجتماعية أو عسكرية، بحيث تتأثر القضايا الإسلامية بطبيعة العلاقات ونتائجها.. ففي هذا الواقع يطرح الإسلام القضية، من ناحية ارتباطها بجذور العقيدة من جهة ودلالتها على أن العقيدة لا تمثل للإنسان شيئاً في موضوع علاقاته بالآخرين ومن ناحية ارتباطها بحركة الواقع الإسلامي من جهة أخرى لانعكاس الموادة والموالاة لأعداء الدين على سلوك المسلمين في ابتعادهم عن الحذر، والتحفظ والاستسلام إلى تقاليد الموادة التي يمكن أن يستغلها الأعداء كما صوره الله في آية أخرى:

ـ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

[آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

فإننا نجد في هذه الآية أسلوباً رائعاً في التوعية وكشف المواقف، حذراً من أن يؤخذ المؤمنون بظواهر الأمور وسطحياتها فيقعوا صرعى السذاجة العاطفية والغفلة عن طبيعة الأمور.

إن القضية تتحدد على أساس التعامل بين الفرقاء في اطار الواقع العملي في الحياة الذي يخضع للقواعد الواقعية التي نضع الموالاة والمعاداة في اطار مصلحة العقيدة ومصلحة المصير، ولهذا نرى القرآن الكريم يجعل المعاشرة بالبر والقسط مع هؤلاء الذين نختلف معهم في أساس العقيدة أمراً مشروعاً إذا لم يكن بيننا وبينهم قتال، وذلك هو قوله تعالى:

ـ ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

وخلاصة الفكرة: أن هناك نوعين من الشعور بالمحبة ازاء الآخرين الذين نختلف معهم في العقيدة والدين:

١ ـ الشعور بالمحبة في اطار الدعوة، بأن تحس الصلة الإنسانية التي تربطك بهم وتشعر بالواقع القلق الذي كانوا ضحية له في كفرهم وضلالهم وانحرافهم.. فتعيش في نفسك الشعور الحي العميق بحاجتك إلى أن تتلمس كل الوسائل الممكنة لاخراجهم من ظلمات الباطل إلى نور الحق، ومن غياهب الضلال إلى منارات الهدى وهذا، لا يتناقض مع خط الإيمان بل يلتقي به في عملية اتحاد وامتداد.

٢ ـ الشعور بالمحبة في اطار العقيدة، بأن تتجاوز العقيدة إلى غيرها من العلاقات الإنسانية كالدم واللسان والبلد واللون وغيرها، فلا ترتقي

بالعقيدة إلى المستوى الكبير في الأهمية الذي يمكن معه أن تفصلك عن الآخرين إذا اختلفوا معك فيها، بينما يمكن اللون أوالدم وغيرهما أن يوحد بينك وبين الآخرين الذين يشتركون معك فيه، وإن اختلفوا معك في العقيدة.. وهذا مما يتناقض مع طبيعة الإيمان، لأن معنى ذلك أن العقيدة لا تقف في مركز القاعدة من حياتك، بل تظل على الهامش الذي لا يمثل لك أي شيء ذي قيمة، مما يعني أن الله لا يمثل لديك أي معنى كبير في قضية القرب والبعد..

وعلى ضوء هذا الحديث عن البون الشاسع بين هذين الموضوعين اللذين عالجهما القرآن الكريم بالأسلوب السليم الذي يضع كلاً منهما في موضعه، نحب أن نسجل نقطة مهمة جداً في قضية الأساليب القرآنية ودلالاتها على الحقائق الإسلامية في العقيدة والسلوك، وهي أنه لا يكفي لفهم القرآن أن يتوفر الإنسان على معرفة معاني المفردات وطريقة تأليفها وتركيبها، بل يجب أن يدرس الجو الذي يعيش المعنى في اطاره، مما يوجب اختلاف المعنى والموضوع، وكذلك في حالة اختلاف المعنى ووحدة الجو، فإنه قد يكون الخط الرابط بين المعنين.. وهذا هو الذي لاحظناه في طبيعة المحبة والتعاطف والرحمة، التي اتفقت في المعنى، ولكنها اختلفت في الجو، مما جعلنا نكتشف الاختلاف في طبيعة المعنى من خلال ارتباطه بجوه الخاص الذي لا يلتقي مع الجو الآخر.

●□●□●

الحس الاجتماعي في شخصية الدعاة

٢ ـ بين المعرفة والاحساس:

هناك فرق بين أن تعرف الشيء، وبين أن تحس به.. ففي جانب المعرفة لا بد لك من أن تجمع المعلومات المتوفرة في الساحة عن الموضوع والأشخاص والظروف الموضوعية المحيطة بالقضية لتحصل من خلال ذلك على قناعاتك الفكرية أما في جانب الاحساس، فإن الموقف قد يختلف بعض الشيء، لأن الاحساس يمثل انفعالك بالواقع المستقبلي في عملية رصد نفسي مرهف لخطواته وتطلعاته، فقد تمتلأ نفسك بالمشاعر، ازاء الشيء قبل أن تتوفر لك امكانات الاحاطة به، وقد تحس بالحادثة قبل حدوثها، من خلال كلمة تسمعها، أو حركة تصطدم بها، لأن مشاعرك الذكية استطاعت أن تكشف الأسرار التي تكمن وراء الكلمة، أو تتعرف إلى الخطط التي تتجمع قبيل الحركة في احساس خفي بالواقع..

٢ ـ هل يكتفي الدعاة إلى الله بالمعرفة الاجتماعية؟

وقد لا يكفي الدعاة إلى الله، والعاملين في سبيله، أن يحصلوا المعرفة الاجتماعية التي تتوفر لهم فيحصلون على الاحاطة بأحوال المجتمع وأوضاعه، وأفكاره العامة في الجوانب السياسية والاقتصادية، وعلاقاته التي تحكم أفراده فيما بين بعضهم البعض في الداخل، أو فيما بينهم وبين

المجتمعات الأخرى في الخارج وغير ذلك من جوانب المعرفة الاجتماعية، بل لا بد لهم من الحس الاجتماعي الذي تتوفر فيه المشاعر الذكية المرهفة التي تلتصق بالمجتمع لتحس بكل ما في داخله من نوازع ودوافع ومؤثرات، وبكل ما يختفي وراءه من خلفيات، وما يحكمه من روابط وعلاقات، أو يحركه من أوضاع خارجية متنوعة.. وبذلك يمكنه أن يحس بالكلمة قبل أن تقال، وبالحركة قبل أن تنطلق، وبالأحداث قبل أن تفرض نفسها على الواقع، ويعرف دلالات الأحداث ووجوهها، فلا يتجمد في حكمه على الواقع، فيما يطفو على سطحه من علامات، بل ينفذ إلى أعماقه، فيمسك بجذوره ليأخذ منها الدليل الذي يختفي وراء الأحداث ليحركها من خلال الضباب. ثم يركز عمله ودعوته على أساس ما يحصل عليه من دلالات وما ينتهي إليه من استنتاجات، ليتحرك في وضوح من الرؤية، واحاطة بالقوى التي تحكم الساحة وتؤثر فيها فيتعاون معها، أو يتباعد عنها، في خطوات ثابتة قوية تعرف من أين تبدأ، وكيف تتحرك وإلى أين تنتهي.. وفي ضوء ذلك كله يتحول العاملون في سبيل الله إلى قوة تتفاعل مع الواقع لتفعل به، من موقع السيطرة على مقوماته، بالانفتاح الواعي على كل ما له صلة به، تماماً ككل القوى الأخرى التي تتحرك في الواقع من خلال الدراسة العميقة والفهم الشامل والرؤية الواضحة فتنطلق لتضع ذلك كله في حسابها قبل أن تبدأ بالحركة..

٣ ـ ضرورة مواجهة الواقع باحساس منفتح:

وهكذا تغيب عن الساحة الدينية للعمل دعوات اليأس والانهزامية، وعقليات السذاجة والبساطة، ونظرات الحزن والاشفاق والسخرية والاستهزاء التي ينظر بها الآخرون إلى القوى الموجودة في ميدان العمل الديني.. لأن هذه الأمور كلها، لم تنطلق من طبيعة العمل الديني، بل

انطلقت من فقدان الحس الاجتماعي لدى العاملين مما يجعلهم لا يواجهون الواقع بمشاعر ذكية، واحساس منفتح، وفهم لما يحيط به من أجواء وظروف، ولما يؤثر به من أحداث، فتتحول المعرفة لديهم، إلى تجارب محدودة مبتورة ومعلومات ناقصة، واستنتاجات هزيلة ساذجة، تبعدهم عن الواقع أكثر مما تقربهم إليه، وتجعلهم عرضة للأحكام السطحية التي تشبه الارتجال، فيتأرجحون بين عوامل الانفعال التي قد تدفعهم إلى صراخ اليأس تارة، وقد تقودهم إلى اندفاعات الحماس الأهوج أُخرى!.. ولا يقفون أي موقف من مواقف التعقل والاتزان الواقعي، لأنهم يفقدون مقوماته الفكرية والشعورية. فإذا تم لنا التخلص من هذا الموقف القلق الذي ألمحنا إليه، فإننا سنبتعد عن السطحية إلى العمق، وعن الارتجال إلى الدراسة والتأمل والموازنة، وبالتالي فإننا سنتعامل مع الواقع من خلال ظروفه الموضوعية، ومع الآخرين من خلال القواعد الأساسية الثابتة التي تحكم سلوكهم وتصرفاتهم، وسنرتفع بخطوات التحرك إلى المستوى الذي يبعث عن الاحترام ويوحي بالخطورة، فلا تستلبنا نظرات الاشفاق والتأثر التي يستقبل بها الأقوياء الحائرين الذين يراوحون أقدامهم في حركة التردد بين الاقدام والاحجام..

٤ ـ سلبيات الاندفاع وراء الانفعالات العاطفية السطحية:

إننا نعتقد أن الإنسان الذي يريد أن يتعامل مع الواقع، لا بد له من أن يفهم الواقع، من خلال المعرفة به، والاحساس بظروفه لينطلق من الواقع في تفكيره وفي حركاته وفي أهدافه، لأن الجهل به أو فقدان الاحساس بأوضاعه يبعده عنه أولاً، ويسلمه إلى القوى الأخرى التي تستغل ضيق أفقه، وقلة معلوماته وبلاده مشاعره وضعف احساسه، ليوجهوه في غير الوجهة التي يتجه إليها في عقيدته ودينه، وليحاربوا أهدافه في عملية تضليل وتشويه،

وليحطموا به الوحدة التي تحكم المؤمنين من خلال اثارة القضايا الجانبية التي لو انفتح على دوافعها من خلال انفتاحه على ما وراء الأحداث والقضايا، لما تحرك خطوة واحدة في الطريق الذي يريدون له أن يسير فيه، ولما أطلق كلمة واحدة في هذا المجال مما يراد له أن يقوله، أو يثير المشاعر حوله.. وهذا هو الذي يعرفنا طبيعة الخطورة التي تواجهها الأمة وتتعرض لها العقيدة، عندما يتسلم زمام الحركة الأفراد والجماعات الذين لا يملكون المعرفة الواسعة، والحس الناقد الذكي، فيندفعون تحت تأثير المشاعر والانفعالات العاطفية إلى تخاذ بعض المواقف التي توحي بالغيرة على العقيدة، وبالاخلاص للأمة، ولكنها تخفي وراءها المخططات التي يرسمها الأعداء، بحذر وهدوء ولباقة، ليدفعوا المؤمنين المتحمسين المندفعين إلى السير وراءهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون، فينفذوا لهم ما يريدون، وبذلك يفجرون العقيدة من الداخل، ويحطمون الأمة بتحطيم وحدتها تحت شعارات الطائفية والاقليمية وغير ذلك من الشعارات التي تقسم الناس إلى طوائف والبلاد إلى أقاليم.

وقد استطاع الاستعمار أن يستفيد من الانقسام الطائفي والمذهبي والقومي والعنصري، في تفجير الصراعات العنيفة، واثارة الأحقاد التاريخية، ليوظف ذلك كله لمصلحته وخططه الجهنمية في السيطرة على مقدرات البلد وتمزيقها شيعاً وأحزاباً ودولاً، وقد وجد تجاوباً مع كثير من الفرقاء الذين يفقدون الحس الاجتماعي الذي يكشف لهم، عما وراء الشعارات، أو الخطوات الاستعمارية التي تريد القضاء على جميع الفئات بشكل تدريجي، وذلك بتحطيم قوتها بأيديها، واشغالها عن خططه ومؤامراته بغفلتها وسذاجتها.. فكانوا حطباً لناره، واحترقوا باخلاصهم لانتماءاتهم، الذي لم يرتكز على قاعدة الفكر العميق والحس الناقد الذكي، بل ارتكز على الانفعالات التي تنطلق نحو الهدف من دون أن تفكر في الطريق التي تسير

فيها نحوه، أو الأجواء التي تتحرك فيها إليه، وحسابات الربح والخسارة في طبيعة المعركة وظروفها.. وكانت النتيجة أنهم لم يربحوا وطنهم، ولا أنفسهم ولا عقيدتهم بل خسروا ذلك كله، ليكون الرابح الوحيد هو الاستعمار الذي هو عدو الدين والمذهب، والقومية.. ولذلك فإن من الممكن لنا أن نقرر أن الهدف قد يسقط نتيجة جهل المقاتلين، كما يسقط نتيجة قوة الأعداء، لأن المقاتلين يتحولون إلى قوة في يد الأعداء لتدمير الهدف تحت تأثير خطط الجهل وخطواته.. وقديماً قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل، وقيل: لا تصاحب الأحمق فإنه يضرك من حيث يريد أن ينفعك.

●□●□●

الداعية بين القول والعمل

١ ـ علاقة الإيمان بالعمل:

أراد الإسلام من الإنسان المسلم في حياته العامة والخاصة أن يعيش إيمانه ويجسده في كل عمل، كمسلم يعتقد أن الإسلام عقيدة وعمل، فلا قيمة للإيمان بلا عمل، ولا قيمة للعمل بلا إيمان، ولذلك رأينا القرآن الكريم يقرن الإيمان بالعمل الصالح في كل آية يذكر فيها الإيمان كقيمة أخروية كبيرة، للايحاء باقترانهما في مجال العقيدة والحياة، وقد تردد كثيراً في الأحاديث أن الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، وقد جاء في بعض أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام اعتبار الإيمان هو العمل مما يوحي بأن الإيمان، في الإسلام، يعبر عن مضمون عملي، كما يعبر عن مضمون قلبي فقد روى الجعفي ـ كما في الكافي ـ قال: سألت أبا عبد الله (جعفر الصادق) عن الإيمان فقال: الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى[١]، وفي حديث الكناني عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) قال: قيل لأمير المؤمنين من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كان مؤمناً قال فأين فرائض الله قال (أي الكناني) وسمعته يقول: كان علي عليه السلام يقول لو كان الإيمان كلاماً لم ينزل فيه صوم ولا صلاة ولا حلال ولا حرام[٢]، وفي حديث محمد بن حكيم قال: قلت لأبي الحسن: «الكبائر تخرج من الإيمان قال نعم وما دون الكبائر

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٣٣.
(٢) الكافي: ج ٢ ص ٣٣.

قال رسول الله ﷺ لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن[١].

٢ ـ تأثير السيرة العملية للداعية على تجاوب الناس (مع الفكرة):

هذا في موضوع المؤمن بشكل عام.. أما إذا انطلق المسلم في مجال الدعوة إلى الله فإن القضية تأخذ بعداً تحدد للإنسان مصيره في الدنيا والآخرة، بل ينعكس على حركة الدعوة ومسيرتها الظافرة، لما للسيرة العملية للداعية من تأثير على تجاوب الناس مع الفكرة، وانفعالهم بها وإيمانهم بجديتها وواقعيتها، بينما تعطي السيرة المضادة، تأثيراً عكسياً يوحي بالابتعاد عنها نظراً إلى فقدان الانسجام في حياة الداعية بين النظرية والتطبيق فيولد في نفوس الآخرين انطباعاً بأن هذه النظرية لم تطرح للتطبيق، بل لتبقى فكرة حالمة خيالية، كبقية الأفكار الحالمة الخيالية التي عاشت في اطار المثال ولم تقترب من اطار الواقع، لأنها لم تستطع أن تغير حياة أصحابها، فكيف يمكن أن يطلب منها تغيير حياة الآخرين.. ولهذا كانت قيمة الرسالات السماوية، أنها كانت تستمد قوتها في الدعوة من طبيعة الفكرة ومن تجسيدها واقعاً حياً في سلوك النبي وعمله، ليسمع الناس حديث الدعوة من جهة، ويتلمسوا واقعها في حركة الحياة الممتدة من جهة أخرى.

أ ـ تجسد الإسلام في سلوك النبي (ص):

وقد قال بعض الناس إن الله لو أرسل القرآن في كتاب مجموع منزل، ولم يرتبط بحياة النبي وسلوكه لما استطاع الإسلام أن يخطو خطواته الكبيرة في الحياة، ولكن الناس كانوا يستمعون إلى القرآن من النبي من جهة، وكانوا

(١) الكافي: ج ٢ ص ٢٨٤.

يشاهدونه كصورة حية متحركة في حياته من جهة أخرى فقد تجسدت لهم أخلاق النبي وأعماله قرآناً يتحرك على الأرض كما حدثت عنه زوجته «عائشة» ـ فيما روي عنها ـ أنها قالت ـ وقد سألت كيف تصف خلق النبي ـ كان خلقه القرآن». وقد كان حديث القرآن عن علاقة سلوكه القرآني بنجاحه في الدعوة، صريحاً واضحاً وذلك هو قوله تعالى:

ـ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ـ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ـ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فإننا نلاحظ أن هذه الصفات «المميزة» لتي عاشها النبي في نفسه من خلال صفته الرسالية كداعية يريد أن يجذب الناس إلى الحق في الدعوة، لم تكن إلا الصفات التي تحدث عنها القرآن الكريم كخط عريض في العلاقات الإنسانية العامة باعتبارها عنصراً حيوياً من عناصر النجاح العملي في الحياة.

وقد ركز الإسلام على القدوة في عنصر الرسالة، كما ركز على عنصر الدعوة، فاعتبر عمله وتقريره سنة.. كما اعتبر قوله سنة، فأوجب اتباع النبي ﷺ في سلوكه كما في قوله تعالى:

ـ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

كما أوجب اتباعه في دعوته كما في قوله تعالى:

ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

[الأنفال: ٢٤].

وربما كان هذا التركيز ـ من الإسلام ـ على عنصر القدوة، إلى جانب تأكيده على عنصر الدعوة ايحاء للعاملين بأن من واجبهم أن يقتدوا بالنبي في ذلك، ليكون سلوكهم دعوة، كما يكون كلامهم دعوة، فيرتبط الناس بأشخاصهم من ناحية عملية، كما يرتبطون بأفكارهم من ناحية عقيدية.. ولقد جاء الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في هذا المجال قوله المأثور عنه في نهج البلاغة:

«من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتأديب نفسه قبل تأديب غيره ومؤدب نفسه ومعلِّمها أحق بالاجلال من مؤدب الناس ومعلمهم».

وجاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام مخاطباً أصحابه:

«كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع»(١).

وقد أنذر الله المؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون انذاراً صارخاً، بأسلوب حازم وذلك قوله تعالى:

ـ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

وأنكر على أهل الكتاب هذه الازدواجية بين الأمر بالخير وبين العمل بالشر.. وذلك هو قوله تعالى:

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ١٠٥.

ـ ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ب ـ تجسد الإسلام في سلوك الإمام علي (ع):

ولعلنا نلمح في سلوك الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في ممارسته للمسؤولية بالطريقة القاسية التي ألزم بها نفسه، هذا الاتجاه الإسلامي في تجسيد الانسجام بين القول وبين العمل، حتى في الحالات الطارئة التي يمكن فيها للإنسان أن يأخذ لنفسه جانب الرخصة في كثير من جوانب العمل، لتكون الممارسة دعوة واقعية متجسدة تسجل على نفسها الموقف بصورة شديدة قبل أن تدعوا الآخرين إليه، وذلك هو ما نستوحيه من قوله عليه السلام . . . «ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه، ألا وأنكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد». . .

فقد أطلق الدعوة بالكلمة، بعد أن جسدها واقعاً حياً بالسلوك العملي، في أعلى صورة من صور العنف والشدة. . وقد نستوحي ذلك من موقفه الذي وقفه ضد أولئك الذين جاؤوا يطلبون إليه، في بداية خلافته أن يقرب إليه رؤساء العشائر، وولاة البلدان، ليستميلهم إليه، فإذا استقام له الحكم وأمسك بزمام الأمور، تصرف بما يحلو له مما يفرضه عليه خطه المستقيم في الحياة في السير على طريق الحق ما أمكنه ذلك. . فامتنع عليهم أشد امتناع وخاطبهم بهذه الكلمات الرائعة. .

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه والله لا أطور به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجماً، لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنما المال مال الله ألا وإن اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف، وهو

يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله. ولم يضع امرؤ في غير حقه ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودهم فإن زلت فيه النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل وآلام خدين»[١].

فإننا نستوحي من هذا الموقف دور الحاكم، كما نستوحي دور الإنسان الرسالي الذي يطلق للناس دعوات الحق في خارج الحكم ليقربهم إلى الرسالة، ويربطهم بها من خلال ذلك، فإذا جاء إلى الحكم شعر بأن الموقف يفرض عليه مسؤوليتين، مسؤولية الناس في تحقيق المساواة بينهم وتطبيق الشريعة في حياتهم، ومسؤولية الرسالة في تحقيق الانسجام في اطارها بين جانب القول وبين جانب العمل للتدليل على واقعيتها وجديتها واخلاص الداعين إليها والعاملين في سبيلها.

وقد نشعر بالحاجة إلى بعض التفاصيل التي قد تحتاج إلى القاء الضوء عليها في قضايا القول والعمل في عدة نقاط:

أهمية فعل الداعي للمستحبات:

١ ـ ربما كان من الضروري أن لا يقتصر العاملون في سبيل الدعوة إلى الله، على فعل الواجبات وترك المحرمات، فإن ذلك قد يمثل قيمة دينية في مجال التقييم الإسلامي الذاتي للإنسان، ولكنه لا يجسد القيمة الكبيرة في حياته كداعية، بل يحاولون أن يضيفوا إلى ذلك الأخذ بالمستحبات الشرعية، التي تمثل المنهج العملي الإسلامي المرتبط بالجانب الأخلاقي، الذي لا يلزم الإسلام به اتباعه بل يترك لهم أمر ممارسته بشكل اختياري، وذلك بالأسلوب الذي يثير في التشريع أمام الإنسان رجحان الفعل، ويلوح له

(١) نهج البلاغة ص ١٨٣، طبعة بيروت، دار الكتاب اللبناني.

بالثواب عليه، ويؤمنه من العقاب في حال تركه. . لتكون الأخلاق الإسلامية نابعة من صميم الذات لا من طبيعة الالزام. . ثم قد يلزم الأمر أن يتركوا بعض المكروهات، التي هي عكس المستحبات، لأن الرجحان هنا في جانب الترك، بينما كانت هناك في جانب الفعل. . . ولكنهما يلتقيان في بناء الشخصية الإسلامية القائمة على عنصر الاختيار، لأن عناصر الشخصية تتكون من عنصر سلبي وعنصر ايجابي. . وقد تدعو الحاجة إلى أن يترك بعض المباحات إذا كان فعلها غير مألوف في حياة الناس مما يوجب الاضرار بالدعوة وبصاحبها. . وهكذا نجد أن مسؤوليته كداعية تقتضيه أن يجسد المثل الرائع للإنسان المسلم في نظر الناس، فيحبه الناس من خلال سلوكه، ويتحول ذلك الحب، إلى اخلاص لدعوته عندما يجدون الانسجام الكامل بين الدعوة وبين العمل.

التأكيد على ممارسة الداعية لما يقول:

٢ ـ إننا نحاول التأكيد على هذا الجانب من الممارسة في حياة الداعية انطلاقاً من التجارب العملية التي عاشها بعض العاملين في الحقل الديني من علماء الدين وغيرهم عندما استسلموا إلى الحياة استسلام المشغفوين بها، المندفعين إليها، بكل شوق ولهفة، مما جعلهم يعبون منها بلا حساب، ويستنزفون رخصها حتى آخر قطرة، ويقتربون من محرماتها بأفكارهم وإن ابتعدوا عنها بأفعالهم حتى تراهم يفتشون عن وجوه الاباحة في كل مجال، أما المستحبات فلا يتعبون أنفسهم بها، لأنها لا تستتبع العقاب في تركها. أما ثوابها فلا حاجة لهم به، فيكفيهم ما يحصلونه من الثواب في الواجبات وأما المكروهات والمباحات فلماذا يتركونها، فهكذا يقولون، وما دامت القضية لا تستتبع عقاباً في الفعل فلماذا يحرمون أنفسهم من الاستمتاع بعنصر الاباحة

في الشرع فإن الله يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

وتستمر الحياة بهم هكذا.. ويستمرون في مواعظهم ونصائحهم وارشاداتهم، ويتحدثون عن الزهد في الدنيا وما أعد الله للزاهدين، ويقصون على الناس قصص الزهاد الذين يقتصرون على القليل القليل من الطعام... ولكنهم لا يزهدون في الدنيا هذا الزهد الذي يحدثون للناس به.. وتسألهم عن تفسير لذلك فيجيبونك بأن هذا الزهد ليس بواجب فلماذا نلزم أنفسنا به، لأن الواجب علينا هو الزهد عن الحرام، وهذا ما نفعله...

ثم يتحدثون عن الصبر، وما أعد الله الصابرين، ويروون لنا روايات الصابرين وأحاديثهم ممن يصبر على المصيبة وعلى الفقر، وعلى نوازع النفس ومشتهياتها ويدعون الناس الأخذ به بالحاح وشدة ولكنهم لا يصبرون إذا أصابتهم مصيبة... بل ينهارون أمامها ويسقطون صرعى الجزع أو ما يقرب من الجزع.. أما الفقر فما أقل صبرهم عنه... وأما نوازع النفس فقد لا يحسنون ترويض النفس على الصبر عنها حتى في حالة انطلاقتها إلى ارتكاب الحرام فإذا سألتهم عن ذلك بدأوا يقرأون عليك النُّصوص التي تتحدث عن الفقر... والأدعية التي تستعيذ بالله من الفقر... والآيات التي تتحدث عن النفس الأمارة بالسوء إلا من رحم الله... وينسون في غمار ذلك كل ما ألقوه من مواعظ ونصائح للاستهلاك المنبري أو المسجدي إذا صح التعبير ـ ويتحدثون عن الأخلاق وكيف ينبغي للإنسان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها، وكيف يجدر بالإنسان المؤمن أن يأَخذَ الآخرين بالعفو والتسامح والمغفرة والحلم وغير ذلك من المعاني التي تلتقي بالرفق والسلوك ولا تلتقي بالعنف. وكيف يعيش المؤمن هموم الناس ومشاكلهم، ويهتم بهم لأن من لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم... وكيف تنطلق «الغيرية» في حياة الإنسان، كقيمة روحية، تتحدى الأنانية،

كقيمة شيطانية بغيضة وهكذا حتى آخر مادة أخلاقية في قانون الإسلام التشريعي وبرنامجه الأخلاقي.. ولكنهم لا يمارسون من هذا شيئاً.. فهم يغرقون في وحول الأنانية المغلقة بأكثر من غلاف شرعي ويشتدون في المطالبة بما لهم من حق، أو بما يحسبونه حقاً لهم حتى أقل ذرة.. فلا يتسامحون في شيء لأن ذلك حقهم الثابت الذي لا يحرم عليهم شرعاً المطالبة به، أما شعورهم تجاه الناس، فهو شعور «اللامبالاة» المستحبة التي يجب على الإنسان القيام بها.. فإذا اقتربت إلى أخلاقهم في المعاشرة والمعاملة، رأيت الغضب والشدة والعنف، مما لا يلتقي بالرفق من قريب أو من بعيد.. فإذا ذكّرته بأحاديث النبي والأئمة والأولياء التي لا ينفك يحدث الناس بها، استغرب حديثك وقال لك.. إننا لا نستطيع بلوغ درجة الأنبياء لأنهم معصومون، ونحن من أهل الخطايا وهكذا يمتد هذا السلوك المنفلت حتى يطغى على حياته فيجرده عن المعاني الكبيرة التي ترتبط بالقيم ويتحول إلى إنسان يسحر الناس بمواعظه وارشاداته حتى ينطلقوا إلى الدين وتعاليمه بلهفة وشوق ولكنه يبعدهم عنه، عندما لا يجدون لروحية الدين وأخلاقيته، أثراً في حياته وسلوكه.. وتلك هي قمة المأساة التي يعانيها الدين في كثير من النماذج في رجاله الذين يخلصون لشهواتهم ورغباتهم أكثر مما يخلصون لرسالتهم ودينهم، فلا يستجيبون لمصلحة الرسالة إذا اصطدمت برغبات النفس ومشتهياتها المباحة في بعض الحالات أو المحرمة في بعض آخر، تبعاً لدرجة الالتزام الديني قوة وضعفاً.. وقد ورد في بعض الأحاديث عن أئمة أهل البيت ما يشير إلى الوقوف موقف الحذر والاتهام من العناصر التي تعيش هذه الروح المشغوفة بالدنيا كما في الحديث الوارد عن الإمام جعفر عليه السلام قال: «إذا رأيتم العالم محباً لدنياه فاتهموه على دينكم فإن كل محب لشيء يحوط ما أحب»[١].

---

(١) الكافي: ج ٢ ص ٦٧٠.

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة التي تنذر هؤلاء الذين يصفون العدل ثم يخالفونه إلى غيره، بالعقاب الأخروي الشديد انطلاقاً من الحملة الدينية على كل مظاهر الزيف في الحياة وفي الدين، لأنها تشوه الحق وتربك خطوات العاملين وتفقد الثقة بالعمل نفسه، وتؤدي ـ بالتالي ـ إلى انهياره في كل موقع من مواقعه.

فقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى:

ـ ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٩٤].

قال: «هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره».

وقد ورد في حديث آخر عنه: «أن أشد الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره».

ضرورة الاعداد الروحي والديني للداعية:

٣ ـ إن القضية ـ كما ألمحنا إلى ذلك ـ لا تتجمد في موقل الإنسان الذاتي ازاء موضوع الدعوة إلى الدين والعمل به بل تمتد إلى قضية الدعوة، كاطار تتحرك فيه العقيدة، لتطبعها بطابع الثبات والجدية، أو بطابع الاهتزاز وعدم الصدق، بما يجعل من هذا السلوك الذي يمارسه العاملون في سبيل الله، جريمة وخيانة للرسالة من حيث يريدون أو لا يريدون.. ولهذا فإننا نريد التركيز على ضرورة الاعداد الروحي والديني للعلماء الدينيين والدعاة إلى الله إلى جانب الاعداد الثقافي والفكري، ليستطيعوا الانطلاق إلى الدعوة من خلال العمل والتطبيق، كما ينطلقون إليها من خلال الفكرة والنظرية.. وذلك بالتوفر على الدراسة الدقيقة، مع التحفظ على الأساليب المتعارفة لدى المرتاضين الذين يتولون تدريب أنفسهم وتدريب اتباعهم، على جهاد

النفس، بالأساليب التي تخلق لدى الإنسان عقدة كبيرة في نهاية المطاف، وبالمضمون الذي يلتقي مع الأفكار الانعزالية التي تعزل الإنسان عن الحياة، وتشل حركته حتى عن الدعوة إلى الله، بسبب الخوف من الرياء أو غير ذلك، مما يجعله ضعيف الإرادة عن مواجهة التحديات، بدلاً من الحصول على القوة التي يواجه بها كل شيء.. وقد شاركت هذه الأساليب في عزل كثير من الطاقات الحية وتجميدها عن العمل لأنها اعتبرت الرياضة الروحية هدفاً بعد أن كانت وسيلة، وتعلمت من أساتذتها أنّ التأمل والتفرغ للعبادة والعزلة عن الناس هو السبيل للقرب من الله والحصول على رضاه...

إننا نتحفظ في تشجيع ذلك، لأننا نريد مواجهة الداعية للحياة، بتربية روحية تربط الفكر والإرادة بالمضمون الإسلامي الذي يربط المؤمن بالحياة المتحركة النابضة بالحق، وبعزله عن رغباتها وأوضاعها المنحرفة المرتبطة بخط الباطل، فليست الحركة في موضعها هدفاً مستقلاً، وليست العزلة، في مجالها، هدفاً آخر.. بل هما وسيلتان متكاملتان يكمل أحدهما الآخر في خلق الشخصية المسلمة الواعية، المنفتحة على الحياة بالعمل، وعلى داخل النفس بالرقابة والتربية لئلا يتحول جهاد النفس إلى عنصر ضعف بدلاً من أن يكون عنصر قوة.

قيمة السلوك العملي المستقيم للداعية كأسلوب للدعوة الحية:

٤ ـ إننا نجد في تاريخ الدعوة الإسلامية كثيراً من الأساليب العملية التي تتجسد فيها روح الإسلام، وتعاليمه، فنلاحظ نجاحها في كسب الآخرين إلى جانب الإيمان بالإسلام، بالمستوى الذي لا يمكن مقارنتها بأي شيء من الأساليب البيانية التبشيرية ولعل السبب في ذلك، أن الإنسان الذي يستمع إلى إنسان آخر، في مجال الدعوة، ربما يكون خاضعاً لحالة نفسية

معينة، تقيم الحواجز بينه وبين الوصول إلى القناعة الفكرية.. لأن الشعور بالخطر الذي يتحدى قناعاته السابقة يخلق عنده حالة من حالات المواجهة والمجابهة للفكر الجديد، مما يؤدي به إلى رفض ذلك كله أما الأسلوب الذي يعتمد على السلوك العفوي، في طبيعته، أو في طريقته العملية التي توحي بذلك.. فإنها تقتحم على الإنسان كل قناعاته الفكرية بمواجهته لكل مشاعره وحواسه وأفكاره من دون شعور بأي نوع من أنواع التحدي والمعارضة، أو أي ايحاء بذلك من قبل الداعية، حيث يقف الإنسان وجهاً لوجه أمام التجسيد الحي للإسلام في حركته التطبيقية، مما يحطم كل الأفكار المضادة التي كان يحملها عنه دفعة واحدة.. وهذه بعض النماذج الحية من حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام.

١ ـ جاء في كتاب الكافي ـ للكليني ـ عن الإمام جعفر الصادق قال: إن أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب عليه السلام) صاحب رجلاً ذمياً فقال له الذمي أين تريد يا عبد الله قال: أريد الكوفة فلما عدل الطريق بالذمي عدل معه أمير المؤمنين عليه السلام فقال له الذمي: ألست زعمت أنك تريد الكوفة فقال له: بلى فقال له الذمي فقد تركت الطريق فقال له: قد علمت قال: فلم عدلت معي وقد علمت ذلك فقال له أمير المؤمنين هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيهة إذا فارقه وكذلك أمرنا نبينا عليه السلام فقال له الذمي هكذا قال نعم قال: إنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة فأنا أشهدك أني على دينك ورجع الذمي مع أمير المؤمنين عليه السلام فلما عرفه أسلم...

٢ ـ وجد أمير المؤمنين درعه عند رجل نصراني فأقبل به إلى شريح قاضيه، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه وقال: إنها درعي ولم أبع ولم أهب فسأل شريح النصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين قال

النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب فالتفت شريح إلى علي يسأله يا أمير المؤمنين: هل من بينة فضحك علي وقال: أصاب شريح ما لي بينة فقضى بالدرع للنصراني فأخذها ومشى، وأمير المؤمنين ينظر إليه إلا أن النصراني لم يخط خطوات إلا عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء... أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه، فيقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. الدرع درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق فقال علي: أما إذا أسلمت فهي لك.

إننا نلاحظ ـ في هاتين القضيتين ـ أن الإمام علياً لو استعمل كُلّ بلاغته في سبيل هداية هذين الرجلين إلى الإسلام لما استطاع أن يحصل على نتيجة كبيرة في هذا المجال، لأن الحواجز النفسية التي تقيمها العقيدة المضادة في الداخل، تقف سداً منيعاً بين الكلمة، وبين القلب، فلا تسمح لها بالوصول إليه إلا بجهد جهيد.. ولكن الانسجام العفوي مع تعاليم الإسلام التي يمارسها المسلم من غير تكلف، ومن دون ملاحظة لطبيعة المستوى الاجتماعي، استطاعت أن تهز هذا الإنسان من أعماقه لتفتح للفطرة نوافذ المعرفة والانفتاح على الحق من أقرب طريق، من دون ضجة أو ضوضاء، أو جدل أو صراع.

٣ ـ ما رواه في كتاب الكافي عن زكريا بن إبراهيم قال: كنت نصرانياً فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام فقلت إني كنت على النصرانية وإني أسلمت فقال وأي شيء رأيت في الإسلام قلت قول الله تعالى ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء فقال: لقد هداك الله ثم قال: اللهم اهده (ثلاثاً) سل عما شئت يا بني فقلت إن أبي وأمي على النصرانية، وأهل بيتي.. وأمي مكفوفة البصر

فأكون معهم وآكل من آنيتهم فقال: يأكلون لحم الخنزير فقلت لا، ولا يمسونه فقال: لا بأس انظر أمك فبرها فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك وكن أنت الذي تقوم بشأنها ولا تخبرن أحداً أنك أتيتني حتى تأتيني بمنى إن شاء الله قال: فأتيته بمنى والناس حوله كأنه معلم صبيان هذا يسأله وهذا يسأله فلما قدمت الكوفة لطفت بأمي وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها فقالت لي يا بني ما كنت تصنع هذا وأنت على ديني وما الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنيفية فقلت رجل من ولد نبينا أمرني بهذا قالت: هذا الرجل هو نبي فقلت لا: ولكنه ابن نبي فقالت لا يا بني هذا نبي إن هذه وصايا الأنبياء فقلت يا أماه، ليس يكون بعد نبينا نبي ولكنه ابنه فقالت: يا بني دينك خير دين أعرضه علي فعرضته عليها ودخلت في الإسلام وعلمتها فصلت الظهر والعصر والمغرب والعشاء والآخرة ثم عرض لها عارض في الليل فقالت يا بني أعد علي ما علمتني فأعدته عليها فأقرت به وماتت، فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها وكنت أنا الذي صليت عليها ونزلت في قبرها.. ففي هذه القصة شاهد كبير على قيمة الانسجام العملي مع الخط الإسلامي الصحيح في رغبة الآخرين بالإسلام واقبالهم عليه.. لأن الإنسان الطاعن في السن، لا سيما إذا كان امرأة، لا يمكن بفعل العادة الغالبة، أن يترك دينه ومعتقداته التي شب وشاب عليها حتى عادت جزءاً من ذاته، أمام أية حجة أو دليل، من الأدلة العقلية والنقلية، لأن حواجز القداسة التي أقامتها الممارسة الطويلة في مدى الزمن، تمنع أياً من هذه الأدلة أن تصل إليها.. ولكن سلوكاً واحداً قام به هذا الولد البار، استطاع أن يقتلع كل عقيدة مضادة من جذور النفس ليفسح المجال للعقيدة الجديدة أن تشرق في قلبها وروحها وفكرها.. لتمتد إلى عملها وممارساتها الحياتية فانطلقت في الحاح المؤمنة الطيبة على ولدها، ليعيد عليها الدين، بعد أن دخلت فيه من أجل أن تحصل على معرفة أوسع وفهم أعمق، وإيمان أرحب..

وتلك هي قيمة السلوك العملي المستقيم للداعية، في تجسيد الفكرة في حياته وحياة الآخرين لتكون أعماله دعوة حية للإسلام.. صامتة بكلماتها، ناطقة بوحيها الهادىء الوديع.

● □ ● □ ●

موقف الداعية أمام حالات الانفعال

قد يواجه الأنبياء وأصحاب الدعوات الكبيرة ـ والدعاة من بعدهم ـ عندما ينطلقون للتبشير برسالاتهم أو القيام بدعوتهم، بكل اخلاص واندفاع من أجل رفع مستوى شعوبهم فإذا بالعقبات تنتصب في الطريق أمامهما، لتكون جداراً ضخماً يحول بينهما وبين بلوغ ما يريدون من أهداف، وإذا بالذين يعملون من أجل رفع مستواهم، يقفون في الواجهة في موقف الأعداء ليكونوا أول من يطعن الدعوة ويحاربها ويرمي دعاتها بأبشع النعوت وأفظع التهم ويضطهدهم في حياتهم العامة والخاصة.

وهنا يقف النبي أو الداعية وقفة الحزن والأسى، وتتحول مشاعره إلى انفعالات حادة تجعله يضيق بدعوته في بعض الحالات، ويترك الساحة بأساً وهروباً. . . وربما يقف وقفة الحزن الكئيب الذي يملأُ أعماقه بالألم واللوعة لينهار أمام ذلك من أجل نفسه، ومن أجل الآخرين.

وقد صور لنا القرآن الكريم هذه الحالات من خلال التوجيهات الإلّهية التي كانت تلاحق النبي ﷺ في مسيرة الدعوة وترصد خطواته لتسدده في كل ما يقول وفي كل ما يفعل أو فيما يشعر به من مشاعر أو يتعرض له من انفعالات. ففي بعض الآيات الكريمة صورة لحالة الضيق النفسي الذي يشعر به الإنسان أمام حالة التمرد، ويدعوه إلى أن ينسحب من المعركة في يأس ولوعة.

ـ ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢].

ـ ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

فهذا موقف يتعرض فيه النبي ﷺ إلى الاقتراحات التعجيزية التي كان يمارسها الكفار ضد النبي ويحاولون أن يشغلوه بها عن مهمته، ليتحول إلى شخص لا شغل له إلا الاستجابة لتمنياتهم وتحدياتهم التي لا معنى لها لأنها لا تصدر عن محاولة للاقتناع، ففي معاجزه التي قدمها لهم كل كفاية بل تصدر عن رغبة في التحدي لمجرد التحدي. ومن الطبيعي أن مثل هذا الأسلوب في المعاندة لا يجدي معه أي أسلوب سلبي أو ايجابي مقنع، لأنهم لا يريدون ذلك، كما قدمنا، ولهذا كانوا يتحولون من عرض إلى عرض ومن اقتراح إلى اقتراح، وكان صدر النبي ﷺ يضيق بذلك، أو هكذا يحاول القرآن أن يوحي من وجهة تربوية ـ إلى المستوى الذي يبلغ بقوته درجة الرغبة في الانسحاب في بعض هذه المواقف المزعجة ـ فجاء القرآن الكريم يقول له: لماذا يضيق صدرك بكلامهم وتحدياتهم؟ إنك قد قمت بمهمتك وهي الانذار والابلاغ بكل ما تملك من طاقة فلم تدخر جهداً في ذلك، ولم توفر أي وسيلة، وإذا قام الإنسان بما يجب عليه في نطاق قدرته فليرجف المرجفون، وليقل المتقولون، فلا قيمة لذلك كله في حساب الله.

وفي بعض الآيات تصور لحالة الحزن التي يواجهها النبي ﷺ أمام حالات الكفر، تارة من جهة تكذيبهم له. وأخرى من جهة موقفهم من الله

وتحديهم لإرادته وكلماته، وثالثة من جهة حزنه عليهم لأنهم لم يهتدوا للإيمان. قال تعالى:

- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].
- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].
- ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨].
- ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].
- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

إن هذه الآيات بأجمعها تطلب من النبي أن لا يستسلم لانفعال الحزن أمام هذه الحالات لأنه إذا كان يحزن لأجل الله فإنهم لن يضروا الله شيئاً، أما إذا كان الحزن من أجل تكذيبهم له، فليس التكذيب موجهاً إليه بل هو موجه إلى الله لأنه يحمل رسالة الله، كما أن القضية ليست بدعاً في مجال النبوات، فلطالما كذب الأنبياء السابقون من قبل أقوامهم وإذا كان الألم من أجل المكذبين أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا فإنهم لا يستحقون الألم ما داموا قد اختاروا طريق الهلاك في الدنيا والآخرة... وهكذا تتنوع الآيات في تحليل كل حالة من الحالات لترجع الموقف إلى جذوره الأساسية التي انطلق منها فلا يعود للانفعال أي مبرر أو أي معنى.

ونؤكد أنَّ الآيات التي تطلب من النبي ﷺ عدم الحزن على حالات الجحود من المشركين لا تستهدف تسليته وتعزيته، كما يخيل لبعض المفسرين، بل كانت تستهدف تفريغ نفسه من الانفعال العنيف الذي ينطلق من الشعور بالخيبة أمام العمل، وذلك باثارة حقيقة واقعة تفرض نفسها على الموقف، وهي: أن قضية النجاح والفشل لا تنطلق من عنصر واحد يتمثل في جهد العامل ونشاطه بل تنطلق من عناصر عديدة تشترك فيها الظروف الموضوعية المحيطة بالعمل، بما في ذلك مؤثرات البيئة وغيرها، فلا بد للعامل أن يدخل ذلك في حسابه عندما يبدأ العمل. . . ولعل من بين الأسس التي يرتكز عليها الموقف هو انطلاق الإنسان من نقطة أساسية، وهي المجالات التي يستطيع أن يتحرك فيها من خلال قدرته ونطاقه فهي التي ينبغي أن تثير اهتمامه وانفعاله. أما المجالات التي لا تخضع لإرادته وقدرته، فعليه أن لا يخضع لأي انفعال أمامها لأنها لا تمثل إلا جهداً ضائعاً في هذا المجال[١].

إننا لا نحتاج إلى جهد كبير، ونحن نتابع هذا الجو الرائع الذي تحاول أن تثيره الآيات المتقدمة في نفس النبي، لتشيع فيها الراحة والطمأنينة والشعور بالانفتاح على حركة الرسالة في نظرة واقعية متفائلة لا تنهار أمام ضغط الواقع ولا تنسحق تحت وطأة التحديات. . ثم لا يتحول التفاؤل ـ بعد ذلك ـ إلى عنصر البعد عن الواقع في أحلام اليقظة. . إننا لا نحتاج إلى جهد كبير لنعرف أن محتوى هذه الآيات ليس موجهاً إلى النبي من خلال الخصائص النبوية الموجودة فيه بل من حيث كونه رسولاً وداعية إلى الله، على أساس حاجة الدعوة والرسالة في حركتهما في حياة الناس، إلى هذه الأجواء الروحية المتفائلة المشبعة بالواقعية والإيمان، وبذلك تعتبر هذه

---

(١) السلوك الانفعالي في مفهوم الاسلام ص ١١٤ ـ ١٢٠ (مفاهيم اسلامية عامة الحلقة ٦ ـ ٧).

الآيات موجهة إلى كل داعية إسلامي في كل زمان ومكان، وعندما يتعرضون إلى التجارب القاسية التي تعرض لها النبي ﷺ والتحديات التي واجهها كما يحدث لكثيرين من العاملين الذين يتعرضون للاضطهاد والتكذيب، وللاقتراحات غير المعقولة التي يقترحها بعض الكافرين أو المنحرفين للتعجيز أمام البسطاء، وللسخرية وللاستهزاء، كمن يقول في حالة الحديث عن وجود الله إن كان الله موجوداً فليكسر يدي، أو فليطعمني، أو فلينزل علي ما لا من السماء ونحو ذلك من الكلمات الصبيانية التي يقصد منها التأثير على عقول البسطاء من الناس الذين لا يدركون طبيعة التحديات وموقعها من قضية الحجة والبرهان على العقيدة، فيستسلمون إليها أو ينفعلون بها.. فيولد ذلك كله للداعية المسلم أزمة نفسية خانقة قد تدفعه إلى الشعور بالضيق، وقد تقوده إلى محاولات الانسحاب، وقد تملأ قلبه بالحزن والأسى على نفسه وعلى الناس... كما يحدث له ارتباكاً في الخطأ واضطراباً في القصد...

إن على الداعية في هذه الحالات أن يواجه هذه المواقف، بالروح التي أراد الله له أن يواجه بها الأحداث من خلال توجيهاته الرسالية للنبي محمد ﷺ ليعرف أن الانفعالات الذاتية ليست موقفاً شخصياً يملك الداعية فيه حريته في ضبطها أو اطلاقها بل هي موقف يتصل برسالته وبهذا تتحدد تبعاً لمصلحة الرسالة في نموها وامتدادها في حياة الداعين وفي حياة الأمة.

وقد يعيش الداعية بعض الحالات الشعورية أو العاطفية التي تدفعه إلى التنازل عن بعض مواقفه لمصلحة خصوم العقيدة، أو المداهنة والمداجاة في بعضها الآخر وذلك بسبب فكرة خاطئة تسيطر على تفكيره فتوحي إليه بأن عليه أن يعمل في سبيل الحصول على رضا المجتمع أو الفئات التي تعتقد

عقيدة معينة تختلف عن عقيدته أو تتبنى منهجاً عملياً يختلف عن أسلوبه العملي، ليكون إنساناً مألوفاً لديهم ومرغوباً عندهم، ومحبوباً في أوساطهم ليسهل عليه أمر الدخول في مجتمعاتهم والنفاذ إلى أعماق حياتهم من موقع المحبة والمودة التي ترتكز عليها الثقة في كثير من الحالات، وقد عالج القرآن الكريم هذا الموضوع في حديثه مع النبي محمد ﷺ في الظروف التي كان يعيش فيها الصراع مع أهل الكتاب فقد قيل ـ كما في مجمع البيان ـ أن النبي ﷺ كان مجتهداً في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في الإسلام فأنزل الله عليه هذه الآيات.

ـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ـ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

[البقرة: ١٤٥].

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

ـ ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ونحن نلاحظ في هذه الآيات الأسلوب الحاسم الذي يرفض الطريقة المتبعة في تحصين ثقتهم باتباع ما يحبونه من ناحية الأساس، فيحذر النبي ﷺ من اتباع أهوائهم التي لن تتحرك إلا في اتجاه الانحراف عن خط

الهدى بالتصرفات غير المشروعة، أو بتغيير حكم الله إلى غيره مما يحسبون أنه حكم الله ويتحول التحذير إلى تهديد بأن الله يسحب منه رعايته وولايته ووفايته من الأخطار المحدقة به ويمنع عنه نصرته على أعدائه ويجعله في صنف الظالمين لينال جزاءهم في الدنيا والآخرة. . .

أما الغاية التي يقصدها من خلال ذلك فلن تحصل أبداً لأن القوم بين حالتين حالة الاخلاص لعقيدتهم وحالة الحقد الداخلي على النبي وعلى الإسلام وإن لم ينطلقوا من موقع العقيدة في ذلك، وفي كلتا الحالتين لا يمكن أن يكون دخولهم في الإسلام غاية عملية معقولة. تلتقي بهذا الأسلوب كما تلتقي النتائج بمقدماتها. أما في الحالة الأولى فلأنهم ينطلقون في سلوكهم الذي يوحي بقربهم إلى الاقتناع بالرسالة والتراجع عما هم فيه، من خطة تحاول أن تحمل النبي ﷺ ـ في ظنهم ـ على التراجع عن بعض الأحكام المخالفة لأحكامهم، في حركة تدريجية تنتهي إلى التراجع الكلي فيما يريدون فإذا كانت الأوضاع المسالمة المراوغة خاضعة لخطة تضليل النبي ﷺ فكيف يمكن أن يؤمل في هدايتهم إلى الدين الحق. وفي الحالة الثانية لا يمكن الحقد أن ينتج سلاماً وديناً وإسلاماً. لأنه يتفجر غدراً وخيانة وخداعاً وتضليلاً ومهما كانت الأوضاع فإن هدفهم أن يتراجع النبي ﷺ عن الدين، لأن المشكلة الوحيدة التي تحدد الموقف وتفتح الطريق للصراع. . . إذ ليس بينه وبينهم خلاف في جانب شخصي أو مالي أو غيرهما، فلا يمكن ـ في هذا الحال لأية مبادرة أو تنازلات جزئية أن تحقق لهم الرضا عنه لأن الأسباب التي أنتجت الحقد لا تزال باقية، في موضعها فلا يزول إلا بزوالها ومن هنا أعطى القرآن الكريم النفي القاطع في موضوع الرضا، فقال، ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم، وفي موضوع القبلة التي ربما كان النبي يأمل أن يتبعها أهل الكتاب. . «ولئن أتيت أهل الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك» لأنهم أصدروا حكمهم عليك وانتهى

الأمر، ليعارضوا كل ما أنت عليه من موقع العناد والحقد والاستكبار.

وقد جاءت بعض الآيات التي تتحدث عن الركون إلى هؤلاء الكافرين بالافتراء على الله بغير ما أنزل إليه فأطلقت التهديد بعنف شديد لا مثيل له وذلك هو قوله تعالى:

- ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

وجاء في مجمع البيان، أن هناك عدة أقوال في سبب النزول، بعضها في طلبهم الانسجام معهم ولو قليلاً في أجواء الأصنام بالإلمام بها أو الكف عنها، ويتمثل البعض منها في ابقاء بعض الأصنام أو تأجيل كسرها أو ما أشبه ذلك.. ونحن لا نريد أن نثبت احداها أوننفيها، ولكننا نتحفظ في ذلك، إذ لم يثبت لنا منها ما يفيدنا العلم به، ولكننا نميل إلى أن الآية تتجه إلى الإيحاء للأمة بالفكرة وتحذيرها من الانزلاق في هذا المنزلق الخطر بفعل الاغراءات المعسولة التي يقدمها الأعداء إلى المؤمنين، كما روي عن ابن عباس قوله «أن رسول الله معصوم ولكن هذا تخويف لأمته لئلا يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه» ويحتمل في نسبة الركون إليه، أن الأساليب التي اتبعت معه وأثيرت لديه، كانت من القوة والاغراء والايحاء ما تؤدي به إلى الركون، لو كان من الأشخاص الذين يركنون إلى ظاهر الأشياء، ولكن الله ثبته بقوة الإيمان، فلم يستطيعوا التأثير عليه أو زحزحته عن موقفه.. فيكون التثبيت من خلال طبيعة شخصية الرسول المنيعة فيه، لا من خلال الحالة الطارئة التي تنطلق بشكل آني لتمنع وقوع الكارثة أو حدوث الانحراف. وعلى كل حال، فإن عنف الأسلوب في

مواجهة مثل هذه المشاعر النفسية التي تثير في نفس الإنسان الرغبة في التنازل على أساس الرغبة في ارضائهم، لينتهي الموقف بعد ذلك إلى الإيمان، يدلنا على خطورة هذه المشاعر، على اتجاهات الانضباط والاصرار في سبيل الاخلاص للرسالة، لأنه يعرض الدعاة إلى الخروج عن الخط تدريجياً لتكون النتيجة خروجاً نهائياً عن الخط أساساً وتحطيماً للمقاومة النفسية التي تقف سداً منيعاً ضد محاولات الهجوم والانحراف، وبذلك لم يعد الجو يحتمل انصاف الحلول، وأساليب المجاملة لأن القضية قضية العقيدة في قوتها وصمودها واستمرارها لا قضية وضع اجتماعي طارىء لا أهمية له.

وإذا كانت القضية في أسلوبها العنيف، بالمستوى الذي لا يمانع في توجيه التهديد إلى النبي كما لو كانت الحادثة صادرة عنه، أو انتسب الانحراف إليه، فكيف يكون الموقف لو صدرت من الآخرين ممن لا يملكون منزلته ودرجته في الإيمان بالله والقربة إليه والحظوة عنده، لو تعرضوا للتجربة، ووقفوا أمام المنزلق الخطر... إن في هذه الآيات تهديداً في مستوى الانذار الحاسم الذي يصدر الحكم وينفذه فوراً، ليجعل للرسالة مناعتها ويحفظها من السقوط في الهاوية، ويمنعها من الاندفاع نحو الانهيار والذوبان.

وقد نلاحظ في بعض الأساليب التي يتبعها المضللون والمنافقون لينحرفوا بالمؤمنين والدعاة عن خطهم الأصيل ما يشير إلى هذا الاتجاه... فهناك الأسلوب الذي ينطبع بطابع الاغراء فيعطي بعض المؤمنين صفة التقدمية والعقل المتطور، ثم يوحي إليه بشكل خفي وبطريقة غير مباشرة. بأن هذه الصفة لا تتناسب مع الحكم الشرعي أو المفهوم الإسلامي الذي يؤمِنُ بِهِ، ليشجعه على الخروج عليه والتنكر له، من أجل أن يظل حائزاً على شرف الصفة، وهكذا ينتقل به من حكم إلى حكم ومن مفهوم إلى مفهوم

آخر، لينتهي إلى أحد موقفين، أما الخروج من الإسلام نهائياً والخجل بانتسابه إليه لاختلافه مع خط التطور، وأما محاولته تحريف أحكام الإسلام ومفاهيمه وتأويلها، ليحتفظ بالصفة الشكلية للإسلام إلى جانب صفة التقدمية والتطور وهو في كلتا الحالتين خارج عن الخط المستقيم.

وهناك الأسلوب المعاكس الذي يتبع أسلوب الهجوم عليه وتحقيره باضفاء صفة الرجعية عليه والتأخر على عقيدته وسلوكه وأسلوبه في الحياة... ثم يوحي إليه بطريقة خفية ذكية، بالتنكر لبعض مفاهيم العقيدة وأوضاع السلوك، أما برفضها مباشرة، وأما بتأويلها بما ينسجم مع النصوص الإسلامية ليعطيها قناعاً إسلامياً مزيفاً ليحتفظ برضا المجتمع عليه، وحسن نظرتهم إليه، فينعم بتلك الخطوة... ويسعد بالدرجة الاجتماعية الكاذبة التي يمنحها له أعداء الله في اطار من السخرية والاستهزاء والاحتقار الخفي لسذاجته وغفلته.

وهناك الأسلوب الذي يحاول اثارة الضوضاء على بعض الأحكام الشرعية التي يرفضها الأوروبيون بفعل الذهنية المسيحية التي نشأوا عليها فآمنوا بها ثم أضافوا إليها حيثيات عصرية جديدة طبعتها بطابع التقدمية المرتكزة على احترام المرأة وتعظيمها، كتشريع تعدد الزوجات والطلاق في الإسلام الذي حاربوه حرباً لا هوادة فيها، ونادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور حزناً على المرأة المسكينة الضعيفة التي جعلها الإسلام متعة للرجل، فأنشأ لها نظام الحريم الذي يحاول الرجل في اطاره أن يحبسها في داخله كالمعلبات التي لا ينفذ إليها الهواء ثم جعل له حق التعدد وحق الطلاق ولم يجعل لها شيئاً من ذلك... واستعملوا كل أساليبهم في الاثارة وفي التشويه لينفروا الناس من ذلك، وجاء كثير من المسلمين من حكامهم ومفكريهم ليلفوا ويدوروا حتى يتخلصوا من ذلك فيتأولوا النصوص ما شاءت لهم

نفوسهم الضعيفة من تأويل ويحرفوا ما أمكنهم من تحريف ويشرعوا القوانين التي تقيد ذلك وتحظره، فأعطوه صفة إسلامية انطلاقاً من صفة الدولة أو من صفة الحاكم الرسمي ليرضى عنهم الآخرون، وأوهمهم الآخرون بالرضا وصفقوا لهم طويلاً وهللوا لهم كثيراً. . ولكنهم كانوا يعدون الخطط بالخفاء ليدفعوها إلى تنازل جديد وتراجع جديد، بتناول الصفة الإسلاميّة بالذات باعتبارها صفة دينية توحي بالتعصب الديني الذي لا يتناسب مع الشخصية التقدمية للحاكم أو الصفة العصرية للدولة، ولهذا كانت «الأقلام التقدمية» تثور عندما تولد ثورة جديدة لتقر صفة الإسلام كدين رسمي للدولة أو تشرع بعض أحكام الإسلام فيما تشرع من قوانين بحجة الدفاع عن الصفة الثورية والمحافظة على الأقليات الدينية الموجودة في الدولة لأن مثل هذه الصفة تمس شعورها الديني وتوحي لها بنوع من أنواع الاحساس بالاضهاد. . . وينهزم الكثيرون من «أولي الأمر» أمام هذه الحملات ليحصلوا على رضا هؤلاء وأولئك ولكنهم لن يحصلوا على رضاهم ما داموا لم يخرجوا من الخط الكلي ليسيروا على لخط الآخر الذي يسير عليه الآخرون ومن المفارقات التي تحكم هذه المواقف هو أن هؤلاء الذين يثورون على اعطاء الدولة صفة الإسلام باعتبار أن الأكثرية إسلامية، محافظة على شعور الأقليات الدينية، لا يثورون، ولا يقفون الموقف نفسه أو نصفه أو ربعه، إذا أريد لها أن توصف بالشيوعية أو بالصفة القومية، أو غيرها من صفات المبادىء الحديثة التي تحكم الدولة أو المجتمع، مع أن في المجتمع فئات كبيرة لا تؤمن بالشيوعية، أو لا تنتمي إلى الصفة القومية. . . فلماذا لا يحافظون على شعور الأكثرية هنا، أو الأقلية هناك، إذا كان الغاء الصفة الإسلامية لأجل هذا السبب بالذات. . . أو أن الإسلام لا يرقى إلى مستوى الجدية والاحترام الذي تتصف به التيارات المعاصرة. . .

إننا نؤكد على الحذر الشديد أمام الحالات الشعورية والعاطفية التي

تولّدها الأساليب المثيرة المنحرفة من قبل أعداء الإسلام، سواء في ذلك الأساليب المرتبطة بالجانب العقيدي أو بالجانب التشريعي أو بالجانب السياسي الذي ترتبط به الممارسات العملية للناس في خط هذا التيار أو في خط التيار الآخر، فقد يجر الإنسان إلى ما ينحرف به عن خطه، بالإيحاء له بالحصور على رضا الكثرة الغالبة التي تحترم السائرين في هذا الخط، وتشجب السائرين في الخط الموازي له... وقد علّمنا الإسلام أن علينا أن لا نحترم الكثرة أو الأكثرية إذا كانت على خلاف الحق ولا نحتقر رأي القلة إذا كان منسجماً مع الحق، ليكون الهاجس الدائم الذي يحركنا هو الحق في اتجاه الإيجاب، والباطل في اتجاه السلب... فإن في ذلك رضوان الله... وهو غاية القصد في كل حركة وفي كل اتجاه.

●□●□●

الفصل الرابع

مع الدعوة في أسلوبها العملي

١ ـ أصالة أسلوب الدعوة وتميزه.

٢ ـ أسلوب القرآن وأسلوب الفلسفة في الدعوة.

٣ ـ أسلوبنا بين الانحراف القديم والانحراف الجديد.

٤ ـ كيف نواجه تحديات الكفر والانحراف.

٥ ـ كيف نعرض أفكار الآخرين على الناس.

٦ ـ أسلوب الدعوة في مواجهة الضغوط العامة وعلاقته بالتقية.

٧ ـ أسلوبنا بين سلبيات الواقع وإيجابياته.

أصالة أسلوب الدعوة وتميزه

١ ـ أهمية الأسلوب العملي وأصالته:

قد يكون من بين القضايا الأساسية التي نواجهها في حركة العمل الإسلامي، هي قضية الأسلوب العملي في العرض والنقد والمواجهة الإعلامية في مجال الصراع، لأن للأسلوب الدور الكبير في نجاح الفكرة وفشلها، من حيث انسجامه مع المؤثرات التي تهيمن على ميدان المعركة، وابتعاده عن سلبيات الصراع، وتجسيده لأصالة الفكرة واستقلالها فلا تخضع لوجوه وأقنعة مستعارة نلبسها في حالات الاهتزاز الاجتماعي لتحارب أعداءها من خلال شخصيات الآخرين فتؤدي إلى نتائج عكسية تطمس شخصيتها وتمحو أصالتها، وتجعلها عرضة للارتباك أمام الأفكار الطارئة التي طبعت أساليب الآخرين بطابعها المميز.

ولهذا فإننا نؤكد أن يستمد العمل الإسلامي أسلوبه في العرض وفي النقد، والمواجهة الاعلامية، من واقع التفكير الإسلامي ونظراته إلى الكون والحياة، وخصائصه المميزة في مرونة الحركة وحيويتها، التي تأخذ لكل موقف عدته وتعمل على أن تواجه الواقع بمقضياته ومناسباته الواقعية انطلاقاً من مفهوم «الحكمة» الذي دعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

ـ ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ

أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فإن هذا المفهوم يلتقي بالمفهوم البلاغي للكلام الذي هو «مطابقة الكلام لمقتضى الحال» فيعطي لكل حالة مقتضاها ويضع كل كلام في موقعه من الواقع، فتتغير الأساليب، تبعاً لتغير المقتضيات، وتتنوع المقتضيات تبعاً لتغير الواقع..

٢ ـ الأسلوب الخاطىء في مواجهة بعض المبادىء الضالة:

إن تأكيدنا على هذا الجانب من أصالة الأسلوب وتميزه عن أساليب المبادىء الأخرى يرجع إلى مواجهة الممارسات الخاطئة التي يمارسها بعض العاملين في سبيل الله في أسلوب المواجهة الناقدة لبعض المبادىء التي نختلف معها في واقع العقيدة والشريعة وذلك كما في أساليب محاربة «الشيوعية» فإننا نختلف مع هذه العقيدة في جذورها الفلسفية القائمة على انكار وجود الله، وكل ما تؤمن به الأديان مما يعيش خارج نطاق الطبيعة، وتنطلق خلافاتنا معها ابتداء من القواعد الفكرية التي ركزت عليها نظريتها وقوانينها، من المادية الديالكتيكية إلى المادية التاريخية انتهاء بالنظام القانوني والحركي الذي يتفرع عن النظرية من أساليب الاشتراكية وطرق تطبيقها، إلى واقع الشيوعية كمرحلة أخيرة في وصول النظرية إلى نهاية المطاف. ولا بد لأسلوب العمل النقدي من أن يضع تصميمه وتخطيطه على أساس مواجهة الجانب الفلسفي، والجانب الفكري والجانب التشريعي أو القانوني، ليبقى الأسلوب في مستوى الفكرة وينطلق من واقع التفكير الإسلامي، بعيداً عن أي اثارة للواقع الجغرافي الذي ولدت فيه الفكرة أو نشأت في أحضانه، من حيث تصنيف الفكرة، كبضاعة وطنية أو قومية، أو

أجنبية مستوردة.. كما يحاول البعض ممن يفكرون في المبادى على أساس أن تكون نابعة من تراب الوطن ومن تراثه وحضارته في الاطار الوطني الاقليمي، أو تكون منطلقة من الواقع القومي الحضاري، فإن ذلك هو الشرط الوحيد لقبول المبادىء أو مناقشتها قبل التسليم بها، ولذلك كان الشعار المطروح ضد الشيوعية في بدايات الصراع، هو أنها من «المبادىء المستوردة» التي لم تنبت في أرض الوطن بل كانت نتاج أرض غريبة، وظروف غريبة.. وقد يعلق هؤلاء على هذه الفكرة، أنها قد تصلح لبلاد أخرى كالبلاد التي نشأت بها أو غيرها، ولكنها لا تصلح لبلادنا وأمتنا التي تملك من تراثها وحضارتها وتقاليدها ما يبعدها عن الالتقاء بأمثال هذه العقيدة الغريبة المستوردة.. وقد سار كثير من الدعاة المسلمين في هذا الاتجاه في محاربتهم للشيوعية، من دون التفات إلى مدلول هذا الشعار وانعكاسه على طبيعة الفكرة الناقدة ونحن نرفض طرح مثل هذا الشعار، أولاً، لأننا نعتقد أن العقائد والمبادىء والقوانين المنبثقة عنها لا تخضع لمقاييس الحدود الجغرافية، بل تخضع لمقياس الحق والباطل من جهة، ولمصالح الإنسان ومنافعه أو خسائره ومضاره من جهة أخرى.. أما التراث والحضارة والتقاليد فليس لها أية قيمة إذا اصطدمت مع قضية الحق أو مع مصالح الإنسان الحيوية.. فإن الإسلام لا يحترم تراث الآباء والأجداد إذا كان على خلاف الحق لأن علاقة الإنسان بآبائه وأجداده، لا تمثل أي معنى كبير في حالة الاصطدام بالحقيقة الكبيرة في الحياة.. ولولا هذا لأمكننا أن نخضع كل أمة لحضارتها القديمة ولتراثها التاريخي، ولما استطعنا أن نطرح الرسالات والمبادىء العالمية الإنسانية من ذلك كله على أفكار واحدة وخطوات واحدة وأهداف واحدة.. ويبقى للقضايا الاقليمية والقومية واللونية بعض ثقافتها وتقاليدها وأوضاعها المستمدة من طبيعة الأفق المحدود.

وثانياً: إن هذا الشعار لا يمانع من الاعتراف بهذا المبدأ في البلاد التي تتناسب مع فلسفته وقوانينه، وتنسجم مع أفكاره وأجوائِهِ أو في المناطق التي ولد فيها ونما في أرضها ومجتمعها، أما نحن فنرى أنه لا يمكن الاعتراف به واقراره في أي بلد من البلدان لأنه لا يتفق مع الأسس الحقيقية لقضايا الإنسان ومصالحه من وجهة نظرنا، كما أن نفس الفكرة ترفض الاعتراف بالاطار الضيق المحدود الذي يراد لها وضعها فيه، لأنها تعتبر نفسها رسالة عالمية أممية، وعلى هذا الأساس فإن الأسلوب الذي يضع الفكرة في هذا الاطار ويستخدم هذا الشعار في قضية الصراع يبتعد عن الأصالة الإسلامية، ويرتبط بقواعد فكرية غير إسلامية، فلا يجوز للداعية المسلم أن يمارسه في دعوته.

٣ ـ التحذير من مواكبة الأساليب المناهضة:

ونلاحظ في هذا المجال أسلوباً آخر تنبعه دوائر الاستخبارات الأميركية والدول المناهضة للشيوعية وهو التركيز على جانب الحرية على الطريقة الرأسمالية فتحاول تقديم الاحصاءات التي تمثل الضغط الذي تمارسه الأنظمة الشيوعية أو الاشتراكية ضد حرية العبادة والدين، وحرية الفكر، وحرية الاجتماع وحرية التظاهر والاضراب وغيرها.. وقد يشاركهم في هذا الاتجاه بعض العاملين في الحقل الديني الإسلامي فيجدون في هذه المعلومات مادة دسمة للدعاية المضادة للشيوعية، التي تغلق على بلدانها ستاراً حديدياً أو غير حديدي فتمنع وصول الأخبار والمعلومات عن واقع المجتمع هناك إلا من طريق دوائر التجسس الغربية..

ونحن لا نوافق على السير بعيداً في هذا الاتجاه لأننا لا نؤمن بالحرية الرأسمالية التي تمنح الحق في التصرف للأشخاص أو المؤسسات التي تسيء

إلى قضية الإنسان في حياته السياسية والاقتصادية من أصحاب رؤوس الأموال أو أصحاب مصانع السلاح أو غيرهم من الذين يعملون لافساد الحياة في كل معانيها الإنسانية وقيمها الروحية، ليحصلوا على مزيد من الأرصدة المادية، ولا نؤمن بحرية الفكر التي تفسح المجال للأفكار المضادة للمبادىء الخيرة في الحياة، المثيرة للفوضى والشغب والتخريب وغير ذلك مما يهدم النظام والسلامة العامة للبلد، ولكن ليس معنى ذلك أننا نوافق على جميع ألوان التقييد للحريات التي تقوم بها الأنظمة الشيوعية في البلدان الاشتراكية.. بل كل ما هنالك هو التأكيد على نقطة حيوية جداً هو أن الأنظمة التي تقوم على الأفكار الملتزمة لا يمكن أن تسمح بالحرية إلا في النطاق الذي يحمي المجتمع من استغلال الحرية لضرب القضايا الكبرى التي لا تتوافق مع مصالح بعض دعاة الحريات الاحتكارية المستغلة وبهذا تلتقي الشيوعية بالإسلام في طبيعة الحرية الملتزمة وإن كانا يختلفان في التفاصيل تبعاً لاختلافهما في القواعد التي يرتكز عليها النظام هنا.. والنظام هناك..

ولذا فإن الانسجام مع الخط الرأسمالي في الدعاية المضادة للشيوعية، يبعد الداعية المسلم عن الخط الإسلامي الفكري في موضوع الحرية، لأنه يتضمن اقراراً واعترافاً بالحرية على الطريقة الرأسمالية التي لا يوافق عليها الإسلام، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن السير مع أساليب الاستخبارات، واستخدام شعاراتها وأدواتها الاعلامية، يسيء إلى الجهات الإسلاميّة التي تحارب الشيوعية والرأسمالية معاً، لأنه يضعها في موقع المعسكر الاستعماري، ويسهل توجيه التهمة إليها بما ليس فيها من التعامل مع دوائر الاستخبارات، ويؤدي ـ بالتالي ـ إلى هزيمة كل أساليبها العملية من أقرب طريق، ويفقدها ـ قبل كل شيء وبعد كل شيء ـ شخصيتها المستقلة وأصالتها الفكرية، ونحن نشعر بأننا لسنا بحاجة إلى هذا كله، لأن للفكر الإسلامي من الامتداد والسعة والعمق والشمول ما يكفل لنا السير قدماً في

مناقشة الفكر الماركسي والرد عليه من خلال قواعده الفكرية، وتطبيقاته العملية ولا يمنع ذلك من وجود بعض مجالات اللقاء الفكري والسياسي في الجوانب الفرعية المتحركة لكلا الفكرتين ونريد للداعية المسلم أن يؤكد في كل أساليبه على السير في هذا الخط المستقيم لتبقى له خطوطه الفكرية في كل مراحل الطريق، ولئلا يقف حائراً أمام ازدواجية فكرية بين ما يحمله من أفكار وبين ما يمارسه من أساليب، مما يوجب ارتباكاً في الخطوات وحيرة في الطريق.. ونعتقد أن ذلك يعطي خطوته قوة مضاعفة لأنه يستمد حركته من موقع فكرته، مما يجعلها خاضعة لسيطرته المرتكزة على أساس التخطيط الواقعي الاختياري أما إذا كانت مستمدة من مواقع أفكار الآخرين وممارساتهم فإنها تبقى تحت رحمة مواقف الآخرين ومواقعهم السياسية العامة والخاصة..

٤ ـ لماذا التأكيد على الأصالة الإسلامية في الأسلوب:

إننا نشعر بضرورة التأكيد على جانب الأصالة الإسلامية في الأسلوب العملي، انطلاقاً من الواقع الذي يحكم العمل في ميدان الصراع، لأن الساحة قد تجمع اتجاهات كثيرة تلتقي ضد هدف واحدة، وقد يتعاظم دور البعض من هذه الاتجاهات في حركة الصراع يطبعه بطابعه ويخضعه لطريقة تفكيره، وتبقى الاتجاهات التي تملك الدور الثانوي الخاضع لعوامل الضعف الذاتي، تتلمس الطريق من خلال خطوات الفريق الأول فتتأثر بخطواته تلقائياً، كما ألمحنا إليه في مثالنا المتقدم الذي يحاول فيه الكثيرون أن يأخذوا من الكتب التي تصدرها دوائر الاستخبارات الأميركية والأوروبية، الأساليب العملية في نقد الشيوعية على الطريقة التي تتبناها هذه الدوائر، من دون أن ينتبهوا إلى ما في داخلها من عوامل الانحراف الفكري والعملي.

إننا نريد أن نؤكد على صراعنا مع الشيوعية صراع فكري يخضع للعوامل الفكرية، لا لشيء آخر فعلينا أن نحافظ على سلامة الفكرة في حالة الصراع، كما نحافظ عليها في خارجه.

● □ ● □ ●

أسلوب القرآن
وأسلوب الفلسفة في الدعوة

هناك أسلوبان في الاستدلال على الحقائق الأساسية في الإسلام، كالتوحيد والنبوة، والمعاد، وغير ذلك مما يتصل بأصول العقيدة. . .

١ ـ أسلوب علم الكلام، والفلسفة:

الذي يبحث عن هذه القضايا وغيرها، بحثاً علمياً مجرداً لا يخلو من جفاف في أسلوبه ومحتواه. . فكأنك تشعر ـ وأنت تقرأه أو تمارسه ـ بالبعد عن الحياة وما فيها من عظمة وجمال وجلال. . وبالاستسلام لأجواء المفاهيم التجريدية والاصطلاحات المعقدة، التي تملأ فكرك بالاحتمالات البعيدة والشكوك القلقة، والتقسيمات الكثيرة، والأبحاث التي تُغرق الإنسان في ضباب كثيف من الأفكار الطويلة العريضة القريبة إلى التصور، البعيدة عن الاحساس. . ولذا كانت الأساليب الفلسفية ـ فيما يراه الكثيرون ـ تعطي فكراً عقيدياً، ولكنها لا تعطي إيماناً وقناعة روحية. . فإذا أردت أن تدخل في موضوع وجود الله ـ في الاطار الفلسفي ـ وجب عليك أن تمر بأبحاث الوجود والماهية، وهل الوجود هو الأصل، أو أن الماهية هي الأَصل. . ثم تنطلق نحو أبحاث الممكن والممتنع والواجب. . وأبحاث الحركة، والعلة والمعلول، وغير ذلك. . مما ربما ينتهي بك إلى القناعة الفكرية التي تقتحم

فكرك من خلال الأدلة العقلية المتنوعة.. ولكنك تشعر بأنك ابتعدت كثيراً عن الحياة ومعانيها، حتى يترك ذلك عندك انطباعاً عميقاً بأن العقيدة لا علاقة لها بالحياة، لأنها تستمد قناعاتها من منطلقات بعيدة عنها وعن الارتباط الوثيق بالواقع.

٢ ـ أسلوب القرآن:

الذي يفلسف العقيدة بالحياة، ويجعل الحياة بكل ما فيها من مشاهد الكون وآياته دليلاً على وجود الله، ويطلب من الإنسان أن يدخل إلى داخل نفسه، ويتطلع إلى مرآة ذاته، ويتلفت إلى ما حوله ليخرج من كل واحدة من ذلك بالدليل الواضح على وجود الله.. وبذلك تنفذ العقيدة إلى القلب والفكر معاً، من النافذة التي تدخل منها إلى الحياة.. وليس معنى ذلك أن الأسلوب القرآني يبتعد عن الأسلوب العقلي في التفكير، بل كل ما هناك أنه يقترب من الحياة، ليجعل الحياة كلها بما تحتويه من جمال وجلال، منطلقاً للتفكير، ليجتمع للدليل اشراق الحس وعمق التفكير، فلا يشعر الإنسان بأنه يستورد الإيمان من خارج حياته حيث الوجود الذهني ينغلق عن ذاته في ضباب المفاهيم. ويفكر ليصدّر للإنسان قناعاته الفكرية، بل يشعر الإنسان بأنه يعيش إيمانه في عملية تفجير للأعماق، واستثارة للفطرة، واستلهام للحياة واستيحاء للفكر.

ولعلنا لا نتوقف في عملية الاختيار بين الأسلوبين، ولا نتردّد، بل نسارع إلى اختيار الأسلوب القرآني في حركة الإسلام نحو اثبات عقيدته ومفاهيمه الأساسية.. لأننا لسنا بصدد الفكر الذي يتعمق في الأشياء ليملأ دماغ الإنسان بالمعلومات، بل نحن في اتجاه إيمان يملأ كيان الإنسان بالحق والحياة والاحساس الواعي بوجود الله في كل ما يحسه ويشاهده ويعيشه حتى

يجد الله في كل شيء يراه، ويحس به في كل خلجة من خلجات حسه، وفي كل حركة من حركات جسمه وهذا ما لا يتوفر لنا الحصول عليه إلا في الأسلوب القرآني.. وقد نستطيع ادراك هذا الفارق في طبيعة الأسلوبين إذا استعرضنا بعض النماذج الحية، لهما في عملية مقارنة..

فنلتقي ـ في البداية ـ في الدليل الذي أقامه المتكلمون على رفض فكرة وجود شريك الله وحاولوا أن يجعلوه تفسيراً لبعض الآيات القرآنية الكريمة.

«قالوا: ـ فيما ينقله لنا صاحب مجمع البيان ـ:

أنه لو كان مع ـ الله سبحانه إلهاً آخر لكانا قديمين، والقدم من أخص الصفات، فالاشتراك فيه يوجب التماثل فيجب أن يكونا قادرين عالمين حيين، ومن حق كل قادرين أن يصح كون أحدهما مريداً لضد ما يريده الآخر من اماتة واحياء أو تحريك أو تسكين، أو افقار أو اغناء ونحو ذلك. فإذا فرضنا ذلك فلا يخلو أما أن يحصل مرادهما، وذلك محال، وأما أن لا يحصل مرادهما، فينتقض كونهما قادرين، وأما أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر، فينتقض كون من لم يقع مراده من غير وجه منع معقول ـ قادراً... فإذن لا يجوز أن يكون الإله إلا إلهاً واحداً.

ولو قيل أنهما لا يتمانعان، لأن ما يريده أحدهما يكون حكمة فيريده الآخر بعينه، فالجواب عنه أن كلامنا في صحة التمانع، لا في واقع التمانع، وصحة التمانع تكفي في الدلالة لأنه يدل على أنه لا بد من أن يكون أحدهما متناهي القدرة فلا يجوز أن يكون إلهاً»...

أما الدليل الذي أقامه القرآن، في هذا الاتجاه فهو الذي يتمثل في الآية الكريمة التالية:

١ ـ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ* لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا

ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ ـ ٢٢].

٢ ـ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢].

فإننا نتمثل فيهما ايحاءً بحقيقة طبيعية تفرضها قضية تعدد القوى وتعدد السلطات في المجال الواحد تماماً كما هو الحال في القوى الموجودة في الحياة، عندما يملك كل منهما القوة المطلقة، والكيان المستقل في الفكر والإرادة والحركة، مما يؤدي إلى الاختلاف، فالتنازع، فالفساد، فالغلبة، فالاستقلال فيما يختص به إلى غير ذلك من نتائج التعدد[١].

وقد يحاول البعض ارجاع الدليل القرآني، إلى الدليل الفلسفي الكلامي، ولكن مهما كان الرأي في ذلك، فإننا لا نستطيع انكار الاختلاف في أسلوب العرض، لانطلاق الثاني في نطاق المصطلحات الفلسفية التي تدعو إلى التأمل والتفكير في أجواء عقلية مجردة، تتحرك فيها ألفاظ القدم، والتماثل والتمانع والتناهي وعدم التناهي وغيرها من الألفاظ التي تفرض عليك التأمل في مفرداتها، ثم في أفكارها.. لتستطيع أن تتعمق في فهم الدليل كله..

أما الأسلوب القرآني، فينقلك إلى نفس الفكرة من خلال الإيحاء بالمعاني البسيطة الشائعة التي يحملها الناس عن موضوع تعدد السلطات أو الرئاسات باعتبار تعدد الآلهة داخلة في هذا الاطار، وذلك فإن من المعروف حدوث الصراع الذي يستتبع الفساد سواء في ذلك حالة التعادل أو حالة الغلبة..

ونحسب أن هذا الأسلوب السهل البسيط الذي يربط الإنسان بمرتكزاته، ينتهي ـ بالإنسان ـ إلى الإيمان من دون فرق بين من يملك

(١) الأسلوب القرآني في الحوار ـ فقرة مع الملحدين.

مستوى ثقافياً جيداً، وبين من لا يملك مثل هذا المستوى، ولكل منهما الحرية في أن يفهمه بالطريقة التي تحلو له، أو ترتفع إلى مستوى ثقافته، مما يجعل للفكرة القرآنية قوتها وتأثيرها في كل المجتمعات وفي كل المجالات.

ولعلنا نحتاج إلى جهد كبير لنفهم ضرورة التركيز على هذا الأسلوب لتحقيق أقرب النتائج وأسهلها في قضية العقيدة والإيمان. .

وخلاصة الفكرة في هذا الموضوع، إننا نعتبر الأساس في الأسلوب الإسلامي للدعوة، هو الأسلوب القرآني الذي يجمع القلب والفكر معاً في عملية وعي الحقيقة حيث تنساب معانيها في ضمير الإنسان وفكره وروحه فيشع الإيمان في كل جوانب كيانه، من غير فرق بين الإنسان العادي والإنسان المثقف. .

أما الأسلوب الثاني، وهو الأسلوب الفلسفي فقد نشعر بالحاجة إليه في مجالات الصراع الفكري الذي يحاول المتفلسفون من أَعداء العقيدة وخصومها أن يثيروا الغبار حولها بالطرق الفلسفية المعقدة للإيحاء بأن فكر الإسلام لا يثبت أمام النقد الفلسفي، لأنه يرجع إلى أفكار بدائية تطفو على السطح، ولا تنفذ إلى الأغوار فقد يفرض الموقف علينا أن نخوض المعارك الفلسفية من موقع القوة الفكرية، للتدليل على خطأ هؤلاء فيما يثيرونه، أو فيما يحسبونه فلسفة حقيقية. . واثبات العقيدة لهم من خلال الطريقة الفلسفية في التفكير، ثم الالتفاف حول التفكير المضاد، لابطاله من وجهة فلسفية دقيقة، لاضعاف الزهو الفكري الذي يعيشه هؤلاء فيما يعتقدونه، والسخرية الفكرية التي يمارسونها فيما يعتقده الآخرون.

ومن هنا فإننا نركز على ضرورة الأخذ بالفكر الفلسفي والتوفر على دراسته، سواء في ذلك الفكر الفلسفي القديم، أو الفكر الفلسفي الحديث. . ليمكن للداعية المسلم أن يمارس في ذلك عملية الدفاع أو الهجوم، أو

استخدام هذا الفكر في التأثير النفسي على الكثيرين من الذين لا يقبلون الفكرة إلا إذا أحاطها أصحابها بحزام فلسفي قوي، أو استخدموا لاثباتها الألفاظ الفلسفية المعقدة.. لأن ذلك هو دليل القوة في رأيه أو في زعمه.. فإن أمثال هذا كثيرون في المجتمع فهم يخضعون لعقدة نفسية متأصلة في هذا الجانب من التفكير.. ويبقى للدعوة المجردة لدى الداعية الأسلوب القرآني الواقعي الذي يجمع إلى قوة الحجة، صفاء الوجدان وروعة الاحساس وسرعة الحركة.. ليؤمن الناس بالإسلام بقلوبهم وأفكارهم في قوة وطهر وبساطة وصفاء.

ولا يفوتنا ـ ونحن نتحدث عن هذين الأسلوبين ـ أن نتحدث عن ضرورة استخدام الأسلوب العلمي في مجال الدعوة لا ليكون قسماً ثالثاً من أقسام الأساليب العملية في الدعوة، لأنه تابع للأسلوب القرآني باعتباره يمثل في مدلوله، أحد مفردات هذا الأسلوب.. نظراً إلى أن مقصودنا بالأسلوب العلمي، هو استعراض القوانين الكونية التي اكتشفها العلم الحديث في ظواهر الكون ومشاهده، وحياة الإنسان في تكوينه وحركته في النظام الكوني الشامل.. فإن ذلك يفتح قلب الإنسان على الله من خلال انفتاحه على أسرار خلقه، وعظيم قدرته..

... وهذا هو المنهج القرآني العظيم فقد بدأ القرآن الكريم في رسم الصورة من خلال المنهج الجديد الذي يريد أن يدفعه إلى تفكير المجتمع وطريقته في مواجهة القضايا، فابتدأ الموقف بالدعوة إلى التفكير في الكون كله، بما فيه من ظواهر ومخلوقات، من أجل البحث عن أسراره، وعن القوانين الطبيعية المودعة فيه التي تحكمه، وتوجهه في حركته، وأراد من الإنسان أن يرجع إلى صفاء فطرته، وهو يتأمل وإلى هدوء عقله وهو يفكر، لأن الفطرة الصافية، والعقل الهادىء إذا انطلقا في كيان الإنسان المنفتح على

كتاب الكون المفتوح الذي يقرأ فيه ببصره وبصيرته استطاعا أن يقودانا إلى النتيجة الحاسمة.. وهي أنه لا بد للكون من مدبر حكيم قادر، ولهذا نجد القرآن الكريم وثيقة حية شاملة لكل ما في الكون من ظواهر وموجودات وأوضاع تحكم سير الإنسان، وسير الحياة، باعتبارها مادة حية للتفكير الذي يؤدي بأقرب طريق إلى الإيمان بوجود الله[1].

وتنطلق الآيات لتوجه النظر إلى كل هذا في أسلوب مباشر...

١ ـ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

٢ ـ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

٣ ـ ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

إنها الدعوة الواثقة بالحقيقة الكامنة في كل ما في السماوات وفي كل ما في الأرض.. فلا تتطلب من الإنسان إلا أن ينظر ويتطلع ويفكر... من دون حاجة إلى جهد كبير، أو أخذ ورد. وهي ـ في الوقت ذاته ـ دعوة إلى الانطلاق في حركة الفكر، نحو التعرف على أسرار الكون، والاطلاع على القوانين الطبيعية المودعة فيه، من أجل اكتشاف الطريقة التي يستطيع الإنسان الاستفادة منها في التعامل مع هذه القوانين في مجالات الحياة المتحركة في أكثر من اتجاه.

وبهذا يمكننا أن نقرر أن طريق العلم في الإسلام يمر بطريق الدين على أساس الفكرة التي تطلقها هذه الآيات لتجعل من قضية الإيمان بالله حافزاً

---

(١) أسلوب الحوار في القرآن فقرة «هود وقومه» من فصل الحوار القصصي في القرآن الكريم.

للإنسان على اكتشاف الخالق من خلال اكتشافه لعظمة خلقه، كما أن العكس هو الصحيح، وهو أن طريق الدين يمر بطريق العلم، لأن الإنسان كلما ازداد علماً ازداد معرفة بالله، وكلما زادت معرفته بالله ازداد تدينه وخشيته من الله وامتثاله لأوامره وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة:

- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨].

إننا نعتقد ضرورة التوفر على الاكتشافات العلمية، والأخذ بأسباب الثقافة العلمية واستخدامها في عملية الاقناع الفكري بقضايا العقيدة وأصولها العامة.. في اطار الأسلوب القرآني العظيم..

●□●□●

أسلوبنا بين الانحراف القديم والانحراف الجديد

ربما يتطور الانحراف في واقع الأمة من مرحلة إلى مرحلة متقدمة، فيولد من خلاله واقع جديد يتجاوز الانحراف السابق إلى انحراف جديد، بحيث لا يمثل الانحراف السابق أي شيء في حياة المجتمع لأنه أصبح من الأمور المألوفة المعروفة التي لا ينكرها أحد ولا يعترض عليها أحد لوصول الواقع إلى المرحلة التي يتحول فيها المنكر إلى معروف والمعروف إلى منكر.. فلا تعود هناك مشكلة تبحث عن حل... فقد بدأت المشاكل الجديدة للواقع تقتحم الساحة، وتلح في الظهور لتفرض الواقع الجديد فماذا نفعل؟.

هل نظل واقفين مع المرحلة الأولى للانحراف في حركة ترجع إلى الماضي من أجل نقل المشكلة منه إلى الحاضر، لاخراج المجتمع من جو التسليم المطلق بالواقع بعد أن تجاوزه لاثارة المشكلة في حياته من جديد، أو تتقدم إلى المشكلة الجديدة التي لا تزال الأرضية الفكرية والنفسية صالحة لإدارة المعركة عليها واثارة الجو ضدها في حركة تجند الفكر والشعور معاً في وحدة عملية تتقدم ميدان الصراع وتتحكم لتسيطر على طلائع الانحراف الطارىء قبل أن تفرض وجودها على أفكار الناس وأوضاعهم العامة... وتبقى المشكلة الأولى ذي طور التجميد، ريثما يتم الحصول على النتائج

الحاسمة للمعركة الحالية. . . لنرجع إلى مواقعنا الأساسية حيث نبدأ المعركة في اتجاه تصحيح كل الانحرافات فنحرك المشكلة الأولى من جديد. . .

ربما يختار بعض العاملين في الحقل الديني، الموقف الأول، على أساس النظرية القائلة بأن اغفال المشاكل الأولى التي سقطت شعاراتها صريعة في المعركة أمام قوى الانحراف، سوف يؤدي إلى الاعتراف بالانحراف من ناحية عملية، وإلى الاقرار بشرعيته كأمر واقع مفروض لا ينكره أحد، ولا يعترض عليه أحد تبعاً للمثل المعروف «السكوت علامة الرضا». . . ثم يتطور الموقف إلى ولادة جيل جديد يتجاوز كل حساسيات الجيل الماضي ازاء هذا الواقع، فلا تبقى هناك أية عقدة شعورية تشير إلى ضرورة اعادة النظر فيه ولو بعد حين. وربما يشارك هذا الأسلوب في مواجهة الانحراف، إلى تبدل الأحكام الشرعية في وعي الناس، وإلى تساقطها واحدة واحدة أمام قوة الانحراف.

ولكننا نختار الموقف الثاني ـ بالرغم من ذلك كله لأننا نعتقد أن ولادة الواقع الجديد الذي يستعد لطرح المشكلة الجديدة التي تتحدى حكماً شرعياً، أو مفهوماً إسلامياً لا يزال يعيش في حياة الناس وفي وجدانهم، يدل دلالة واضحة على أن إدارة المعركة في اطار القضية الأولى سوف يؤدي إلى خسارة كلتا المعركتين، أما الأولى فلأن الخروج من حالة الهزيمة فيها إلى حالة النصر، يتوقف على خلق الأرضية الصالحة للصراع في حياة الناس وأفكارهم ومشاعرهم، قبل الدخول في المعركة، مما يكلفنا جهداً كبيراً يمنعنا من الدخول في المعركة الثانية، التي يتقدم فيها العدو دون مقاومة، فيجهض كل استعدادات الدفاع في كلا الموقفين. . . بل أنه يستخدم الحالة النفسية التي يشعر بها الناس تجاه الانحراف السابق وتعاطفهم معه، سلاحاً يحاربنا به في كلتا المعركتين. . وبذلك لا يحقق الموقف أي ربح على كلا

الحالين.. فما الفائدة من الالحاح عليه.. أما الوقوف مع المشكلة الجديدة، فإنه يفسح المجال للتقدم وادارة المعركة في ظل ظروف موضوعية طبيعية لأن الأرضية لا تزال صالحة والأجواء النفسية التي لا تزال غير منسجمة مع الانحراف الجديد، جاهزة، أما القوة الذاتية التي يملكها العاملون في سبيل الله، فلا تزال كبيرة مما يجعل امكانات النصر كثيرة واحتمالات تحقيقه قريبة جداً..

ولعلنا لا نذهب بعيداً إذا طرحنا المثال العسكري المعروف في قضايا الحرب، فهناك في الخطط العسكرية عدة خطوط دفاعية ترسمها القيادات التي تحاول أن لا تتجمد المعركة في خطوط دفاعية ترسمها القيادات التي تحاول أن لا تتجـمد المعركة في خط واحد يفقد معه المقاتل الفرصة في مواصلة القتال في حالة سقوط الخط في يد الأعداء، بل يفسح المجال للجيش المقاتل أن ينسحب إلى خط ثان وثالث، يقف فيه على أرض صلبة محكمة محصنة، ليقاتل فيها من موقع قوة فيتقرر على ضوء النتائج الجديدة عودته إلى الخط الأول للدفاع عنه من جديد أو الانسحاب إلى خط ثالث، وهكذا حتى تنتهي المعركة بالنصر الكامل أو بالهزيمة الساحقة...

أما المثال العملي الذي نقرأه الآن كواقعٍ حي يعيش الإسلام في معركته المستمرة ضد الانحراف الفكري أو العملي في واقع الناس وحياتهم العملية العامة والخاصة فهو مثال السفور والحجاب كنموذج لمشكلة الانحراف السابق الذي انتهى أمره في كثير من البلدان.. ثم مثال الحرية الجنسية بين الفوضى والنظام كمثال لمشكلة الانحراف المتقدم الذي بدأ نفسه ليفتح الواقع على أفق جديد في علاقة المرأة والرجل، يتجاوز قضية الشرعية الزوجية، إلى قضية الانفلات بعيداً عن نظام الأسرة القائمة على شريعة الزواج بكل ما تمثله من أحكام والتزامات وقوانين.

فقد عاشت البلدان الإسلامية في النصف الأول من هذا القرن الرابع عشر الهجري الصراع بين السفور والحجاب، وبدأ السفور يفرض نفسه بفعل القوى الانحرافية المسيطرة في كثير من هذه البلدان حتى انحسر الحجاب كلياً أو كاد، بحيث أصبح منكراً ينظر إليه باستغراب من الطبقات العامة للمجتمع.. ولكن ذلك لم يؤثر على النظرة العامة للاطار الإسلامي الذي وضعت فيه العلاقة الجنسية، في الإسلام، في نطاق الأسرة وقوانينها، ولم يوجب زوال الحواجز النفسية التي أقامها الإسلام في نفوس المسلمين ضد الانفلات الجنسي في علاقة الرجل والمرأة، مما يجعل الزنا عملاً فاحشاً مرفوضاً من الناس جملة وتفصيلا...

ثم جاءت التطويرات الجديدة في التفكير الأوروبي في السنين المتأخرة لتدفع «الحرية الجنسية» إلى الواجهة في معركة الحريات العامة لدى الإنسان، لتكون لها قداسة الحريات الأخرى في التفكير والشعور الإنساني، وحدثت المعركة كأعنف ما يكون، ولا تزال الأفكار الجديدة تفعل فعلها في مجتمعاتنا بأسلوب تدريجي يحاول أصحابه أن يهدموا القلاع والحواجز النفسية واحدة واحدة، دون أن يجرأوا على الهجوم مرة واحدة، ولا تزال أكثرية المجتمعات الإسلامية ممن يؤمن بالحجاب وممن لا يؤمن به، تعارض هذه الحرية الجديدة، وتعتبرها بداية للفوضى الجنسية التي تهدم كل مبادىء الأسرة وقوانينها. لتجعل منها شيئاً بغضياً لا معنى له، تماماً ككل القيود التي يفرضها أعداء الحرية على حياة الإنسان وكرامته... وفي هذا الجو تطرح القضية نفسها في طبيعة الصراع الذي نخوضه، فهل نخوض المعركة في قضية السفور والحرية الجنسية معاً، أو نخوضها في القضية الأولى فقط، أو في القضية الثانية فقط، أو تترك الصراع ونستسلم للهزيمة مقدماً، وتفتح الأبواب مشرعة للفاتحين الجدد... ربما لا يكون الفرض الأول عملياً، لأن

كثيراً من الذين يحاربون ضد الحرية الجنسية يدافعون عن موضوع السفور، مما يوجب ارتباكاً في صفوف المقاومين للحرية ويؤدي بالتالي إلى ضعف يشق الطريق للأعداء أن ينفذوا إلى الساحة بسهولة وهدوء ولا مجال للفرض الأخير، لأننا لسنا في موقف الهزيمة السريعة بلا قتال، أما الفرض الثاني، فلن تكون نتيجته أفضل من نتيجة الفرض الأول، فيتعين الموقف الثالث الذي يحاول أن يربح المعركة معركة الحرية الجنسية أو التنظيم لهذه الغريزة، ليأخذ منها قوة جديدة يستعد فيها للربح في القضية الأول في معركة جديدة. . . انسجاماً مع واقعية الأسلوب ومرونته.

وقد يحسب بعض الناس، في هذا الأسلوب، تراجعاً عن الالتزام بالمواقف الإسلامية ازاء الواقع، مما يخضع الطريقة العملية المفروضة إلى مزيد من التراجعات المستمرة تبعاً لقوة حركة الانحراف. . . فينتهي الأمر ـ في خاتمة المطاف ـ إلى الانسحاب كلياً من ميدان الصراع ولكننا نرفض هذا الاستنتاج، لأن الموقف الذي نقرره لا يمثل قاعدة الحركة، بل يمثل نوعيتها في نطاق المرحلة، كما يعبر البعض عندما يقول أن الخلاف ليس في الاستراتيجية بل في التكتيك، فإننا لا نتخلى عن المبدأ ولا ننسحب من السعي الدائب تجاه الحركة، بل كل ما هنالك أننا نجمد التحرك في مرحلة معينة، لنجمع الطاقات في الدفاع عن الموقف الذي يستعد الأعداء لاسقاطه من أجل أن نكتسب بقوة نحشدها من جديد لبدء الحركة في اتجاه الموقف السابق وبهذا يكون الموقف للتقدم لا للتأخر، وللقوة لا للضعف، وللمحافظة على العقيدة والشريعة لا الانسحاب منها أو اهمال الدفاع عنهما.

وربما كان من الضروري للاستمرار في ملاحقة هذا الجانب العملي المرتكز على النظرة الواقعية السليمة، أن نرصد الانحراف من خلال التقييم

الدقيق للمرحلة التي بلغها في استيعابه للواقع لنعرف كيف نتعامل معه وكيف نواجهه، وكيف نتابع معالجته، في أسلوب الحركة، أو في اطار التجميد، لأن الخطأ في أمثال ذلك يفوت علينا كثيراً من الفوضى المتاحة أو يدخلنا في فراغ عملي لا فائدة منه إلا المزيد من الجهد الضائع والعبث الهزيل.

وأخيراً أن رسالية العمل تفرض على العاملين أن يتحركوا في كل مجال من مجالات الصراع ليكتشفوا الأرضية التي يتحركون عليها وليفهموا كيف يمكن لهم أن يجعلوا من مواقعهم التي يقفون فيها منطلقاً للانفتاح على الواقع من خلال ما يمكن للرسالة أن تعمله، وما يمكن له أن يهيء لها من ظروف العمل وأدواته.

●□●□●

كيف نواجه تحديات الكفر والانحراف

قد يواجه الدعاة العاملون في الحقل الديني، بعض حالات التحدي للعقيدة ولمقدساتها، من قبل الجماعات الكافرة والضالة، في محاولة للاساءة إلى العقيدة والمقدسات، فماذا يكون موقفهم ازاء ذلك؟

هناك موقفان، أحدهما ايجابي، والآخر سلبي، يتبعان طبيعة حالات التحدي وظروفها الموضوعية:

١ ـ مواطن مواجهة التحديات بطرق ايجابية:

فقد تفرض الحالة أن يواجه التحديات بتحديات مماثلة، تفسح المجال للحوار، أو تهيء الجولة في ظل الامكانيات الإيجابية المتوفرة له، أو تتخذ أسلوب رد الاساءة بمثلها، بالكلمة حين تكون الكلمة مناسبة لمواجهة الموقف أو بغير الكلمة، حين لا يسمح الجو لها أن تطلق أو تسمع وسط الصخب والضجيج أو السخرية والاستهزاء.. وقد نستوحي هذا الموقف من خلال الأساليب النبوية التي كان الأنبياء يتبعونها في مواجهة الكلمات القاسية التي توجه إليهم من جماعات الكفر والضلال كما نجد ذلك فيما نقله الله لنا عن قصة نوح عليه السلام وقومه حيث كان عرضة للسخرية منهم عندما بدأ بصنع الفلك في أرض يابسة ليس فيها الماء الذي يمكن أن تجري فيه.. وكان رد

الفعل إن بادلهم سخرية بسخرية، بأمر من الله، فهم يسخرون منه، في اطار صنع الفلك في أرضهم الخالية من الماء أما هو فإنه يسخر منهم انطلاقاً من النتائج السيئة التي سينتهي إليها أمرهم في خاتمة المطاف عند حدوث الطوفان وذلك هو قوله تعالى:

- ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

ونلمح ذلك في أسلوب هود الذي واجه به تحديات قومه بعد استنفاد كل وسائل الاقناع، وبقاء التحديات على حالها، ويتمثل باثارة أسلوب التهديد بالقوة في طريقة مثيرة من عرض عضلات القوة:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۞ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٣ ـ ٥٧].

«إنهم ينكرون حجته من دون أساس، ويرفضون دعوته، لاستضعافهم له ولقومه، ويرمونه بالمس في عقله بسبب مهاجمته لآلهتهم.. إنه مجموعة من الكلمات غير المسؤولة التي لا يؤمن بها حتى أصحابها.. وقد كان الرد هنا ـ في بدايته ـ اغلاقاً للحوار باعلانه البراءة من شركائِهم، بشهادة الله وشهادتهم ليكون ذلك حداً فاصلاً بينه وبينهم.. في نهاية المطاف.. ثم

واجه أسلوب الاستضعاف واللامبالاة به، بأسلوب القوة الذي ينتهي بالاستهانة بكل ما يمثلون من قوة ـ أية قوة ـ أمام قوة الله الذي يستخلف غيرهم بعد اهلاكهم دون أن يستطيعوا الاضرار به بشيء ثم يتحداهم أن يكيدوه ويهاجموه جميعاً، ولا ينظروه، ويوحي إليهم بذلك بأسلوب المواجهة القوية. . إنهم لن يستطيعوا إليه»[١].

٢ ـ مواطن مواجهة التحديات بطريقة سلبية:

وقد تفرض الحالة أن يواجه التحديات بطريقة سلبية، بسبب ضعف الموقف وفقدانه للعناصر الإيجابية التي تدعم الموقف الإيجابي، أو وجود ظروف موضوعية تمنع من القيام بأي عمل عنيف، أو تجعل من مواجهة التحديات بتحديات مماثلة، عملاً يضر بالقضية ولا ينفعها لأنه يثير أمامها بعض المشاكل والأجواء الحادة التي تفتح لها معارك وخلافات جانبية، بما يفرزه من نتائج الصراع فماذا يفعل؟.

هل يترك المقاومة للتحديات، حتى بالمظهر السلبي، بحجة أن الموقف لا يتسع لذلك أولا يسمح به؟.

أو يتقدم لمواجهة التحدي بطريقة الاحتجاج السلبي الذي يؤذن بالرفض للموقف بطريقة صامتة، أو بطريقة المقاطعة لهؤلاء في نطاق مرحلي أو عام حسب اقتضاء المصلحة الأساسية للعمل الإسلامي.

لا مجال لاختيار الموقف الأول، لأن اهمال المقاومة للتحدي الكافر أو المنحرف، قد يظهر بصورة اقرار التحدي والاعتراف بمضمونه، فيتحول ذلك إلى موقف اضلال للبسطاء والمستضعفين من المؤمنين عندما ينقل إليهم

---

(١) وسائل الشيعة: ج٦، ص ٥٠٣.

الموقف، أو يتمثل أمامهم بصورة حسية فيخيل إليهم سلامة القضايا النقدية التي يوجهها الكفار والمنحرفون ضد قضايا العقيدة والإيمان ومقدساتهما.

فلا بد لنا من اختيار الموقف الثاني الذي يعبر عن الرفض للقضايا المطروحة، بطريقة الاحتجاج السلبي بالأسلوب الصامت، ويتمثل ذلك في بعض مظاهر المقاطعة، كمقاطعة المجلس الذي يذكر فيه هذا الكلام السيء وقد عالج ذلك القرآن الكريم في بعض آياته، فطلب من المؤمنين القيام من المجلس حتى يدخل أولئك الخائضون في آيات الله، في حديث غيره، واعتبر الأشخاص الذين يرفضون الانسحاب من ذلك المكان منافقين لأنهم يجاملون الكافرين على حساب آيات الله، وذلك هو قوله تعالى:

١ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

٢ ـ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨ ـ ٦٩].

وقد وردت في حديث الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«لا ينبغي للمؤمن أن يجلس مجلساً يعصي فيه الله ولا يقدر على تغييره». وفي رواية الجعفري قال: سمعت أبا الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ما لي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب فقلت أنه خالي فقال: أنه يقول في الله

قولاً عظيماً يصف الله ولا يوصف فأما جلست معه وتركتنا وأما جلست معنا وتركته فقلت/ هو يقول ما شاء، أي شيء علي منه إذا لم أقل ما يقول فقال أبو الحسن: أما تخاف أن تنزل به نقمة فتصيبكم جميعاً، أما علمت بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام وكان أبوه من أصحاب فرعون فلما لحقت خيل فرعون بموسى تخلف عنه ليعظ أباه فيلحقه بموسى فمضى أبوه وهو يراغمه حتى بلغا طرفا من البحر فغرقا جميعاً، فأتى موسى الخبر فقال: هو في رحمة الله ولكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمن قارب المذنب دفاع»[1]. ولعل هذا الموقف السلبي تجاه تحديات الكفر والانحراف، يلتقي بالمفهوم الإسلامي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. الذي يجعله في ضمن مراحل ثلاث، الانكار باليد، الانكار باللسان، الانكار بالقلب، فإن من الراجح أن يراد من المرحلة الثالثة أسلوب الانكار الصامت الذي يظهر على الوجه، بالعبوس والاكفهرار وغير ذلك، وعلى الموقف بالمقاطعة له في بعض الأمور أو كلها.. فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ـ كما في كتاب الكافي ـ قال: «أدنى الكفر أن تلقى أهل المعاصي بوجوه غير مكفهرة»[2]، وقد كثرت الأحاديث عن النبي وعن أهل البيت، التي تطلب من المؤمنين مقاطعة المنحرفين إذا لم يرتدعوا عن المنكر ولم يمكن اصلاحهم بطريقة أخرى»[3].

وليست هذه الطريقة السلبية في الاحتجاج على التحدي للمواقف الحقة، بدعاً في الطرق المألوفة للناس في التعبير عن الرفض والاحتجاج فإننا نجد الديبلوماسيين في هذه الأزمنة، يواجهون الحملة على دولهم، أو أنظمة حكمهم أو عقيدتهم، أو رؤسائهم بالانسحاب من الحفل أو المؤتمر، لأن

(١) وسائل الشيعة: ج٦، ص ٥٠٣.
(٢) المصدر السابق: ج ٦، ص ٤١٣.
(٣) يلاحظ، وسائل الشيعة: ج ٦ ، ص ٤١٤.

الأنظمة المتبعة في السلوك الديبلوماسي لا تجيز لهم الاعتراض المباشر بطريقة الرد مواجهة في نفس المكان.

وربما استطاعت هذه الأساليب أن تحقق بعض المكاسب للقضية، فيما إذا كانت لعملية الانسحاب بعض الآثار السلبية على المجتمع، فيبادر إلى تغيير الجوانب التي أثارت الاحتجاج، أو تجميدها، أو تلطيفها على الأقل.. وربما ساهمت في اثارة المناقشات الاجتماعية حول القضية، وتحويلها إلى صراع يقود الموقف إلى ما فيه المصلحة الكبيرة في غالب الحالات. وربما أعطت انطباعاً مثيراً عن قوة الموقف الذي يقفه أصحاب العقيدة، من قضايا الإيمان، فلا يتنازلون عن التمسك بوجهة نظرهم، مهما كانت الظروف صعبة، والطريق شاقة، والموقف مهدداً بالصراع.. وفي جميع ذلك يظل المؤمنون يواجهون حالات التحدي، بالأسلوب المتحرك الفاعل الذي يبحث عن النتائج الحاسمة لمصلحة العقيدة والإيمان، سواء في ذلك جانب الايجاب، أو جانب السلب.. لالتقائهما في موقف الايحاء بالقوة التي تبحث عن قوة جديدة في ظروف جديدة.

٣ ـ فكرة الموقفي السلبي ليست حاسمة:

وهناك ملاحظة دقيقة في محتوى الآيات التي تعرضت لاقرار هذا الأسلوب في مواجهة التحدي بالطرق السلبية.. وهي أن القرآن الكريم لم يطلب من المؤمنين الجالسين مع الكافرين الذين يخوضون في آيات الله بغير الحق، أن يقاطعوهم نهائياً بل أباحت لهم الرجوع إليهم عند انتهاء الحديث عن الموضوع الذي يثير التحديات، ودخولهم في حديث آخر غيره، لأن ذلك قد يمكنهم من ايضاح الفكرة الإسلامية، في جو هادىء بعيد عن الاثارة، أو الرد على التحدي بأسلوب يقنع الآخرين، وقد نستفيد من ذلك

أن فكرة مقاطعة الكافرين أو الضالين والمنحرفين ليست فكرة حاسمة، تمثل الخط التشريعي الذي لا يقبل التغيير أو الزيادة والنقصان، بل هي فكرة مرنة تضيق وتتسع تبعاً للحالات الطارئة الضرورية فتعالج الحالات بمقدار الحاجة، فربما تقتضي الحالة تحديد المقاطعة بموقف معين، وربما تقتضي التحديد بفترة معينة وربما تستدعي الاستمرار في ذلك إلى وقت طويل..

وقد نفهم من ذلك أن الإسلام يريد من المسلم أن يظل مع المجتمع في علاقة قوية مستمرة، ليبقى مع خط الدعوة العملي الذي يغتنم الفرص السانحة، ويستثمر الظروف الملائمة ليقوم بواجبه بعيداً عن كل التشنجات النفسية والسلبيات العملية.

●□●□●

كيف نعرض أفكار الآخرين على الناس

ربما تدعو الحاجة إلى عرض الأفكار المضادة للإسلام أمام الناس من قبل الداعية، وذلك في الحالة التي تفرض الدخول في عملية مقارنة بين الأفكار المختلفة، لتتركز الدعوة الإسلامية بين خط ايجابي يقدم المفاهيم الأساسية للإسلام في عرض مفصل دقيق، يوضح الصورة ويعمق الفكرة، ويفسح المجال لولادة القناعات الجديدة وبين خط سلبي يبين فيه الأسس التي ترتكز عليها العقيدة المضادة، ويدخل في موازنة ومقارنة بين العقيدتين، تنتهي بالنتيجة إلى أفضلية الإسلام، كعقيدة سماوية، على العقيدة الأخرى.. أما القضية التي نريد اثارتها في هذا المجال.. فهي الطريقة التي تعرض فيها الأفكار المضادة... فهل يكون من الضروري أن تحافظ على الموضوعية والحياد في ذلك، فنتحدث عنها كما لو كنا خارج حلبة الصراع العقيدي تماماً، كما تتحدث عن أية قضية أخرى لا دخل لها بالصراع فندقق في كل مفردات الفكرة وتفصيلاتها لنتناولها بكل أمانة ووضوح وهدوء..

أو نكتفي بالعرض البسيط الذي يعطي الآخرين لمحة عنها، ولو بشكل خاطف لأننا غير مسؤولين عن الدفاع عنها من وجهة نظرها، أو ابداء الجوانب الإيجابية التي تترك في النفس انطباعاً جيداً عنها.. لأننا لسنا دعاة لها لنفعل ذلك، بل ربما يكون من واجبنا الديني أن لا نفعل ذلك كله لئلا ينخدع البسطاء من المؤمنين في ذلك فيخيل إليهم أن وجود جانب من الحق في عقيدة الآخرين، يوحي أو يثبت أنهم على الحقّ ولهذا نجد العامة من

الناس لا يوافقون في قضايا العقيدة أو الحقيقة في مواجهة التفاصيل بحكم مختلف، بل يطلقون موقفهم على أساس الرفض المطلق أو التأييد المطلق. . فلا مجال في موقف الرفض لأي كلمة تأييد ولا موقع في موقف التأييد لأي كلمة نقد. . .

أما نحن، فنلتقي، في رأينا في الموضوع، بالخط الموضوعي الذي يحافظ على عرض الفكرة بأمانة واخلاص انطلاقاً من مبدأين إسلاميين، هما مبدأ العدل، ومبدأ القوة. . .

أما مبدأ العدل، فإننا نعرف تأكيد الإسلام على هذا المبدأ في كل شيء سواء في ذلك الحكم والشهادة والكلمة والعلاقات الزوجية والمالية والاجتماعية وغير ذلك، في حالة الرضاء والغضب مع الأولياء والأعداء لأن قوام الحياة على أساس العدالة، فلا بد من شموله لكل شيء لتتركز الحياة، كل الحياة، على أساس قوي ثابت ونحن نعرف أن من العدالة أن تعرض فكرة خصمك ووجهة نظره كما هي، فتعطيها حقها من الجوانب المشرقة والجوانب المظلمة، وبهذا يلتقي العدل مع الصدق، لأنك لو انحرفت فذكرت ما ليس موجوداً فيها، أو نسبت إليه ما لا يقربه، لكنت كاذباً في حديثك، أو خاضعاً لعملية الإيحاء بالكذب وقد تحدث القرآن في بعض آيات العدل عن العدل في اطار علاقات العداوة والصداقة في قوله تعالى:

- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ

وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾

[النساء: ١٣٦].

- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩].

فإننا نلاحظ في الآيتين الأولتين، التأكيد على العدل في القول والشهادة حتى ضد القربى والأصدقاء فلا يسمح الإنسان لعلاقة القربى أن تنحرف به عن كلمة العدل والشهادة. وفي الآية الثالثة: التأكيد على مبدأ العدل ـ بشكل عام ـ في جميع الأشياء. مع الأعداء مع التركيز على أن العدالة بهذا الشكل الشامل أقرب للتقوى.

وقد ورد في دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في الصحيفة السجادية، الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى في أن يرزق الإنسان هذه الروح المتوازنة، التي لا تنحرف مع الأهواء الموافقة والمخالفة مهما كانت الظروف، للإيحاء بأن هذا الطلب يعتبر من المطالب الحيوية التي يقدمها الإنسان إلى ربه، كما يقدم أي شيء آخر يرتبط بحياته:

«اللهم وارزقني التحفظ من الخطايا والاحتراس من الزلل في حال الرضا والغضب حتى أكون بما يرد علي منهما بمنزلة سواء، عاملاً بطاعتك مؤثراً لرضاك على ما سواهما في الأولياء والأعداء حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري وييأس وليي من ميلي وانحطاط هواي»[(١)] . . .

وقد نجد في الفقرة الأخيرة ايحاء بأن ذلك ليس مجرد عمل يقوم به كحالة طارئة بل هو جزء من تركيب الشخصية الإسلامية، التي ينطلق معها الإنسان في مناعة نفسية لا تطمع فيه الصديق في جانب الانحراف، لمصلحة

---

(١) الصحيفة السجاديّة الكاملة ـ الدعاء ـ ٢٢ ـ ص ٨٣.

الصداقة ولا تمنع العدو من أن يأمن من ظلمه وجوره بعيداً عن أي اعتبار لوجود العداوة بينهما. .

وعلى هذا الأساس، فإن القضية العامة تشمل الفكرة المطروحة لأنها مظهر عملي لهذا المبدأ الإسلامي الشامل لأن الإنسان قد يتطلب العدالة في الحكم على عقيدته أكثر مما يتطلبها في الحكم على أي شيء آخر من شؤون ذاته وحياته. . لأن للعقيدة امتداداً وعمقاً في شؤون المصير أكثر من القضايا الأخرى. .

وقد يكون من أقرب الشواهد على ذلك ما نلاحظه في الشكوى التي تطلقها بعض المذاهب الإسلامية من اتباع المذاهب الأخرى، لأنها تنسب إليها ما لا تعتقده ولا تقول به من عقائد ومفاهيم وأحكام، استناداً إلى أقوال خصومها، أو إلى بعض الكلمات التي قد تعني شيئاً لا يقصده قائلها أو إلى غير ذلك من الأمور التي تشارك في إعطاء العقيدة صورة ليست لها ولوناً غريباً عنها. . . ولا يقتصر ذلك على الاطار الديني في العقيدة، فإن هناك التيارات الفكرية السياسية التي تتصارع فيما بينها في حرب الاعلام، حيث يبادر كل من الأطراف إلى اعطاء الصورة عن الآخر بما لا يتفق مع الحقيقة، ولا ينسجم مع الواقع، لتشويه الفكرة في أنظار الناس، فيكون سبباً في ابتعادهم عنها وانتقالهم إى الجانب الآخر عندما لا يكون هناك خيار ثالث خارج عن الخيارين.

أما مبدأ القوة، فإن الإسلام قد اعتبره نقطة ارتكاز في واقع الدين، وفي حركة المسلمين في أنفسهم وفي مواجهة أعدائهم، وفي مجابهة الحياة، وعلى هذا جاء الحديث أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وجاءت الآيات القرآنية التي توحي باعتبار القوة قيمة كبيرة، في المستوى الأعلى للقيم في الإسلام، وتحدثت بعض النصوص على أن من مظاهر الضعف، هو

الظلم.. لأنه يعبر عن حالة خوف من المظلوم أو القوي لا يخاف أحداً ولذا فلا يظلم لأنه لا يخشى من حرية الآخرين وقوتهم...

وبهذا ندخل إلى قضيتنا بالذات فإن الإنسان الذي يجد نفسه قوياً في الدفاع عن عقيدته.. ضد الهجمات التي يشنها الآخرون لأنه يجد عقيدته في مركز القوة الذاتية التي تملك كل عناصر القوة، لا يخاف من قوة العقائد الأخرى، ولا من الجوانب الإيجابية الموجودة فيها، ولا من مظاهر الخير التي تقف في قلب الواجهة من مفاهيمها ومبادئها وشعاراتها...

أما الذي يخاف من كل مظهر ايجابي لعقائد الآخرين، فإنه لا يعيش الثقة بنفسه وبعقيدته في قدرته على الدفاع عنها، وفي قدرتها على الصمود والثبات.. وإلا فأي معنى للخوف.. هل هو الخوف على البسطاء أن يضلوا ويخدعوا؟.. ولكن ما هو دوره كعامل في سبيل الإسلام في تقويم أسباب المناعة الذاتية لاتباع العقيدة من الخداع والضلال...

ثم إن القضية لا تخلو من عنصر ايجابي قوي لمصلحة العقيدة، فيما إذا وقف الإنسان ليعرض فكرة خصمه بكل أمانة ودقة واخلاص، جامعاً بين ايجابياتها وسلبياتها.. ثم يتبع ذلك بعرض فكرته بنفس المستوى من الأمانة والدقة والاخلاص.. فإن ذلك يزيد المؤمن ثقة بإيمانه كما يخفف من ثقة الخصم بنفسه ويوحي له بقوة موقف الإيمان في مواجهته.

ولعل ذلك هو السبب في موقف القرآن من عقيدة خصومه، ونقدهم له، وللرسول، ولبعض الأحكام الشرعية فقد نقلها بكل تفاصيلها بكل دقة وأمانة، فقد تحدث عن المشككين وعن الملحدين وعن المنكرين للبعث واليوم الآخر.. وعن القرآن من حيث التشكيك بمضمونه ومحتواه، ومن حيث التشكيك بمصدره وأنه من غير الله.. وعن النبي، من حيث اثارة الشك حول صفة الرسالة فيه بتلفيق التهم ضده، بالسحر والكذب والشعر

والجنون... وبالتشريع من حيث اثارة علامات الاستفهام حوله... وبذلك يعتبر القرآن وثيقة أمينة لتاريخ الدعوة والرسالة والرسول، في كل ما أثير حوله وحولها من شكوك واتهامات.. مما يوحي بثقة الرسالة بنفسها، وثقة الرسول بنفسه وبطلان كل ذلك، وقدرته على اثبات البطلان بكل الأساليب القوية الهادئة.. وقد تصاعد هذا الشعور إلى المستوى الذي طرح القضية من الأساس ليجعل الاتجاهين في مستوى واحد، من حيث التشكيك، والشك الذي يبحث عن اليقين في قوله تعالى:

ـ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

ولكن هل معنى «الموضوعية» أن تعرض الفكرة بشكل محايد لا أثر فيه للموقف الذي تتبناه.. وبكلمة أوضح: هل معنى ذلك، هو طرح الفكرة المضادة إلى جانب الفكرة الموافقة، كفكرتين يتنازعان قناعة القارىء أو السامع من دون أن يكون لطبيعة العرض وأسلوبه أي أثر في ترجيح القناعة لمصلحة إحدى الفكرتين.. ليكون دور الداعية، بمثابة دور الباحث الذي يقدم الأفكار دون تعليق أو ترجيح ليتولى الآخرون مسؤولية اتخاذ الموقف الذي يناسبهم..

إن الجواب على هذا السؤال بالرفض «للموضوعية» بهذا المعنى، لأن الداعية ليس مجرد باحث في علم الأديان أو تاريخ الأديان، كأي عالم أو مؤرخ يعرض النظريات والأحداث كما هي، دون أن يكون له مصلحة في دائرة اختصاصه، في ترجيح بعضها على بعض.. بل هو داعية ورسول أو بالأحرى صاحب رسالة، يتعامل مع كل شيء من خلال رسالته.. ويتحرك في كل طريق لمصلحتها.. وعلى هذا الأساس تحدد معنى «الموضوعية» بالعرض الأمين الذي لا يغفل ايجابيات الفكرة.. ولا ينسب إليها سلبيات غير موجودة فيها.. ولكن لا مانع من أن يطرحها، مع التعليقات القصيرة في

أثناء العرض لتوجيه السامع إلى نقطة الضعف.. ليدخل إلى الفكرة في هذا الجو المشبع بالايحاء ليكون ذلك أقرب إلى الوصول إلى قناعته كما نلاحظ في قوله تعالى:

- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[يس: ٧٨ ـ ٨٢].

فإننا نلاحظ أنه أقحم كلمة ـ ونسي خلقه ـ بين الاجمال والتفصيل، ليثير الانتباه حول غفلة هؤلاء المنكرين للمعاد... لأنهم يسألون عن النهاية، دون أن ينتبهوا إلى البداية ويتذكروا كيف حدثت.. ثم بدأ في عرض الفكرة، ونقدها من خلال الأسس التي ارتكز عليها الإيمان بالمعاد. وفي هذا الخط الموضوعي، الرسالي، يمكننا أن نسير في أسلوبنا العملي في الدعوة إلى الله وإلى دينه القويم (الإسلام) فنخلص في عرض الأفكار أفكار الآخرين بكل أمانة ودقة... ولكن مع اعطاء العرض الجو الذي يفتح عيون الناس وأفكارهم على ما في الفكرة المضادة من ضعف، وما في الفكرة الرسالية من قوة وعطاء...

ولا بد لنا في سبيل الوصول إلى ذلك، من التوفر على دراسة الأفكار المضادة بكل دقائقها وتفاصيلها مع التعرف على أفضل الأساليب في استخدام هذه المعرفة والتحكم في السلبيات والايجابيات من أجل الوصول بحركة الدعوة إلى الهدف الأفضل..

أما قضية الخوف من ضلال العامة، الذين يعتبرون الاقرار للخصم ببعض الايجابيات اقراراً له بالجميع فهذا ما يجب أن تتحفظ فيه وتتجاوزه، لأن دور الرسالة أن لا تستسلم للذهنية السطحية الساذجة فتجعل من أساليبها امتداداً لأساليبها، أو تترك بعض مواقفها حذراً من انفعالاتها بل ربما كان من مسؤولية الرسالة أن تخلق للمجتمع ذهنية جديدة تعي الواقع من خلال العمق لا من خلال السطح، وتضع في حساباتها الفكرية والعملية الحقيقة التالية، وهي أنه ليس هناك فيما نعايش من أوضاع وفيما نؤمن به من مبادىء، وفيما نقوم به من أعمال وشر لا خير فيه، أو خير لا شر فيه، لأن الالزام بشيء والالتزام به لا ينطلق من الخير المحض الثابت في الأشياء بل من الخير الذي يتغلب على الشر ويرجح عليه، كما أن رفض شيء وتحريمه لا يرجع إلى الشر المحض في العمل، أو في الفكرة، أو الواقع، بل يعود إلى غلبة جانب الشر ورجحانه على جانب الخير ولهذا نجد التشريع الإسلامي في الخمر والميسر يتجه إلى تفسير الحرمة بغلبة الاثم على النفع مع اقرار وجود المنفعة فيه وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

ليكون ذلك قاعدة عامة في التحريم والتحليل والرفض والتأييد وفي النظر إلى طبائع الأشياء من حيث هي خير أو شر.. . وهذا هو ما يجب أن تتجه إليه التربية الإسلامية في صنع الشخصية الإسلامية على أساس المفاهيم الحقيقية للإسلام.. وبذلك تتخلص من الوقوع تحت ضغط العقليات المنحرفة للعامة من الناس في جانب العقيدة، أو في جانب التشريع. . حيث

نلاحظ أن بعض العاملين للإسلام من فقهاء ووعاظ وموجهين يخفون كثيراً من اجتهاداتهم وآرائِهم ونظراتهم للواقع خوفاً من العامة الذين لا يوافقون عليها لاختلافها مع ما ألفوه من فتوى، وما اعتادوه من عمل، وما قد قدسوه من عقيدة أو واقع. . . الأمر الذي أدى إلى بقاء الانحراف وامتداده، أو اختفاء بعض الفتاوى التي لو انطلقت لوفرت على المؤمنين كثيراً من الجهد والارتباك في علاقاتهم ومعاملاتهم لا سيما الأحكام التي تتعلق بغير المسلمين من أحكام الطهارة والذباحة وغيرها. . فنحن نعلم أن بعض المجتهدين يرون بعض الآراء المتسامحة في هذا الجانب أو ذاك، ولكنهم إذا جاؤا إلى مقام الفتوى أحجموا وتحفظوا وقيدوا الفتوى بكثير من القيود الإحتياطيّة الالزامية التي تؤدي إلى وحدة النتيجة العملية بين التحليل والتحريم في الرأي فإذا فتشت عن السبب في ذلك وجدت الخوف من العامة مبررها الشرعي الذي يحكم الموقف كله، لأنهم يخافون من أن تزول الثقة بهم أويثور التشويش عليهم من خصومهم في مجالات الصراع على الزعامة أو غيرها. . ولا يزال الواقع الإسلامي يعاني الكثير الكثير من هذا الأسلوب، على الصعيد العملي في الممارسات الفردية، فيما يتعلق بالأفراد أو في الممارسات الجماعية فيما يتصل بالجماعات. . ولا يزال الكثير من الأوضاع الشاذة والأساليب المنحرفة التي يقوم بها المسلمون في التعبير عن حبهم لله كالأساليب الصوفية في بعض مظاهرها، أو عن حبهم لأهل البيت كالأساليب التي تتبع في احتفالات عاشوراء تعبيراً عن الحزن على شهداء كربلاء كضرب الرؤوس بالسيوف أو جرح الظهور بالسكاكين والحديد أو غير ذلك، مما يشوه الصورة الحقيقية للمجامع الإسلامي وللمعاني الكبيرة التي يراد التعبير عنها بهذه الأساليب. . فلا نجد إلا الأصوات الخافتة غير الفاعلة تستنكر ذلك، أما الأصوات الفاعلة المؤثرة فإنها تغلف الكلمة بألف غلاف وغلاف، حذراً من أن تمس ما لا يمس أو تعترض على ما لا يقبل الآخرون توجيه

الاعتراض إليه... ولا مانع من أن يبقى الجهل وتتفاعل في النفوس فيضر بأصل العقيدة في نهاية المطاف لينسف الأساس من خلال نسف الصورة المشوهة التي يربطها هذا الواقع المرير، بالأساس ظلماً وعدواناً.

●□●□●

أسلوب الدعوة في مواجهة الضغوط العامة وعلاقته بالتقية

قد يتعرض العاملون في سبيل الله، لبعض المواقف الحرجة في ميدان الصراع، فيتصرفون ـ فيها ـ تصرفاً خاطئاً يُعرّض العمل للاهتزاز أو الخطر، بسبب مضاعفات الخطأ التي تؤثر على الموقف ولذلك فلا بد من دراسة الموقف من خلال الظروف الموضوعية المحيطة به، ليحدد، على أساسه التصرف الموافق للحكمة وللاتجاه السليم.. أما تفصيل ذلك... فقد يتمثل في وضع النقاط على الحروف أمام بعض الحالات...

أسلوب الدعوة في أجواء الضغط العسكري والسياسي:

١ ـ فقد يكون المجتمع خاضعاً لضغط سياسي أو عسكري يتمثل في سيطرة وضع معين أو فئة معينة على البلد، بالمستوى الذي لا تكون معارضته، أو الدخول معه في معركة التحديات، أمراً عملياً في اطار المرحلة.. بالنظر إلى القوة المتعاظمة التي يملكها، بازاء القوة الضعيفة التي يملكها العاملون، أو العمل، بل ربما تتحول المعركة معه إلى عملية انتحارية، يفقد فيها العمل نفسه، والعاملون حياتهم، من دون الحصول على أي ربح للحاضر أو للمستقبل، لحساب الإسلام والمسلمين، بل ربما قد تكون النتائج سلبية، في هذا المجال، لأنها تساهم في يقظة الجماعات

السياسية والعسكرية، على وجود القوة الإسلامية الوليدة، وعلى هذا الخطر الداهم الذي ينتظرها في المستقبل من خلال تعاظم هذه القوى الجديدة. الأمر الذي يدعوهم إلى العمل على اجهاض كل حركة في بدايتها وتطويق كل تحرك في هذا الاتجاه بما يخلق للعمل صعوبات كثيرة، تمنعه من النمو والتقدم والانطلاق.

وفي هذا الجو... لا بد للعاملين من أن يتفهموا الواقع بكل سلبياته وكل ايجابياته فيخضعوا تحركهم لذلك، فلا يسمحوا لأَحد أن يفرض عليهم المعركة مع هذه الجماعات، في ظروف غير منتظرة، أو في حركة غير مدروسة، ولا يقبلوا أن يدخلوا في انفعاليات حماسية تثيرها مشاعر القوة الوهمية، سواء كانت من داخل أنفسهم أو من خارجها.. بل قد تفرض عليهم المصلحة الإسلامية، أن يطوِّقوا كل حركة وكل صراع يراد لهم أن يدخلوا فيه بكل ما يملكون من وسائل التجميد والتبريد، لئلا يستسلموا إلى المخططات الخبيثة المدروسة بدقة من قبل الأعداء الخبثاء أو الأصدقاء الحمقى.

النفاق والمداراة:

ولا نجد هناك أي مانع شرعي من مداراة هذه اقوى بالكلمة الطيبة أو بالأسلوب الحميم، أو بالتعاون في العمل الذي قد ينفع ولا يضر بأحد... ولا يعتبر ذلك نفاقاً.. لأننا نعتقد أن هناك فرقاً بين النفاق والمداراة... فإن النفاق يتمثل في اظهار الإنسان خلاف ما يبطنه، انطلاقاً من المصالح الذاتية، أما المداراة فإنها تتمثل في الأسلوب الذي يحاول أن يخفي فيه الإنسان بعض ما يضمره، أو يظهر فيه غير ما يخفيه، انطلاقاً من حاجة الرسالة إلى ذلك، أو مواجهة الخطط المضادة، بخطط إسلامية خفية، تبطل ما يصنعونه وتمحو ما يرسمونه... وبذلك تعبر المداراة مظهر اخلاص

للعمل، وأسلوب حكمة وقوة، لأنها تنطلق من حسابات الخطة المدروسة على أساس مصلحة الإسلام بينما يعبر التهور والاقدام على مواطن الخطر بروح انفعالية، خيانة للعمل، وأُسلوب جهل وضعف لأن الحكمة هي أن تضع الشيء في موضعه، والقوة، تتمثل في صلابة الموقف وشدته أمام حالات الانهيار النفسي... لتنطلق الحركة من خلال قوتين، قوة الداخل التي تتمثل بالانضباط والخضوع للقوة، وقوة الممارسة المتمثلة بقوة التحرك باستعمال ما يملكه من أدوات القتال.

التقية في اطار الأسلوب:

وهذا هو الذي يطلق عليه الشيعة الإمامية كلمة «التقية» التي تتمثل بالأسلوب العملي الذي يواجه به الإنسان حالات الخطر على حياته وعلى دينه، فينكر بعض ما يعتقده أو يصرح باعتقاد ما ينكره، أو يعمل بعض الأعمال التي لا تنسجم مع خط الحكم الشرعي الذي يؤمن به، كل ذلك في اطار الحالة الطارئة الضاغطة مع مراعاة المصلحة الإسلامية العليا لحركة العمل ككل... وقد لا تتسع كلمة التقية لكل الحالات التي يتضمنها العمل، لأنها تعني الأسلوب الذي يحكمه الخوف والشعور بالخطر، بينما قد تكون الحالة الموجودة بعيدة عن هذا الجو... فلذا قد نختار استعمال كلمة «الواقعية» و «المرونة» كتعبير عن ذلك لأن هاتين الكلمتين تعبِّران عن انطلاق أسلوب العمل من خلال دراسته المقارنة بدراسة الواقع وظروفه ومؤثراته لتطبيق حاجات العمل على ذلك كله.

هل التقية شأن شيعي خاص:

وقد لا تكون شرعية هذا العمل شأناً شيعياً خاصاً بالمعنى المذهبي

للكلمة التي تدخل الحديث في بحث كلامي معقد، حول الإمامة ومعناها وطريق ثبوتها... وتترك الحديث عن السند الإسلامي من خلال المصادر الأساسية العامة، وبكلمة أكثر وضوحاً أن الشيعة لا ينطلقون في شرعية التقية من قول الإمام المعصوم، الذي يعتقدون إمامته وعصمته فحسب، ليقال لهم أن ذلك لا يلزم المسلمين الذين لا يعتقدون ما تعتقدون، بل يرجعون في ذلك إلى القواعد العامة للتشريع الإسلامي لأن أئمة أهل البيت لم يوجهوا شيعتهم وأتباعهم إلى ممارسة هذا المبدأ، باعتباره حكماً شرعياً سرياً كانوا يحتفظون به، بعيداً عمايعرفه المسلمون من أحكام شرعية، بل كانت التوجيهات عمليات تطبيقية للمبدأ الإسلامي الشامل الذي نزل به القرآن الكريم في آياته الكريمة...

التقية في اطارها الإسلامي:

فإن من المعروف لدى فقهاء المسلمين أن الإسلام قد رفع عن المسلمين أحكام الإكراه، في الحالات التي يتعرضون فيها لضغط الآخرين واكراههم على ارتكاب بعض الأعمال المحرمة، أو النطق ببعض الكلمات المحرمة أو اجراء بعض المعاملات التي لا يريدونها، أو العقود التي يرفضونها... فلم يحملهم مسؤولية أي شيء من ذلك في الدنيا، في اطار النتائج القانونية، وفي الآخرة في نطاق العقوبة الإلهية، وهذا هو ما ورد في الحديث النبوي المشهور المعروف بحديث الرفع الذي جاء فيه قوله ﷺ: رفع عن أمتي تسعة أشياء.. وعد منها.. الاكراه.

ولا يقتصر الموضوع على ذلك بل يرجعون إلى ما ورد في علاقة الكافرين بالمؤمنين التي توعد فيها القرآن المؤمنين، على اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، واستثنى من ذلك حالة التقية، التي أعقبها بالتحذير

الشديد الذي قد يكون مرتكزاً على عدم تجاوز الحد باستعمال الرخصة في غير مواضعها واعتبارها حجة على الانحراف بها عن الخط المستقيم بشكل مطلق وذلك هو قوله تعالى:

- ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فقد يرون أن استثناء حالة التقية، من بين حالات التحريم، يشير إلى هذا المبدأ بشكل عام، إذ لا يحتمل فقيه أن يكون الاستثناء أو الرخصة في استعمال التقية، مختصاً بهذا الموضوع المعين إذ لا ندرك وجه الخصوصية فيه، فتكون النتيجة الاجتهادية الحاسمة هي انطلاق الرخصة في كل موضوع من الموضوعات المحرمة شرعاً، في حالة التقية، التي تجعل الإنسان في وضع يخاف فيه على نفسه أو عرضه، وربما على ماله مع بعض التحفظات...

ويذكرون في ذلك قصة عمار بن ياسر التي أنزل الله فيها قرآناً، فقد نطق بكلمة الكفر التي طلبها منه مشركو قريش تحت وطأة التعذيب وجاء يهرع إلى رسول الله ﷺ وفي قلبه غصة وفي كيانه خوف وهلع من أن يكون ذلك سبباً لهلاكه عند الله، فقرأ عليه الرسول ﷺ قوله تعالى:

- ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

وقال له يا عمار إن عادوا فعد، فإن الله قد أنزل فيك قرآناً... ويتابعون قولهم، أن قضية عمار لا تُمثِّلُ حالة خاصة تختص بها الإباحة، بل

هي نموذج من نماذج الحالة العامة التي تتعدد فيها النماذج تبعاً لتعدد الوقائع ولذا اندفع الرسول ﷺ يعالج الحالات المستقبلية التي يتعرض فيها عمار للاكراه، ونحن نعلم أن القضية ليست قضية عمار بالذات، بل قضية المسلم الذي يتعرض للاضطهاد في عقيدته، من قبل الكافرين ويهددون حياته بالقتل، أو من قبل المسلمين الذين يخالفونه في الرأي أو من قبل الحاكمين الظالمين الذين يريدون أن ينتزعوا منه سراً يهدد حياة الحق الذي يؤمن به، أو حياة المؤمنين الذين يتعاون معهم في الوسيلة والهدف، لأن القضية قضية المبدأ الذي تخضع له الحالة، لا قضية الحالة بالذات، فيمتد إلى كل حالة مماثلة في حركة الواقع الإسلامي في الحياة.

التقية في رأي علماء السنة:

وقد نجد من بعض اخواننا من علماء السنة اعترافاً بالمبدأ من ناحية عامة وإن خالفوا علماء الشيعة في التفاصيل. قال الألوسي في تفسيره روح المعاني ج ٣ ص ١٢١ تعليقاً على الآية الكريمة ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: وفي هذه الآية دلالة على مشروعية التقية وعرفوها بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء سواء أكان العداء لأجل اختلاف الدين أو للأغراض الدنيوية، غاية الأمر، في صورة اختلاف الدين تجب الهجرة إلى أرض يسلم فيها على دينه، وفي صورة الأغراض الدنيوية خلال بينهم في الهجرة. وعدّ قوم من باب التقية مداراة الكفار والظلمة والفسقة والألنة الكلام لهم والتبسم في وجوههم والانبساط معهم ولا يعد من الموالاة لهم النهي عنها فإن ذلك سنة وأمر مشروع.

ويقول ابن تيمية في كتابِهِ اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٧٦: «إذا كان المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب لم يكن مأموراً بالمخالفة لهم في

الهدى الظاهر لما عليه من الضرب بل قد يستحب للرجل أو يجب عليه أن يشاركهم أحياناً في هديهم الظاهر إذا كان في ذلك مصلحة دينية من دعوتهم إلى الدين والاطلاع على باطن أمرهم لأخبار المسلمين بذلك أو دفع ضررهم عن المسلمين أو نحو ذلك من المقاصد الصالحة».

وفي التبصير في الدين للاسفراييني ص ١٦٤ قال: «حقيقة الإيمان أن تقر به عند التمكن منه وإن أنكره عند المخافة من أن يعير اعتقاده شيئاً فلا حرج عليه فيه قال الله تعالى:

- ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾.

وفي أحكام القرآن للقاضي ج١ ص ٢٢٣ عند قوله تعالى:

- ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الحجرات: ٢].

«إن الشافعي ونظراءه يجوزون إمامة الفاسق، ومن لا يؤتمن على حبة من مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطارين. وأصل هذا، أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس لما فسدت أديانهم ولم يمكن ترك الصلاة فإذا أحسنوا ولا يستطاع ازالتهم صلى معهم وراءهم كما قال عثمان الصلاة أحسن ما يفعل الناس فإذا أحسنوا فأحسن معهم وإذا أساؤوا فاجتنب اساءتهم ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقية أعاد الصلاة لله تعالى، ومنهم من كان يجعلها صلاته وبوجوب الاعادة أقول، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة خلف من لا يرضى من الأئِمّة ولكن يعيد سراً في نفسه ولا يؤثر ذلك عنه غيره».
ومن الطريف إن صاحب تفسير المنار يقول في ج ٣ ص ٢٨١ تعليقاً على الآية المتقدمة (وقصارى ما تدل عليه هذه الآية أن للمسلم أن يتقي من مضرة الكافرين وقصارى ما تدل عليه في سورة النحل: (ألا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، أنه مرخص لهم من باب الضرورة العرضية لا من أصول الدين

المتبعة دائماً). أما ملاحظتنا عليه فهي أنه ليس هناك من يقول باعتبار الرخصة من أصول الدين، بل الظاهر أن كل قائل بالتقية لا يتعدى عن مفهومها الذي يرادف الخوف أو الضرورة، إلا فيما يتفق مع مصلحة المسلمين، كما تقدم عن ابن تيمية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: إذا جاز للمسلم أن يتقي مضرة الكافرين جاز له أن يتقي من مضرة غيرهم، لأن الرخصة جاءت من حيثية الضرر، لا من حيثية طبيعة الكفر الذي يتصف به مصدر الضرر، وهم الكفار. ثم، إذا جاز للإنسان أن يقول كلمة الكفر التي هي أخطر كلمة في حياة المؤمن، تحت ضغط الخوف من الضرر، جاز له أن يقول ما عداها مما يندرج في حكم شرعي على خلاف الشرع، أو في كلمة مجاملة أو في غيرها، بطريقة أولى، لأن جواز الأقوى يستلزم جواز الأضعف بالضرورة... ومن المفارقات أننا نجد بعض علماء المسلمين يعتقدون حجية القياس الذي يمثل التعدي بالحكم الشرعي من موضوع إلى موضوع آخر مماثل له في بعض الجوانب للظن بأن وجه الشبه، هو أساس الحكم الشرعي، ثم نجدهم يقفون هذا الموقف المتحفظ المتصلب من موضوع التقية الذي يطمئن فيه الإنسان إلى شمول التشريع لجميع الحالات من خلال ظاهر اللفظ، أو القطع بالعلة التشريعية...

الصراع المذهبي وعلاقته بالنظرة السلبية للتقية:

ولعل الأساس في ذلك، فيما نظن، أنهم كانوا يعالجون القضية من خلال الواقع التطبيقي للتقية الذي كان يمارسه الشيعة في ظل الحكم الإسلامي الذي كانوا يختلفون معه في كثير من الأحكام الشرعية، وينظرون إليه نظرتهم إلى السلطة غير الشرعية، ويعتبرونه منحرفاً عن خطوط الإسلام وتعاليمه... وكان هذا الحكم يمارس الضغط القاسي على اتجاه الشيعة كنظرة إلى الإسلام وكمفهوم لقضية الحكم ونظامه ولفكرة الإمامة، وكأحكام

شرعية تخالف الاجتهاد الرسمي، وعلى أئمة الشيعة الذين كانوا يواجهون الحكم بالفكر الإسلامي الأصيل الذي يفضح الحكم بشكل غير مباشر، وينظمون الجماعات التي تحمل الفكر إلى الأجيال الآتية، فكان الحاكمون من الأمويين والعباسيين يضطهدونهم بالسجن والسم وغير ذلك وكانت حياتهم وحياة أتباعهم في خطر دائم فكانت التقية سبيلهم إلى البقاء والاستمرار في رسالتهم، وسبيلهم إلى المحافظة على حياة أتباعهم، فأمروا بها ومارسوها على أساس وجود الموضوع الشرعي للرخصة، تماماً كأي حالة من حالات الاضطرار والخوف على النفس والدين والمال أو العرض...

ولكن اخواننا من العلماء المسلمين، لما لم يعيشوا هذا الواقع في ظل هذا الحكم لم يدركوا طبيعة الحالة الشرعية التي استند إليها أهل البيت وشيعتهم فلم يتبين لهم وجه الحق في ذلك... أو أنهم لم يروا ما يراه أهل البيت في نوعية هذا الحكم، أو في الانحرافات الشرعية عن خط الإسلام، فلم يشعروا بوجود حالة تقتضي المعارضة، ليكون الخوف مشروعاً باعتبار شرعية المعارضة أو المخالفة التي تقتضيه، بل ربما شعروا بأن من واجب الحكم أن يضطهد التشيع في خطه الفكري والعملي، ويضطهد رجاله، وأن من واجب الشيعة وأئمتهم أن يخلصوا للحكم ولأفكاره ولممارساته... ومهما كان الموضوع فإن القضية لا تخرج من الاطار الذي عرضناه، وهو اخضاع القضية لواقعهم الذاتي في فهم الحالة لا لواقع الآخرين، مما يجعل المواقف مثل الشخص الذي يأخذ على الآخرين خوفهم، لأنه ليس خائفاً مثلهم، لأنه لا يعيش مثلهم الظروف التي تدعو إلى الخوف.. وقد لا يكون من البعيد انطلاق الحساسية ضد هذه الممارسات، من الأجواء النفسية والاجتماعية التي عاشتها المذاهب الإسلامية، مما يجعل الأحكام المتبادلة بعيدة عن الانصاف والعدالة في أغلب الحالات، لبعدها عن الجانب

الموضوعي للحكم على واقع الأشياء وطبيعتها، ولقربها من الجوانب الذاتية المنغلقة على أفكارها ونظراتها الخاصة مما يجعل كل فريق ينسب إلى الفريق الآخر أقوالاً وأعمالاً لا يقول بها ولا يتبناها في قليل أو في كثير. ولعل الفكرة التي ألمح إليها صاحب المنار من اعتبار التقية لدى الشيعة أصلاً من أصول الدين ناشئة من هذا الجو الذي أوجب اساءة فهم كثير من النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت مثل «التقية ديني ودين آبائي» فإن مفهومه الحقيقي هو اعتبارها إسلامية في اطارها الشرعي المحدد تماماً، كأي حكم آخر من أحكام الشرعية التي يدين بها الإنسان ربه، من دون أن يكون في النص أية إشارة إلى اعتبارها أصلاً دينياً يرقى إلى مستوى الأصول العامة للدين. وربما كانت أمثال هذه النصوص في تأكيدها على التقية وشرعيتها وأهميتها منسجمة مع قسوة الواقع الذي كان يعيشه أئمة أهل البيت عليهم السلام ووجود حالات كثيرة من حالات عدم الانضباط لدى شيعتهم مما يستوجب حملة نفسية ضد واقع الانفلات لتطويقها من جميع الجهات... وقد نجد الكثير من الشواهد على ذلك في أحاديثهم التي يوبخون بها كثيراً من أصحابهم الذين يذيعون بعض أسرار العمل أو لا يحافظون على التقية في علاقاتهم... فيعرضون حياتهم وحياة اخوانهم وأئمتهم للخطر المباشر وغير المباشر..

الدعوة إلى الموضوعية في معالجة هذا الموضوع:

ولكن فهم ذلك كله يحتاج إلى فكر موضوعي مجرد يرصد النصوص والأوضاع المحيطة بالأشياء بهدوء وموضوعية وتجرد... ليفهم الأجواء التي تحكم ذلك كله، بعيداً عن أي انفعال أو هوى أو احساس ذاتي... فإن ذلك هو السبيل الصحيح لفهم الواقع، حكماً أو عملاً أو واقعاً فردياً أو اجتماعياً، كما تحدثنا به فيما تقدم من أحاديث هذا الكتاب عند معالجتنا

لبعض الاستنتاجات الخاطئة للأحكام الشرعية بسبب النظر إليها من خلال الفهم الحرفي للنص، واغفال الفهم الاجتماعي الذي يضع الجو إلى جانب النص ويضع النصوص إلى جانب بعضها البعض لينتهي إلى النتيجة الصحيحة على أساس استكمال جميع العناصر المؤثرة في الفهم والاستنتاج.

إننا نقف هذه الوقفة مع هذا المبدأ العملي، وهو التقية، لشعورنا بأهميته الكبيرة في أسلوبنا العملي في حركة الإسلام، وواقعيته، لأن أفكار هذا المبدأ ومهاجمته انطلاقاً من الشعارات المثالية التي تنظر إلى الهدف البعيد وتحلم فيه دون أن تخطط للطريق الذي يوصل الإنسان إليه، يسيء إلى العمل وإلى طبيعته، كما رأيناه في محاربة شعار الغاية تبرر الوسيلة، واعتباره شعاراً «ميكافيليا» يستحل كل شيء في سبيل الوصول إلى غرضه وأطماعه، ولم ندقق في الفكرة لنفهم أن هناك فرقاً بين الغاية التي ترتبط بالمصلحة الذاتية والأطماع الشخصية وبين الغاية التي ترتبط بالمصلحة العامة والأهداف الكبيرة للأمة، فقد لا يجوز للإنسان أن يسلك للوصول إلى أغراضه إلا الوسائل والأساليب المحللة الشريفة التي لا تسيء لأحد، ولكن إذا كان الهدف هو هدف الأمة، وكانت المصلحة مصلحة المجتمع بشكل عام فإن عظمة الهدف، وأهمية المصلحة تبرر سلوك أي طريق يتوقف عليه الهدف أو تفرضه المصلحة، لأن الموقف تابع لعملية الخيار بين الغاية وبين الوسيلة... وفي هذه الحالة، تتقدم الغاية لتبرر الوسيلة وتخرجها من دائرة «ضد القيمة» إلى دائرة «القيمة الجديدة» التي تستمدها من قيمة الغاية في نظافتها وعظمتها وطهرها.

وهذا هو ما نريد التنبيه إليه وإلى خطورته الفكرية والعملية لأنه يجعل الإنسان خاضعاً لأحلام الفكر ومثالياته بعيداً عن واقعيته ومرونته... ولهذا فإننا نريد من الدارسين أن يدرسوا هذا المبدأ من هذه الزاوية، ولا يخضعوا

لرواسب فكرية ومسلّمات، لم تستند إلى أساس واقعي إسلامي ليستطيعوا أن يخلصوا العمل الإسلامي من أسار هذه الأفكار التي تسيء إليه أكثر مما تحسن، وتضره أكثر مما تنفعه. وبالتالي، من الارهاب الفكري الذي يمارسه المحافظون التقليديون الذين حمّلوا الأخلاق الإسلامية كثيراً من المثاليات الفلسفية التي لا تستند إلى حقيقة ولا ترتكز على أساس تشريعي ثابت.

حدود التقية في الحكم الشرعي:

وقد رأينا في هذا العرض الذي عرضناه للحيثيات التشريعية لفكرة «التقية» والآراء بعض العلماء المسلمين من السنة، أن الفكرة ليست فكرة مذهبية، بل هي فكرة إسلامية تخضع لما تخضع لها الأفكار الإسلامية الأخرى من حيثيات التشريع وفلسفته.. أما حدودها، فهي حدود المصلحة الإسلامية العليا، التي يجب الوقوف عندها، في عملية موازنة ومقارنة لما يأخذه الإنسان وما يدعه منها، وقد صرح بذلك صاحب مجمع البيان الشيخ الطبرسي في ج ٢ ص ٤٣٠ طبع صيدا قال: (كان أصحابنا يرون جواز التقية في الأحوال كلها عند الضرورة وربما وجبت لضرب من اللطف ولا تجوز في قتل ولا ما يغلب الظن أنه استفساد في الدين. وذكر أبو جعفر الطوسي إن ظاهر الروايات وجوبها عند الخوف على النفس كما ورد أنها رخصة في الافصاح بالحق، ثم ذكر حديث الرجلين اللذين أخذهما مسيلمة ليكفرا بالنبي، فأحدهما كفر ظاهراً وسلم والآخر لم يكفر وقتل فاستحسن النبي فعلهما).

وقد ورد في أحاديث أهل البيت أن التقية إنما كانت ليحقن به الدم فإذا بلغ الدم فلا تقية[1]. ولكن هل معنى هذا كله أن التقية تغلق على الإنسان

(١) وجاء في حديث الإمام جعفر الصادق (ع): وتفسير ما يتقي مثل أن يكون قوم سوء ظاهر =

باب التضحية بالنفس انسجاماً مع فكرته ومبدأه لأنه لا يريد أن يأخذ بالرخصة، بل يريد أن يأخذ نفسه بالالزام.. وإذا كانت التضحية كذلك فما معنى سلوك ياسر وسميّة اللذين كانا يستطيعان أن يقولا كلمة الكفر تحت ضغط الاكراه كما قالها ولدهما عمار.

إننا لا نوافق على ذلك انطلاقاً من (حديث مسعدة بن صدقة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قلت لأبي عبد الله «إن الناس يروون أن علياً قال على منبر الكوفة: أيها الناس إنكم تدعون إلى سبي فسبوني وتدعون إلى البراءة مني فلا تبرؤا مني فقال: ما أكثر ما يكذب الناس على علي عليه السلام ثم قال: إنكم ستدعون إلى سبي فسبوني ثم تدعون إلى البراءة مني وإني لعلى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقل ولا تبرؤا مني... فقال له السائل: أرأيت أن أختار القتل دون البراءة، فقال: والله ما ذلك عليه وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر حيث أكرهه أهل مكة وقلبه مطمئن بالإيمان فأنزل الله عز وجل فيه قرآناً «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان») فقال النبي عندها يا عمار إن عادوا فقد أنزل الله عذرك وأمرك أن تعود إذا عادوا). فإن هذا الحديث يدل على أن القضية لم تكن نهياً من علي عليه السلام لهم عن البراءة وإنما كانت نهياً عن الانسجام الداخلي والاقتناع الذاتي بذلك لأن ذلك يخالف واقع الأشياء ويشرف بالإنسان على البراءة من دينه في نهاية الأمر، لأن البراءة ممن كان على دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم في داخل النفس، ينتهي إلى البراءة من الدين بشكل مباشر، وبهذا تقف القضية في اطارها الصحيح الذي يجعل التضحية في مقام الدفاع عن الفكرة أمراًغير واجب فلا يكون منحرفاً عن خط الإيمان لو أخذ

= حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي إلى الفساد في الدين فإنه جائز. ولا بد في تقدير ذلك من دراسة الحالة من جميع جهاتها ليعرف كيف يؤدي السير عليها إلى الفساد في الدين أو لا يؤدي إلى ذلك...

بالرخصة وقال كلمة البراءة وأحب العافية.

أما إذا اختار خط التضحية وفضل الموت على الحياة في سبيل الصبر على كلمة الإيمان وكلمة الولاء فإنه يكون في أعلى درجات الإيمان، كما كان شهيدا الإسلام (ياسر وسمية) ـ أبوا عمار ـ في تضحيتهما من أجل الإيمان فماتا تحت سياط العذاب لأنهما لم يقولا كلمة الكفر للكافرين، وكما كانت القصة في موقف الشهيد العظيم حجر بن عدي وأصحابه البررة الذين اختاروا الموت على أن يقولوا كلمة البراءة من الإمام علي عليه السلام. إن الموضوع هنا هو أنه هل يجوز للإنسان اتباع سبيل التقية في حفظ نفسه أو لا يجوز الأمر الذي يضع القضية في خط اعتبار التقية انحرافاً عن خط الإيمان أو انسجاماً معه، وليس الموضوع هو أنه هل يجوز أن يضحي الإنسان بنفسه في سبيل عقيدته مع قدرته على النجاة وتجاوز حالة التضحية بطريقة مشروعة[1].

المرونة الواقعية في سيرة النبي محمد (ص) والأئمة من أهل البيت:

أما المرونة العملية، والواقعية في سلوك النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد نلاحظه في موقفه في قضية صلح الحديبية عندما أراد كاتبه أن يكتب عهد الصلح بينه وبين مشركي قريش فأضاف إلى كلمة «محمد» كلمة «رسول الله» فاعترض المشركون على ذلك لأنهم لا يقرون بهذه الصفة ولولا ذلك لما حاربوه فامتنع الكاتب من حذف الكلمة، ولكن رسول الله، وافق على ذلك ومحاها بيده فقد نجد في هذا السلوك مرونة وواقعية في الأسلوب... جعلته يتجاوز ذلك لئلا يعطل قضية الصلح التي كانت مصلحة للواقع الإسلامي، آنذاك.

(١) النزعة الواقعيّة في الإسلام للمؤلّف (مفاهيم إسلاميّة عامّة).

وقد نلاحظ ذلك في سلوك أهل البيت عليهم السلام وتعليماتهم إلى أصحابهم في علاقتهم باخوانهم المسلمين الذي يختلفون معهم في شؤون المذهب، فقد ورد النص على معاشرتهم وعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم والصلاة في مساجدهم والآذان لهم وغير ذلك من الأمور التي تسد الثغرات وتقلل من السلبيات وتقرب الأفكار والمشاعر، وتفسح المجال لولادة جو روحي جديد يمكن للحوار المستمر القائم على الإيمان والواقعية أن يعطي ثماراً كبيرة، بدلاً من المقاطعة التي لن تؤدي إلا إلى مزيد من البعد ومزيد من العداء، من دون أن تشارك في أي لون من ألوان الإيجابية في العقيدة والسلوك.

التورية من الأساليب الواقعية لمواجهة الضغوط:

وفد يذكر الفقهاء أسلوباً آخر في تجاوز الضغوط التي يتعرض فيها الإنسان لقول ما لا يعتقد، أو عمل ما لا يجوز، أو مدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستحق الذم، وهو أسلوب (التورية) الذي هو (عبارة عن إيراد لفظ ظاهر في المعنى وإرادة المتكلم خلافه) وقد جاءت النصوص الدينية من طريق السنة والشيعة في جوازه فقد روى سويد بن حنظلة قال: خرجنا نريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعنا وائل بن حجر فأخذه عدو له فتحرج القوم أن يحلفوا وحلفت أنا أنه أخي فخلوا سبيله فأتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخبرته أن القوم تحرجوا أن يحلفوا وحلفت أنا إنه أخي فقال: صدقت: المسلم أخو المسلم»، فإن الظاهر من كلمة الأخ، الإخاء في النسب، ولكنه أراد الاخاء في الدين من غير أن يقيم دليلاً على ذلك ليوهم السامع المعنى الأول ليحصل من خلال ذلك على مراده وهو انقاذ هذا الرجل من دون أن يكذب في داخل نفسه. . .

وجاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في الرجل يستأذن عليه فيقول للجارية قولي ليس هو ههنا قال: لا بأس ليس بكذب. . . ومن المعلوم أن المقصود من كلمة الجارية، هو نفي وجوده في مكان ما في البيت لا في البيت كله لأنه يكون كذباً واضحاً. . لا مجرد إيهام وتلبيس.

وسئل الإمام الصادق عن قوله تعالى: «بَل فَعَلَهُ كبِيرُهُمْ» قال ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم قيل: وكيف ذلك قال: إنما قال إبراهيم إن كانوا ينطقون، فما نطقوا وما كذب إبراهيم»، وسئل الإمام جعفر الصادق عن قوله تعالى ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ قال إنهم سرقوا يوسف من أبيه ألا ترى أنهم قالوا نفقد صواع الملك ولم يقولوا سرقتم صواع الملك.

أما قيمة هذا الأسلوب فهو المحافظة على نظافة الداخل والبقاء على موقف الصدق من ناحية نفسية. . مع التخلص من المأزق الحرج الذي وقع فيه، والخروج من جو الضغط الشديد بدون سلبيات دينية.

وخلاصة الحديث أن بإمكان الإنسان المسلم أن يجد السبيل القويم لمواجهة الضغوط التي يتعرض إليها، بالطرق الواقعية التي يقرها الإسلام في عملية توازن دقيقة بين طبيعة الموقف وبين حاجة الإنسان أو الدعوة الإسلامية، أو العمل الإسلامي إلى الحياة والامتداد والثبات.

أسلوب الدعوة في أجواء الضغط العاطفي:

ـ وقد يخضع الموقف لحالة عاطفية مضادة للموقف الحق الذي يقفه الداعية، وذلك في موقف الأبناء من الآباء، فإن علاقة الأبناء بالآباء تخضع لشعور عميق بالقداسة الروحية التي تستمد قوتها من العاطفة التي تعتبر وجود الابن امتداداً لوجود الأب. . . مما يولد في داخل الأبناء تقديساً لمصير آبائهم

واخلاصاً لأفكارهم وعقائدهم.. فتكون النتيجة أن يرفضوا الدخول في الدين الجديد، لأن ذلك يبعدهم عن عقائد آبائِهم، التي تجمع إلى جانب العقيدة صفة التقليد، ويسلمهم إلى القناعة بانحرافهم عن الخط الذي يجعلهم في النار في الدار الآخرة، فكيف نواجه هذه الحالة الصعبة، التي واجهها الأنبياء كما لم يواجهوا حالة أخرى مماثلة في الصعوبة لأنها ليست قضية فكر يناقش ويحاكم، بل قضية عاطفة تجيش وتثور وترق وتدافع عن العقيدة من خلال الشعور والاحساس، لا من خلال العقل والفكر.

إننا نواجه الحل في أسلوب القرآن الكريم فقد تحدث لنا في قصة النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون وحواره معه أن فرعون وجه إليه سؤالاً حاول أن يستفز به موسى للدخول في جدل حول آباء المجتمع الذي كان يحضر جلسة الحوار، ليثيره ضده، لأن طبيعة الدعوة إلى عبادة الإله الواحد الأحد التي يدعو إليها موسى، يفرض ضلال الذين يعبدون غيره من الآباء والأبناء، وهلاكهم في الدنيا والآخرة.. الأمر الذي يؤدي إلى ضغط عاطفي على مشاعر هؤلاء تجاه آباءهم.. ولكن موسى كان ذكياً في جوابه حيث تجاوز السؤال وأوكل الجواب إلى علم الله تعالى، معفياً نفسه من مسؤولية الجواب عن ذلك لأنه من الأمور التي لا يحيط بعلمها فلا يجوز له أن يجيب بما لا سبيل له إلى العلم به.

ـ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١ ـ ٥٢].

ونلاحظ أن في هذا الجواب مرونة ذكية تتجاوز الضغط العاطفي من جهة، وتطلق التحذير الخفي من جهة أخرى باعتبار أن الكتاب الذي يضم علم ذلك مستمد من الله الذي لا يضل في علمه ولا ينسى شيئاً منه.

وهذا الأسلوب، من أروع الأساليب في الحكمة والمرونة واللياقة،

لأنه لا يسيء إلى عاطفة الأبناء بالدخول في تفاصيل غير محببة بالنسبة إليهم، ولا يضر بالفكرة لأنه لا يتنكر لأي جانب من جوانبها، بل يترك الأمر لله الذي قد يعفو وقد يعاقب، من دون أن يعني ذلك رفض استحقاق العقوبة للمنحرف عن طريق الحق.

ولعلنا نحتاج إلى السير مع هذا الأسلوب في كثير من الأحاديث التي تثار في حالة الجدل العقيدي ولا سيما المذهبي منه.. عندما تكون العاطفة المذهبية متجهة إلى تقديس شخص لا يستحق التقديس مما يوجب صعوبة لدى اتباعه ومحبيه، أن تجعلهم يعتقدون ـ بصراحة ـ بأن مصيره إلى النار.

مع العلاقات العاطفية بالأبطال المنحرفين:

٣ ـ وربما تكون العاطفة سياسية أو عسكرية أو فنية، لدى الأشخاص الذين يتعاطفون مع الآخرين على أساس البطولات السياسية والعسكرية والفنية... فقد يكون من الحكمة أن نبتعد عن أسلوب تصنيف هؤلاء في النار أو في الجنة لأن أمر الجنة والنار ليس بأيدينا، بل هو بيد الله الواحد القهار الذي تحدث عن نفسه أنه يغفر الذنوب جميعاً وأنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأن رحمته وسعت كل شيء، ولأن التصريح بذلك، ولو على أساس استحقاق العقوبة، لا يفيد القضية شيئاً بل قد يضرها لأن العاطفة قد تنتهي بالإنسان إلى رفض كل شيء يصطدم بعاطفته وإن كان منسجماً مع عقله... ولأن بذل الجهود في سبيل الربط لهذا الإنسان بالفكرة ثم بالعمل المتواصل على توثيق هذا الرباط، أفضل من استنفاد الجهود فيما لا طائل تحته من قضايا الجنة والنار الذي قد يكتشفه الإنسان بطريقة عفوية فيما إذا امتد في خط الإيمان، وتعمق في معانيه ونتائجه... ولأن الإفاضة في هذا التصنيف البشري لأهل الجنة أو أهل النار قد يعطي انطباعاً سيئاً عن

الفكرة لأنه يوحي بأن هؤلاء الذين استطاعوا بناء الحضارة في الدنيا، من خلال علومهم وفنونهم وجهودهم وبطولاتهم السياسية والعسكرية والفكرية هم من أهل النار، بينما تكون الجنة من نصيب المتواكلين والجاهلين والخاملين والجامدين الذين لم يقدموا للحياة أي شيء، ونحن نعرف خطورة هذا الانطباع على قيمة الدين في تفكير الناس، واحترامه في نفوسهم، مما يجعل أمر الحديث عنه والبحث عن دورالحق والباطل في مفهومه، غير ذي معنى لدى هؤلاء، لأن الكتاب يعرف من عنوانه، فيما يمكن أن يقولوا. ولكن لو تركنا ذلك جانباً، وأقبلنا على الموضوع من جذوره وخاطبنا في هذا الإنسان فكره وعقله وضميره واستطعنا أن ندخل الإسلام إلى كيانه.. فإننا سوف ندخل إلى شعوره من خلال إيمانه بالإسلام وستزول العاطفة عن كل شيء لا يتصل بالإسلام. وسيعرف بعد ذلك أن قضية الإخلاص لله والارتباط به هو الذي يعطي لأي عمل من الأعمال الخيرة التي يقوم بها الإنسان في الحياة، معنى الخير والصلاح في كيان الإنسان وقيمته الذاتية، وأن هناك فرقاً بين صلاح الإنسان في ذاته من خلال أعماله، وبين صلاح العمل في نفسه من خلال فائدته للمجتمع، لأن الصلاح الذاتي بسبب العمل يخضع لدوافع العمل الخيرة، بينما صلاح العمل يخضع لطبيعة تأثيره في المجتمع.. فلا مانع من أن يكون الإنسان شريراً بينما يكون عمله خيراً لأن دوافعه العملية كانت أقرب إلى الشر منها إلى الخير... وعند ذلك يزول عنه كل انطباع سيء فيما يتعلق بأهل الجنة وأهل النار.

الأسلوب في علاقة العاطفة بالعقيدة:

أما علاقة العاطفة، بقضية العقيدة فقد عالجها القرآن بقوة وحذر.. بطريقة تختلف عن الطريقة السابقة، لأننا لا نستطيع اغفال الجواب التفصيلي هنا كما أغفلناه هناك، لأن قضية مصير الآباء لا يدخل في موضوع العقيدة

سلباً وايجاباً بشكل مباشر، بل قد يكون في الحديث عنه بعض السلبيات. . أما هنا فإن العاطفة تواجه نفس العقيدة وجها لوجه، لأنها تقف حاجزاً منيعاً بين الإنسان وبين الإيمان لأن في ذلك اساءة إلى ذكرى الآباء وعقيدتهم التي تحمل معنى القداسة. . . وبذلك تتحول القضية من حالة إلى منهج. . لأن الموقف يواجه المسألة المطروحة من حيث علاقتها بالمنهج الفكري للعقيدة، هل تخضع العقيدة للتقليد وللتراث والدوافع والمؤثرات العاطفية، أو أنها تخضع للفكر والعقل والمحاكمات العلمية والعقلية. . أو بالأحرى، هل الإنسان ظل للآخرين الذين تربطهم به علاقة تاريخية، وامتداد لشخصياتهم وتأريخهم أو هو كائن مستقل يصنع لنفسه ولأمته الفكر والعقيدة والتاريخ، كشخصية مستقلة تصل إلى قناعاتها وأعمالها بصورة مستقلة. . حتى التراث وعقائد الماضي، التي قد تتبناها، فإنها تتبناها من خلال الطريقة الموضوعية في فهم الأشياء ومحاكمتها، لا من خلال كونها تراثاً وتاريخاً مقدساً معصوماً. . . وقد واجهها الإسلام بطريقة مثيرة، تصدم العاطفة بقوة، وتحطم مقدساتها بعنف وتناقش قواعدها الفكرية، بفكر قوي. . وتهاجم آباءهم في مستواهم الفكري بلا رحمة كما نواجه ذلك في الآيات الكريمة التالية:

١ ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

٢ ـ ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٣٨].

٣ ـ ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ

﴿أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٥].

الإسلام يحارب التقليد، بالتركيز على المنهج:

فإننا نلاحظ في كل هذه الآيات عنفاً في المواجهة، ولكنه العنف الذي يثير الأساس الفكري للقضية، ليثير لديهم دوافع التفكير الهادىء في القضية المطروحة.. وهي تبرير العقيدة بأنها عقيدة الآباء وتبرير الخلق بأنه خلق الأولين، وتبرير الشريعة بأنها الشريعة التي ألفينا عليها آباءنا، والسؤال المطروح أمام ذلك كله في القرآن الكريم، هو اثارة التفكير في المستوى العقلي والعلمي لهؤلاء الآباء.. هل يملكون الثقافة العلمية، والقوة العقلية التي تبرر للإنسان أن يعتمد عليهم في قناعاته التي ترتكز على شيء من العقل وشيء من العلم.. وإذا كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، كما في الآية الأولى، أو لا يعلمون شيئاً، فكيف يبررون ابتاعهم لهم ورفضهم لما أنزل الله... مع أن القضية لا تحتمل المقارنة في أي وجه من وجوهها، إذ لا معنى للمفاضلة بين ما ينزل الله من شريعة أو عقيدة وبين ما يصنعه الآباء من جهل وانحراف، ولكنه الأسلوب القرآني الرائع الحكيم الذي يريد للإنسان أن يصل إلى قناعاته من خلال المناقشة لها حتى في الأشياء التي لا ضرورة لمناقشتها في قليل أو كثير.. فهل يستطيع أن يجد المبرر، أو هل تصمد الحجة أمام الحقيقة القاطعة التي تكشف له أن آباءه لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بسبب عقل أو علم أو هدى بل كانوا ينطلقون من المواقف المضادة للعلم والعقل والهدى، فكيف يتبعهم في ذلك...

ثم يطرح القضية للتفكير من زاوية أخرى.. بعد أن يقرر أن هذا

المنهج في الوصول إلى الإيمان، من خلال تقليد الآباء، يمثل ظاهرة عامة في حياة الناس، تواجه الأنبياء بالرفض لرسالاتهم انطلاقاً من ذلك، فهي منهج للإيمان بما آمن به من الآباء ومنهج للرفض لما لم يؤمنوا به... والسؤال المطروح... هو اثارة التفكير في نفس الفكرة المطروحة أمامهم ومقارنتها بالفكرة التي يعتقدها الآباء.. فليكن للآباء فكرهم القوي المرتكز على العقل والعلم والهدى، ولكن من يثبت عصمتهم عن الخطأ في الفكر، وهل يخرج تفكيرهم عن أي تفكير آخر محدود يخضع لاحتمالات الخطأ والصواب، تبعاً للمؤثرات المحددة التي شاركت في ولادته مما تحتمل الحق والباطل.. وإذا كان الأمر كذلك فإن المطلوب تحديد الموقف من الفكر الجديد، إذا كان أهدى وأصح مما وجدتم عليه آباءكم، فهل تصرون على رأيكم أو تتبعون الفكر الأصح والأقوى والأهدى... ويحدثنا القرآن الكريم أنهم لم يحاولوا التفكير والمقارنة، بل اندفعوا للتأكيد على الالتزام بموقف الكفر من دون مناقشة أو جدال ولذلك كان رد الفعل... انتقام الله منهم في الدنيا قبل الآخرة...

الأسلوب الإسلامي يفرض نفسه على صراعنا مع العاطفة:

ونحن هنا ـ نريد الانطلاق من خط هذا الأسلوب القرآني في طرح المنهج للمناقشة، من خلال المستوى العقلي والعلمي لأشخاص التراث من الآباء والأجداد أو من غيرهم، ومن خلال المحتوى الفكري والروحي للعقيدة التاريخية، والعقيدة الجديدة، للوصول بواسطة المقارنة للنتيجة المطلوبة وهي تفضيل الرسالات السماوية التي جاء بها الأنبياء على عقائد الآباء والأجداد..

ونحسب أن قيمة هذا الأسلوب هو أنه يعيد الإنسان إلى النظر للواقع،

بعيداً عن أيّة هالة مقدسة، أو عظمة فارغة، أو عاطفة ساذجة، بل يربطه به وجهاً لوجه سواء في ذلك واقع الإنسان الذي تنطلق منه الفكرة أو واقع الفكرة التي يعتنقها الإنسان... لينتهي في نهاية الأمر إلى أن الإنسان ليس فوق مستوى الخطأ والاشتباه أو الجهل والانحراف، وأن الفكرة ليست فوق مستوى المناقشة والانكار والبطلان، فربما يكون الحق مع إنسان آخر أكثر وعياً وفهماً، وربما تكون الحقيقة موافقة لفكرة أخرى أعمق جذوراً وأوسع آفاقاً.. وليس للإنسان إلا أن يفكر من قاعدته الفكرية من دون خضوع لأحد، أو التقليد لأحد... ويحاكم كل الأفكار المطروحة أمامه من موقع العقل لا من موقع العاطفة.

وقد نشعر بالحاجة إلى هذا الأسلوب في جميع الحالات العاطفية التي تدعو أصحابها إلى اتباع عقيدة معينة بسبب اعتناق شخص آخر لها من قريب أو صديق أو حبيب أو ابتداعه لها، مما يخلق في داخل نفسه شعوراً بالإلفة لكل شيء يخصه ويرتبط به.. أو بمسؤوليته عن النجاح لها، لأن ذلك ينعكس على نجاح نفس الشخص فإن علينا أن نهز قناعات هؤلاء العاطفيين بالفكرة، بهذا الأسلوب الواقعي الذي يتجه إلى تعرية أصحاب العقيدة واتباعها من حيث الامكانات الفكرية والعقلية التي يتمتعون بها.. ومن حيث المؤثرات الذاتية التي قد تجعل العقيدة نابعة من مصلحة شخصية أو طمع ذاتي بعيداً عن كل معنى للاخلاص والنزاهة والتجرد، ثم استعراض تاريخ الفكر وتطوره، وثغراته، وما يعرض عليه من تغير وتبدل وصلاح وفساد كسبيل من سبل دفعه إلى عقد المقارنة الفكرية بينها جميعاً ليكتشف بنفسه أو بواسطة الجدل الفكري حولها خطأ تلك وصواب هذه.

ولا مانع من التوسع في ايجاد علامات استفهام أخرى، غير التي طرحها القرآن الكريم في هذا المجال، لأن القرآن الكريم لا يريد استيعاب

كل الأسئلة التي يمكن أن تطرح، مما يمكن أن يتجدد في نفس الإنسان، لتجدده في صعيد الواقع وحركته، بل كل ما استهدفه القرآن هو تقديم المنهج الذي يجب أن يسلكه الإنسان في أسلوب محاكمة هذا المنهج في العقيدة أو في طريق الوصول إلى العقيدة، وبذلك تكون الثقافة القرآنية قاعدة للانطلاقات الفكرية في مجال الثقافة الواسعة وايحاءاً بالآفاق الجديدة التي يمكن للإنسان أن يبلغها أو يكتشفها في رحلته إلى الفكر المجهول الممتد في رحاب الحياة، أن الإسلام يريد للإنسان أن يفهم كيف يطلب الله منه أن يواجه الحياة بعقل منفتح يحمل مسؤولية فكره وقناعاته من خلال حركة الفكر واستقلاله وحيويته، لتكون المسؤولية منطلقة من موقع الإرادة الحرة التي تعرف مواقفها جيداً على أساس من وعي وعلم واخلاص، وبذلك يشعر الإنسان كيف يحترم فيه الإسلام إنسانيته وحرية تفكيره عندما يمنعه ـ تحت طائلة العقاب ـ من اخضاع إنسانيته وفكره لإرادة الآخرين على أساس من العاطفة والمنفعة أو أي شيء آخر. وهذا ما يجب أن يثيره الدعاة أمام الناس عند عرض هذه الجوانب العاطفية وعلاقتها بالعقيدة أو بالعمل، وموقف الإسلام من ذلك.

أسلوب الدعوة في أجواء الضغط الغوغائي:

٣ ـ وقد يدخل الإنسان في حوار حول قضايا العقيدة والشريعة مع بعض الناس، أو يقف ليثير بعض الحديث في شؤون ذلك، فيحاول آخرون ممن لا يتفق معهم في خط الإيمان أن يصرفوا الحديث إلى غير ما يريد ويحولوه عن الأجواء التي تسيطر على الحديث والحوار إلى أجواء أخرى موافقة لما يحملونه من عقيدة، ولما يثيرونه من أوضاع، ليوجهوا به الاهتمام إلى ذلك، فتظل الأفكار مشدودة إليهم خاضعة لتأثيرهم، حتى في حالة الحديث عن عقائد أخرى ومبادىء أخرى، فإنهم يحاولون أن يجعلوا اتجاهه

في الخط الذي يرسمونه، والجانب الذي يثيرونه، لأنهم يدركون أن قيمة الأجواء العامة للفكرة، حتى لو أثيرت بشكل مضاد، تتمثل في التعبئة النفسية بمشاعر الأجواء وأحاسيسها واهتماماتها الخاصة والعامة مما يجعل من عملية جلب الناس إلى الفكر الذي يريدونه، وقيادتهم نحو الأهداف التي يستهدفونها عملية سهلة للغاية لأن دعوة الناس إلى أي عقيدة تحتاج إلى عنصرين، أحدهما، ربط الناس بأجواء العقيدة واهتماماتها، وثانيهما، ربطهم بأفكار العقيدة ومحتواها ولا يستغني الثاني عن الأول لأن الإنسان يفقد اهتمامه بالأشياء المطروحة أو يبتعد عن أجوائها لأنه يعيش في أجواء أخرى بعيدة عنها واهتمامات غيرها غريبة عنها. .

أساليب الضلال في اثارة الاهتمام بالانحراف:

وهذا هو ما يحاوله الكثيرون من اتباع المبادىء المضادة للدين، لابعاد الناس عن أجواء الدين واهتماماته، فيبادرون إلى اثارة قضايا الحياة ومشاكلها وحاجاتها الآنية والمستقبلية لا سيما الأشياء الملحة منها، مما هو قريب إلى احساس الإنسان وشعوره واهتمامه، ثم تتنوع المحاولة في اتجاه اثارة الحلول على الطريقة التي يفكرون بها، وتوجيه المناقشات إلى الجو الذي يعيشون فيه ليظل الحوار مشدوداً إلى الفكرة والجو معاً حتى في الاتجاه المضاد. . فيحصلون من خلال ذلك على نتيجتين، أبعاد الناس عن التفكير الديني بابعادهم عن أجوائِهِ وتقريب الناس إلى أفكارهم بتقريبهم إلى أجوائِها. . كمرحلة أولى من مراحل تحصيل القناعات في نهاية المطاف بما يريدون وبما يفكرون، كما ألمحنا إليه.

أسلوبنا العملي في توجيه المجتمع إلى الإسلام من خلال قضاياه:

ولعل من أفضل الأساليب في مواجهة ذلك أن لا نبتعد في أحاديثنا عن

الأجواء والاهتمامات التي يثرونها أمام الدعوة، ولا نسحب من الميدان احتجاجاً على ذلك، لأنهم يربحون الموقف في كلتا الحالتين، بل نحاول توجيه قضايا الحياة، التي تثار، إلى الخط الإسلامي، على الطريقة القرآنية التي تربط الظواهر الطبيعية والاجتماعية والذاتية بالله من حيث هو السبب الأعمق في الأشياء وأسبابها، وادخال العنصر الإلهي في الأوضاع الصعبة التي يواجهها الإنسان من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، وظهور الفساد بين الناس في البر والبحر وانتشار الظلم... باعتبار ذلك بلاءاً من الله وامتحاناً واختباراً للإنسان على قدرته على الصبر والصمود بإيمانه حتى في أشد الأوقات حراجة... ثم ربط ذلك كله بأفعال الإنسان النابعة من أرادته واختياره، لتكون تلك الظواهر نتائج طبيعية لتلك الأفعال فتتركز في وعي الإنسان الفكرة الإسلامية التي تربط بين الظواهر الحياتية وبين حركة الإنسان فيها، فلا يكون الإنسان مجرد عنصر سلبي تتحكم فيه ظواهر القضاء والقدر، بل يتحول ـ في المفهوم القرآني ـ إلى عنصر ايجابي يشارك في دفع عجلة الحياة وتحريكها، وفي صنع القضاء والقدر، وهذه هي الطريقة القرآنية الرائعة التي واجه فيها الإنسان الظواهر الطبيعية الاجتماعية القلقة، فعالجها بالطريقة التي ترتبط فيها بالله من جهة، من حيث هو صانع السنن الكونية للحياة، وبالإنسان من جهة أخرى من حيث هو صانع الظواهر العملية لتلك السنن وهذا ما تتمثله في قوله تعالى:

ـ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

ـ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣].

ـ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ـ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٧٩].

ـ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١].

ولعل قيمة هذه الطريقة، أن الإنسان يظل قريباً من الله ومن الحياة معاً، في محاولته لفهم ظواهر الكون وفي قدرته على تغييرها من خلال إرادته، على أساس الاستعانة بالله والانسجام مع إرادته وبذلك يفوِّت الداعية المسلم، الفرصة على أولئك الذين يحاولون أن يعزلوا التفكير الإلّهي عن الحياة ويبعدوا الإنسان عن الاستعانة بالله ويركزوا في وعيه الفكرة التي تجعل الإنسان مشدوداً إلى الأرض في كل شيء. . . ويتوصلوا ـ من خلال ذلك ـ إلى اثارة القضايا الاجتماعية في اطار الفكر المادي بعيداً عن الفكر الروحي. . . فلا تعود قضايا الحياة من خلال ممارسة الدعاة المسلمين الدعوة في هذا الاطار ـ وقفاً على أولئك، بل تكون حقاً طبيعياً للعمل الإسلامي المنفتح على الله والحياة معاً في نطاق التكامل الفكري، والتوازن

الكلي الذي تخضع له القاعدة الإسلامية في التفكير والممارسة.

وإذا أثيرت قضايا الانحراف اليومية الخاصة والعامة، فإن الداعية المسلم يقف ليوجه الناس إلى ضرورة التخلص منها ومحاولة تغييرها بالأسلوب القرآني الذي يعرض الانحراف بصورة منفرة تبعد الناس عنها من حيث ما تمثله من فساد وضرر في الدنيا والآخرة، ومن حيث ما تؤدي إليه من عذاب الله وعقابه في الآخرة، ولا يكتفي بابراز الجانب الذاتي للانحراف بعيداً عن الجانب الديني ليظل الإنسان مشدوداً إلى الأجواء الروحية التي تجعل من العمل مسؤولية أمام الله، وذلك كما في قوله تعالى:

- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ *﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

- ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩١ ـ ٩٢].

- ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾

[البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٦].

ـ ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وبهذا الأسلوب يستطيع الداعية أن يحقق هدفه من بقاء الجو الروحي في حياة الناس اليومية، وامتداداً إلى كل قضية مادية أو معنوية.. مما يسهل عليه الدعوة إلى الانضباط، ويمنع الدعوات الأخرى من السيطرة على حياة الناس، لأننا نشعر بأن الآخرين لا يستطيعون السيطرة على الواقع إلا من خلال وجود الفراغ الفكري والروحي والعملي لدى الناس الذين يقبلون على كل دعوة تحاول أن تملأه، لأن الفراغ ضد إرادة الحياة وواقعها، فإذا أمكن للداعية المسلم أن يملأ هذا الفراغ بالأساليب الإسلامية الواقعية القويمة فلا يبقى هناك مجال لأن يلتفت الناس إلى هذا أو ذاك من دعاة الشر والضلال.

ولا بد للدعاة المسلمين الذين يخططون للعمل ويوجهونه في اتجاه الواقعية والاستقامة أن يتوفروا على دراسة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والأساليب الواقعية الحكيمة في كل اللغات مع دراسة تفصيلية لبعض حيثيات التشريع التي يمكن أن تفسر الأحكام الشرعية أو تستعرض فوائدها ونتائجها العملية، ليستطيع أن يغني ثقافته وتجربته بما يحقق له املاء الفراغ في حركة العمل الإسلامي...

أسلوب الدعوة أمام أجواء التشويش:

٤ ـ وقد يحاول البعض أن يثيروا التشويش في أجواء الحديث كما حدث ذلك في عهد النبي محمد ﷺ عندما كان يتلو القرآن الكريم فيما حدثنا الله به في قوله تعالى:

ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فقد عجزوا عن معارضة القرآن، ومواجهة التحدي الذي واجههم به، فلجأوا إلى أساليب التشويش الغوغائية، فأصدروا إلى أتباعهم الأمر بعدم الاستماع إلى القرآن، ومحاولة اللغو فيه، بمعارضته باللغو والباطل وباثارة الضجيج حوله حتى لا يتمكن أحد من سماعه ومن فهمه، وكان من قصدهم أن يحصلوا على الغلبة بهذا الأسلوب ولم تتحدث الآية عما يجب على النبي فعله، ولم تذكر لنا ما الذي فعله معهم كرد للتحدي، بل كل ما جاء به القرآن الكريم هو اطلاق التهديد في وجوههم وانذارهم بالعذاب الشديد في قوله تعالى:

ـ ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۞ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٧ ـ ٢٨].

وربما كان ذلك هو الرد الطبيعي عليهم، لأنهم ليسوا في مجال الاصلاح والارشاد ليذكرهم أو يعظهم أو يوجههم، بل كانوا مصرين على العناد والاستكبار والتحدي بالباطل والضلال.. فليس لهم إلا النار والعذاب الشديد. ونحن نعلم أن النبي لم يلتفت إلى ذلك كله بل كان يجدد المحاولة ويتابعها ويصر عليها حتى يتعب الآخرون من ضلالهم، فيستمعوا إليه أخيراً ليعرفوا الجديد في ذلك كله. ويغتنم النبي الفرصة ليجدد الدعوة ويطلق كلمة الحق.. ونحن نجد في حديث السيرة أنه كان يجد الواحد والاثنين والثلاثة ومن أولئك الذين لم يستسلموا لغوغاء قريش وضلالهم، ولم يمتنعوا عن الاقبال عليه في بعض الفترات ليسمعوا منه قليلاً ويفكروا بعد ذلك فيما سمعوه، وقد يكررون المحاولة وقد يثيرون بعض الأسئلة، التي تثيرها الدعوة فيهم.. ويدخلون في الإسلام أفراداً.. وبذلك كان الإسلام يستقبل في كل يوم، مسلماً جديداً أو أكثر من ذلك.

وهذا هو الأسلوب الذي نتبعه في مثل هذه الحالات، في الاصرار على الموقف مهما كلف الأمر، لأن أعداء الله لا يلجأون إلى هذه الأساليب إلا بعد استنفاد الأساليب المعقولة التي تواجه التحدي بمثله، والكلمة بالكلمة.. ولكنهم لا يلبثون أن يتعبوا ويرجعوا ويرتدوا على أعقابهم خاسرين، أمام قوة الرسالة وأصحابها وصلابتهم في مواقفهم...

ومن الاصرار على الموقف تتنوع المحاولة التي يقتضيها الحال، فقد يكون للداعية بعض القوة الاجتماعية التي يمكنه من خلالها أن يقضي على الضوضاء بالعنف والشدة، أو باللطف والمرونة، وقد لا يكون له شيء من هذه القوة، ولكنه يملك قوة الشخصية أو قوة الحجة والأسلوب، أو لباقة التحرك ومواجهة مثيري الضوضاء بكل أساليب السخرية والاستهزاء، وغيرها من مظاهر الحرب النفسية التي تهزمه نفسياً وتجعله أضحوكة الآخرين، وفي كل الحالات يمكن للإنسان أن يسلك أي طريق من طرق العنف واللين ليجابه به هذا الوضع المثير للضوضاء والشغب، لأن الموقف ليس هو موقف الاحترام للإنسان في عقله وفكره، بل موقف احترام الرسالة في دعوتها وإيمانها، واحترام حرية الآخرين في الانفتاح على ما في الرسالة من خير وهدى وإيمان.

وقد يقتضينا الموقف التأكيد على ضرورة الدراسة الموضوعية للحالة، ومعرفة طبيعة القوى التي تتحكم في الواقع، والاطلاع على القوى الخفية التي تختبيء وراءه، لئلا يقوم الإنسان ببعض التصرفات العنيفة التي تضر بالعمل وتخلق له مشاكل جديدة، أو يقوم ببعض التصرفات الهادئة التي توحي بالاستسلام فتؤدي إلى ضعف العمل في نفوس الناس.. وقد يكون هذا الموقف جزءاً من خطة يراد منها ايجاد النزاع والخصام الذي يشوه وجه الدعوة، ويبعد الآخرين عنها، ويدخلها في معارك جانبية أو مواقف صعبة لم

تستعد لها.. وقد يكون هناك أشياء أخرى..

وفي نهاية المطاف... إن على الإنسان أن يقدر المشكلة بقدرها، ويواجهها بحكمة، بالحكمة التي تضع كل شيء في موضعه... وتلبس لكل حالة لبوسها، وتحسب لكل حركة حسابها، ولكل كلمة أو حركة نتائجها وآثارها.

●□●□●

أسلوبنا بين سلبيات الواقع وايجابياته

في المجتمعات المسلمة الكثير من السلبيات المتمثلة بالانحرافات العملية التي يقوم بها أفراد مسلمون أو جماعات مسلمة، فيتركون بعض الواجبات، ويفعلون بعض المحرمات، ويبتعدون بمفاهيمهم ونظراتهم إلى الحياة عن مفاهيم الإسلام ونظراته، مما يجعل الدارسين لهذه الانحرافات التي تكاد تمثل دور «الظاهرة» في حياتنا العامة، يرددون الكلمة التي قالها بعض المفكرين الغربيين «الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر» انطلاقاً من الفجوة الكبيرة بين الدين واتباعه.

وقد أخذ الوعاظ والخطباء هذه الظاهرة، فحاولوا أن يؤكدوا عليها في خطبهم ومواعظهم، ليطلقوا صيحة الانكار على الواقع الذي يواجهونه، ويبرروا أساليب التوبيخ والتقريع التي يوجهونها إلى أبناء الشعب، وينددوا بذلك كله في عملية اثارة انفعالية تتصاعد فيها درجة الحماس إلى المستوى الذي يجرد المسلم من إسلامه فيحكم عليه بالكفر المروق والضلال... ثم يزيد الأمر اتساعاً فيوجهون اللوم إلى العصر، ويرجعون إلى العصور الماضية ليذكروا الناس بما كان عليه أهلها من طاعة الله وامتثال لأوامره ونواهيه، ويستمرون في ذلك كله حتى يفقدوا الإنسان المسلم ثقته بنفسه، ويدفعوه إلى اليأس بكل ما يعمله، أو يقوم به من طاعة، لينتهي إلى النتيجة اليائسة، وهي

أنه لم يعد صالحاً لشيء، لأي شيء، مهما كان نوعه.

ونحن ـ هنا ـ نرفض الاتجاه بالوعظ في هذا الوجه، لأننا نشعر بوجود كثير من الايجابيات إلى جانب السلبيات، فإذا كان بعض المسلمين ينحرفون عن بعض الواجبات ويفعلون بعض المحرمات، فإنهم قد يقومون ببعض آخر من الواجبات، ويتركون بعضاً آخر من المحرمات، وقد تزيد حالة الانضباط عن حالة الانحراف وقد تنقص عنها، وقد يتساوى الأمران. .

ثم إذا كان الانحراف مظهراً عاماً للأكثرية فإن هناك انضباطاً للأقلية في أكثر الشؤون الإسلامية سواء في ذلك العبادات أو المعاملات أو العلاقات العامة، مما يتصل بجانب المال والنفس والعرض حتى تواجهك الصور الرائعة التي تجسد لك الإيمان الصافي الثابت الذي يتصل إيمانه بالجذور العميقة الضاربة في الأرض، فلا ينهار أمام أي اغراء، ولا يسقط أمام أي تحد، بل يقف ليواجه الاغراء بالخوف من الله، ويجابه التحدي بقوة الله. . لأنه حصَّل إيمانه من خلال القناعة والمعاناة ولم يحصل عليه من خلال التقليد والمحاكاة. . مما يجعله احساساً متصلاً بذاته، نابعاً من روحه. . وقد تنلفت لتجد مثل هذه الصورة ظاهرة في قلب المناطق الموبوءة التي تتحدى كل إيمان، وتصرع كل مقاومة. . ليكون ذلك شاهداً على أن الإنسان يمكن أن ينطلق إلى الحياة بايجابيات إنسانيته المستقيمة على خط الإيمان، من البيئة التي تزرع الأرض كلها بسلبيات الانحراف من كل نوع. وقد تفتح كتب التاريخ والسير، لتكتشف أن النماذج المعاصرة قد تتفوق على بعض نماذج التاريخ لأنها لم تواجه تحديات الانحراف واغراءاته، كما يواجهها الإنسان المعاصر في عصر الشهوات والغرائز أما المقارنة بين العصور الماضية، وبين هذا العصر، التي يخرج منها الواعظون والخطباء، بالنتيجة التي تجعل من ذلك العصر عصراً ذهبياً. . بينما تجعل من هذا العصر عصراً أسوداً في

المجال الديني فلا نجدها ايجابية في جميع الأحوال، لأننا قد نستسلم للمقارنة في الجوانب العبادية ونحوها، ولكننا لا نستطيع اقرارها ـ تماماً ـ في الجوانب الإنسانية بكل ما تحمله من علاقات.. سواء في ذلك علاقة الحاكم بالمحكوم، أو علاقات الناس بعضهم ببعض.. فقد يهمنا أن نشير إلى غنى العصر الحاضر بالجانب الإنساني الذي يكافح فيه الإنسان حتى الموت من أجل أن يوفر لقمة العيش الكريمة للمجتمع بشكل عام وإذا كان هذا الجانب، قد ينحرف في تصوراته أو في بعض خطوطه، فلا يمنعنا ذلك من أن نظل على نظريتنا الطبيعية المقارنة.. لأن الجانب الداخلي الذي يرتبط بطبيعة المبدأ، يظل سليماً من ناحية عامة.

إن وجود هذه الإيجابيات التي تستطيع أن تضيء كثيراً من الجوانب المظلمة في حياة إنساننا المعاصر ككل، يستطيع أن يخفف كثيراً من ضراوة وجود السلبيات.. فيحقق لنا التوازن في النظرة والتوازن في الحكم.. لننتهي من خلال ذلك كله، إلى تحقيق التوازن في الموقف.. ومن ثم إلى تحقيق التوازن في ممارسة الوعظ والتوجيه في حياة الناس.

ومن هنا نبدأ محاكمة هذا الأسلوب ضمن نقاط:

١ ـ إننا نؤكد خطورته لأنه يعطي انطباعاً سلبياً عن واقعية الإسلام بعدم قابليته للتطبيق على أساس التجربة المعاصرة المطروحة التي لا تحتفظ بأي ايجابيات عملية إزاء هذا الحشد الكبير من السلبيات.. وتتم الصورة لدى السامع أو القارىء إذا عاد إلى دراسة التاريخ من خلال سلبياته، لا سيما في أسلوب بعض المذاهب الدينية التي تحكم على أكثر الناس في العصور المتقدِّمة، بالضلال إن لم يكن بالكفر.. إذ كيف يمكننا أن نثق أو نؤمن بواقعية أي حل، لا يستطيع أن يعطي المشكلة نافذة واحدة مفتوحة على الحل في اطار الواقع.

٢ ـ إنه يفقد ثقة الإنسان بقدرته على تصحيح نفسه في اتجاه الاستقامة، فإذا كانت الصورة قاتمة في أغلب جوانبها.. فكيف يستطيع الإنسان أن يقنع نفسه بأنه قادر على أن يجسد الصورة المضيئة في أعماله وأقواله..

٣ ـ إنه يزيف الواقع ـ في نظر الناس ـ عندما ينقل لك جانباً واحداً من الصورة، ويلقي الظلال الثقيلة على الجانب الآخر منها، فتبدو الصورة قاتمة لا لون فيها ولا ضياء، ولا حياةِ مما يربك للإنسان خطواته، ويعطل له سلامة نظرته إلى الواقع، ويؤدي به إلى الخطأ في الحكم، والانزلاق بالمستقبل في منحدرات الحاضر المجهول الذي لا يعرف إلى أين مصيره.

٤ ـ إنه يختلف عن الأسلوب القرآني الذي انطلق، ليطلق الصورة كما هي في الواقع.. فإذا انتقل بنا إلى الجانب المظلم، حملنا حملاً إلى الجانب المضيء، وإذا كان الجو غائماً فإن بوادر الصحو تشق السحاب والضباب لولادة الضحى من جديد، ليظل الإنسان مع الجانب المشرق من الصورة.. فينفعل بها في عملية خير وإيمان.

والآن نحن من الأسلوب القرآني في بضع آيات تبدو فيها عملية المقارنة بين مظاهر الخير وبين مظاهر الشر في حياة المجتمع:

١ ـ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * ۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا

إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

[البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٣].

٢ ـ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

٣ ـ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٣ ـ ١٠].

٤ ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٨].

٥ ـ ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾
[لقمان: ٣ ـ ٨].

وهكذا نجد القرآن الكريم يعرض المواقف المتنوعة التي يبدو فيها الخير إلى جانب الشر، ومحبة الله إلى جانب محبة غير الله والإيمان إلى جانب الكفر والنفاق، ليظل الإنسان مشدوداً إلى واقع الحياة المستند إلى مبادىء الحق، فيتحرك نحو الحق بروح واثقة بالمستقبل من خلال الحاضر، فلا ينهزم نفسياً أمام مظاهر الباطل وقوته، لأن الباطل ليس وحده المسيطر على الحياة.. بل الحق موجود مثله في اطار يتسع للحياة، ويسمح لها بالامتداد معه..

وبهذا الأسلوب القرآني الحكيم يمكن للخطوات العملية أن تتقدم في اتجاه البقاء في ميدان الصراع، فلا تنسحب منه أمام تهاويل الأطراف الأخرى..

وربما كان من الضروري للدعاة والموجهين والوعاظ، أن ينطلقوا في عملية واسعة دقيقة لدراسة الواقع ليتعرفوا إلى ما يحمل من ايجابيات في خط الوجود للإسلام الفردي والجماعي، وإلى ما يحمل من سلبيات في ذلك الخط.. ليحققوا من خلال ذلك هدفين:

١ ـ الحصول على المعلومات اللازمة لهم في عملهم التبليغي

والتوجيهي، عندما يريدون أن يدخلوا في أساليب المقارنة بين الايجابيات وبين السلبيات، كوجه من وجوه أساليب الدعوة والعمل.

٢ ـ أن يطلعوا على مدى القوة التي يملكها الإسلام في جانب التطبيق العملي في حياة الناس ويعرفوا ـ على الطبيعة ـ المجالات التي يمكننا توقيتها، لوجودها في مواقع امكانات القوة، والمجالات التي لا يمكننا فيها ذلك، من خلال الظروف الموضوعية الحالية، فلا تتحرك نحوها بشيء ـ ولو مؤقتاً ـ لأن ذلك يعتبر جهداً ضائعاً لا مجال له.

● □ ● □ ●

الفصل الخامس

مع الدعوة في أسلوبها التربوي

١ ـ الأسلوب الوعظي وقيمته العملية.

٢ ـ التوازن في أسلوب الدعوة بين الخوف والرجاء.

٣ ـ فلسفة الثواب والعقاب في أسلوبنا العملي.

٤ ـ نحو أسلوب تربوي جديد في علاقاتنا بالله.

٥ ـ هل للإسلام ألفاظ خاصة في أسلوب التعبير؟.

٦ ـ الأسلوب الخاطىء في نقد الحضارة الحديثة.

الأسلوب الوعظي وقيمته العملية

هناك في حركة الدعوة الإسلامية في الحياة العملية المعاصرة، اتجاه يحاول عقلنة الإسلام و «عصرنته «وتحديثه» ليستطيع أن يدخل الحياة من بابها الواسع ويفرض نفسه على التفكير الحديث من خلال مفاهيمه وتشريعاته التي لا تبتعد عنه وعن تصوراته ومسلماته. . . ويقصدون بذلك ابعاد العنصر الغيبي في كل مجال يمكن ابعاده، عن طبيعة الدعوة الإسلامية، فكرة وأسلوباً. . فتحاول تفسير القضايا الواردة في القرآن كقضية الملائكة، والجن والوحي وغير ذلك حتى المعاجز التي يقوم بها الأنبياء اثباتاً لنبواتهم، بتفسيرات طبيعية تضعها في موضعها الطبيعي من سائر الموجودات، ومن دون أن يكون لها أي معنى عميق خارج نطاق الطبيعة. ثم يحاول هؤلاء أن يبعدوا الأساليب الوعظية عن أسلوب الدعوة، فلا يشجعون الأساليب التي تتحدث عن الإيمان والإسلام والانسجام مع خط الشريعة العملي من خلال الحديث عن الجنة والنار، والحساب والعقاب والثواب لأن ذلك قد يكون مفيداً ومعقولاً في الجماعات البدائية، أو القريبة منها، لأنها لا تدرك المعاني الكبيرة التي تتضمنها العقيدة والشريعة مما يجعل أمر مخاطبتهم بها غير عملي. ولكنه لن يكون مفيداً للجماعات المتعلمة أو المثقفة التي لا تحتاج إلى التخويف والترغيب من أجل تقريبهم إلى الإسلام لأن من الممكن أن يتخاطب الدعوة عقولهم وأفكارهم بأسرار العقيدة وخصائص التشريع في

سبيل الوصول إلى قناعاتهم، وفي هذه الحال قد يعتبرون الحديث عن الحساب والعقاب اساءة إلى مستواهم الفكري، لأنه ـ بنظرهم ـ يشبه ممارسة الارهاب والضغط النفسي للحصول على تأييد فكرة ورفض أخرى، وهذا مما لا يتناسب مع احترام الإنسان لحريته الفكرية القائمة على القناعة من خلال الحجة والبرهان.

أما تعليقنا على ذلك كله، فهو أننا لا نريد ـ في حديثنا هذا ـ مناقشة الاتجاه في جميع ركائزه ومتفرعاته لأن البحث ليس في هذا الاتجاه بل نريد أن نشير ـ مجرد اشارة ـ إلى أن رفض العنصر غير الطبيعي أو غير العادي فيما تشتمل عليه بعض مفردات العقيدة أو التشريع أو القصص الديني، لا يتناسب مع الإيمان بما وراء الطبيعة من أسرار وموجودات، لأن ذلك هو الفرق بين الدين وبين غيره، فإن الدين يقر الإيمان بالماورائيات كمبدأ وإن كان لا يؤمن بالشمول لكل شيء في موضوع التفاصيل... وعلى هذا الأساس فإننا لا نجد ضرورة لهذه التفسيرات والتأويلات بعد إن كانت القضية واردة من حيث المبدأ في العقيدة إذا لم يكن هناك الدليل على التأويل والتفسير لأن الظاهر القرآني يعتبر مقبولاً ومفروضاً وحجة في مدلوله إلا إذا قامت هناك أدلة عقلية أو لفظية على خلافه، كما يقول علماء الأصول واللغة العربية..

أما إذا كان الأساس في ذلك هو محاولة الإيحاء بالجانب العقلي بالعقيدة والتشريع باقناع الآخرين بالإسلام فإن ذلك يعني اعترافاً بما ألمحنا إليه من ارتكاز الإيمان بما وراء الطبيعة في غيره على أساس غير معقول، وهذا مما يؤدي إلى خلاف الغرض المقصود، مع أن من الممكن اقناعه بالمبدأ في الجوانب الغيبية في العقيدة من خلال الدليل العقلي على معقولية ذلك في أكثر من مجال.

٢ ـ إننا لا نعتقد اقتصار الحاجة إلى الأساليب الوعظية على الفئات غير

المتعلمة، بل نعتقد شمول الحاجة لكل الفئات، لأنها لا تطرح لتكون أساس قناعة فكرية، بل لتكون سبيلاً للاهتمام الفكري بالمسألة المطروحة ذإن كثيراً من القضايا التي تواجه الإنسان في حياته لا تثير في ذاته أي نوع من أنواع اهتمام ما لم ترتبط بعنصر الخطورة على جانب من جوانب حياته، ولهذا كانت الأفكار تتحرك وتنطلق في الموضوعات المرتبطة بمواقع المسؤولية المباشرة أكثر من الموضوعات التجريدية التي لا علاقة لها بالمسؤولية من قريب أو من بعيد. .

ثم لا تقتصر القضية على اعتبارها سبيلاً لاثارة الاهتمام الفكري، بل تتعدى ذلك إلى أن تكون سبباً من أسباب تقوية الدوافع الذاتية لحركة الإرادة نحو العمل فإننا نعرف أن الإرادة لا تفرض العمل على أساس من القناعات العقلية بحسن العمل وقبحه، بل على أساس حسابات العقاب والثواب، أو الربح والخسارة لأن القناعة الفكرية لا تتحول إلى جانب الحركة إذا لم تتحول إلى قناعة تهز العاطفة والشعور الذي يخضع في أغلب الحالات لقضايا الثواب والعقاب، ولهذا وجدنا التشريعات الجنائية موجودة في أكثر الشعوب ثقافة، وأعظم الدول حضارة.

٣ ـ إن الأديان لا تعتمد في اثبات عقائدها الرئيسية التي تمثل القواعد الأساسية الثابتة للدين على الثواب والعقاب، بل تعتمد ـ في كل ذلك ـ على الأدلة العقلية العميقة المرتكزة على الوجدان الصافي والفطرة السليمة، بل نلاحظ أن الإسلام حارب الذين يستندون في قناعاتهم واعتقاداتهم إلى عقائد الآباء من دون دليل، وطلب من الناس أن يحصلوا على هذه القناعات من خلال ما وهبهم الله من حس، وما رزقهم من عقل، فإن الحس والعقل إذا استخدما في طريق الحقيقة باخلاص، استطاعا أن يصلا بالإنسان إليها من أقرب طريق.

٤ ـ إن قيمة الأساليب الوعظية التي أثارتها الأديان في طريق الدعوة، إنها لا تكتفي بتحقيق الانضباط العملي للإنسان في مواجهة الانحراف، بل تعمل على تعميق جانب الاعتقاد والإيمان بالله وفهم الحياة، فهي تدفع الإنسان إلى الاحساس بوجود الله في السر وفي العلن، في حالة الفكر وفي حالة العمل، في حالة الانفراد وفي حالة الاجتماع بالآخرين.. فهو يلاحق تفكيرك، وأنت تفكر، وعملك، وأنت تعمل، وكلماتك التي تسر بها أو تعلن، وأنت تتكلم، مما يجعل الإنسان يعيش الاحساس بالله، في موقع المسؤولية، كأعمق ما يكون الاحساس، حتى لتحس به ماثلاً بكل عظمته ورحمته في قلبك وفكرك وضميرك.. وبالتالي في حياتك وحركة مصيرك.. وهي تدفع الإنسان إلى الانضباط أمام الاغراء حتى في الحالات التي يفقد فيها الموقف رقابة الآخرين الذين يخاف الإنسان سطوتهم، من قوى المجتمع أو قوى السلطة، ليشعر بقوة الله تنظر إليه بعين القدرة، ولتشير إليه، نحو نتائج المسؤولية بيد القوة وتعمق هذا الشعور حتى يتحول إلى احساس مرهف بالمسؤولية الروحية التي هي في أعلى مستوى من المسؤولية في حياة الناس.

وهي ـ في الوقت نفسه ـ تثير أمامك قصة الدنيا والآخرة، لتجعل من الدنيا دار عمل، بكل ما للعمل من معنى فردي وجماعي، يغني حياة الناس بالفكر والعمل، وبناء الكون على أسس سليمة بناءة وتجعل من الآخرة دار مواجهة لنتائج المسؤولية. كما يروى عن الإمام علي عليه السلام في قوله: اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، وبذلك يحفظ خطواته العملية في الدنيا من خلال عمق الاحساس بطبيعتها، من أن تزل أو تنحرف أو تموت وتنهار، بينما لو كانت الفكرة غير تلك الفكرة، لكان الموضوع مختلفاً ولكانت الدنيا بالنسبة إليه فرصة الجريمة والاساءة والفساد لأن أصحابها لا

يفكرون بغيرها، ولا ينتظرون ـ بعدها ـ شيئاً آخر ولو بعد حين.. وبهذا تكون فكرة الآخرة منطلقاً لفهم جديد للحياة يخرجها عن مفهوم اللذية المنفلتة إلى مفهوم العمل المسؤول ومن إطار الفوضى والعبث إلى اطار الحكمة والغاية..

وتتغير علاقته بالإنسان وبالأشياء لتتحدد بالمفهوم الذي يحقق رضا الله وينفذ إرادته ويوجد المضمون حينما ينفتح على كل ما حوله ليشعر بأن تصرفاته تجاه الإنسان والأشياء لا تخضع لنزواته بل تخضع للخطة التي وضعها الله للحياة في محاربة الظلم في نفسه وفي غيره، وفي مجابهة الفساد في كل شيء، وفي اخضاع الأوضاع التي يتحرك فيها إلى الاحساس العميق بالمسؤولية التي تربط العمل بقضية الثواب والعقاب في الآخرة، كما تربطه بالحالة النفسية التي يعيش فيها الإنسان قناعاته الذاتية التي تحكم علاقته بالأشياء التي من حوله.

٥ ـ إن الأساليب الوعظية تحدث في نفس الإنسان تغييراً كبيراً في نظرته إلى العمل من خلال قضية المصير، لأن طبيعة الموت الذي يعتبر بداية الحياة الآخرة التي يواجه فيها الإنسان نتائج المسؤولية، ليس محدداً في زمانه ومكانه وسببه فيمكن أن يحدث في أي لحظة، وفي أي موضع وبأي سبب، مما يجعل الإنسان في يقظة دائمة تجاه العمل فلا يستسلم للأمل الواسع الكبير، أو للتمنيات المستقبلية في تصحيح الانحراف، لأن الواقع الذي يشاهده في كل يوم يتحدى آماله بالحياة.. ثم الجو المرعب الذي يملأ نفس الإنسان في الحديث عن يوم القيامة عندما يقوم الناس لرب العالمين ويواجه فيه الإنسان مصيره في نطاق ما عمل، بعيداً عن كل الشفاعات والمجاملات وغيرها مما اعتاد الإنسان أن يجعله مساعداً في مصيره الدنيوي فيزداد احساساً بدقة الموقف وضرورة مواجهته بحساب دقيق لحيثيات كل عمل

وكل كلام، عندما «تأتي كل نفس تجادل عن نفسها»، لا سيما إن أساليب الوعظ الديني القرآني الذي يرتكز على اثارة موضوع الآخرة أمامه تحشد الكثير من الأجواء والأوضاع والحالات التي تدفع الإنسان إلى الشعور بجدية الموقف وبعظمته وخطورته، لينطلق تفكيره وإرادته من موقع ذلك الاحساس.. فقد نجد التركيز على أن جسد الإنسان يتحول إلى أشرطة تسجيل تدار في يوم القيامة بشكل لا يدع له مجالاً للكلام، وأن هنالك ملكين يسجلان عليه كل عمل في كتاب يقدم إليه ليقرأ فيه كل ما عمل ليواجهه بوضوح كامل وأن الله يعلم ما يخفى على هذين، وما لا يسجل الجسد.. إن هذه الصورة التي يشعر فيه الإنسان بأن المعلومات الدقيقة، والرقابة الدائمة تحاصره في كل أعماله، فلا تترك شاردة ولا واردة، ولا صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها عليه وقدمتها إليه في يوم القيامة.. إن هذه الصورة، حين يستمر تقديمها إليه بالأساليب الوعظية القرآنية وغير القرآنية قادرة على أن تثير في نفسه الاهتمام العميق المستمر بالمسؤولية التي تواجه في كل شيء.. ولا نعتقد أن أي أسلوب آخر قادر على الوصول إلى هذا المستوى الكبير من الانضباط.. لأنه يفقد العوامل الذاتية التي تقتحم عليه حياته لتفرض عليه هذا الموقف أو ذاك، وقد اعتبر «الوازع الديني» من أقوى العوامل المؤثرة في حياة الإنسان.. ولذلك نلاحظ امتداد الالتزام الديني بعيداً عن أية سلطة زمنية أو مادية ضاغطة بل قد ينطلق الانضباط في حركة مضادة للضغوط الشديدة التي تدفع الإنسان إلى الانحلال الديني فيثور الإنسان عليها من خلال دوافعه الدينية ويتحمل في ذلك كل عذاب واضطهاد حتى الاستشهاد.. وقد يتمثل الالتزام الديني الذي ينبع من الإيمان بالله واليوم الآخر، بالضرائب المالية الشرعية التي يدفعها الإنسان المسلم طواعية واختياراً من دون أية قوة تدفعه إلى قوة الإيمان التي لا يرجو فيها إلا ما عند الله من ثواب، ولا يخاف فيها ـ إلا ما يوعد عليه من عقاب، هذا في الوقت

الذي نرى فيها الدول ـ بمختلف أنظمتها ـ تحشد الحشود الكثيرة من الموظفين الذين يعهد إليهم بجمع الضرائب بمختلف أساليب الضغط والقوة، فلا يتوصلون إلى ذلك إلا بجهد جهيد في نطاق ضيق لا يتسع لكثير من الناس لأن المسؤولية لم تنبع من الداخل الذي يستمد مشاعره ودوافعه من ارتباط القضايا بمصيره الخاص، بل كانت تنبع من الخارج الذي يمثل القوة الضاغطة التي تستعمل القهر أساساً للتنفيذ.

وبكلمة واحدة: إن قيمة الأساليب الوعظية، تتحدد بقيمة تأثيراتها في حياة الإنسان من خلال انضباطه العملي أمام دعوة المسؤولية، مقارنة بالأساليب الأخرى التي تغفل هذا الجانب، وقد عرفنا كيف يحقق الوعظ المنطلق من الحكمة، أغراضه وأهدافه في كيان الإنسان وحياته بشكل أفضل.. مما يجعل الاتجاه نحو اغفاله اتجاهاً في غير مصلحة الإسلام وتشريعه.

٦ ـ إن التأكيد على هذا الأسلوب ينطلق ـ في نظرنا ـ من واقع الحقيقة الدينية التي تحاول أن تعمق في نفس الإنسان مسؤوليته العملية في الدنيا، وتربطه بالدار الآخرة من حيث تجسيدها لنتائج المسؤولية فلم تنطلق القضية من خطة عملية لربط العمل بالآخرة، من حيث سلامة العمل واستقامته، بل من خلال تكامل التصور الإسلامي للإيمان بالله وبالدار الآخرة، مما يجعلنا في حاجةٍ إلى تقوية هذا الإيمان واستعادته في كل فترة، ليبقى حياً في الأعماق.. وذلك بالنظر إلى أن ارتباطه بعالم الغيب يجعله بعيداً عن الاحساس، وبالتالي بعيداً عن حركة الإيمان في النفس.. وهذا مما يوجب التأكيد على تكرار ذكره، واثارة الاحساس به في أوضاع الإنسان اليومية، ليصبح شيئاً قريباً إلى الشعور الذاتي، مألوفاً للنفس والوجدان.. بنفس القوة التي كان مألوفاً فيها للعقل وللفكر ليستمر مع الشعور كما يستمر مع العقل..

وبذلك يتحول الأسلوب الوعظي، من موقع العمل، إلى موقع الإيمان، ومن حركة الأسلوب الذي يحفظ للعمل انضباطه وتوازنه، إلى حركة الواقع الذي يحفظ للإيمان قوته وحيويته، ليحلق بجناحين بدلاً من أن يتعثر في الانطلاق بجناح واحد..

وفي نهاية المطاف: إن علينا أن نحافظ للدّين الإسلامي على طابعه المميز كدين يحتضن الدنيا والآخرة.. لتبقى لدينا عناصره الروحية التي تبعث فيه القوة والحياة، فلا يتحول إلى مجرد قوانين دنيوية، لا أثر فيها للروح، ولا مجال فيها للارتباط بالمعاني الحية التي يثيرها الإيمان بالله وبالدار الآخرة في نفوس المؤمنين، وفي الحياة.

● ☐ ● ☐ ●

التوازن في أسلوب الدعوة بين الخوف والرجاء

في حديثنا السابق كنا نؤكد على قيمة الأساليب الوعظية في مجال العقيدة، وفي مجال العمل. . ولكن كيف نمارس هذا الأسلوب أو بالأحرى كيف نواجه الإنسان المنحرف العاصي بالموعظة عندما نريد اثارة الموقف في داخل نفسه في اتجاه الطاعة أو كيف نوجه الإنسان الذي يريد أن يخطو نحو الإيمان من جديد هل نلجأ إلى أسلوب الترغيب الذي يتمثل في الثقة برحمة الله التي وسعت غضبه والأمل في العفو عن الذنب الذي حدث أو الذي سيحدث في المستقبل. . أو نلجأ إلى أسلوب الترهيب الذي يتمثل في وعيد الله وتهديده للعاصين والمتمردين والفاسقين الذين تجاوزوا الحد في عصيانهم وطغيانهم.

في الأساليب القرآنية نواجه الأسلوبين معاً، فهناك النداءات الإلهية التي تدعو المذنبين إلى التوبة والاستغفار والدعاء، ليغفر لهم الله كل شيء. . فيما عدا الاشراك بالله، وليحقق لهم كل شيء في حدود مصلحتهم.

- ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهناك الآيات التي تتحدث عن رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء وأن الله سيكتبها للذين يسيرون في الطريق الحق.

- ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

- ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧].

- ﴿ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهناك ـ في مقابل ذلك ـ الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة وأهواله، وغضب الله وعذابه، في جو ترتعد فيه الفرائص، ويشيع منه الرعب في كيان الإنسان.

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ [الحج: ١ ـ ٣].

- ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].
- ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٧].

أما الجواب عن السؤال، فهو أننا نتبنى كلا الأسلوبين، كما جاء القرآن بذلك، ولكن بالطريقة القرآنية التي انطلقت ـ في كِلا المجالين ـ بشكل متوازن.. فقد تحدثت بأسلوب الترهيب والوعيد بالعذاب ازاء حالات التمرد مع الذي لا يتراجع ولا يتنازل عن موقفه، حتى يلاقي الله على هذه الحالة، وتتحدث بأسلوب الترغيب والوعد بالثواب والعفو والمغفرة ازاء حالات الانفتاح الروحي على الله، بعد انغلاق، أو البدايات التي تريد أن تخطو الخطوات الأولى في طريق الله ثم حاولت في الحالة الأولى، أن تفتح للإنسان بصيصاً من النور، يفتح له باب الأمل، كما حاولت في الثانية أن توقفه أمام بعض المواقع التي تثير إحساسه بالخطر ازاء حالة الانحراف الطارئة.. ليبقى الإنسان متوازناً بين الحالات التي تواجهه لئلا يسلمه الموقف إلى القنوط في حال اغلاق جميع النوافذ عليه ولئلا يدعوه الموقف إلى التساهل واللامبالاة بالمعصية في حال مواجهته بالأمل الكبير الواسع بغفران كل شيء وبهذا يتحقق التوزان في الموقف، الذي يتحرك في اتجاه اتقان العمل وتركيزه في حالة نفسية متوازنة بين الخوف والرجاء..

وقد تحدثت بعض كلمات أهل البيت عليهم السلام عن الحدود التي يقف عندها الرجاء والخوف، فقد ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قيل له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجوا فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت فقال: هؤلاء قوم يترجحون في الأماني كذبوا ليسوا براجين، إن من

رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيء هرب منه[١].

فقد نفهم من هذا الحديث، أنَّ الخوفَ والرجاء ليستا حالتين نفسيتين مجردتين، بل هما موقفان عمليان يتمثلان بالطلب لما يرجوه، وبالهرب مما يخاف منه.

وعلى ضوء ذلك، فإن علينا أن ندقق في الأسلوب الوعظي ليكون منسجماً مع الأسلوب القرآني الذي واجه الحالات النفسية من خلال نقاط الضعف والقوة، في اطار الظروف الموضوعية التي يعيشها الشخص في حياته العملية، لئلا يطلق الكلمة في أسلوب عشوائي يضع الخوف في موضع الرجاء، أو يضع الرجاء في موضع الخوف فيختل التوازن الروحي والعملي، فيكون الانحراف في الموقف أو التعقيد فيه، نتيجة لذلك. وقد جاء الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما رواه أسامة بن منقذ، قال عليه السلام:

ألا أدلكم على الفقيه كل الفقيه.

قيل: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: «من لم يؤيس الناس من رحمة الله ولم يقنط الناس من روح الله ولم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمن الناس من مكر الله ولم يزين للناس المعاصي ولا ينزل العارفين الموحدين الجنة، ولا ينزل العاصين الموحدين النار حتى يكون الرب عز وجل هو الذي يقضي بينهم ولا يأمن خير هذه الأمة من عذاب الله تعالى، والله عز وجل يقول:

ـ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

ولا ييأس شر هذه الأمة من روح الله تعالى، فالله سبحانه يقول:

---

(١) وسائل الشيعة (نقلاً عن الكافي) ج ٦ ص ١٦٩.

ـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

إننا نريد أن نثير الحديث في هذا الأسلوب، ولسنا نريد أن نقيض فيه وفي محتواه، لأن كل ما نهدف إليه، في هذا الكتاب، هو توجيه التفكير إلى الأساليب التي تلتقي مع ايجابيات الدعوة الإسلامية وتبتعد عن سلبياتها في كل المجالات.

● □ ● □ ●

(١) لباب الآداب: ٣٩٣. (نقلاً عن مصادر نهج البلاغة وأسانيده» ج ٤، ص ١٠٤.

فلسفة الثواب والعقاب في أسلوبنا العلمي

من بين القضايا التي تلفت نظرنا في دراستنا للواقع الحياتي الذي يعيشه الإنسان المسلم، وطريقة ممارسته للواجبات الشرعية، أو اجتنابه عن المحرمات ـ هي قضية الروحية التي تدفعه إلى العمل، أو تحفزه إلى الاجتناب، فهو لا يندفع إلى العمل بدافع ذاتي ينطلق من شعوره بحاجته، كإنسان، إلى أن ينطلق في اتجاه الخير المتمثل فيما عليه من واجبات، أو يبتعد عن اتجاه الشر المتمثل فيما لديه من محرمات، بل القضية عنده قضية ثواب ينتظره فيما إذا أطاع، أو عقاب يخافه فيما إذا عصى، فالعقاب والثواب هما اللذان يوجهان حركات الإنسان ويطبعان سلوكه، دون أن يكون لنوعية العمل وطبيعته، من زاوية ذاتية، أي أثر في هذا المجال ـ الأمر الذي يجمد التشريع في نطاقه العملي، ويجعل منه مجرد شيء ميت لا يوحي بشيء، ولا يحقق أي هدف ويحوله إلى عملية تجارية تخضع لحساب الربح والخسارة في كل دوافعها وأوضاعها. . وتتوالى النماذج الحية لترسم لنا بعض ملامح هذه الصورة.

فهناك من الناس، من يتصدق، لأنه يجد في الصدقة ثواباً، لا لما تحمله في داخلها من معان إنسانية وروحية تجعل الإنسان ينفعل بآلام الآخرين، ويتحمس لمشاكلهم، ولذا فقد تجد الصدقة تصل عند البعض، إلى الحد الذي لا يستفيد منه الفقير شيئاً لقلتها. . لأن مثل هذا كاف لتحصيل ثواب الصدقة لأنه يحقق عنوانها في الحياة.

وهناك من الناس، من يصلي، ويقضي ليله ونهاره بالصلاة، لأن هذه الصلاة تساوي مقداراً معيناً من الحسنات، وصلاة أخرى تساوي مقداراً آخر أكثر أو أقل، لا، لأن الصلاة تربطه بالله وتنقذه من الضعف الإنساني الذي ينحدر به إلى الهاوية، ولذا فإن أفعال الصلاة وأقوالها لا تمثل عنده إلا حروفاً ميتة يقرأها كما يقرأ أي شيء استظهاراً وحكاية أو أفعالاً جامدة يؤديها بطريقة آلية من دون احساس أو شعور.

وربما نجد بعض الاجتهادات الفقهية التي توحي بهذا المفهوم في بعض أفعال الصلاة، فنرى بعض الفقهاء يفتي بالمنع من استخدام ألفاظ الدعاء الواردة في سورة الفاتحة مثل:

- ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أو ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾.

في دعاء ذاتي ينفعل به الإنسان كما ينفعل بأي دعاء ينبع من أعماقه، لأن المطلوب في القراءة، فيما يرى هو التلاوة التي تعني أن يتلفظ الإنسان بهذه الكلمات، كما يقرأ رسالة إنسان لإنسان آخر، ليسمعها لذلك الإنسان أو لغيره.

ولسنا في معرض مناقشة هذا الرأي، ولكننا نحاول أن نشير إلى بعض قواعد هذا الاتجاه في حياة الإنسان المسلم وانطلاقه من أسلوب معين في فهم الآثار الدينية، لا من خطأ شخصي عابر لا يرتكز على أساس.

وعلى ضوء هذا الاتجاه الذي ألمحنا إليه، يتحول الاهتمام إلى الكم لا إلى الكيف، فليس من المهم لدى أصحابه، نوعية المعانيالداخلية الروحية التي يحصل عليها من الصلاة، بل المهم لديه كمية الركعات التي يؤديها في ليله أو في نهاره.

وهناك من الناس من يفهم الدعاء عند ممارسته له، كما يفهم الصلاة فليس الدعاء عنده تعبيراً عن احساس الإنسان بخالقه، وحاجته إلى الاعتراف أو الشكوى أو المناجاة الذاتية التي تفصح عن علاقة الإنسان بالله، ومن هنا تنوعت أشكاله وألوانه ومضامينه وأساليبه، فيما لدينا من أدعية الأنبياء والأوصياء، كعلاج نفسي أو روحي أو تربوي.. ولكنه يتحول إلى مجرد صفحات تتلاحق أمام ناظر القارىء، أو كلمات تتوارد في خاطره دون أن يفهم لها أي معنى ولذا فقد يلفت نظرك بعض الكلمات المبهمة الغامضة التي لا تعرف معناها، بل تتلوها انطلاقاً من الأسلوب العام الذي يجعلك تدعو، لتثاب وتؤجر، فإذا كان الثواب معلقاً على القراءة، فلتكن القراءة كيفما تكون، ما دام الثواب حاصلاً كيفما كان.. وهكذا تحول الدعاء إلى (روتين) يومي لا يمثل أي شيء في حياة الإنسان الداخلية ككل عمل روتيني جامد لا معنى له..

وهناك من الناس من يمتنع عن الغيبة ـ في جانب المحرمات ـ خوفاً من العقاب المترتب عليها، لا من خلال اقتناعه بضررها، فتراه يبادر إلى أن يتلمس الرخص الموجودة فيها ـ فيما يستثنى منها، بلهفة وشوق، ولن نعدم البعض الذي يصرح للناس بأن الله لو خيره فيما يختاره من المحرمات لاختار الغيبة، لانطلاق النفس معها، في لذلة ولهفة، الأمر الذي يدلنا على أن هذا التشريع لم يستطع النفاذ إلى أعماق الإنسان ليهذب له دوافعه ومقاصده وأحاسيسه بحرمة الآخرين بل كل ما استطاعه هو أن يلجم له لسانه.

ونحسب أن مثل هذا وغيره قد انطلق من سوء فهم دور الثواب والعقاب في التشريعات الإسلامية واعتبارهما غاية للعمل، لا وسيلة لانفتاح الإنسان على ما في العمل من خير أو شر، أو منفعة أو مضرة، وعلى ما يترتب عليه من مصالح ومفاسد.

ولتوضيح الفكرة التي نحن بصددها لا بد لنا من التعرف على دور التشريع في حياة الناس لنتعرف من خلال ذلك على خطر هذا الانحراف في فهم الثواب والعقاب ودورهما في الجانب العملي من حياة الناس.

إننا نرى للتشريع دورين في حياة الإنسان:

الأول: في المجال الاجتماعي: وهو حماية المجتمع من انحرافات الأفراد وذاتياتهم، الأمر الذي يتمثل في منع ممارسة الانحراف بأية وسيلة كانت، وعلى أي نحو وجد، سواء اندفع الفرد نحوه بشكل ذاتي، أو بشكل قهري، لأن القضية ليست إلا قضية ايجاد الأجواء النظيفة للمجتمع، التي يستطيع الكيان كله أن يتنفس فيه ويعيش حياته في هواء نقي خال من أدران الشوائب التي تدنس طهر الضمير في الإنسان.

ومن الطبيعي ـ كما قلنا ـ أن نقرر في هذا المجال: أن حاجتنا إلى تمثل التشريع في انضباط الإنسان في الإتجاه التنفيذي للقانون والمحافظة على أن لا توجد المعصية حية أمام الناس لئلا ينهار الإنسان أمام عوامل الاغراء ودوافعه تماماً، كما تعمل السلطة على منع انتشار الميكروبات والجراثيم حفظاً للصحة العامة، وحماية للأمة من نتائجها السيئة وعواقبها الوخيمة.

ولا مانع ـ في هذا الاطار ـ من انطلاق الثواب والعقاب، كحافزين يمنعان الإنسان من المعصية ويدفعانه إلى الطاعة، ويحفظان له التوزن العملي في حياته العامة والخاصة، لأن القضية ـ هنا ـ تتصل بالشكل لا بالمضمون، وبالخارج لا بالداخل.

الثاني: في المجال الفردي:

هو بناء الشخصية الإسلامية في داخل ذات الإنسان ليعيش المعاني

الحية التي يريد الإسلام اثارتها في وجدان الفرد وتفكيره من أجل تركيز الخط الإسلامي للحياة، وتوجيه المسيرة الإنسانية في اتجاه الخير النابع من أعماق الإنسان وضميره.

ومن الطبيعي، أن مثل هذا الدور يحتاج إلى طريقة معينة في التربية وفي السلوك، تنفد إلى أعماق الإنسان، فتنبعث الحياة في الكلمات التي يقرأها الإنسان في صلاته ودعائِهِ لتؤدي دور التعبير الصادق عن خلجات الإنسان ومشاعره ولتتحول سبحات الروح إلى معان تتراكض في دماء الإنسان وأعصابه فتهز له وجدانه ومشاعره في عملية اثارة روحية رائعة.

وكما هو الحال في كلمات، تنطلق القصة في الأفعال والحركات، فلا بد من أن تملك حركات الإنسان صدق التعبير عن المعنى لئلا تكون مجرد حركات لا شعورية يؤديها الإنسان ببلاهة الآلة وسذاجتها وجمودها.

إن بناء الشخصية الإسلامية ـ بواسطة التشريع ـ يحتاج إلى الإيحاء الدائم المتواصل بمعاني الخير، في الكلمة والحركة، والإيماءة والإشارة، تماماً كقطرات الندى التي تتساقط تباعاً على الأرض، قطرة قطرة، فتبث فيها الطراوة، وتهيئها لموسم خصب جديد من دون ضجة ولا ضوضاء، بل بهدوء الصباح الوادع في بساطته وسماحته ووداعته.

إن روعة هذا الأسلوب، هو، أنه يخرج الإنسان من دور الممثل إلى دور البطل، من أجل أن لا تكون الكلمة مجرد صوت، والعمل محض حركة، بل لتتحول الكلمة إلى معنى والعمل إلى حياة، أو مدخل للحياة.

وعلى ضوء هذا تفهم الحقيقة التالية: وهي أن اثارة العقاب والثواب لم تستهدف اعتبارهما غاية ساذجة للعمل، بل استهدفت افساح المجال للإنسان نحو توجيه خطاه نحو العمل ليتعود عليه في عملية ممارسة يومية ليكون الخير

بالتكرار عادة عفوية يصدر عنها الإنسان طواعية واختياراً دون تكلف، وليطلع ـ تدريجياً ـ على ايحاءات الخير في العمل، ومنابع الأريحية فيه، فينسجم معه انسجام الأرض مع البذرة عندما تنفذ إليها رويداً بهدوء، والبذرة مع الينابيع الخيرة في الأرض عندما تبدأ الحياة في اثارة داخلها بالري والايناع.

لقد أدركت الشرايع ـ ومنها الشريعة الإسلامية ـ طبيعة التمرد التي تطبع النفس الإنسانية عندما تدعى إلى خير أو تدفع عن شر، فحاولت أن تثير طبيعة الرغبة والرهبة في داخلها، لتخفف من غلوائها، وتطامن من حدتها، وتحطم التمرد في أعماقها.. فكان الثواب والعقاب بمثابة الاشارة الحية التي تدل الإنسان على الطريق، لتفتح عينيه على ما فيه من جمالات، حتى إذا وضع الإنسان قدمه في بداياته، وانطلقت أول الخطى في اتجاهه، وانفتحت العيون على ما فيه من خير وجمال.. تلاحقت الخطى ـ بعد ذلك ـ يزحم بعضها البعض من دون التفات إلى أي شيء آخر غير حب الجمال، والانطلاق في مجالاته.

إن التشريع يحاول أن يجعل الخير طبيعة في الإنسان، بواسطة العمل، ولن يستطيع العمل أن يصل بالإنسان إلى هذا الهدف، إلا إذا عاش في داخل الإنسان، بما هو فكرة ومعنى وحياة، لا بما هو حركة ولهو وعبث، ولهذا فإننا نرى من الخير للعاملين أن يعطوا الثواب والعقاب دورهما الأساسي في الاثارة، ووضع الأقدام في الطريق.. ثم تبدأ المحاولة ـ بعد ذلك ـ في اثارة المشاعر نحو ما في الطريق من خير وجمال لئلا يسير الإنسان في الطريق، كالأعمى الذي لا يملك دربه ولا يهتدي طريقه لتتحول ممارسة الإنسان للعمل إلى حب، ويتحول الحب إلى قيمة تفرض وجودها في الأعماق وتكشف طبيعتها في النتائج.

إن القضية هي قضية أسلوب الداعية في فهم التشريع، وفهم العمل،

وفهم الناس والحياة.. ومن واجبنا أن نبدل هذا الأسلوب الذي يعتبر القضية قضية تجارية تضمن الربح وتحمي من الخسارة، لنخرج الإنسان من جموده، ونثير فيه حركة الحياة المتطلعة أبداً نحو النور، النابضة دائماً بالحب والخير والجمال، ليكون الإنسان، إنسان الحياة الواعي المنفتح ورائدها المخلص الأمين.

وبكلمة واحدة: إن الوعد بالثواب يمثل ـ في نظرنا ـ الحافز الذي يحفزنا إلى العمل، إذا افتقدت نفوسنا الحافز الذاتي، من أجل أن نضع أقدامنا على أول الطريق حتى نبصر الهدف بوضوح، فتلتصق أفكارنا به،.. ولكنه تحول إلى مجرد شيء جامد يبعث العمل في اطار رتيب، لا يلامس الروح، ولا يستثير الاحساس.. ونحن هنا من أجل الدعوة إلى ضرورة وضع الخطة العملية في أسلوب الداعية، لتغيير ذلك.

●□●□●

نحو أسلوب تربوي
جديد في علاقتنا بالله

ومن جديد نقف مع أسلوب الدعوة في اثارة قضية الثواب والعقاب فإذا كنا ـ فيما نقدم من حديث ـ نحاول التعرف على الآثار والنتائج السيئة التي تخلفها اساءة فهم الدور الطبيعي لهما في التشريع الإسلامي، فلا بد لنا من الوقوف أمام ظاهرة محسوبة في موقف الإنسان المؤمن من الله.. فقد نلاحظ أن الانطباع الذاتي الذي يسود نفسه هو انطباع الخائف الراغب الذي تتمثل صلته بربه في خوفه من عقابه وفي شوقه إلى ثوابه.. أما العلاقة الروحية التي يوثق الحب روابطها، ويشد الإيمان أواصرها، ويقوى عرفان الجميل والاحساس بالنعم نوازعها.. أما هذه العلاقة، فقد لا نجدها إلا لدى القليل القليل من أولئك النفر الذين عاشت المعرفة في دمائِهم وانطلقت نفوسهم مع الروح الإلهية الخالدة التي لا تقف عند حد ذاتها وكمالها الذاتي.

وقد لا نعدم البعض الذي يقول: إن من الممتنع على الإنسان أن يعبد ربه لذاته، أو لأنه أهل للعبادة، ويرى هذا البعض أن مثل هذه العبادة تقتصر على الأنبياء والأوصياء ممن ارتفعت نفوسهم عن الاحساس بالثواب والعقاب إلى المستوى الذي يؤهلها لترتفع إلى حيث القداسة المطلقة في عظمتها وبهائها وجلالها وقد يعتبر من مآثر الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وخصائصه قوله في الدعاء المنسوب إليه:

«إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك. . ».

ولكن هذا الكلام لا يدل على الاختصاص لو صحت نسبته إلى الإمام ـ بل يدل على مدى معرفة الإمام علي بالله، كما عبر عنها في بعض كلماته المأثورة عنه:

«لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً. . ».

وقد نجد في بعض كلماته ما يتضمن الإشارة إلى امكان ممارسة الإنسان المؤمن لمثل هذه العبادة، واثارة الهمم نحو السعي إلى ذلك:

«إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التّجار وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شُكْراً فتلك عبادة الأحرار. . ».

ولعل في اضفاء صفة العبيد والتجار للقسمين الأولين، توجيهاً للمؤمنين بالابتعاد عن هاتين الصفتين إلى الصفة الثالثة، لأن صفة الحرية من الصفات التي يتطلع إليها كل إنسان يحترم نفسه وحياته.

ثم. . ما الذي يمنع الإنسان أن يحب الله، ويعبده لذاته، لا بدافع الرغبة والرهبة، ما دام الإنسان يملك أن يحب أخاه الإنسان، لا لشيء سوى الدوافع الذاتية للحب، وقد لا نعدم فيما نقرأ من تاريخ وفيما نعايش من أحداث، الأفراد الذين يمارسون التضحية في سبيل من يحبون، مهما كانت نوعيتهم، ومهما بلغت مرتبتهم دون أقل أمل في الثواب، أو خوف من العقاب، بل ربما تكون القضية عكسية في أكثر الأحيان، إذا كان الثواب أو العقاب في الجانب الآخر.

وربما نجد في بعض اللمحات في العبادة، ما يومي إلى هذا الاتجاه في كيفية ممارسة العبادة فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالله، ففي تشريع النية في

الصلاة وفي غيرها من العبادات نجد أن النية المفروضة هناك هي: نية «القربة إلى الله» ولعل الإيحاء الذي تعطيه هذه النية، هو انطلاق الإنسان في عمله من زاوية الحب لله التي تتمثل في إرادة القرب منه والحصول على رضاه، الأمر الذي يحقق صفة التجرد في علاقة الإنسان بربه. وقد نلاحظ في بعض كلمات الإمام علي عليه السلام، التأكيد على هذا الاتجاه في التوجيه فنراه يقول ـ في كلماته القصار ـ في نهج البلاغة:

«لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب أن لا يعصى شكراً لنعمه».

ويقول في كلمة أخرى ـ:

«أقل ما يجب لله على العباد أن لا يستعينوا بنعمه على معاصيه..» فقد يتضح لنا من هاتين الكلمتين: أن الإمام علياً في سبيل اثارة النفوس نحو نعم الله العظيمة، والإيحاء بأن على الإنسان أن يعيش علاقته بربه، في اتجاه الاحساس بالجميل وشكر النعم لا باتجاه التهديد والوعيد فحسب.

وفي القرآن الكريم بعض الآيات التي تشير إلى علاقة الحب التي يريد الإسلام اثارتها في نفس الإنسان المؤمن، كأمر واقع يعيش في الحياة العملية كما في قوله تعالى:

ـ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥.

ففي هذه الآية مقارنة بين مشاعر المؤمن، وبين مشاعر غير المؤمن، على أساس المحبة لله، أو المحبة لغيره من الشركاء كايحاء بأن ذلك هو الخط الشعوري للإيمان في حياة الإنسان المؤمن، وأن على المؤمن أن يسير عليه في علاقته الروحية بالله، لئلا يكون اخلاص غير المؤمن لأوليائه أشد

من اخلاص المؤمن لربه، مع الفرق الكبير بين علاقته بالله وعلاقة غيره بغير الله، فإن علاقته بالله تنطلق من طبيعة وجوده بكل ما يشتمل عليه من حقائق ونعم وألطاف، مما يجعل الدوافع المحبة أساساً ثابتاً يرتبط بحقيقة الوجود، بينما لا ترتبط المحبة لغير الله إلا بالأوهام.

وقد ورد ذلك في آية أخرى حاولت أن تدعو المؤمنين إلى الارتباط برسالة الإسلام وبرسوله كشاهد على محبة المؤمنين لله التي يدعونها لأنفسهم وأكدت أن ذلك هو الطريق لمحبة الله لهم.. وذلك هو قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وعلى أساس هذا الخط تخضع المحبة المطلوبة للحالة النفسية التي ترتبط بالعمل، أو بالأحرى تتجسد بالعمل لتكون العلاقة بالله تجسيداً لطاعته فلا تصبح مجرد انفعالات وجدانية تتمثل في أوضاع استعراضية كما يفعله بعض دعاة الصوفية، الذين يعبرون عن حبهم لله بحركات معينة، قد تكون أقرب إلى الحالات المرضية منها إلى الحالة العبادية الخاصة وفي الجانب الآخر نجد الآيات الكريمة الكثيرة التي تجعل محبة الله للمؤمنين من حيث الجوانب العملية والخلقية فنقرأ:

- ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

- ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

- ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

- ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣].
- ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].
- ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔاۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢].

ونجد في مقابل هذه الآيات آيات أخرى تمنع هذا الحب عن الذين ينحرفون عن الخط المستقيم ويتمردون على الله، ويتحدون إرادته فنقرأ الآيات التالية:

- ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].
- ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٧].
- ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٩].
- ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[القصص: ٧٧].

- ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

وهكذا نفهم من هذه الآيات كلها، أن الله يريد أن يوحي للناس بأن

عليهم أن ينشدوا الارتباط به في اطار المحبة التي تعمر قلوبهم بالإيمان به والاخلاص له، وتملأ ألسنتهم بذكره، وتوجه حياتهم إلى رضوانه وغفرانه، ويحلموا في وجدانهم ـ بمحبة الله لهم، من خلال ما يقدمونه له من طاعة، وما يفيضه عليهم من رحمة. . لتتحول المحبة إلى منطلق للعمل وينبوع للرحمة، وعنوان للحياة التي تربط قيم الأرض بقيم السماء.

وفي الدعاء: نجد الحب الإلهي الذي يعبر عن نفسه، في لهفة نابضة بالنور والحياة، وذلك في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

«إلهي لو قرنتني بالأصفاد ومنعتني حبك من بين الأشهاد ودللت على فضائحي عيون العباد وأمرت بي إلى النار وحلت بيني وبين الأبرار ما قطعت رجائي منك ولا صرفت وجه تأميلي للعفو عنك، ولا خرج حبك عن قلبي أنا لا أنسى أياديك عندي وسترك علي في دار الدنيا» أنه الحب الذي يظل متقداً مشتعلاً في قلب المؤمن دون أن يخفف منه عقاب المحبوب.

وقد نجد الكثير من ذلك الذي يوجه الإنسان إلى أن تكون علاقته بربه علاقة حب لا علاقة رغبة أو رهبة فحسب ولكننا لسنا بصدد تعداد هذه الآثار الدينية التي انطلقت في هذا الاتجاه، فلعل في بعض ما أوردنا كفاية في الموضوع.

إن كل ما نحاوله ـ في هذا الحديث ـ هو توجيه الدعوة في هذا الاطار، والتخطيط لأسلوب عملي يستهدف الاتجاه بالوعظ في هذا المجال، لأن مثل هذا الحب إذا انطلق في قلب الإنسان المؤمن وضميره لاستطاع أن يحميه من الانحراف، ويمنعه من الزلل، ويجعله أكثر اندفاعاً في سبيل العمل وأشد اخلاصاً لربه، الأمر الذي يجعل العمل للإسلام أكثر سلامة وأبعد عن الانحراف ذات اليمين وذات الشمال.

إن الإنسان الذي يعيش حب الله في قلبه، هو إنسان لا يفهم للخوف معنى، ولا يجد للتخاذل في طريق الجهاد سبيلا.

ولهذا فنحن ملزمون بايجاد مثل هذا الإنسان في طريق الإسلام الطويل..

أما الحديث عن التربية الماضية المنحرفة التي تريد أن تفرض الأسلوب المنحرف في علاقة الإنسان بالله، فإن باستطاعة التربية الجادة الواعية أن تصحح الانحراف وتربط الإنسان بربه في علاقة حب وإيمان.

● □ ● □ ●

هل للإسلام ألفاظ خاصة في أسلوب التعبير

هناك جدل لا يزال يدور بين الجماعات التي تؤمن بالأديان، أو بالمبادىء التي تنطلق من منطلقات تاريخية، حول الألفاظ التي يملكها هذا الدين أو ذاك، أو يستعملها هذا المبدأ أو ذاك، مما يدخل في دائرة الألفاظ المصطلحة التي تعبر عن مبدأ، أو خط، أو حقيقة اجتماعية.. هل يجب علينا استعمال هذه الألفاظ في أحاديثنا الآن، أو في أساليب الحوار التي تدور بيننا وبين الآخرين أولاً يجب علينا ذلك، لأن العبرة بالمضمون لا بالشكل، وبالمعنى لا باللفظ... وبتعبير أقرب إلى طبيعة الفكرة التي يثور حولها الجدل: هل من الضروري لكل مبدأ من المبادىء أو دين من الأديان، أن يكون له ألفاظ مصطلحة، أو «رسمية» يستعملها أتباعه، بحيث يمكن السامع الذي يستمع إلى أي مجموعة من هذه المجموعات التي تنظم نفسها في حزب أو منظمة أو تجمع ديني، أن يحكم على طبيعتها، من خلال ألفاظها، وإن لم يستكمل معرفة الفكرة التي يثيرونها أمامه... أو ليس من الضروري ذلك، لأنَّهُ لا يرتبط بالجوانب الحيوية للعمل.

ذلك هو موضوع الجدل الذي يدور ويثور بين مختلف الجماعات، الدينية وغير الدينية.. فما هو موقفنا من ذلك، كدعاة مسلمين، نعمل على أن تكون الدعوة إلى الإسلام هي السبيل إلى تحقيق الحياة الحرة الكريمة

للإنسان، على أساس مبادىء الإسلام ومفاهيمه وتشريعاته.

هل نقف عند الكلمات التي كانت تصدر من النبي محمد ﷺ لتعبر عن بعض المفاهيم والأوضاع أو التي جاء بها القرآن ليحدد فكرة، أو ليشرع حكماً.. أو أننا لا نقف عندها، بل نتجاوزها إلى ما نستحدثه من تعبيرات مألوفة إلى فكر الإنسان المعاصر، مع الاحتفاظ بمضمون الكلمات الأولى، في المفهوم والوقائع والتشريع.. أو تتحفظ في بعضها، ونتبنى بعضها، تبعاً للحيثيات الواقعية التي تفرضها مصلحة العمل وحداثته.

إن الجواب عن ذلك.. لن يدخل في نطاق البحث عن الحكم الشرعي من حيث الوجوب والتحريم، إذ ليس لدينا هنا، ما يقتضي الوجوب والتحريم شرعاً، بل يدخل في نطاق الحديث عن مصلحة العمل الإسلامي.... إننا نحسب أن السبب في التأكيد على الكلمات الخاصة: هو الحفاظ على شخصية الدين، أو المبدأ، لأننا نشعر بالحاجة إلى أن تكون لكل دعوة مستقلة في حركتها في الحياة وفي سلوك أتباعها لتحافظ على وجودها من الذوبان والضياع وتحمي حركتها من الاهتزاز والانهيار.. ولا يُنكرُ أن للكلمات، ولبعض الرموز، والأشكال أثرها في تحديد ذلك في الداخل وفي الخارج.. وبذلك كانت المبادىء المعاصرة تحافظ على أن يكون لها رصيد من الكلمات التي تشير إلى فلسفتها وأهدافها.. كما نلاحظه في المذهب الماركسي الذي يحمل أتباعه دائماً على استعمال كلمة التناقضات «في كل مجال حركي، للتأكيد على الاتجاه المادي الديالكتيكي في الممارسة العملية، باعتباره يقوم على اعتبار التناقضات الداخلية في كل ظاهرة، أساساً للحركة التطورية في المجتمع.. وهكذا تتحول الكلمات إلى ايحاء دائم متحرك، بفلسفة الفكرة وأهدافها.. وعلى ضوء ذلك يتحدد

الجواب.. فإننا نريد أن نتبنى الكلمات التي يكون لها مدلول يوحي بطبيعة المعنى وامتداده وذلك كما في كلمة «الجاهلية» التي تحولت من كلمة لغوية تفيد معنى «الجهل» الذي هو ضد العلم إلى كلمة إسلامية، تعطي المنهج الكامل للحياة الذي لا يتجمد في فترة زمنية معينة، بل يمتد إلى كل المراحل الزمنية التي يحتويها تاريخ البشرية في ظل الطريقة الكافرة البعيدة عن الإسلام ثقافة وسلوكاً وحكماً ومنهج حياة، لأنها تمثل ـ في مدلولها ـ الذهنية التي يجهل معها الإنسان طريق الصواب، وإن خيل إليه أنه يعرف جيداً، كالكثيرين من الناس الذين يحسبون أنهم يعلمون وجه الحق في الوقت الذي لا يلتفتون إلى أنهم يخوضون في الباطل، في ظل الوهم الكبير الذي يخيل إليهم أنه العلم.. وبذلك يمكن للجاهلية ـ في مفهومها الإسلامي ـ أن تلتقي بالتقدم العلمي في مجالات الطبيعة، إذا كان هذا التقدم لا يخضع للمنهج الإسلامي في الحكم والسلوك والتشريع والحياة.

وهناك كلمة «الجهاد» التي أصبحت تحمل من المعاني الإسلامية التشريعية ما لا تحمله أية كلمة أخرى تلتقي بها في المعنى، مثل كلمة «الكفاح والنضال» وغيرها مما تعودوا أن يستعملوه في حالات الحرب، والصراع السياسي والعسكري.. فإننا نؤكد على ضرورة ابقاء هذه الكلمة التي تحولت إلى كلمة إسلامية موحية، والامتناع عن استعمال مرادافتها الأخرى في هذا المجال، للحفاظ على الايحاء المستمر بالمعاني الإسلامية في حركة التشريع وفي حركة التاريخ الإسلامي، وفي الممارسات العملية الطويلة لأساليب المسلمين في اطار العلاقات العامة مع الآخرين في الحرب والسلم.

ولكننا لا نوافق على استعمال كلمة «العصابة» التي أطلقها النبي محمد ﷺ على المجموعة القليلة من المسلمين في معركة بدر في

قوله ﷺ: «اللهم أن تهلك هذه العصابة لا تعبد، وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد»، لأن هذه الكلمة تحولت إلى مدلول جديد يمثل المجموعة القليلة من الناس الذين يمارسون العدوان على الناس بمختلف أشكاله وأوضاعه وأصبحت من كلمات السباب، بدلاً من أن تكون من الكلمات التي تدل على التجمع المترابط الذي يشبه احاطة العصابة بالرأس وخلاصة الفكرة: إننا نؤمن بأن قيمة الكلمة تتمثل في عطائِها الفكري وفي تجسيدها للمعنى الذي يراد التعبير عنه بها، ولا تحمل أية قيمة ذاتية، ونؤمن ـ إلى جانب ذلك ـ بأن الكلمات تموت كما يموت الأشخاص وقد تصاب بالتشويه كما يصاب بالتشويه كثير من الناس، وقد تحيا بعض الكلمات، فتبعث من بعد موت. . ونؤمن بأن احتضان الدين لأية كلمة في نصوصه الدينية أو في تصريحات قادته، لا يعني قداسة الكلمة، أو اعتبارها جزءاً من شخصية الدين، فقد يكون التعبير بها منطلقاً من حيويتها في ذلك الوقت، وعلى ضوء ذلك. . فإن الموقف هو أن نلاحق تلك الكلمات في نموها وتطورها، وحياتها وموتها، وشبابها وهرمها، لنتبنى منها الكلمات التي تحمل الحياة في حروفها، وتجسد الفكر، والتاريخ في مدلولها ونرفض الكلمات التي فقدت مدلولها الأصيل، وتحولت إلى مدلول مضاد، أو التي ماتت فيها الحياة. فأصبحت ميتة لا توحي بأي شيء. . إلا كما توحي رؤية الميت بالذكريات الضائعة معه. . وبهذا تظل الدعوة تعيش التجدد والنمو والحياة في كلماتها وأساليبها، كما عاشت الحياة الخالدة في فكرها وتشريعها ومفاهيمها.

●□●□●

الأسلوب الخاطىء
في نقد الحضارة الحديثة

قد يكون من مظاهر الخطأ في أساليب التوجيه الإسلامي، هو طبيعة الحديث عن الحضارة الحديثة وعيوبها ومشاكلها ونتائجها السيئة في حياة الناس.

فقد ظهر لدينا في السنين المتأخرة، اتجاه جديد في إبعاد الناس عن حضارة هذا القرن، وما ترتكز عليه من مظاهر الحرية الفردية التي فتحت الطريق للإنسان أمام الانحلال وهيأت له الأجواء الملائمة لاستثارة غرائزه وشهواته الجنسية إلى أبعد مستوى، مما جعل الأخلاق العامة عرضة للفساد والانهيار لفقدان الرادع الذاتي والاجتماعي الذي يمنع الإنسان من الاستجابة لنداء الشيطان ودُعائِهِ.

وقد تمثل هذا الابعاد الموجه عن هذه الحضارة بعدّة أساليب، كان من أبرزها التركيز على أسلوب الاحصائيات العالمية في عدد جرائم الجنس، وحوادث الادمان، وطبيعة العلاقات التي تربط الجنسين، الرجل والمرأة، ومدى الحرية التي أصبحت تطبع تلك العلاقات، سواء في الأوساط الجامعية، أو في غيرها من أوساط الشباب التي وصلت الحرية الجنسية فيها، إلى الحد الذي يجعل منها قضية شخصية لا تهم غير أصحاب العلاقة، إذا لم

تحدث أثراً عكسياً في المجال الاجتماعي العام..

وهكذا أصبحت ترى الصحف والمجلات الإسلامية، مملوءة بمثل هذه الاحصائيات التي تنطق بفظاعة النتائج المترتبة على مواكبة هذه الحضارة والاعتماد عليها باعتبار هذه النتائج شاهداً حياً على الانهيار والانحلال.

ونحن لا نناقش هذا الأسلوب كواحد من الأساليب التي يراد منها التركيز على خطر هذه الحضارة على المفاهيم الخلقية الإسلامية العامة، ولكننا نناقش اعتبارها مبدأ عاماً وخطة أساسية لنقد هذه الحضارة.. وذلك لأن مثل هذا الأسلوب قد يجدي في نطاق المجتمعات التي لا زالت مؤمنة بالقيم والمثل الأخلاقية التي تبدو ـ على أساسها ـ مثل هذه النتائج أمراً فظيعاً يبعث على القرف والاشمئزاز ويدفع إلى الاحتجاج والاستنكار، ككثير من المجتمعات الإسلامية التي لم تستطع المفاهيم الحديثة للحياة والأخلاق أن تتغلب على مفاهيمها الروحية أو تمحو من حياتها آثار تلك المفاهيم، أو تفقدها الميزان الصحيح الذي يحتفظ للمفهوم بمصداقه، وللكليات بجزئياتها، دون خلل أو ارتباك. قد يجدي هذا الأسلوب في تركيز الحاجز النفسي الذي يحجز المسلم عن الاندفاع اللاواعي مع مظاهر هذه الحضارة ونتائجها بما يثيره في أعماق هذا الإنسان من الشعور بالخطر الداهم على ما يؤمن به من القيم والمفاهيم، وبالتالي، على العقيدة التي انطلقت منها هذه القيم والمفاهيم الروحية نفسها ـ مما يجعل الثورة على هذا الواقع أمراً مستمراً تبعاً لاستمرار عوامل الاثارة ودوافعها ولكن.. هل يجدي ذلك في المجتمعات المنطلقة مع المفاهيم الحديثة للحياة وللأخلاق والإنسان، وهل يمكن له أن يثير في نفوس أهلها مما يثيره في نفوس المجتمعات المحافظة.

هذا هو السؤال الذي نحسب أنه لن يحصل على نتيجة ايجابية حاسمة في مجال العمل الجدي المثمر، فإن من الممكن أن يكون هذا الاتجاه سائراً

على أساس خاطىء في أسلوب نقد الحضارة لأن هذه المظاهر التي تدور الاحصائيات في نطاقها، لم تكن نتيجة مغامرات شخصية، أو انحرافات ذاتية مجنونة، بل كانت نتيجة فلسفة معينة تحاول أن تفلسف الانحراف على أنه ثورة، وتفسر التمرد على القيم والمفاهيم الروحية بأنه حركة في حياة المجتمع، وتعتبر الإنسان وحده مصدر القيم دون اعتبار لأي شيء يتجاوزه أو يخرج عنه.

وقد اتخذت الأخلاق، في ضوء هذا، معنى جديداً يتسع لكل ما تتسع له الحرية الفردية في نطاق النظام الاجتماعي العام في العالم فليست هناك مفاهيم مفروضة، أو قيم مسلمة لننطلق منها في الحكم على الواقع ببديهيات الوجدان ومسلمات النظرة بل كل ما عندنا ـ في هذا المجال ـ هو المفاهيم الحديثة المنطلقة من فلسفة التمرد مهما كانت النتائج، أو المفاهيم الروحية القلقة التي أصبحت غائمة حتى في أفكار بعض القائمين عليها الذين يعيشون الارتباك والقلق والحيرة بين النظرية والتطبيق.

وإذا كان الواقع هو هذا الواقع، فكيف يمكن لأسلوبنا أن يغير النظرة إلى الأشياء في حالة اختلاف المقياس بين الكاتب والقارىء فما يعتبره الكاتب ضد سلامة الأخلاق واستقامتها، يعتبره القارىء أمراً طبيعياً ينسجم مع اخلاص الإنسان لنوازعه وصدقه مع نفسه ومع إرادة الحياة في وجدانه.

فهل يمكن للإنسان الذي يعتبر العلاقات الجنسية أمراً شخصياً شديد الخصوصية، لا يهم إلا صاحبه، أن يثور أمام احصائية تقول: إنّ عدد العلاقات الجنسية التي تسود الشباب والفتيات قبل الزواج في أوروبا وغيرها ترتفع إلى نسبة ٩٠٪ أو أكثر من ذلك أو أقل. وهل يمكن أن يستنكر الاحصائية التي تقول بفقدان الفتاة لعذريتها قبل الزواج بنسبة ٩٩٪ ما دام يعتبر العذرية والمحافظة عليها أمراً سخيفاً يرجع إلى عقلية القرون الوسطى.

وهل يمكن أن يستفظع الجرائم وأمثالها من الأمور التي أصبحت تحتاج ـ في نظره ـ إلى دراسات اجتماعية ونفسية واسعة لتدرس الحل في نطاق المشكلة، وتعتبر واقع المشكلة أساساً للحل.

وقد يبتعد هؤلاء ويرون أن مجرد انطلاق الانحراف من التمرد على واقع معين لا يبرر لنا الرجوع إلى هذا الواقع بل لا بد لنا من البحث عن الحل الذي ينسجم مع الواقع الجديد.

إننا نناقش فائدة هذا الأسلوب في هذه المجالات المعقدة التي يرتكز فيها الانحراف على الفلسفة وينطلق فيها التمرد من الفكر، لأن مثل ذلك يحتاج إلى أسلوب يرتفع إلى مناقشة المفاهيم ومحاكمتها في نطاقها الفكري والفلسفي والاجتماعي بشكل عام ثم.. في ملاحظة الواقع في ضوء هذه المفاهيم أو تلك، لئلا تبتعد النظرية عن التطبيق والمفهوم عن المصداق. ولا بد لنا في سبيل الوصول إلى ذلك، من التوفر على دراسة هذه الظواهر بدقة وعمق لنتعرف العوامل المؤثرة في ولادتها واستمرارها، فقد لا يكفينا ـ في معرفتها ـ أن ننطلق من ملاحظة واحدة شاردة نأخذها في سرعة وارتجال لأن ذلك قد يبعدنا عن الحل تبعاً لبعدنا عن فهم المشكلة، كما يفعله البعض من الباحثين الإسلاميين الذين وضعوا أمامهم نقداً واحداً للحضارة الغربية وهو فراغ الإنسان الغربي من الروح. ثم لم يكلفوا أنفسهم عن التدقيق في طبيعة ذلك، من حيث ما يعنيه معنى الروح لديهم، أو ما يتلقى معه من أسباب أخرى تصنع المأساة في أعماق الإنسان.. مما أدى إلى أن يواجهوا كثيراً من الملاحظات أو من علامات الاستفهام، التي تشير إلى وجود المشكلة ذاتها في المجتمعات التي تعيش معنى الروح، وإلى فقدانها في بعض المجتمعات التي تنكر وجود الروح، على أساس الإيمان بالمادية فلسفة ومنهجاً للحياة.

وبكلمة واحدة: إن من الخير لنا أن نناقش أي انحراف. وأي تطور

جديد يختلف مع مفاهيمنا الإسلامية، على أساس من النفاذ إلى أعماقه، والوصول لى منابعه الأصيلة في ذهن الإنسان وفكره وحياته، لنستطيع الاحتفاظ بالمستوى اللائق للعمل، والتطور الطبيعي للمشكلة، لئلا يكون العمل شيئاً جامداً بارداً لا يثير حرارة ولا يدفع إلى حياة بل يبقى مجرد أصداء تتلاشى في الفراغ.

وهناك ناحية مهمة لا بد لنا من ملاحظتها تتعلق بإنساننا المسلم الذي نخاطبه ونتحدث معه، وهي: إن هذا الإنسان ليس محبوساً في قمقم سحري، أو في غرفة موصدة الأبواب والنوافذ، ليبقى على مفاهيمه وتطلعاته ونظراته إلى الكون، ليفكر فيها بهدوء، أو يجترها في تثاؤب وكسل، بل هو منطلق في سرعة الحياة وحركتها مع كل الرياح التي تهب في كل يوم، والعواصف التي تعصف بالأشياء التي تحيط بفكره وبحياته، والزلازل التي تهز الكون من حوله وتتحدى أعماقه ومشاعره في هزة فكرية جديدة.

وفي هذا الجو، تولد نفسه في كل يوم ولادة جديدة بفكرة جديدة، وتطلعات مثيرة، تبعاً للمؤثرات التي تندفع إلى الداخل بكل عزم وقوة.. وقد تهتز قناعاته الإسلامية بخفة وحذر، وقد يفلسف تلك القناعات بفلسفة تبقي عليها في اطارها الفكري، ولكنها تدخلها في أجواء شعورية تبتعد بها عن أجوائِها الأصلية..

فلا يمكننا ـ في هذا الجو ـ أن ننظر إليه نظرتنا إلى الإنسان الذي يعيش الالتزام الإسلامي في فكره وشعوره وحياته، بل لا بد من أن ننظر إليه من خلال الظروف الموضوعية الموجودة في العالم التي يمكن أن تغير تفكيره أو تهزه هزة مفاجئة تقلب له بعض أحكامه في الاتجاه المعاكس.. ونبني أساليبنا العملية عى ضوء ذلك كله، تماماً، كما تتحدث مع أي إنسان بعيد عن الإسلام، ليبقى التوجيه الإسلامي سائراً في تركيز المفاهيم الإسلامية مع

المسلمين وغير المسلمين على السواء، من خلال البحث عن الينابيع الأصيلة للفكر وللحياة في كل زمان ومكان.

ذلك هو بعض الحديث فيما نراه من خطأ، وفيما نظنه من انحراف في أسلوب العمل والتوجيه، وذلك هو ما ينسجم ويلتقي مع مفهوم الحكمة والموعظة الحسنة التي أمر بها القرآن الكريم في أسلوب الدعوة والعمل.

● □ ● □ ●

الفصل السادس

قضايا ومواقف

١ ـ وضوح الفكرة عندنا لا يعني وضوحها للآخرين.

٢ ـ عندما يتحول الحكم الشرعي إلى تقليد.

٣ ـ موقفنا من الانحراف إذا استحالت مقاومته.

٤ ـ موقفنا من الواقع السياسي.

٥ ـ موقفنا من الانحرافات الفكرية والعملية للعامة.

٦ ـ هل الوجود الدولي للإسلام هو كل شيء.

إنّ وضوح الفكرة عندنا لا يعني وضوحها للآخرين

هناك حقيقة تفرض نفسها علينا في البداية في مجال الدعوة، وهي: أن وضوح الفكرة لدينا لا يعني أن الآخرين ينظرون إليها بنفس الوضوح، فربما كنا نتطلع إليها من خلال الجوانب المضيئة عندنا، بينما يكون عنصر الضوء غير متوفر في الجوانب الأخرى التي يعيش فيها الآخرون، لأنهم لا يملكون ما يهيىء لهم ذلك، تماماً، كما يكون الصحو في بعض الآفاق مجالاً للانطلاق مع اشعاع الشمس، بينما تجعل السحب الدكناء الآفاق الأخرى في ظلام دامس.

وقد يبدو هذا طبيعياً عندما نلاحظ اختلاف وجهات النظر في فهم بعض الأشياء العادية في الحياة، كنتيجة طبيعية لاختلاف العادات والظروف والأفكار.

ولعل قيمة هذا الاتجاه، في ملاحظة موقعنا تجاه الآخرين، تبرز في اتاحة الفرصة لنا في الانطلاق نحو موضوعية أكثر وفهم أرحب، في سبيل تعرف وجهة النظر الأخرى، من حيث طبيعة الفكرة التي يؤمنون بها من جهة، ومن حيث نوعية الموقف الذي يتخذونه منا، من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلنا أكثر قدرة على الحركة بوعي، وعلى ضوء الأجوبة الصحيحة

لما يرد من التساؤلات ومعالجة القضايا المعروضة في مجالات البحث.

وقد يكون من حسنات هذا الاتجاه، أنه قد يفتح أعيننا على بعض الجوانب التي قد تشارك في اعطاء وجهة نظر معينة خاطئة عن بعض مواقفنا كما في بعض التعابير التي قد تكون ذات مدلول خاص في بعض المناطق بحيث يمكن استخدامها ضدنا في مجال الاثارة دون أن نقصد منها أي شيء، تماماً، ككلمتي «الحرب» و «السلم» اللتين تختلف ايحاءاتهما حسب اختلاف البلدان التي عاشت مآسي الحروب وويلاتها، أو التي كانت بعيدة عن أجوائِها.

وقد يكون لبعض الاندفاعات الذاتية التي تثار من خلال الحماس للفكرة، أثر في تشويه الفكرة نفسها، لما تعطيه من مدلول عاطفي ساذج للموقف نفسه.

وما دمنا في مجال البحث عن خطوط هذا الاتجاه الذي نريد سلوكه في طريق العمل، فقد نجد من المفيد لنا جداً الاطلاع على المؤثرات الفكرية والعاطفية والسياسية والاجتماعية وغيرها من الأشياء التي استطاعت التأثر في اتجاه بعض الأشخاص إلى دعاية مضادة لنا تزيف لهم واقعنا وتقدم لهم الوجه المظلم من الصورة في الوقت الذي لا يتاح لهم المجال للاطلاع على الجانب المضيء.

وقد يستسلم بعض الأشخاص إلى بعض الفجوات التاريخية والفكرية التي قد تفهم فهماً سيئاً، نتيجة بعض التحليلات الخاصة أو بعض المناهج الدراسية المعينة التي قد تؤدي إلى نتيجة عكسية في بعض الأحيان.

إن علينا مراعاة ذلك كله قبل اتخاذ أي موقف سلبي أو ايجابي من الطرف المقابل، وبكلمة واحدة: أن ندرس الموقف كظاهرة موضوعية لا

ترتبط بواقعنا العاطفي من قريب أو من بعيد.

وربما يكون علينا ـ في ضوء هذا ـ أن نقلع عن كل موقف يصف الآخرين بالعناد والجحود والنكران بالحق الواضح بحجة وضوح الحق عندنا، كما أن علينا أن نمتنع عن كل أساليب اتهام الآخرين بالكفر والزندقة والالحاد لمجرد اثارتهم بعض الشبهات، أو بعض علامات الاستفهام في بعض جهات العقيدة، فقد تكون هذه التساؤلات ناشئة عن حسن نية واخلاص للوصول إلى معرفة الحق، وربما لا تكون كذلك، ولكن علينا ـ في كلتا الحالتين ـ أن نسلك هذا الأسلوب الموضوعي، لئلا يكون للمعاندين حجة عن طبيعة الأسلوب الديني للعمل، ولئلا يشعر المخلصون بالغبن والحيف والأسى أمام محراب الحقيقة.

«وقد نجد في حوار إبراهيم مع ربه تجربة رسالية رائعة في أسلوب العمل، فقد طلب من ربه أن يريه المعجزة التي يطمئنُّ بها قلبه في مشاهدته عملية احياء الموتى على الطبيعة كطريقة من طرق الوصول إُى الإيمان الحق». فقد نستوحي منها أسلوباً عملياً جديداً في مواجهة ردود فعل الآخرين على ما نقدمه إليهم من أفكار، وذلك بأن نضع في حسابنا الحقيقة التالية وهي: أن الأفكار التي نقدمها للآخرين في اثبات قضايا العقيدة، قد تقنعهم فكرياً ولكنها لا توصلهم إلى مرحلة الإيمان الروحي العميق التي يلتقي فيها العقل والقلب في عملية يمتزج فيها الفكر بالشعور فيتحول إلى طمأنينة روحية يشعر فيها الإنسان بالاطمئنان والسكون الذي يغمر فكره وروحه في سلام روحي عظيم، ولهذا فإن علينا أن لا نستنكر عليهم هذا الطلب، تماماً، كما لم نجد هناك أي انكار من الله على نبيه عندما قدم هذا العرض له من أجل الحصول على الطمأنينة القلبية بعد حصول الإيمان الفكري.

ومن البديهي، أننا لا نستطيع تقديم المعجزة للآخرين، كما قدمها الله لنبيه، ولكننا نستطيع تقديم الأفكار الواضحة القريبة من حياتهم حتى يحسوا أن قضية الإيمان تتحرك معهم في كل ما يعملونه أو يمارسونه من علاقات. وقد نعرف من هذا كله. أن على الداعية أن يكون حركة دائمة في الحياة في مواجهة الواقع، ليفهمه من موقع حاجتنا إليه، كأداةٍ خام من مواد العمل. مما يدعونا إلى أن نبعث الحركة في التوجيه والوعي في المعرفة، لتخرج من جمودها الفكري الذي يحولها في أغلب الحالات إلى قطع أثرية جامدة في متاحف الأفكار»(١).

أما الآيات التي أدارت الحوار بين إبراهيم وبين الله سبحانه وتعالى فهي قوله تعالى:

ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد حاول القرآن الكريم أن يؤكد ـ في أكثر من آية ـ على أن يصف معارضيه بعدم العلم، ويرجع إلى ذلك كل الأساليب التي اتبعوها معه في حربهم للنبي، ووقوفهم أمام دعوته، وأن لم يجعل هذا الجهل عذراً شرعياً مبرراً لذلك كله نظراً إلى قدرتهم على التعلم والانفتاح على الحق من أقرب طريق.

وقد ركز من خلال ذلك على استقبال المجتمع الإسلامي لكل إنسان

(١) أسلوب الحوار في القرآن، فصل الحوار القصصي في القرآن، فقرة «قصة إبراهيم».

يريد أن يتعلم وأن يبحث عن الحقيقة. مهما كانت صفته، ومهما كان لونه وهذا ما نستوحيه من الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

- ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١].

- ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

وقد أراد الله من النبي محمد ﷺ أن يتبع معهم أسلوب الصفح واللطف من أجل أن ينتهي بهم إلى النتيجة الفضلى وهي العلم بالحقيقة والسير معها والاهتداء إليها وذلك بمساعدتهم على أن يتعلموا ويعلموا قال تعالى:

- ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩].

وهكذا نجد القرآن الكريم ـ في هذه الآيات ـ يرشدنا إلى تفهم الواقع الموضوعي الذي أدى إلى المعارضة والمقابلة وإن لم يكن لهذا الواقع ما يبرره عندهم باعتبار امكان التخلص منه.

ولعل مما يتصل بموضوعنا الذي نعالجه، هو أن البعض ممن يمارسونه مهمة العمل التبليغي في الحقل الديني، قد ينفتحون على واقع الانحراف عن الإسلام في العالم، في كثير من البيئات التي لم تسمع بالإسلام، أو سمعت به سماعاً عابراً، كما نسمع نحن عن بعض الاتجاهات البعيدة عن حياتنا من دون أن تثير فينا أي اهتمام، فيصدرون أحكاماً عنيفة

قاسية على هؤلاء الناس الذين انحرفوا عن الإسلام لأنهم لم يلتقوا بعقيدته وفلسفته ومفاهيمه العامة عن الكون والحياة.. أما حيثيات هذه الأحكام فتتلخص في اقامة الحجة عليهم من خلال حكم العقل الفطري بضرورة البحث والتفتيش عن الحقيقة، بمجرد أن يطرأ احتمال عابر يوحي بوجودها في دائرة عينة أو في مبدأ خاص، انطلاقاً من القاعدة العقلية التي تحكم بلزوم دفع الضرر المحتمل، لأن احتمال الحق في جانب يساوي احتمال العقوبة من الله على اهماله وتركه، وفي هذه الحالة ينطلق الإنسان بوحي فطرته وحكم عقله إلى الفحص عن مدى جدية هذا الاحتمال وانسجامه مع الواقع ليصار إلى التدقيق فيه، لاتخاذ الموقف الحاسم منه رفضاً أو تأييداً، فإذا لم يفعل ما تدعوه إليه الفطرة ويحكم به العقل، كان حقاً على الله أن يعاقب على انحرافه ما دامت الحجة قائمة والطريق واضحاً.

ولكننا نعلق على هذا التصور السريع للواقع في نقاط عديدة.

١ ـ أننا نوافق على القاعدة العقلية المذكورة، من ناحية المبدأ، ولكن حركتها في داخل الوجدان الذاتي تتوقف على أن يتحرك الاحتمال في النفس بالمستوى الذي يهز أعماقه هزة خوف عميقة تدعو إلى القلق. أما إذا كان الاحتمال عابراً يضع الفكرة في موقع الوهم الذي لا يلامس النفس إلا ملامسة خفيفة تطفو على السطح ولا تنزلق إلى الأعماق، فلا تتحرك القاعدة في الوجدان لافتقارها إلى موضوعها الطبيعي وهو «خوف الضرر».

٢ ـ إن وجود الأفكار المضادة السابقة الخاضعة لتربية معينة، أو دراسة فكرية خاصة، قد يمنع من حدوث الاحتمال الوهمي للفكرة الجديدة، فكيف بـ «الاحتمال الشكي» الذي يتساوى فيه جانب الوجود والعدم أو «الاحتمال الظني» الذي يترجح فيه جانب الوجود على مقابلة.. وهذا هو ما نلاحظه في حالتنا الذاتية عندما نلتقي بأسماء وعناوين المبادىء والأديان التي تختلف

عما ندين الله به ونعتقده من الإسلام، فإنها لا تثير في داخلنا أي احتمال مهما كان ضعيفاً، ولذا فإننا نكون منسجمين مع أنفسنا عندما نتوقف عن الفحص والبحث والتفتيش عما تحتويه هذه المبادىء والأفكار، ولا تفكر في خروجنا عن طبيعة القاعدة العقلية، فلماذا نعطي لأنفسنا حقاً أو عذراً لا نمنحه للآخرين، أفليس هذا اخلالاً بالميزان العادل الذي يدعوك إلى أن تعامل الآخرين بما تحب أن يعاملوك به.

٣ ـ إننا نعتقد أن قيام الحجة على أي شيء من الأشياء المتعلقة بحياة الإنسان وعقيدته، يحتاج إلى خلق الظروف الملائكة التي تضع الإنسان في أجواء الفكرة، فتثير ـ في داخله ـ التفكير لينقله إلى جو المناقشة والصراع الذي ينتهي به إلى الاقتناع أو الرفض، ولهذا فلا يكفي أن يمر الاسم أو العنوان أما ناظريك بفعل حديث طارىء أو بعيد عن أجواء الموضوع، إذا لم يحدث هناك ما يدفعك إلى البحث أو يغريك به من علاقته ببعض جوانب عملك، أو مشاكل حياتك أو ما شاكل ذلك، تماماً كأي قضية أخرى ترتبط بقضايا الحياة فإنك لا تنفعل بها إذا لم تقتحم عليك أوضاعك ومشاغلك في هزة نفسية مفاجئة.

وعلى ضوء هذا فينبغي للعاملين أن يوفروا الظروف الموضوعية التي تهيء العقل البشري للانفتاح على طبيعة الفكرة ليتضح له جانب السلب والايجاب فيها، ليسعى إليها من موقع اهتماماته الفكرية، فإن وضوح الجوانب المتعلقة بالفكرة الذي يدفعنا إلى هذا الاهتمام لا يعني وضوحها لدى الآخرين ليثير فيهم ما يثيره فينا من اهتمامات فكرية.. وهدا هو ما نلاحظه لدى التيارات العقيدية والسياسية المعاصرة فإنها لا تكتفي بالبوادر الفردية التي يمكن أن تثير أو لا تثير بل تحاول أن تدفع الأجواء المثيرة إلى داخل حياة الإنسان لتدفعه نحو الحركة في الاتجاه الذي تريده، ولعل هذا هو

السبب في أن الأنبياء لا يكتفون بالاعلان عن رسالتهم إلى الناس ليسمعها من يسمع، أو يسمع بها من لم يسمع ليندفع إليها بشكل فطري، بل يندفعون إلى جعل وجودهم قضية متحركة في أكثر من موقع من خلال لقاءهم المستمر بالناس، واصطدامهم بالقوى الطاغية الموجودة في مكان الرسالة وزمانها، ومواجهتهم حملات النقد والتشهير والتوبيخ والرفض، ليتحول وجودهم إلى مشكلة تثير إلى الاهتمام وتدفع إلى الحركة.. وربما كان السبب في ذلك كله ما ألمحنا إليه وهو اقامة الحجة على الناس من الجانب الذي تفرضه طبيعة الرسالة، لا من الجانب الذي تستدعيه تمنياتها وأحلامها الغارقة في الضباب.

٤ ـ إننا نجد في هذه النظرات التي تدرس حيثيات الحكم من بعيد، لوناً من ألوان الاسترخاء اللذيذ، والراحة الكسولة التي يستسلم إليها بعض الناس ليوزعوا الأحكام هنا وهناك وليحملوا المسؤوليات هذا أو ذاك مما يؤدي إلى الاستهتار بالمسؤولية في حركة العمل، فيتركوا السعي الدائب إلى اقتحام المجاهل الجديدة التي لم تبلغها الدعوة، ويهملوا المجالات التي يمكن للرسالة أن تنفتح فيها على قوة كبيرة، ومنطلقات واسعة.. تدفع العمل إلى مرحلة متقدمة في اتجاه الهدف الكبير.. وهذا هو ما نعيشه في ظل الأجواء الرسمية أو التقليدية التي جعلت الدعوة الإسلامية تنكمش وتتقلص وتتراجع عن كثير من مواقعها في الشرق والغرب للتيارات الدينية المتحركة في نطاق أساليب التبشير التربوية والصحية والاجتماعية، أو التيارات السياسية والالحادية المتحركة في اطار الواقع السياسي والاقتصادي الذي يطرح المشكلة في طريق الحلول العملية الباحثة أبداً من موقع للتقدم والاستثمار.

● □ ● □ ●

عندما يتحول الحكم الشرعي إلى تقليد

لعل من بين الظواهر التي أصبحت تطبع سلوك المسلم، بسبب الخطأ في أسلوب التوجيه، هو ما نلاحظه من تحول بعض الأحكام الشرعية في حياة المجتمع إلى تقاليد، يتبناها الناس كما يتبعون التقاليد القومية والعشائرية والاقليمية ويُدافعون عنها كما يدافعون عن حرمة تقاليدهم..

أما السؤال الذي يفرض نفسه علينا، فيتمثل في التساؤل عما يمثله ذلك في فاعلية الحكم الشرعي وقدرته على البقاء، فهل يعتبر خطوة ايجابية مشجعة أو خطوة سلبية مزعجة.

ربما نجد ـ في النظرة الأولى ـ في تحول العمل الشرعي إلى تقليد من تقاليد الأمة، تطوراً مفيداً يجعل انسجام الفرد معه أكثر مما إذا بقي ـ حيث هو ـ مجرد حكم شرعي خالص، لأن الخروج على التقاليد قد يكون عملية صعبة يتمثل فيها الخروج على أوضاع المجتمع وإرادته، نظراً إلى أن التقاليد تتحول ـ بفعل مرور الزمن ـ إلى جزء من شخصية الأمة وحياتها، ويعتبر التمرد عليها تمرداً على كيان الأمة وحرمتها، كأي شيء يوحي بالقداسة والاحترام.. أما إذا كانت القضية قضية حكم شرعي مجرد، فلن تكون القضية بهذا المقدار من الصعوبة، لأن الموضوع يصبح موضوع الوجدان الديني، والوازع الداخلي الذي يمنع الإنسان من المعصية، ويدفعه إلى

الطاعة، فهو الذي يحمي الإنسان من الجريمة، ويقوده إلى السير مع إرادة الله سبحانه وتعالى من دون أي مانع خارجي. . ذلك هو الفرق بين أن تتحول الأحكام الشرعية إلى تقاليد، وبين أن تبقى ـ حيث هي ـ مجرد أوامر ونواهٍ في الكتب الدينية والفقهية.

ولكن هناك جانباً آخر ينبغي التأكيد عليه في التقاليد المستندة إلى الأحكام الشرعية، وهو ارتباطها المستمر بجذورها الشرعية لئلا تنفصل عن ركائزها الأساسية وتصبح مجرد شيء لا معنى له، فإنَّ من الملاحظ أن ممارسة الأمة للتقاليد، ليست ممارسة واعية تنبع من وعي الأمة لضرورتها وحاجتها إليها، أو من الاحساس بارتباطها بجذورها الأصيلة التي انطلقت منها، فربما تكون تلك الجذور منسية تماماً فلا تدور في فكر أحد أبداً، وربما تكون سخيفة لا يشرف الارتباط بها أي مجتمع من المجتمعات لأن نشوء التقاليد يخضع ـ غالباً ـ لبعض العوامل الطبيعية التي تتعرض لها حياة المجتمع، مثل قوة الحادثة التي انطلقت منها وضخامة حجمها الاجتماعي، الأمر الذي يجعل تكرارها أمراً مفروضاً وطبيعياً، أو قوة السلطة التي أرادت لهذا التقليد أو ذاك أن يتركز ويخلد في حياة الناس، أو غير ذلك من العوامل التي تدفع العمل إلى أن يتكرر في حياة الأمة، حتى يصبح عادة من عاداتها التي تؤديها بشكل آلي عجيب، لارتباطه بنمو الإنسان في حياته من البداية.

وما دامت القضية قضية حركة لا واعية، تنشأ من التكرار الساذج في حياة الأمة وتاريخها، فقد تتعرض ـ في مراحل التطول الاجتماعي ـ إلى بعض الهزات التي تحاول اقتلاعها من وجود الأمة، فربما تستيقظ الأمة على بعض الأوضاع الثورية التي تثير الأفكار والمشاعر، بشكل غير معقول، ضد ذلك كله، بأسلوب ثوري أو توجيهي يحاول تحليل العادة واخضاعها إلى بعض المقاييس الفكرية والاجتماعية التي تجعل من وجودها واستمرارها شيئاً

لا مبرر له. ثم تبدأ بعد ذلك ـ عملية ازالتها من الوجود الاجتماعي للأمة، بشكل تدريجي، أو فوري، حتى تصبح شيئاً غريباً عنها تبعاً لأبعاده عن واقعها وتكرر فقدانه من حياتهم.

وربما يعيش بعض الأفراد، من دون حاجة إلى الثورة، وهم يمارسون هذه التقاليد أو يواجهونها في حياتهم ـ طبيعة القرف الفكري، والشعور بالتفاهة عندما يضطرون إلى القيام ببعض الأعمال التي لا يفهمونها، أو لا يعرفون جدواها وفائدتها، تماماً، ككل إنسان يعبث أو يضطر إلى العبث دون أن يكون هناك أي دافع ذاتي له، وربما يفهمونها فهماً عكسياً ناشئاً من عدم معرفتهم بالمنابع الأصيلة التي تمدها بالحياة وتبرر وجودها كجزء من كل، لا شيئاً مستقلاً لا يرتبط بقاعدة، ومن الطبيعي أن ابعاد أي جزء عن هيئته التركيبية، واعتباره شيئاً مستقلاً، يوجب فقدانه لأكثر خصائصه الذاتية تبعاً لاختلاف الجزء والكل.

ولعل هذا وغيره يدفعنا إلى التركيز الواعي على الطبيعة الشرعية لهذه التقاليد واعتبارها جزءاً من الخط العام الكلي الذي يحقق مع بقية الأجزاء الأهداف الكبرى للتشريع ليكون منطلقاً مع الإنسان بحافزين: الحافز الاجتماعي الذي يجعل الخروج عليه خروجاً على تقاليد الأمة ومقدساتها، والحافز الديني الذي يجعل التمرد عليه تمرداً على إرادة الله ـ هذا من جهة.

أما من جهة أخرى، فليبقى قائماً في وجدان الناس، كعادة تخضع لفلسفة، وترتبط بخطة، وليست شيئاً مجرداً، الأمر لا يجعل ممارسة الناس لها ممارسة لا واعية، أو عملية جامدة جافة، بل عملاً واعياً يرتبط بالعمل من خلال معناه الذي يعيش في نفس الإنسان كشيء مقدس معقول.

ومن الطبيعي، أن مثل هذا التركيز لهذه التقاليد، يمنع من الانتفاض عليها، ومن اثارة روح التمرد ضدها لأنه يفقد الثائرين مبرر الثورة عليها،

ويجعلهم يمارسون التمرد على إرادة الله في ذلك، مما يجعل للمقاومة دورها القوي في تحطيم الحركة وتعطيلها في أقسى الظروف.

ولعل من أبرز الأمثلة التي نجدها أمامنا في هذا المجال، هو موضوع الحجاب الشرعي الذي استطاع أن يفرض نفسه في الحياة الإسلامية، كتقليد اجتماعي شامل يستوعب المجتمع كله فيما مضى من حياة المسلمين، حتى أصبح الطابع الإسلامي للحياة في المجتمع الإسلامي، وعاد مجتمع الحجاب سمة مميزة له، في نظر الأوربيين وغيرهم، وبدأت الأساطير التي هيأت لها أجواء قصص ألف ليلة وليلة، ترسم لها خطوط معينة في حكايا الحريم والسلطان، وأضيفت إلى ذلك بعض التجاوزات والقيود القاسية الزائدة على طبيعة الحكم الشرعي التي زادت من ظلام الصورة، فاسودت الصورة في الواقع وفي الخيال، وابتعدت كثيراً كثيراً عن الخطوط الأولى للتشريع، فلم يعد الحجاب مجرد حكم شرعي يخضع لحدود الأحكام الشرعية ومجالاتها، بل عاد نظاماً يرتبط بكثير من الطفيليات الزائدة التي علقت به على مر السنين وتحولت حمايته الاجتماعية إلى كونه طابعاً يميز شخصية الأمة ويرتبط بتاريخها، أكثر من كونه حكماً شرعياً يرتبط بإيمان الفرد وخوفه من الله تعالى حتى المؤمنين بدأوا يعيشونه في نطاق التقليد أكثر مما يعيشونه في اطار الحكم الشرعي، ومضينا نسمع كلمة «العيب» تطلق في مجال التنديد بالمتساهل في هذا المجال أكثر من كلمة «الحرام»... وهكذا نشأت المرأة المسلمة في أكثر من بلد على اعتبار السفور عيباً مجرد عيب، لا تمتنع عنه إلا كما تمتنع عن بعض الأشياء المعيبة لدى المجتمع تبعاً لقوة الضغط الاجتماعي الذي تمارسه القوى الاجتماعية التي تملك السيطرة على سلوك الأفراد، ولهذا رأينا القضية تأخذ جانب التساهل من جانب المرأة كلما خف الضغط من قبل المجتمع، مما أدى إلى اتساع حركة السفور شيئاً فشيئاً، كلما اشتدت الدعوة إليه، حتى في كثير من الأوساط الدينية لأن

مفهوم «العيب» قد انعكس من السفور إلى جانب الحجاب وتحول الضغط إلى جانب آخر.

وعادت النتائج ـ كما نراها الآن ـ تمثل انحساراً كبيراً ـ لهذا التقليد ـ عن حياة الأمة، لانفصاله عن منابعه الأصيلة من جهة، وطغيان المقاييس الفكرية الحديثة التي انتشرت فعزلت المقاييس الدينية عن النفاذ إلى هذا التقليد لتربطه ببقية أجزاء في البنية العامة للتشريع.

وبكلمة أخيرة: إنَّ انقلاب النظرة في فكرة الحجاب وقيمته في حياة المجتمع، لم ينشأ من مجرد تمرد الناس على الحكم الشرعي، بل نشأ من اعتباره تقليداً لا معنى له وجزءاً من تاريخ الأمة، ومرحلة من مراحلها الماضية، وبهذا أمكن للمفكرين المحدثين، أن يمهدوا للانقلاب عليه، ككثير من التقاليد البالية التي انحسر ظلها عن الحياة في حركة التطور والانفتاح على كل ما هو جديد.

وعلى ضوء هذا كله، نجد أن من الخير لنا أن نفسح المجال للتوجيه الواعي الذي يبعث الحركة في جمود التقاليد الشرعية ويوقظ روح الحياة في حركتها المتطلعة أبداً نحو الاستمرار والبقاء، لتبقى للحكم الشرعي روح الاستمرار في تحريك الإنسان في حياته العملية، ولتبقى للتقاليد سيطرتها الاجتماعية، من خلال روح العقيدة التي ترتبط بجذورها الضاربة في أعماق النفس المسلمة.. وبهذا الأسلوب الواقعي نقطع الطريق على الخطوات التي تعمل على أن تفصل النهر عن الينبوع، والشجرة عن الجذور، لتستطيع أن تجفف النهر المتدفق أبداً في اتجاه الخصب والرخاء، أو تمنع الشجرة الصاعدة أبداً في اغناء الحياة بالخضرة المهتزة في آفاق الجوّ المترامي الفسيح.

ما هو موقفنا من الانحراف العملي إذا استحالت مقاومته؟

هل ننسحب من الميدان انطلاقاً من طبيعة ارتباط واقع الدعوة بواقع العمل، فإذا أصبح العمل مستحيلاً أصبحت قضية الدعوة بلا معنى، أو أننا نبقى في الطريق نتابع النداء تلو النداء، والدعوة تلو الدعوة، وإن لم يجبنا غير الصدى.

ربما يرى بعض العاملين لزوم اختيار السؤال الأول في طريق الجواب نظراً إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبران من الواجبات التي تقع في طريق العمل، ومن الطبيعي، في هذا المجال أن تفقد الدعوة مبرراتها إذا فقدت هدفها، ولذلك قال بعض العلماء: إن هذا الوجب يعيش في اطار احتمال التأثير وامكانية تصحيح الانحراف.

ولكننا لا نرى ذلك، بل نعمد إلى اختيار السؤال الثاني من خلال حقيقة أساسية وهي: أن للحكم الشرعي مجالين: أحدهما المجال الداخلي الذي يعيش في التشريع في داخل النفس فكرة وعاطلة يوحي للنفس بالعمل ويحاكمها في حالات الانحراف، وهو الذي يمثل الضمير الديني في حياة المسلم، ثانيهما المجال الخارجي الذي يمارس فيه الإنسان المسلم تطبيق الشريعة في حياته الخارجية ولا بد للمسلم ـ من أجل أن يكون منسجماً مع

إسلامه ـ من أن يعيش تعاليم الله في كلا الحالين لتركيز البناء الخارجي للعقيدة على قاعدة ذاتية في نفس الإنسان.

ولهذا فإن علينا ـ في حالة استحالة تقويم الانحراف ـ في المجال الثاني ـ أن لا نغفل المجال الأول فيجب أن نتابع الدعوة للاحتفاظ بالاستقامة في خط العقيدة لتبقى المسؤولية حية داخل اذات كعقيدة تتحكم في النفس لئلا يمارس الإنسان جريمته أو انحرافه وهو مرتاح الضمير.

وبكلمة أدق: إن الانسحاب من الدعوة عند اليأس من تصحيح الانحراف وتقويمه سوف يؤدي إلى تأكيد الانحراف في حياة الإنسان العقيدية، في تصوراته للحياة، في المفاهيم التي يؤمن بها بعيداً عن مفاهيم الإسلام الأصيلة، بالإضافة إلى الانحراف الخارجي، وسينتهي بالتالي، إلى انعدام الاحساس بالذنب عند ممارسة العمل غير الشرعي، مما يقتضي تحطيم الحواجز النفسية التي يريد اقامتها في النفس من أجل أن تكون ضمانة على الانحراف في الفكرة والتصور... وستكون النهاية أن يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً... فتتغير الصورة وتتبدل إلى العكس تماماً، كما وعد الرسول في حديثه عن نتيجة الاهمال وانعدام المسؤولية في حياة الأمة عند امتداد الانحراف. ومن هنا نجد أن القضية لا تدخل في نطاق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتخضع لشروطها الفقهية بل تدخل في نطاق التبليغ ومحاولة ابقاء العقيدة حية في نفوس المسلمين.

بقيت هنا ملاحظة على طبيعة السؤال وهي: أننا لا نصحح فرض انحراف لا تمكن مقاومته فلا بد لهذا السؤال من أن يمثل جانب المرحلة المعينة التي يمكن فيها هذا الفرض، لا طبيعة العمل نفسه في مدى الزمن.

● □ ● □ ●

موقفنا من الواقع السياسي

قد نصدم بالواقع السياسي الذي تعيشه الأمة عبر التيارات المتضاربة والاتجاهات المختلفة، فنلاحظ أن هذا الواقع لم يعد مجرد وضع يعيش في نطاق طبقة معينة من الناس، بل أصبح يشمل كل قطاعات الأمة، حتى عاد أشبه شيء بالزاد اليومي لكل إنسان، ومضى كل واحد من هذه الفئات يتبنى اتجاهاً معيناً من هذه الاتجاهات سواء في الخط العام أو في تفاصيل الأحداث، لأن هناك أجهزة دائمة تحاول تدريبه على ممارسة السياسة على الخط الذي تنتهجه وتسر عليه.

وقد نشأ ن ذلك، أن السياسة عادت تمثل حساسية خاصة لدى الأمة، فهي تحاكم وتهاجم هذا الحاكم أو ذاك أو هذه الأنظمة أو تلك، بأسلوب عاطفي حاد تستخدمه كل فئة لمحاربة الفئة الأخرى حتى انطلقت كمقياس للحكم على طبيعة الأفكار نفسها، واعتبر الخط السياسي لأية جماعة حجة للحكم على نظافة الفكرة التي تدعو لها، وعدم نظافتها. ولذلك نجد أن علينا أن نكون حذرين ازاء هذا الواقع فلا نحاول تأييد جهة دون جهة، ولا الوقوف مع جانب دون جانب، لأن ذلك يفقدنا شخصيتنا المستقلة، ويجعلنا نحمل أخطاء الجهاة التي نؤيدها، وبالتالي، يجعلنا في معركة لا تؤمن بشعاراتها وواجهاتها، ويجرنا ـ في النهاية إلى بعض المنعطفات الخطرة التي

قد تؤدي بنا إلى الدمار. وعلى هدى ذلك فلا بد لنا من تحديد الخط الذي يميز حركة العقيدة ويحفظ لها خطواتها، ويحدد لها أبعادها. ليكون العمل منطلقاً في اتجاهه، من أجل أن تكون للعمل وللعاملين شخصية مستقلة، لا تتعاون مع الآخرين إلا في الخطوط التي تلتقي فيها معهم، تعاون الند للند، لا التابع للمتبوع.

ولعل القضية تبرز بوضوح أكثر، إذا استطعنا أن نلاحظ الواقع السياسي الذي يعيش العالم فيه اليوم، بين اتجاه اليمين المتمثل في السياسة الغربية، واتجاه اليسار المتمثل في سياسة المعسكر الاشتراكي.

ونلاحظ ـ في اطار ذلك كله ـ أن سياسة اليمين قد انطبعت بطابع الاتجاه الذي يرعى الاستعمار والتخلف، ويعتمد على افقار الشعوب النامية، واستثمار خيراتها، لتكون بقرة حلوباً، وسوقاً دائماً لتصريف منتوجاتها الزراعية والصناعية.

أما سياسة اليسار، فقد أخذت طابع الاتجاه التحرري الذي يرعى حرية الشعوب واستقلالها والعمل على تقدمها والانطلاق بها نحو الاكتفاء الذاتي في مجال الصناعة والزراعة. وسواء كان هذا الطابع الذي انطبعت به هذه السياسة أو تلك، نابعاً من واقع الاتجاه الذي تتحرك في اطاره السياسة، أو منطلقاً من الدعاية التي أرادت لهذا الواقع أن يأخذ هذه الصورة في أذهان الناس، فقد فرض نفسه على التصور العام وانتهى، فما هو موقفنا من هذين الاتجاهين؟

ربما يجد بعض الناس، أن علينا أن نسير في اتجاه اليمين لأن المعسكر الذي يمثله ويتبنى هذا الاتجاه، لا يحمل عقيدة معينة تصطدم بالدين وتجعل من محاربته رسالة يعمل من أجلها، بل ربما نجده يشجع الدين في بعض مواقفه، ولا أقل من أنه يترك له حرية العمل في مجالاته

العامة كجزء من فكرة (الحريات العامة) التي يؤمن نظامه بأن الدولة أن تحميها وتكفلها للناس.

ويجد هذا البعض من الناس أن هذا يصلح مبرراً كافياً للاندماج معه في الخط السياسي الذي يستهدف أضعاف المعسكر الآخر الذي نصطدم معه وجهاً لوجه في خط العقيدة، الأمر الذي يجعل من عملية التعاون معه قضية خطرة تتجه بنا نحو الانهيار العقيدي.

وقد يجد فريق آخر من الناس أن البذور التحررية التي زرعها الإسلام في حقل العقيدة والتشريع تأبى على الإنسان أن يضع يده في يد أولئك الذين يدعون إلى الحرية في بلادهم ولكن لتكون الحرية حريتهم الخاصة التي تعيش على حساب حرية الآخرين، وعلى حساب كراماتهم وعزتهم الذاتية.

ويرى هذا الفريق في التعاون مع هؤلاء، ابتعاداً عن الروح الحية التي تتفجر بها طبيعة الإسلام ونظامه الاجتماعي ولذا، فلا مجال لاختيار جانب اليمين أبداً إذا لا مجال للبقاء في المعسكر الذي يحارب من أجل حرية الاستعباد وحماية التخلف، وسياسة التجويع والافقار بحجة مهاجمة المعسكر الآخر.

أما نحن فنعتقد أن علينا أن نرسم الاتجاه الذي يتفق مع مصلحة الإسلام الحقيقية العليا، ولا ينحرف عن خط الشريعة السمحاء، ولن نجد في اختلافنا مع المعسكر الاشتراكي في الخطوط الأولى للعقيدة مبرراً لرفض كل خطواته السياسة في مجال العمل الدولي إذا كانت منسجمة مع المصلحة العليا للإسلام، كما لا نجد أي مبرر للاتجاه مع اليمين في سياسته، إذا كنا مختلفين معه في كل خطواته السياسية.

إنّ علينا أن نرسم سياستنا المستقلة التي تحدد لنا مواقع اللقاء مع الآخرين من دون الذوبان فيهم أو الانصهار معهم وتجعلنا أكثر حرية في

الحركة على أسس المصلحة العليا للإسلام من غير تقيد بخط معين لهذا الاتجاه أو ذاك.. ومن هنا فإن علينا أن نفرق بين قضايا الفكر وبين قضايا السياسة فلا يفرض علينا الاختلاف في العقيدة، اختلافاً عملياً في القضايا الأخرى التي لا تضر بمسيرتنا الفكرية بل يجب علينا أن نكون موضوعيين في كل خطوة للعمل، بشرط أن لا نكون ساذجين في ممارستنا للموضوعية أو في اتجاهنا نحوها، لأن الحذر ـ في كل عمل ـ يمثل قاعدة الأساس التي يرتكز عليها البناء.

وربما كان من الضروري لنا أن نتابع أحداث الواقع وحركته في كل مكان في عملية رصد دقيقة شاملة لطبيعة الأحداث، وللعلاقات التي تربط بين القوى الفاعلة في الكون، ومدى قوتها وضعفها، وعلاقتنا بها، أو امكان ايجاد هذه العلاقة بأقل قدر ممكن من السلبيات، في أطر المصلحة الإسلامية العليا، وملاحقة المتغيرات السياسية التي قد تعيد النظر في أكثر من خطة موضوعية على أساس الحسابات السابقة، لأن الثوابت ليست موجودة في خطط التحرك إلا فيما يتعلق الأمر بالمبادىء العامة، والخطوط العريضة.. ولعل من البديهي في ذلك أن يكون لدينا اختصاصيون في أي جانب من هذه الجوانب ليتوفروا على دراسة القضايا السياسية بدقة وعمق وشمول. لأن الإعتماد، على الظواهر البارزة من الأحداث يقرب الخطة من السطحية والارتجال ويبعدها عن العمل.. ويعرضها ـ بالتالي ـ للخطر، لأن الموضوع ليس موضوع فكر يخطىء ويصيب، بل موضوع حركة يمكن أن يؤدي انحرافها إلى الوقوع في المهوى السحيق.. ولعلنا لا نحتاج إلى التأكيد على ضرورة الممارسة والاندماج في الجو كشرط من شروط الحصول على المعرفة الدقيقة الشاملة، لأن الثقافة السياسية ليست ثقافة نظرية.. تخضع للقراءة والدرس، بل تحتاج ـ إلى جانب ذلك ـ إلى الاحساس بالواقع في حركة الحياة.

موقفنا من الانحرافات الفكرية والعملية العامة

هناك فكرة تتردد كثيراً على لسان بعض العاملين للإسلام مِنْ علماء الدين، ومن الوعاظ وخطباء المنابر وهي التأكيد على ضرورة حفظ عقائد العوام ورعايتها من كل ما يزلزلها مما يدعو إلى الشك أو يثير الارتياب..

والفكرة صحيحة في طبيعتها وفي مدلولها ومعطياتها العملية.. فإن العامة من الناس يمثلون القوة الضخمة التي تتحرك فتحرك العمل الديني في كل مجالات الحياة التي تتحرك فيها، لأن التزامها الديني واصرارها عليه، يحقق ذلك كله.. وهذا ما يجعل القيمة الكبيرة لحركة الدعوة الإسلامية في توجيههم وتركيزهم واثارة مشاعرهم الدينية في هزة روحية فاعلة.. تحرك العاطفة لخدمة العقيدة وتثير المواقف لحماية الإيمان.

ولكن هؤلاء الذين يثيرون هذه الفكرة لا يقصدون منها ذلك، بل يحاولون أن يصلوا بها إلى نتيجة خطيرة تتعلق ببعض القضايا المنحرفة التي يمارسها العوام باسم الدين حتى أنهم اعتبروها من شؤون العقيدة الأساسية التي تصل إلى مرتبة القداسة، فلا يجوز المس بها من قريب أو من بعيد..

وخلاصة ما يريدونه هو أن يبقى هذا الانحراف، في طبيعة الممارسة لمثل هذه القضايا سواء في جانب الشكل والمضمون، ما دام ذلك لا يضر بالعقيدة الأساسية بل القضية ـ على العكس من ذلك ـ فإنها تفيدها وتخدمها لأنها تربط الناس بها من خلال ما اعتادوه وما ألفوه من أوضاع وعادات

ومعتقدات أما إذا حاولنا أن نحارب مثل هذا الانحراف، ونبعد الناس عنه، عندما نجعل من رسالتنا الدعوة إلى تركه وتنفير الناس منه، فإن الناس سيعيشون الاهتزاز الفكري بالأساس القوي للعقيدة لما يعتقدونه من الارتباط بينهما حتى إذا انهار أحدهما انهار الآخر معه...

ولكننا نختلف عنهم في ذلك.. فإننا نعتقد أن من مهمة الرسالة أن تضع منهج التفكير، ومنهج العمل كما تضع العمل نفسه في اطاره التشريعي المناسب.. وبذلك كان الأسلوب جزءاً من العمل، فلم يترك الإسلام للإنسان في كثير من المبادىء العامة الحرية في اختيار الأسلوب الذي يناسبه في تحقيقها وتطبيقها على الواقع، فقد شرع للإنسان العبادة، ولم يتركه ليعبد الله كيف شاء بل رسم له طريقة العبادة واعتبرها توقيفية لا مجال فيها للزيادة والنقصان، سواء في ذلك أقوالها وأفعالها «وشرع للإنسان القواعد العامة للنشاط الجنسي، ولكنه لم يترك الأمر للإنسان ليمارسه تحت أي عنوان، بل جعله في اطار العلاقة الزوجية... ثم حدد الطريقة التي تتحقق فيها هذه العلاقة من حيث كلمات العقد التي تقال، وشروطه فلا يجوز مثلاً انشاء العقد بكلمة الهبة كأن تقول المرأة للرجل وهبت لك نفسي.. بل لا بد من إنشائِهِ بكلمة الزواج كأن تقول المرأة مثلاً.. زوجتك نفسي، وما أشبه ذلك، لأنه يريد للعلاقة الزوجية أن تنطلق في نطاق التعاقد الذي لا يخضع لفكرة الملكية التي تعطيها كلمة الهبة، بل يريد لها أن تعيش في نطاق معنى الزواج، الذي يجسد معنى الحياة التي تستمر من خلال الإرادة المتبادلة الخاضعة لقانون التعاقد الإرادي في ظل الأحكام الشرعية... وهكذا نجد الطريقة نفسها، في موضوع الطلاق الذي يمثل انهاء العلاقة الزوجية فقد أريد له أن يتحقق في كلمات معينة لا تقبل التغيير والتبديل..

وعلى ضوء ذلك فإننا نفهم ضرورة التوفر على دراسة الأسلوب كما

تتوفر على دراسة العمل نفسه.. لأنه ربما يسيىء إلى نفس الفكرة من حيث المعنى الذي يطبعها بطابعه، كما رأيناه في موضوع الزواج في كلمة «الزواج» وفي كلمة «الهبة».. فنواجه الأساليب التي تضر بالفكرة، لننقدها بقوة من أجل أبعادها عن محيطنا الفكري والعملي.. أما الأساليب التي تنسجم مع جو الفكرة ومعانيها فنشجعها ونحضنها ونسير عليها.

وقد يتمثل هذا المنهج فيما تعارف عليه المسلمون الشيعة في تعبيرهم عن حب أهل البيت، وتعاطفهم مع أجواء المأساة التي تجسدت كأقسى ما يكون، وكأوجع ما يكون، في تاريخ الأئمة عليهم السلام واعلانهم الاحتجاج المستمر على ذلك التاريخ المصبوغ بالدم، المتفجر بالألم، المتجسد في الصورة الوحشية والهمجية التي مارسها طغاة تلك العهود ضد هذه الصفوة الطاهرة التي كانت تعيش الإسلام وتجسده في كل ما تطلق من فكر ودعوة وفي كل ما تمارس من عمل وجهاد.

وهذا شيء رائع وضروري.. لجهتين.. الأولى: ابعاد الناس عن التعاطف مع تاريخ الطغيان وربطهم بتاريخ التضحية والشهادة، كطريقة تربوية لمواجهة الإنسان المسلم بتاريخه في سلبياته وايجابياته بعيداً عن كل القداسات الزائفة التي يثيرها الماضي في نفس الإنسان لاغفال الأخطاء الكبيرة أو تحويلها إلى مقدسات اجتهادية تبرر الخطأ باسم الاجتهاد.. فإن الإنسان إذا واجه التاريخ الذي يعيش معه الأجواء الحميمة، بعقلية الناقد الذي يملك روح الحياد وعقليته، استطاع أن يواجه الواقع الحاضر بنفس الروح التي تنقد السلبيات وتحتضن الايجابيات على أساس إيمانه وعقيدته...

الثانية: انطلاق الجانب العملي في اتجاه تحويل الصور التاريخية المشرقة التي تصور لنا معاني التضحية ومواقف الاستشهاد الرائعة ضد قوى

الطغيان والكفر والضلال، التي صنعت مأساة الإنسان في التاريخ، إلى صور حية تتحرك في مواقفنا العملية المتحركة أبداً ضِدّ أنواع الطغيان والظلم والانحراف سواء في الداخل، الذي يتمثل في حكم الطغاة الظالمين، المتسلطين على العباد والبلاد بالقهر والغلبة، أو في الخارج، الذي يتمثل في القوى الاستعمارية والكافرة التي تعمل للسيطرة على الناس كطريق من طرق السيطرة على مقدراتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ليستغلوا ذلك كله فيما يفكرون به من قضايا وما يضعونه من مخططات، وما يتحركون من خطوات، وما يستهدفونه من أهداف. فإن الالحاح على التاريخ ومتابعته بالاستيحاء والايحاء.. يؤدي إلى انطباع الشخصية الإنسانية المتعاطفة معه بطابعه الإنساني الرائع.

وفي الجانب المقابل لذلك.. يتحرك الإنسان المسلم الذي يعيش الاحتجاج الدائم على خطوات الظلم التي صنعت المأساة الدامية، من أجل أن يمنع القوى الظالمة من صنع المأساة الجديدة للإنسان المعاصر.. وذلك عندما يتحول مفهوم الثورة على الظلم إلى فكرة واحساس وحركة.. كنتيجة طبيعية للتوجيه المستمر، وللتربية الواعية المتكررة....

إننا نشجع اثارة التاريخ لتحقيق هذين الهدفين، مما يجعل من التاريخ معنى يتحرك في الحاضر وتيجسد في الواقع، لا مجرد ماض يُثير في داخلنا الزهو بأمجاده، أو يفجر في أعيننا الدموع حزناً على مآسيه.. فإننا قد نفهم أن يتحرك الماضي من مشاعرنا بشكل عفوي طبيعي لارتباطنا العاطفي والروحي، به، كما يتحرك مشاعر الإنسان أمام أية حالة مأساوية ترتبط بالذات ولكننا لا نفهم الدعوة إلى الانفعال بالمأساة لذاتها، من دون هدف محدد يرتبط بمعطياتها الحاضرة والمستقبلية على صعيد الرسالة.. لأن الماضي لا وجود له في الحاضر كمرحلة زمنية من مراحل الحياة، أما أبطاله

فقد وقفوا أمام الله.. وانتهت المأساة بكل آلامها وانفعالاتها معهم.. فما معنى أن تحزن عليها من ناحية ذاتية...

إننا نشجع الموضوع من ناحية المبدأ.. ولكن ماذا عن الأسلوب المتبع في ممارسته.. إن الأساليب المتبعة كتعبير عن هذا الحزن الخالد.. تتمثل في عدة ألوان، منها، اقامة المجالس التي يتقدمها الخطباء الذين يتحدثون عن المأساة بطريقة معينة ليثيروا بها المشاعر والانفعالات، ومنها، الخروج بمواكب جماهيرية تنشد الأهازيج الشعبية وغير الشعبية، مما يتضمن قيمة المأساة وايحاءاتها بأسلوب مثير، قد يصاحبه اللطم على الصدور العارية وغير العارية، ومنها، ضرب الظهور العارية وغير العارية بالسلاسل الحديدية التي قد تجرح وقد تترك آثاراً سوداء على الجسد.. ومنها، جرح الرؤوس بالسيوف وغيرها حتى تسيل الدماء الغزيرة، فتصبغ الأكفان البضاء التي يلبسونها على أجسادهم.. ومنها، اقامة الحفلات والندوات الخطابية التي تتحدث عن المأساة من ناحية مداليلها الاجتماعية والسياسية وغيرها.. مع استثارة الجوانب المأساوية بطريقة فنية رائعة تستثير المشاعر بالصورة واللمحة والفكرة، لا بالصوت المثير للطرب المتفجر من ألحان القارىء للمأساة، ومنها، ما يصنعه بعض الهنود من اضرام نار كبيرة ثم المرور عليها بدون أية معاناة للألم.. كذكرى للنار التي أضرمها الأمويون وأنصارهم في خيام الحسين في كربلاء..

هذه هي الألوان البارزة لأساليب التعبير عن الحزن المقدس ازاء مأساة كربلاء.. وقد شاركت في حدوثها وانتشارها، تقاليد وعادات شعبية عاشتها الشعوب في طريقتها في التعبير عن أحزانها... أو عواطف جامحة صدرت من بعض الأشخاص، فاستحسنها الآخرون، فأصبحت عادة من خلال ذلك.. ولم يثبت وجود أسباب شرعية تستمد معناها من نصوص دينية، أو

ايحاء من شخصيات دينية معصومة ولكنها مع ذلك عاشت وفرضت نفسها على الواقع الديني الشيعي، كأقوى ما تكون التقاليد، وأعمق ما تكون العادات لأنها انطلقت من موقع القداسة الدينية لا من موقع العادات والتقاليد المجردة.. واستطاعت ـ من خلال ذلك ـ أن تحدث تأثيراً كبيراً في ايجاد رابطة قوية بين الناس وبين أهل البيت، سواء في ذلك الأطفال والشباب والشيوخ من الرجال والنساء، لأن هذه الأساليب تخاطب العاطفة والشعور فتنفذ إلى الأعماق بشكل عفوي طبيعي.. وتأصلت هذه المحبة حتى تحولت إلى شيء يرتبط بالذات كما ترتبط به علاقاته الشخصية، وربما انفصلت عن جذورها الدينية لدى بعض الأشخاص الذين لا يحترمون الالتزامات الدينية في أفكارهم وأعمالهم، ولكنهم يتعاطفون مع مأساة أهل البيت ويحبونهم من الأعماق.

وكان لهذا الأثر الكبير الذي أحدثته هذه الأساليب في النفوس، دوره البارز في ولادة الفكرة التي تربط بين استمرار هذه الأساليب المأساوية، وبين بقاء الدين أو علاقة الناس بأهل البيت، في النفوس حتى عادت اثارة الجوانب السلبية في هذه الأساليب، تشبه الحديث عن القضايا التي تدعو إلى الكفر أو المروق والخروج من الدين.

وتطورت الفكرة، فأصبح بعض الناس يخافون على الذين يستمكرونها، أو ينقدونها، أن يصابوا ببلاء أو بضربة سماوية في الدنيا، من قِبَل أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأنهم يقفون في مواقف العداوة لهم، ولاحياء شعارهم.. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أصبح بعض علماء الدين يصرح بأنني أخاف من الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ على نفسي، إذا تعرضت لبعض هذا الحديث.. وكأنما الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يعيش في رحاب الله، إنسان يفكر في القضية من ناحية ذاتية، كما يفكر الناس في قضاياهم الذاتية، فيثأر كما

يثأرون من الشخص الذي يعاندها حتى إذا كان ذلك نتيجة اجتهاد فكري أو موقف نفسي صادر عن حسن نية.

إننا نريد أن نناقش هذه الفكرة من جانبين:

الأول: الجانب الذاتي لهذه الأساليب وعلاقتها بالفكرة من ناحية سلبية أو ايجابية.

الثاني: الجانب الرسالي.. من حيث علاقتها بالامتداد الديني في حياة الناس.

أما الجانب الأول... فإننا لا نريد أن ندخل في الجوانب التشريعية الفقهية في هذا الموضوع لنتحدث فيه من خلال الحلال والحرام، فنقف كما وقف البعض، لنثير قضية الضرر الذي يترتب من هذه الأساليب على الإنسان حينما يجرح نفسه، أو يدمي صدره وظهره، فيجيب فقيه، كما أجاب البعض، بأن الضرر ليس محرماً على الاطلاق، بل المحرم منه هو الضرر الذي يُؤدِّي بالنفس إلى التهلكة، انطلاقاً من الآية الكريمة:

- ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وغيرها من النصوص الدينية التي تحرّم الأعمال التي تشارك في نهاية حياة الإنسان مهما كان نوعها، لا نريد أن ندخل في هذا البحث.. لأننا نود أن نعالج القضية من زاويتين.

١ ـ الانسجام بين طبيعة المأساة وبين طبيعة الأساليب.

٢ ـ زاوية النتائج السلبية التي تنتج عن ممارستها في واقعنا الحاضر.. مما يحدث تشويهاً في صورة الدين واتباعه..

أما قضية الانسجام بين المأساة والأسلوب.. فإننا نقرر أنها مفقودة تماماً لأن الحجة الكبيرة التي يقدمها أنصارها، هي المؤاساة.. فإن الحب لأي إنسان كان، أو اعزازه، يتمثل في مؤاساتك له في أحزانه، ومشاركتك له في آلامه.. لأن المشاركة والمؤاساة تخفف عنه الكثير مما يحس به ولأنها تدل على انفعالك بما ينفعل به، وتعاطفك معه، بكل ما يحس به ويعانيه... ولنا مع هذه الحجة وقفات..

١ ـ اثارة سؤال: لمن المؤاساة.. هل هي للشهداء، أو لمن يتعلق بهم.. فإن كانت للشهداء فما معناها في الدنيا بعد انتقالهم منها، وما معناها في الآخرة، بعد أن كانوا في شغل شاغل عنها.. وعن كل ما تثيره من انفعالات وأحاسيس؟

وإن كانت لأهاليهم فلمن هي.. للنبي ﷺ أو لعلي عليه السلام أو لفاطمة عليها السلام فلا نحسب أن القضية تعيش في هذا الاطار من اهتماماتهم، لأنهم في رحاب الله ـ كما كانوا في الحياة لا ينفعلون بالمواقف الذاتية التي تربط الناس بعضهم ببعض، كما أن قضية الحسين في كربلاء.. عاشت في طريق الرسالة وانطلقت في التضحية والاستشهاد من خلال شعاراتها العامة، لا من خلال شعارات الذات.. فكيف يمكن أن نخضعها للاطار الذاتي لأصحاب الرسالة ومجاهديها..

٢ ـ إن طبيعة المؤاسة تتبع طبيعة المأساة.. فإذا كانت المأساة ذاتية كانت المشاركة من موقع الذات بالأساليب الذاتية، أما إذا كانت المأساة منطلقة في طريق الرسالة.. فلا بد أن تكون المؤاساة منبثقة عن ذلك.. فإذا كات آلام الإمام الحسين وأحزانه.. من خلال ما كان يفكر به من قضايا الناس ومشاكلهم، من حيث الحكم الظالم الذي يسيطر عليهم، ومن حيث النظام المنحرف عن خطأ الإسلام، الذي يطبق عليهم باسم الإسلام.. وإذا

كانت الثورة الحسينية.. نتيجة لهذا الاحساس العظيم بالمسؤولية الرسالية الإسلامية في التحرك نحو احداث التغيير الجذري في المجتمع.. ولو بأن تشق الطريق إلى حركات أخرى وثورات جديدة.. فإن المؤاساة تتمثل في الآلام التي تمر بهذا الطريق فإذا كان الحسين قد تألم وهو يقاتل في سبيل الله.. فإن مؤاساتنا له أن تتألم ونحن نجاهد في هذا السبيل.. لأن ذلك هو معنى المشاركة.. بأن تشارك في موقع الألم وصفته، لا من خلال طبيعته الذاتية المجردة.. فلم تكن ثورة الحسين.. من أجل أن يتمخض التاريخ عن أشخاص، يعيشون في بيوتهم بكل استرخاء وكسل.. ولا يضحون في سبيل الرسالة بأي شيء بل ربما تكون حياتهم في الموقف المضاد للرسالة.. ثم يوحون لأنفسهم بقداسة الشعور، فيذرفوا بعض الدموع حزناً على الحسين الذات.. لا على الحسين الثورة في سبيل الفكرة..

٣ ـ إننا لا نوافق على علاقتنا بأهل البيت علاقة ذاتية لنعمل على توثيق هذه العلاقة من الجانب الذاتي، بل العلاقة الصحيحة هي علاقة الولاية، التي تمثل المحبة العملية، وهي الاتباع والقدرة في السير على الطريق الذي ساروا فيه، والعمل على تحقيق الأهداف التي عاشوا لها، في توضيح الصورة الحقيقية للإسلام حتى لا يبقى هناك مجال لشبهة، ولا يبقى هناك موقع لزيف.. بل هي الحقيقة الإسلاميَّة الواضحة التي نزلت على قلب النبي محمد ﷺ فأوضحها القرآن بآياته وجسّدها محمد بأقواله وأفعاله.. ثم الجهاد في سبيل افساح المجال للتطبيق العملي السليم الذي لا التواء فيه ولا انحراف. وعلى هذا الأساس فإن الأسلوب الذي ينسجم مع الفكرة.. هي اعتبار الحزن «سبيلاً للتعبير عن التفاعل بالمأساة من خلال القداسة الرسالية لابطالها مما يعطي لمعنى الشهادة طابعاً إسلامياً مقدساً، يتمثل في صورة المأساة السائرة في طريق الآلام مع خطى الرسالة ثم.. الاتجاه في اعتبار العلاقة بين أبطال الإسلام والمسلمين علاقة روحية تتفاعل بآلامهم من خلال

تفاعلها برسالتهم.. باعتبارهم التجسيد العملي الحي المتحرك لهذه الرسالات فلا تبقى العلاقة بهم جامدة جافة، بل تنفجر بالمحبة والحزن العميق المتطلع لآلام الماضي على أساس آلام الحاضر والمستقبل..

وفي هذا الاتجاه، لا بد من أن يكون الأسلوب منسجماً مع مفهوم هذا الحزن وذلك بالانطلاق مع المأساة بالصور الفنية الرائعة التي تجسد المأساة بالكلمة الموحية، وبالحركة المعبرة.. التي لا تفترق فيها المأساة عن وحي الرسالة، أو عن تطلعاتها الإنسانية الإسلامية فيشعر الإنسان بأن هذه المأساة ليست مأساة الإنسان التاريخي، بل هي مأساة الإنسانية في كل مراحل الحياة.. لأنها نتيجة موقف القضية التي تجسدت في الذات وليست نتيجة لموقف الذات في اطار القضية..

ثم تحويل مجالس المأساة إلى ندوات يعيش الإنسان فيها قضاياه ومشاكله وآلامه في عملية مقارنة بين الماضي والحاضر ليظل الايحاء بالعبرة والحركة في كل مجالاتها.. ثم محاولة استغلالها في الدعوة الإسلامية التي ضحى الحسين من أجلها، وكانت ثورة كربلاء سبيلاً لتحقيق بعض أهدافها الكبيرة في الحياة.

ولا ندري كيف نوفق بين هذا كله.. وبين ضرب الرؤوس بالسيوف أو جرح الظهور بالسلاسل أو ادماء الصدور باللطم.. ولا ندري ماذا تحقق كل هذه الأمور من الهدف الكبير الذي عاشت كربلاء واستمرت من أجل أن يعيش أو يستمر في حياتنا.. أنها لا تحقق إلا هدفاً عاطفياً ينفعل بشخصية الممثل، ولا ينفعل بشخصية البطل، فضلاً عن أن يعيش هذه الشخصية، ثم يزول كل شيء.. لتبقى العاطفة التي لا تلبث أن تزول أمام عصف الرياح الهوجاء المضادة.

٤ ـ إن الدعوة التي أطلقها أئمة أهل البيت عليهم السلام، لاحياء هذه

الذكرى، أو للحزن العميق على المأساة كانت تمثل خطة إسلامية للربط العاطفي بين الإنسان وبين المأساة.. من خلال المفاهيم الإسلامية العامة التي كانت المأساة من أجل أن تعيش وتستمر.. وقد عبر أحد الأئمة عن ذلك بقوله: أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا.. مما يجعل القضية هدفاً تسعى إليه في كل خطواتها وأساليبها بعيداً عن الجوانب الذاتية التي تربط بين الإنسان وبين أبطالها.. وبذلك ينعدم الأساس الذي ترتكز عليه هذه الأساليب في تمثيلها للمعاني التي تثيرها هذه الذكريات في حركة الإسلام في الحياة.

وأما النتائج السلبية التي تتمثل في ممارستها في الواقع المعاصر، فهي أننا نعتقد أن مثل هذه الأساليب تعتبر من وسائل التعبير عن العاطفة.. ونحن نعلم أن الوسائل التعبيرية، سواء منها ما كان بالكلمة أو ما كان بالفعل تتطور تبعاً لتطور الزمن.. فربما تتحول بعض هذه الوسائل إلى صورة من صور التخلف والبدائية بالنظر إلى أنها انطلقت من المستوى البدائي الذي عاش فيه الآخرون وتجاوزه الزمن.. فإذا كن الزمن الماضي يسمح بوجودها لانسجامها مع مستواه، فإن هذا الزمن لا يسمح بذلك فقد أصبحت مثل هذه الأمور مثيرة للاشمئزاز، كما نلاحظه في ردود الفعل التي تحدث لدى الكثيرين من الناس، من دون أن يكون للجانب الديني أثر في ذلك.. ولذلك فقد أصبحت ممثلة للتخلف في حياة الفكرة وأصحابها في نظر الناس مما يلزمنا تغييرها إلى أساليب جديدة واستحداث وسائل أخرى تختلف عنها في الشكل والجو والفكرة. لأنها فقدت قيمتها العملية من خلال ذلك.

وأما الجانب الثاني.. وهو علاقتها بالامتداد الديني في حياة الناس. فإننا لا نمانع في تأثيرها العميق في ذلك في الماضي ولكننا نتساءل: هل يقدر للنتائج الدينية التي تنطلق من هذه اوساليب أن تتجمد عندها، فلا

تتنفس خارج نطاقها في أفق جديد وأسلوب جديد، وهل نقف عن التفكير بتجديد الوسائل الكفيلة باعطاء هذه النتائج بشكل أفضل ومحتوى أعمق.. وماذا نفعل إذا جاءت بعض الظروف الشديدة القاسية فسيطرت على هذه الأساليب وقضت عليها.. هل تترك العمل الدائب الذي يفتش عن الجديد الذي يدعم الفكرة ويفسح لها مجال البقاء والاستمرار ونستسلم للرياح الهوجاء التي تعبث بنا في كل اتجاه.

هذه بعض علامات الاستفهام التي تبحث عن جواب، لنحدد على ضوئه الموقف الحاسم، ولن يكون الجواب إلا رفض التوقف عند هذه الوسائل، ليتجمد التطور العملي في الأساليب، في هذه الأشكال وفي هذه المرحلة.. فإن للدعوة في كل زمان أكثر من أسلوب، وأكثر من وسيلة، فيجب البحث عما يمكن أن يحقق الأهداف الأساسية، ثم يفسح لها المجال لتعيش مع الوسائل القديمة المشوهة، ليتعود الناس على الأجواء الجديدة فينشأ لديهم ذوق مرهف، يألف الأشياء الجملية الرائعة، وينسجمن مع الأساليب الهادئة الوديعة التي تنطلق في حياة الناس، لترفع من مستواهم الفكري، وتربطهم بقضاياهم الكبيرة من خلال ما توحيه المعاني الحية التي تملأ العقل والروح والحياة.. وبذلك تزول الأساليب القديمة المشوهة عندما ينفر الناس منها فيتركوها بشكل عفوي طبيعي هادىء كما نجد حدوث ذلك بالتجربة عندما انطلقت الوسائل القديمة والوسائل الجديدة جنباً إلى جنب في كثير من المناطق، مما أدى إلى زوال القديمة في بعض المناطق، أو زوال جمهور كبير من جماهيرها في مناطق أخرى، واقتصار اقامتها في بعض منها على التجار الذين ينتفعون باقامتها.. وهكذا استطعنا أن نعطي فكرة جيدة عما يمكن أن تحققه الوسائل الجديدة من أهداف أو تجسده من معان.. وبذلك تتفادى سلبيات الصدمة العنيفة التي يحدثها العنف القاسي في طريق ازالتها من الوجود.

ثم إننا نعتقد أن الخوف من الضلال لا أثر له إذا انطلق من شخصيات معروفة بالدين والاستقامة مع القيام بحملة توعية وتوجيه في ضمن خطة مدروسة مركزة تشرح ظروف نشوء هذه الأوضاع، مقارنة بالظروف الجديدة التي تقتضي استبدالها بأوضاع أخرى، وربما كان للتقدم الثقافي والاجتماعي أثره في ذلك.

إننا نركز على ذلك من نقطتين مهمتين:

النقطة الأولى: إن قيمة المنهج الذي يلاحق هذه الأوضاع من أجل تجديدها، أنه يفسح المجال للتجديد وللتطوير في ظل الفكر الإسلاميّ الملتزم مما يجعله منطلقاً في اتجاه التجديد من أجل الإسلام، بينما يسبب اهمال ذلك نشوء الدعوة إلى التجديد والتطوير من خلال مناهج الكفر والضلال ومحاولة القضاء على المبدأ من الأساس.

النقطة الثانية: أن يظل العاملون في سبيل الله، في ملاحقة دائمة للأساليب المتبعة في كل المجالات الدينية الفكرية والعملية، ودراسة ألوانها المتنوعة، من حيث توفر امكانات استمرارها في خدمة الهدف الكبير أو فقدان مثل هذه الامكانات، أو اهتزازها بين ظروف البقاء وبين ظروف الزوال.. مما يحقق للعمل دراسة ميدانية واقعية تكتشف الخطأ في بداية وجوده أو تستوحي الخطر قبل وقوعه.. وينطلق التجديد والتخطيط لعملية التغيير بهدوء ومعرفة.. تمهد للإيجابيات بعيداً عن السلبيات.. وتلاحق المستقبل بالتوجيه والتوعية قبل أن تدركه أخطاء الماضي فتخنقه في مهده.. فلا يبقى هناك مجال للصدفة أو المناسبة التي ينتظرها العاملون من أجل أن تقوم بعملية الانقاذ.

وقد يتمثل هذا المنهج المنحرف في أسلوب ممارسة بعض المبادىء

العامة، فيما يجري عليه بعض المسلمين في تعبيرهم عن المحبة لله، بالأسلوب الذي يجعل منه ـ سبحانه ـ موضوعاً للغزل تماماً كأي موضوع آخر في أسلوبه ومحتواه، ويعتذرون عن ذلك بأنهم يقصدون من ذلك الرمز للحالة النفسية التي يعيشها المؤمن تجاه ربه وربما تمثل ذلك بحلقات الذكر التي يعقدها المتصوفون أو بعض مدعي الصوفية التي يرتفع فيها الوجد ويتعاظم حتى يعرض صاحبه للاغماء أو لما يشبه الاغماء من اهتزاز وحركات شبه هستيرية، تتردد فيها كلمة الله بطريقة مثيرة تتلاحق فيها الحروف تبعاً لتلاحق الحركات العضوية للإنسان.. وربما يتمثل هذا المنهج في طريقة الحديث عن سيرة النبي محمد ﷺ وعن شعورهم تجاه النبي محمد ﷺ في ألفاظ غزلية تعبر عما يحس به الإنسان ازاء النبي محمد من محبة خالصة وعشق عظيم بما يحس به العاشق ازاء معشوقه.. في علاقة شخصية خالصة.

وأحسب أننا نرفض هذا الأسلوب في طريقة التعبير عن محبة الله أو التعبير عن محبة النبي كما رفضناه في طريقة التعبير عن محبة أهل البيت.. لأن علاقتنا بالله هي علاقة العبوديّة التي يتمثل فيها الحب من خلال العمل، الذي يحبه الله ويرضاه، أو من خلال الكلمات الهادئة في دعاء الإنسان لربه على المنهج القرآني الذي أرادنا القرآن أن نتبعه ونحتذيه في عملية ايحاء هادىء.. وذلك بمناجاة الإنسان لله في حاجاته ورغباته، وفي آلامه وأكلامه ليدلل على ارتباطه بالله من خلال الشعور بالحاجة المطلقة إليه في كل شيء، أو المناجاة التي يعبر فيها المؤمن عن الاعتراف بالذنب والرجاء للمغفرة والرضوان كدليل على رجوعه إليه في كل الحالات.. وقد ألمحنا ـ في فصل سابق ـ إلى دلالة بعض الآيات القرآنية على أن التعبير عن الحب يتمثل في اتباع الإرادة الإلهية التي يجسدها النبي كما في قوله تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله.. وبهذا نستطيع أن نقرر ابتعاد مثل هذه الأساليب عما هو معروف ومألوف في المنهج الإسلامي الصحيح..

أما علاقتنا بالنبي فهي علاقة اتباع الرسول من خلال الرسالة، لا من خلال ذاته.. مما يجعل للرسالة مدلولها الوجداني والفكري والعملي في تقديسنا له وتعظيمنا لذكراه، فلا معنى للصفات الجمالية التي نطلقها عليه في حسن الخلقة وروعة، التكوين ولا معنى للاعلان عن الحب الذاتي من خلال المشاعر الذاتية لمعنى الحب، بل ينبغي أن ننطلق في تعظيمه من خلال الصفات الرسالية أو الصفات الذاتية المرتبطة بالرسالة والايحاء الدائم باعلاقات الرسالية التي تجعل من ارتباطنا بالرسالة طريقاً للارتباط به فكراً وروحاً وعملاً.. وبهذه الطريقة يجب أن تكون دارستنا للسيرة وقراءتنا لها.. لنخرج من ذلك بنتيجة كبيرة لمصلحة الثقافة الإسلامية أو الالتزام الإسلامي بالحياة.

إن كل ما نريده في هذا الحديث هو توجيه التفكير الإسلامي والتربية الإسلامية إلى نقد الواقع العملي للحركة الإسلامية في كل أسلوب وفي كل فكر، وفي كل عمل، بعيداً عن طبيعة الغوغائية التي ترفض مناقشة المألوف والمعروف لديها، بحجة أنه مناقشة للمقدسات الدينية، لارتباط هذه الأمور لديهم بالحقيقة الدينية.. فإننا نعتقد أن المقدسات الدينية هي الحقائق الدينية الأصيلة التي تثبت أمام النقد ولا تخضع في طبيعتها لأي اعتبار آخر غير الحجة والدليل.. وبذلك نستطيع أن نحفظ الدين من كل ما يعلق به ـ في مسيرته الطويلة ـ من شوائب وزوائد دخيلة فيه، ونخلصه من الوقوع تحت رحمة العوام والجهال الذين يفرضون على الدين فهمهم السطحي أو الخاطىء للأشياء الأساسية في الحياة.

ولعل مما يزيد القضية خطورة هو أننا نواجه في واقعنا الديني، التحديات العنيفة للدين بشكل عام وللإسلام بشكل خاص.. سواء في ذلك التحديات التي تواجه الفكر والمفهوم الديني للحياة أو التي تواجه الشريعة

والقوانين التي تنبثق منها، أو التي تواجه التطبيق العملي لذلك كله.. وقد يكون من بين هذه التحديات التي تواجهنا هي ما يثيره أنصار الكفر والضلال، من الضباب حول هذه الأوضاع الشاذة في ممارستنا لبعض المبادىء العامة للدين..

ولهذا فإن مواجهتنا لها بالنقد والتأكيد على عدم علاقتها بالدين واعتبارها شيئاً طارئاً منطلقاً من بعض المؤثرات الشخصية والاجتماعية وغيرها يساعد على الوقوف بوجه هذه التحديات بحزم وقوة وتفويت الفرصة على أولئك الذين يصطادون بالماء العكر ويساعد في الوقت نفسه على توضيح الصورة الإسلامية الحقيقية للمسلمين مما يجعل من كل مسلم قوة واعية تفتح عيونها على كل ما هو زائف وعلى كل ما هو أصيل ليستطيع مواجهة التحديات بنفسه على أساس المعرفة العميقة الواسعة.

وأخيراً: إننا ملزمون بالدفاع عن الإسلام الذي نزل على قلب النبي محمد ﷺ وبلغه للناس.. وذلك هو المقياس الصحيح لسلامة أي عمل وقداسته.. أما الأشياء الأخرى التي لا تتجسد فيها الحقيقة الإسلامية الخالصة، لأنها من الأمور الزائدة المحرفة أو المزيفة، أو لأنها من الأساليب والوسائل التي تختلف في قيمتها وعلاقتها بالفكرة، حسب اختلاف الأوضاع والأحوال الزمنية والاجتماعية فلسنا ملزمين بالاخلاص لها والانسجام معها في حياتنا فضلاً عن الدفاع عنها.. لأنها ليست من أصول الإسلام وليست من فروعه بل يجب أن تخضع للنقد والمحاكمة على أساس من الموازين الإسلامية الصحيحة للحكم على صلاح أي شيء أو فساده وبذلك نضمن للإسلام سلامته من التزييف والتحريف، ونضمن لمقاييسنا ابتعاده عن الميل والانحراف.. ونضمن لحاضرنا ومستقبلنا أن لا يعيش تحت رحمة الأشياء

المألوفة. . . ليتحول الدين عندنا إلى تقاليد وعادات لا قيمة لها في ا لمجال الفكري إلا من خلال شياعها بين الناس وتحولها إلى واقع عملي مألوف لدى العامة من المجتمع.

● □ ● □ ●

هل الوجود الدولي للإسلام هو كل شيء

ربما يكون من مظاهر الانحراف في أساليب التوجيه، لدى بعض العاملين للإسلام، هو محاولة التركيز على الوجود الدولي في الإسلام، كمنطلق أوحد للعمل، دون السماح للأساليب الأخرى بالسير في الاتجاه العملي للإسلام.

وبكلمة أخرى: أن هناك فئات من العاملين تشجب كثيراً من الأعمال الاصلاحية في مجال الدعوة، وترى أن من مهمة الداعية أولاً. هو الاعداد لملء الفراغ النفسي المرعب الذي يعانيه الإنسان المسلم من خلال ممارسته لازمة الحكم وشعوره بالضياع تجاه الأشكال المتعددة للحكم اللاإسلامي، وذلك باثارة قضية الحكم الإسلامي أمامه، أملاً يعيش له، وهدفاً يعمل من أجل أن يتحقق، الأمر الذي يركز له شخصيته، ويعمق في داخله الاحساس بدورها المنتظر في بناء الحياة.

ونحن لا نمانع في التأكيد على هذا الجانب الذي يوقظ حركية الإسلام في العمل، لا سيما أن قضية الحكم أصبحت تمثل الاطار الذي يضم كل دعوة أو عقيدة كاملة، بحيث عادت ضرورة حية لاثارة الأهمية بها لدى المجتمع الذي يرى في الفكرة التي لا تعيش للحكم، شيئاً قلقاً لا يعمل إلا لتجزئة حياة الإنسان في نشاطات أخلاقية فردية واجتماعية لا تحل مشكلة ولا تشارك في مصير.

ولكننا لا نرى سلامة الأسلوب الذي يتعمد اغفال القضايا الأخرى التي تفسح للإنسان مجال الالتزام الفردي بأحكام الإسلام وتعاليمه، كهدف مرحلي يستهدف افساح المجال لتحرك الإسلام في الاتجاه الذي يحاول اغناء الفرد روحياً وفكرياً بالمضمون الحي للإسلام، لئلا يعود الإنسان المسلم مجرد صوت يرفع قضية، أو كف تحمل لافتة، أوحركة تحمل شعاراً من دون أن يحس بحرارة الفكرة في داخل الوجدان، وحلاوة الكلمة في دعوة الإيمان.

إننا لا نشجع اغفال هذه الحركة العملية في داخل الإنسان المسلم لئلا يعود مجرد مفكر يفكر للإسلام، لا يتحول تفكيره إلى التزام، أو تخطيطه إلى عمل.

أما السبب في ذلك، فإننا نعتقد أن للإسلام وجودين، أحدهما في اطار الدولة، وثانيهما في الاطار الفردي والاجتماعي، وبذلك يختلف الإسلام عن غيره من المبادىء الفكرية والاجتماعية السائدة فلا يمكن للإنسان المسلم أن ينتظر قيام الدولة الإسلامية ليطبق الإسلام على نفسه في حياته الفردية والاجتماعية، بل لا بد له من أن ينسجم مع المفاهيم الإسلامية في جميع شؤون حياته، وأدوارها ليحقق طبيعة المسلم (الفرد) في طريق تكوين المسلم (المجتمع في اطار الدولة).

ولعل الأساس في ذلك، ثابت في طبيعة التصور الإسلامي للحياة التي يريد ايجادها وتركيزها من حيث انطلاقها من داخل الذات السائرة أبداً في خط العقيدة، لا من طبيعة النظام العام الذي تقره السلطة، ولهذا لم يجعل وجود السلطة شرطاً أساسياً لتطبيق الإسلام في حياة الفرد والمجتمع بل اعتبر التكليف نافذ المفعول حتى في حال غياب السلطة الحاكمة، أو انحراف الحاكم، ولم يكن ذلك إلا لأن الإسلام يؤمن بالأهداف المرحلية في مجال

العمل والتطبيق، فإذا لم يمكننا بلوغ الهدف الكامل من التشريع في اطار تطبيق النظام الإسلامي بجميع خطوطه وشرائعه فقد نستطيع بلوغ بعض مراحل هذا الهدف على الصعيد الفردي والاجتماعي، وبذلك نكفل للإسلام استمرار مسيرته في حياة الإنسان في جميع الظروف والحالات كدين يبني للإنسان ضميره ويرعى حياته.

ونعود فنقرر ونؤكد: أننا لا نهدف من ذلك كله إلى أن يتقاعد الإنسان المسلم عن العمل الهادف إلى اعادة الإسلام إلى مكانه الطبيعي في قيادة الحياة، بل نريد أن نقرر: أن هذا الانفتاح الإسلامي على حياة الإنسان في جميع الأحوال والظروف يدفع المسلم إلى البقاء في الخطوط الدقيقة للإسلام والالتزام بمبادئه وتعاليمه من دون انتظار للاشارة التي تعلن قيام الحكم الإسلامي.

وكمثل على ذلك.. نجد أن المبادىء والتيارات الحديثة التي تحاول أن تنظم حياة الإنسان في اطارها العقيدي، تلزم الإنسان بالسير في خطها العام قبل أن تتسلم السلطة، لأن الفكرة ـ في مفهومها ـ لا تستطيع الحياة إلا في داخل هذا الاطار، فلا فائدة في الالتزام الفردي بحدودها المعينة في اطار يختلف عنها اختلافاً كبيراً لأن ذلك لن يقدم أو يؤخر شيئاً في هذا الموضوع.

وعلى هذا الأساس، فلا مانع للإنسان الاشتراكي أن يمارس دور الرأسمالي في حالة غياب الاشتراكية عن الحكم لأن دوره يمثل حلقة من سلسلة متصلة فلا يعطي النتيجة المطلوبة بشكل مستقل ما لم ينضم إليها...

أما الإسلام فلا يمكن أن يسمح للإنسان المسلم، مهما كانت الظروف والأحوال، بأن يمارس الربا في المجتمع الرأسمالي بل يريد منه أن يبقى على التزامه الشرعي في جميع علاقاته، فإذا كان هناك مجال للرخصة، أو سبيل للتسامح، فلن يكون ذلك في اطار الربا من حيث الشكل

والمضمون، بل يحاول أن يوجد له صيغة قانونية أخرى تبتعد به عن السير في هذا الاتجاه وليس ذلك إلا ليحفظ للإنسان نظافته الداخلية، والتزامه الفردي، قبل أن يدخل في المجتمع ليكون عضواً فيه، لأن مجال الإسلام ليس هو الفرد وحده، ولا المجتمع وحده، بل الفرد في اطاره الذاتي والاجتماعي، وكذلك المجتمع، كأفراد يحاولون أن يندمجوا في الكل، وككل يهدف إلى أن يرعى الأجزاء من الانحراف والذوبان والتلاشي في غمار الضياع.

وبذلك تتخلص من النماذج الاجتماعية التي تعتذر عن عدم التزامها الإسلامي بانتظار الحكم الذي تدعو إليه حيث يستطيع أن يطبق الإسلام بجملته على الأفراد بما يقدمه من أجواء نظيفة يستطيع الإنسان ـ معها ـ بأن تنفس روحانية الإسلام فيحمي خطاه من الانحراف والزلل.

إننا نعتقد أن من واجب العاملين للإسلام، أن يستثمروا أي مجال للنشاط الإسلامي، فيندفعوا فيه وأن لا يجمدوا العمل في نقطة معينة، ليظل العمل حراً في حركته، ينتقل من جو إلى جو، ومن مجال إلى مجال، ليعطي كل دور القوة للدور الآخر، وتتجمع كل الأدواء لتسند أو تدعم الدور الكبير الذي ينطلق ليستوعب الحياة كلها في الفكر والعقيدة والتشريع، وليحكم الحياة على أساس كلمة الله وشريعته.

● □ ● □ ●

الفصل السابع

مع النبوة في أساليبها ودروسها

١ ـ التجربة النبوية كيف ندرسها؟

٢ ـ دروس الدعوة في حياة الأنبياء.

٣ ـ دروس الدعوة في حياة النبي محمد (ص).

٤ ـ مخاطبة الأمة في القرآن من خلال النبي.

الحركة النبوية
كيف ندرسها؟

لم يكن العمل الإسلامي بدعاً من الأعمال.. لنبحث له عن جذور جديدة، أو بالأحرى، لنعمل من أجل أن نمد له جذوره في أعماق الحياة، بل هو امتداد للعمل الرسالي الذي تمتد جذوره إلى الأعماق البعيدة في غور التاريخ، لأنه يرتبط بتاريخ الرسالات والنبوات الغنية بالتجارب العملية في مجال الدعوة، أسلوباً وحركة وجهاداً وتضحية في سبيل الله، ويرتبط بالرسالة الإسلاميَّة في حركتها المنطلقة في حياة النبي محمد ﷺ في رسالته وجهاده وتضحيته وطريقته في الحياة وفي أسلوب العمل وطريقة التبليغ، وفي حياة الأئمة والصحابة والمجاهدين والعلماء العاملين والدعاة المسلمين في كل زمان ومكان..

وإذا كان للعمل هذه الجذور العميقة الممتدة، من حيث هو حركة دينية إسلامية، فلا بد لنا من أن نلتفت إلى كل التجارب الماضية في مجال الحركات الرسالية، ولا نغفل ما رافقها من نكسات وانتصارات وما تبعها من أرباح وخسائر وما طرأ عليها من مفاهيم موافقة للخط الرسالي أو مخالفة له.. وما حدث فيها من انقسامات على أساس اختلاف الفكر، أو اختلاف الموقف، أو اختلاف المصالح والأطماع،.. فقد يكون لذلك كله تأثير على

طبيعة العمل في اطار الفكرة أو على طبيعة الحركة في اطار الأسلوب، أو على طريقة الممارسة في نطاق التطبيق، لأن ذلك يمثل بعضاً من ثقافة أفراد الأمة ومن انتماءاتها، ومن رواسبها المختفية في اللاشعور التي تترك بصماتها على حركة العمل المعاصر تبعاً لخضوع الإنسان المسلم لتلك التأثيرات ولأن ذلك من جهة أخرى، يرسم للفكرة الدينية صورتها في وعي الناس وفكرهم ويولد لهم المشاعر المتناقضة تبعاً لتناقض الصور التاريخية، للتجربة الدينية المتنوعة، ويحدد لهم مواقفهم الإيجابية والسلبية على أساس ذلك ولأن ذلك يمتد في عمق الفكرة وشمولها، فيغنيها بالحياة، تارة من خلال اتجاه أو تفسير أو تجبرة حية، ويفقرها، تارة من خلال الاتجاهات التي لا تملك الغنى الروحي في المعاني الحية للحياة وقد يجمدها في بعض المفاهيم والأفكار ويحركها في بعض آخر.. وربما يعزلها عن الأمة في جانب أو يدخلها، في جانب آخر، إلى صميم حياتها. وهكذا يبقى للتاريخ الرسالي بكل جوانبه المشرقة والمظلمة دوره الكبير في حركة الرسالة وامتدادها في نطاق الحاضر والمستقبل..

فكيف نواجه ذلك التاريخ، وكيف نرتبط به وكيف نستفيد من تجاربه...

ذلك هو السؤال الذي يواجهنا في هذا الحديث.. ونحاول الإجابة عنه.. ولكن لا بد لنا ـ قبل ذلك ـ من استعراض الأسلوب الذي نعالج فيه، ذلك التاريخ والطريقة التي نحاول أن نستخدمها في فهم قضاياها...

إننا نلاحظ أننا ندرسه بشكل تقريري جامد، ينقل القصة من خلال استيحاء قداسة الرسول لا قداسة الرسالة أو بالأحرى من خلال تنفيذها بشخصية صاحب الدعوة، من غير التفات إلى حركة الرسالة وشخصيتها في حركته وشخصيته.. وفي هذا الجو، تبدأ القِصّة كسيرة ذاتية للرجل لا

للرسول ـ حتى أن الرسالة، تمثل، في طريقة العرض ـ حدثاً من أحداث حياته الخاصة، أما أخلاقه وأساليبه في العمل فهي من مميزاته الفريدة التي لا يمكن لأحد أن يبلغ شأوها، أو يقترب من مستواها، فلذا، فلا مجال لدى هذا الاتجاه، من الاحتجاج على اتباع الإسلام بأخلاق النبي وأعماله، لأن تلك المميزات من خصائصه الذاتية وليست ميزة إسلامية يمكن للآخرين أن يحتذوها ويقتدوا بها في حياتهم العامة كمسلمين يعملون على التدرج في مدارج الكمال. . .

وقد شارك هذا الاتجاه، في تركيز العلاقة بين الأنبياء وأتباعهم على أساس شخصي، مما جعل التقديس الروحي يتجه إلى الأشخاص، أكثر مما يتجه إلى الرسالة. . فنراهم يمارسون الكثير من الطقوس التي تمثل الإخلاص للنبي، في الاحتفال بذكراه وزيارة قبره، بينما لا نجد مثل هذا الاهتمام في ممارساتهم لواجبات الرسالة وطقوسها والتزاماتها. . وقد تطورهذا الوضع إلى نشوء نوع من أنواع المدح النبوي الذي يتغزل فيه المادح بحسن النبي وجماله ويقف ليبث فيه وجده ولوعته وشوقه تماماً كما يتغزل أي حبيب لحبيبه فلا تشعر بالرسالة، في هذا الجو، إلا من خلال الجانب الذاتي الذي يثيره الغزل. . . وأصبحت هذه القضية ظاهرة عامة في كل الارتباطات النفسية التي يشعرون بها ازاء الأنبياء والأولياء والعلماء والأئمة، فإن القضية تبدأ بالارتباط بالرسالة التي تربطهم بالرجل من خلالها لتنتهي بعد ذ لك إلى الارتباط بالرسالة من خلال الرجل، أو إلى الارتباط بالرجل فقط، كما نلاحظه في الطريقة العملية والتربوية في توجيه كل المشاعر والأحاسيس إلى الذات المقدسة في علاقة حب شخصي لا دخل له بالدين، الأمر الذي نلاحظ فيه، أنهم يثأرون للتعدي على كرامة الشخص بالسب أو الكلام المهين من قبل الأعداء ولا يثأرون للتعدي على الدين أو على ذات الله العظيمة المقدسة، بالسب والشتم بل ربما يمارسون ذلك في سلوكهم

الخاص عن قصد أو غير قصد..

وقد أصبح من المألوف أن نجد هناك خلافات حادة بين العلماء أو بين العامة من الناس حول تفضيل هذا النبي على ذاك النبي أو تفضيل أحد الأئمة على نبي وأكثر من نبي، أو المقارنة بين منزلة السيدة مريم بنت عمران (أم المسيح) وبين مقام السيدة فاطمة الزهراء (بنت الرسول ﷺ) ... لأن القضية تحولت إلى شيء يرتبط به الزهو الذاتي بالانتماء إلى هذا الشخص أو ذاك أو هذه أو تلك.. مما يجعل لمسألة المفاضلة والتقييم دوراً كبيراً في الموضوع.. وإلا فما معنى كل هذا الحديث... وما أثره... وهل يعدو إلا أن يكون ترفاً فكرياً لا فائدة منه، أو عبثاً فارغاً لا طائل تحته،.. إن هذا الأسلوب التقريري التقليدي في فهم علاقاتنا بالرسول هو الذي أدى إلى هذه النتائج الفكرية والعملية.. لأننا لم نشعر بالرسالة وهي تتحرك في مراحل القصة وأدوارها بل كان كل شعورنا يتركز على الرسول، وهو يتحرك، فتتحرك الرسالة من خلاله، لتفهم تبعاً لفهمه، وهذا ما نتحفظ فيه، ونرفضه انطلاقاً من منهج القرآن الكريم الذي كان يتحدث عن الرسول من خلال الرسالة، سواء في ذلك في أخلاقه أو محاوراته، أو في حربه وسلمه، وعلاقاته بالناس وبأهل بيته وأزواجه... ثم أطلق الفكرة الإسلامية الواضحة التي تدفع المسلمين إلى الانتماء إلى النبي من خلال صفته الرسالية ليكون الانتماء إلى الرسالة بالذات وذلك في قوله تعالى:

ـ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ـ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ونجده في حديثه عن الأنبياء الذين تقدموا على النبي محمد ﷺ في الزمان.. ينطلق من الفكرة التي لا تخرجهم من اطار البشرية، إلا في نطاق الرسالة وارتباطهم المباشر بالله، من طريق الوحي،.. فهم يمرون في حياة الناس مروراً خفيفاً، من خلال رسالتهم التي هي رسالة الله وإرادته الخالصة في الحياة، فهي التي تبقى وتخلد، أما هم فسيموتون كما يموت سائر الناس، ولذلك فإنهم يعملون لتحقيق ارتباط الناس بالرسالة لا بهم بالذات، الأمر الذي جعلهم لا يتحدثون عنأنفسهم إلا من خلالها ولا يوجهون الناس إلى أي نوع من أنواع التقديس الذي اعتاده الناس في أية كلمة أو اشارة عمل مما استحدثوه من بعدهم من دون أن يكون لهم دخل فيه.

وقد نجد ذلك في الآيات التي تتحدث عن حوار نوح مع قومه.. حيث نلاحظ أنه وقف أمامهم وقفة الرسول الناصح الأمين الذي يبلغهم رسالات ربه ولا يملك لنفسه أي شيء خارج هذا الاطار ولا يستطيع أن يغير أو يبدل في مهمته وفي التعليمات الموجهة إليه لأنه يخاف من المسؤولية ومن العقاب تماماً كأي مسؤول آخر يتجاوز حدود مسؤوليته أوي تمرد عليها.

- ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ * وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَٰقَوْمِ مَن

﴿يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٢٥ ـ ٣٢].

فإننا نلاحظ أنه لم يحاول أن يربطهم بذاته من خلال أي شيء غير عادي، بل حاول أن يبعدهم عن احتمال أي شيء من هذا القبيل، مما اعتاد الناس أن يظنوه أو يرغبوه أو يزعموه للأنبياء من قوى خارقة مادية وروحية.. ثم انطلق يدافع عن موقفه من اتباعه الفقراء، من موقع الرسالة التي تحترم أتباعه، ومن مركز الرسول، الذي لا يخذل المؤمنين، بل يخشى الله لو أراد أن يفعل ذلك خضوعاً لضغط القوى المسيطرة في المجتمع.

وإذا تتبعنا القرآن الكريم عن الأنبياء لوجدنا نفس الفكرة ونفس الروح ونفس الأسلوب..

وعلى ضوء هذا نبدأ الجواب عن السؤال: كيف نواجه ذلك التاريخ.. فقد نجد أننا نواجهه كتاريخ للرسالة التي نحملها، من حيث تجسيده للتجارب الأولى في حركتها الصاعدة، ومن ثم فإن علينا أن ندرسه بالروح التي تعمل على أن تستلهم تجاربه الناجحة، في تجاربنا العملية، ونستوحي من خطواته المتعثرة ما يجنبنا من الوقوع في عثرات الخطوات المماثلة، مع استبعاد القضايا التي تخضع لحدود الزمان والمكان فلا تمتد إلى غير مرحلتها الزمانية، ولا تتسع لغير ظروفها المكانية.. لتبقى لنا النتائج العامة الشاملة التي تحتضن كل تطورات الحياة، وتظل في عناصرها الأساسية فوق قوانين التغير والزوال. لأنها تخاطب الإنسان في حدود إنسانيته وجوهرها الأصيل.

وفي ضوء ذلك لا تعود شخصية النبي في نطاق التاريخ، مجرد شخصية تاريخية مقدسة تتعاطف معها في خشوع كما يتعاطف الإنسان مع مقدساته في غيبوبة صوفية غائمة، تجتر الألفاظ والعواطف والمعاني التقليدية، بشكل تقليدي ممل.. بل تعود إلى وعينا، لنمثل دور القوة الفاعلة المحركة للرسالة في حركة التاريخ، فتكون صلتنا بها صلة رسالية سواء في ذلك جانب الفكر وجانب الشعور.

وتشمل دراسة التجربة، في هذا المجال، عناصر النّجاح في شخصية النبي الداعية، من حيث هي عناصر لنجاح الدعوة وعناصر الفشل، في طبيعة الواقع الموضوعي الذي يحيط بالتجربة من حيث هي عقبات أمام تقدم الدعوة ونموها وأساليب الدعوة، وطريقة العمل، ونوعية الحركة، وما تشتمل عليه من ايجابيات وسلبيات وتنويع المؤثرات التي تحكم التجربة، في أسلوبها العملي، باستبعاد المؤثرات الآنية المنبثقة عن الظروف الموضعيّة المحدودة، واستبقاء المؤثرات المنطلقة من طبيعة الدعوة، ثم دراسة ردود الفعل الناتجة عنها.. وتأثيرها على سير الدعوة في مناطقها التي تحركت فيها، وفي خارجها.. وفي انعكاس النجاح والفشل على شخصية اتباع الدعوة وأعداءها، وعلى امتدادها لى خارج حدود الزمان في أجيال جديدة ومواقع متقدمة.

وقد ينبغي لنا التأكيد في هذا المجال على جانب الصمود والصبر التجربة النبوية، بتصوير الأوضاع الصعبة والظروف القاسية، وألوان العذاب والاضطهاد والتنكيل، والأساليب المتنوعة من الحرب النفسية المتمثلة بالسخرية والاستهزاء والتخويف والتهويل.. وغير ذلك من الأمور التي كان يعانيها الأنبياء وأتباعهم.. من طغاة عصرهم من القادة وأشياعهم.. فقد نخرج من التأكيد على هذا الجانب والإفاضة فيه بفوائد ثلاث: الأولى:

التركيز على قيمة الدين في اغناء المؤمنين بالرصيد الروحي الكبير المتصل بالله، الذي يشحنهم بالقوة على مجابهة مواقف الاضطهاد بالصبر الهادىء، والنفس المطمئنة، وعلى الارتفاع بالمشاعر القوية فوق حدود المأساة، فلا تملأ المأساة ـ التي تحيط بهم ـ عيونهم بالدموع، بل تملأ قلوبهم بالرضا، وعيونهم بالفرح الروحي، ومواقفهم بالاصرار على تحويل المأساة في واقعهم الذاتي إلى تجربة تتحرك لمنع حدوث المأساة في حياة الآخرين.

الثانية: الايحاء للدعاة المسلمين بواقعية المواقف الصامدة الصابرة، وقيمتها في تحقيق النتائج الإيجابية في نهاية المطاف على أساس من التجربة والإيمان.

الثالثة: اغناء التاريخ الرسالي الحركي بالابطال في حركة النبوات، سواء في ذلك ما يتمثل في بطولات الأنبياء أو في المواقف البطولية لأتباعهم من المؤمنين. فإننا نشعر بالحاجة الملحة إلى الأبطال التاريخيين الذين يمتزج فيهم جانب البطولة بجانب القداسة، أو الذين تجتمع فيهم معاني البطولة ومواقف التضحية في نطاق العقيدة لئلا نحتاج إلى استعارة أسماء أبطال آخرين لا يمثلون خط الرسالة، في أساليبنا التربوية التي تعتمد في بعض مجالاتها، على أسماء الأبطال ومواقف البطولات ليجتمع للأمة عنصر القدوة إلى جنب عنصر الفكرة.

وقد كان من بين الأهداف للقصة في القرآن الكريم، هو تثبيت النبي والذين آمنوا معه على ما كانوا يلاقونه من العذاب والاضطهاد والحرب النفسية، بالأسلوب الاستعراضي لتاريخ النبوات السابقة.. ونتائج مواقفها الصامدة الصابرة، ليجدوا في ذلك العزاء والأمل بالنصر من جهة من خلال الواقع التاريخي ولينفتحوا على ما في الإيمان بالله من غنى روحي يبعث

الحياة والطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين.. كما نجده في الآيات التالية:

١ ـ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

٢ ـ ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۞ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٤].

٣ ـ ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

٤ ـ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾

[الحج: ٤٢].

٥ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١].

٦ ـ ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الزخرف: ٦].

٧ ـ ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۞ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

٨ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

فإننا نلاحظ في هذه الآيات استعراض أساليب الاستهزاء والايذاء والتكذيب، بشكل عام، التي قوبل بها الأنبياء السابقون من قبل شياطين الإنس والجن، فكانت مواقفهم تتمثل بالصبر والصمود، حتى جاءهم النصر من عند الله. . . لتوحي للنبي أولاً، من خلال الإيحاء إليه، بأن عليه أن يكون امتداداً لهذا التاريخ العظيم، وإلا فليحاول أن يبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء لأن ذلك هو سنة الله في الحياة في رسالاته وفي رسله، ولن تجد لسنة الله تحويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا، فلا رسالة إلا بجهاد ولا جهاد إلا بصبر وإرادة وتصميم.

ولعلنا نخلص ـ من هذا العرض الطويل ـ إلى النتيجة العملية في الدراسات الدينية التي يحتاجها الداعية في ثقافته الذاتية، وفيما يقدم للآخرين من عطاء ثقافي إسلامي، يستهدف ربط حركة الدين الحاضرة بالحركة الدينية الممتدة في أعماق التاريخ. . وذلك في قصص النبيين كتجربة للدعوة وكمنطلق للحركة وكموقف للتنفيذ. . مع مقارنة واعية، بين واقع الرسالات في تصوير القرآن لها بالصورة الدقيقة المشرقة، وبين ما أضيف إليه من تزوير وتشويه وتزييف، في التاريخ الموضوع الذي أريد له أن يقدم لنا الصورة المشوهة القاتمة لحركة الرسالات ولشخصية الرسل. . .

إننا نؤكد على هذا الجانب الثقافي من دراساتنا الدينية، لأنه يمثل أحد العناصر الحية لبناء الشخصية الثقافية الدينية، فيما تملكه من انطباعات، وفيما تحمله من تصورات، وفيما تؤمن به من تفاصيل العقيدة. .

وقد يبدو للبعض من الناس، أن هذا الجانب القصصي، لا يرتبط بنا بشكل مباشر لأن علاقاتنا بالأنبياء السابقين تقتصر على الإيمان في مستوى أخذ العلم والخبر بوجودهم وبرسالاتهم من دون أن يكون لذلك أثر عملي في حياتنا العامة والخاصة، لأن علاقتنا الرسالية تبدأ وتنتهي بالنبي محمد ﷺ وبرسالته وشريعته، فهي المنطلق الوحيد لنا من ناحية فكرية، وهي المصدر الأساسي من الناحية التشريعية..

ولكننا نرفض هذه الفكرة لأن القرآن الكريم قد أكد على وحدة الرسالات، كما أكد على وحدة الإيمان بالرسل، كما يشهد بقوله تعالى:

ـ ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وبهذا فإن المسلمين يتبنون كل ما جاء به الأنبياء مما حدثنا عنه القرآن الكريم والسنة الصحيحة إلا ما ثبت نسخه لارتباطه بظروف موضوعية محدودة بزمان ومكان معين، لأن الإسلام يتبنى ذلك ويزيد عليه انسجاماً مع كلمة النبي محمد ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقد عرفنا في بعض من الحديث المتقدم السر الذي يربط الحركة الدينية المعاصرة بحركة الدين في التاريخ... الأمر الذي يجعل من الخطأ في فهم هذا التاريخ، انحرافاً في فهم الإسلام ومن النقص في هذا الجانب الثقافي نقصاً في الثقافة الإسلامية لدى الداعية المسلم.. في المضمون والأسلوب هذا في تاريخ التجارب الرسالية الدينية من وجهة عامة...

أما قصة التاريخ الإسلامي، والتجربة الإسلامية النبوية، وما يتفرع عنها عن تجارب الأئمة والصحابة والتابعين فإن لنا منها موقفاً آخر، باعتبارها

التجربة الأم لكل حركة إسلامية سابقة ولاحقة، والينبوع الصافي الذي يرتوي منه الظامئون الذين يعانون من ظمأ المعرفة المحرق الذي يحس به كل من استقبل الحياة بدعوة الإسلام وواجه مشاكلها بحلوله، مما يجعله يواجه في كل مشكلة جديدة رغبة شديدة في معرفة طبيعة الحل، من خلال الينابيع الأولى، والجذور الثابتة في أعماق الأرض..

أما تجربة النبي محمد ﷺ بالذات فهي شريعة إسلامية، لأن عمله رسالة ومصدر تشريعي كما أن قوله رسالة ومصدر للشريعة.. انطلاقاً من الآية الكريمة التي تدعونا إلى التأسي به والاقتداء بعمله:

ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولقد جاء القرآن الكريم ليؤكد لنا على عمق هذه التجربة ودورها الكبير، فقد كان يرعاها ويوجهها بالتأييد تارة وبالنقد أخرى، والإيحاء بالتوجيه الروحي والعملي في مجالات أخرى حتى تحول القرآن إلى وثيقة أمنية مقدسة للتجربة الإسلامية الرائدة، فقد جاء في السيرة النبوية الشريفة أن النبي كان يواجه المشكلة في حياة المسلمين، في شؤون الحرب والسلم.. وكانت المشكلة تتفاعل في واقعهم حتى تتحول إلى قلق ينتظر كلمة النبي الذي كان ينتظر كلمة الله.. وربما تمتد القضية إلى وقت غير قصير.. والنبي ينتظر، والمسلمون ينتظرون وربما يبدو من بعض المسلمين الرأي الذي يحلو للآخرين فيتحركون للتنفيذ، ويهم النبي بموافقتهم على ما يريدون فينزل الوحي بعد ذلك ليصحح الخطأ الذي وقعوا فيه، أو يبارك الخطوة التي ساروا عليها، ويحل لهم المشكلة التي تخبطوا فيها.. وبهذا كانت كل آية تمثل موقعة حرب أو واقعة سلم أو خلافاً وقع بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين الكافرين، حتى أوضاع النبي العائلية ومشاكله الخاصة.. كان لها

جانب كبير في القرآن لأنها تمثل تجربة إسلامية رائدة في السلوك العائلي للأسرة المسلمة في مسؤولية رب العائلة أمام أسرته، ومسؤوليتهم أمامه... وقد جاءت الآية الكريمة التي ترد على سؤال أو اعتراض بعض الناس حول السبب في نزول القرآن آيات متفرقة، وعدم نزوله دفعة واحدة ككتاب شامل...

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

قال في مجمع البيان(١): «أي لنقوي به قلبك فتزداد بصيرة وذلك أنه إذا كان يأتيه الوحي متجدداً في كل حادثة وفي كل أمر كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته».

وقد نواجه في القرآن الكريم المواقف الحادة الحاسمة التي كانت تواجه النبي والمسلمين، بحساب المسؤولية الدقيق فيما يأخذون وفيما يتركون، حتى أنك لا تشعر، وأنت تقرأ الآيات الكريمة في هذا المجال بالأجواء الهادئة الساكنة التي تلف الواقع، بل تتفجر أمامك الأجواء لتراقب بقلق واهتمام، امكانات الانحراف أمام حالات الضعف، فتبادرها بالتهديد والوعيد أو باللوم والعتاب أو بغير ذلك من الأساليب التي تنطلق من الله سبحانه في خطابه إلى النبي، كايحاء للأمة.. مما يجعلك تعيش جو الدعوة وهي تتحرك في نطاق المسؤولية، تماماً كأي داعية أمام أي مسؤول، فيوحي إليك بأن قصة الرسالة لا تحتمل المجالات الشخصية والحسابات الذاتية لأنها قضية الإنسانية التي لا يمكن أن تستجيب لأي انفعال عاطفي على حساب مصالحها الحيوية، مهما كانت الظروف والاعتبارات والأشخاص «وقد قدمنا الحديث عن هذا الجانب في فصل سابق».

---

(١) مجمع البيان: في تفسير القرآن ج٧، ص ١٦٨ ـ طبعة صيدا.

وربما كان من القضايا التي يجب أن تتوفر عليها في دراستنا.. طبيعة المجتمع الذي عاش فيه النبي في بدء الدعوة، وعقائده وثقافته وعلاقاته وطريقة مواجهته للأحداث، وأسلوبه في الجدال.. لنستطيع فهم التجربة النبوية بشكل عميق مستوعب، وتفهم ـ إلى جانب ذلك ـ كيف يمكن لنا أن ننقل هذه التجربة إلى حياتنا عند مواجهتنا المجتمع الذي تتحرك فيه فما إذا كانت الأوضاع والمعطيات العامة متوافقة في سلوك كلا المجتمعين مع استبعاد المؤثرات الخاصة التي تحكم بعض الأساليب المطروحة في التجربة..

وربما تظهر قيمة هذه الدراسة، في تحديدنا الخطوط الفاصلة بين النظرية والتطبيق، فقد تنطلق التجربة في سلوك النبي من حيث هو مشرّع يرسم خطاً عريضاً لا يخضع للحدود المعينة التي تحدد الفكرة في اطار المناسبة وقد تنطلق في سلوكه، من حيث هو داعية ينطلق في حركته من دراسة المبدأ والواقع في عملية تطريقية تستمد عناصرها من الظروف والأوضاع الآنية المحيطة بالتجربة.. وقد تتمثل في التجربة سلوكية الحاكم الذي يتحرك من خلال السلطة التنفيذية الممنوحة له من الله بما أراه من وجه الحق في القضية..

إن علينا أن ندقق كثيراً في هذه الجوانب عندما نريد أن نقرر أي حكم أومفهوم أو موقف على أساس التجربة لئلا نقع في خطأ الخلط بين جهات انطلاق التجربة من حيث الصفات المتنوعة التي تحكم شخصية النبي الذي اجتمع له ما لم يجتمع لنبي قبله، من الصفات العملية فقد كان يتحرك من خلال صفة الرسول والداعية والمشرع والحاكم، ولكل واحدة من هذه الصفات أسلوب يختلف عن أسلوب الآخر وحكم يختلف عن حكمه..

وقد يكون من بين القضايا التي يجب أن ندرسها في التجربة الإسلامية الأولى، هي التفرقة بين تجارب النبي بالذات التي مارسها بنفسه، أو أقر عليها غيره، وبين تجارب غيره من المسلمين في عهده، وبعد وفاته، لأن التجربة النبوية معصومة من الخطأ لا سيما في مجال الدعوة بينما لا مجال للقول بعصمة تجارب غيره ما لم تكن مقرونة بموافقته واقراره (إلا في أئمة أهل البيت علي وأولاده الأحد عشر الذين يقول الشيعة الإمامية بعصمتهم). . فلا بد من عرض هذه التجارب على المبادىء الإسلامية العامة، وممارسة عملية الاجتهاد فيها، لنستطيع اعتبارها تجربة إسلامية رائدة للحركات الإسلامية الأخرى. . وإلا فإن اجتهاد أصحاب هذه التجربة قد لا يكون حجة علينا، ولا يكون مسلّم الحجية عند جميع المسلمين. .

وربما كان من الاخلاص لهذه الدراسة، أن تترك الطريقة التي اعتمدناها في دراستنا لأبطال التاريخ الإسلامي من حيث التأكيد على الجانب الذاتي، واعتبار الجوانب الرسالية مجرد صفات ذاتية ترفع من مستوى البطولة فيه. . . مما قد يؤدي إلى قبول أي حديث مهما كان ضعيفاً إذا كان متعلقاً بجانب من جوانب العظمة الشخصية في حياته، حتى ولو كان على حساب القيم الإسلامية كما نراه في الأبحاث التي تتوفر على دراسة السيرة لكثير من أبطال هذا التاريخ من الأئمة والصحابة وغيرهم، فينسبون إليهم بطولات لا أساس لها، وفضائل وكرامات لا مبرر لها استناداً إلى أحاديث ضعيفة يرويها الكاذبون والوضاعون والغلاة ممن لا يخافون الله فيما يرون وفيما يحدثون، لقاء عقدة نفسية أو ثمن بخس يبيعون به دينهم وضميرهم. . وينقل الباحثون والدارسون والمترجمون ذلك كله. . لأنهم يريدون أن يحققوا زهواً بالعظمة والقداسة فيمن يحبون أو ينتمون إليهم ولو على حساب السيرة والحقيقة والتاريخ والعقيدة، ويعتذرون عن ذلك بأنها ليست من أحاديث الحلال

والحرام حتى يدقق فيها المدققون، أو يرفضها المحققون الذين لا يقبلون إلا ما كان خاضعاً لميزان الجرح والتعديل في علم الحديث والرجال. . ولكن هذا العذر غير مقبول لدى الذين يشعرون بأن من مسؤولية المسلمين أن يحافظوا على مقياس الحق في الأشياء في كل المجالات سواء في ذلك جانب الحكم أو المفهوم أو الموقف فلا يسمحوا للزيف أن ينفذ إلى شيء من ذلك لأن الصورة الإسلامية لا تكتمل إلا من خلال استكمال كل الجوانب العامة والخاصة. . وليست القضية كما يزعم هؤلاء من أنها لا تشكل خطورة على الإسلام. . بل ربما كانت الخطورة فيها بشكل أكبر وأشد، لأن الارتباط بالأشخاص من خلال هذه القيم المفتعلة الموضوعة، يوجب ارتباطاً بكل ما يفكرون به أو يعملونه أو يقولونه، ولأن افتعال القيم يفسح المجال لولادة تقييم منحرف ينعكس على طريقة الحكم على الأوضاع والأشخاص مما يوجب الاساءة إلى بعض الذين يفقدون هذه الصفات واعطاء الذين يجدونها أكثر ما يستحقون ونعتقد أن كثيراً من هذه البطولات أو الفضائل الوهمية التي أضيفت إلى تاريخ هؤلاء بدون حساب، لو حذفوها.

واقتصروا على الأمور الحقيقية منها، لكان في ذلك كفاية للأبطال الحقيقيين، فإن الحقيقة تكفي صاحبها من دون حاجة إلى أية زيادة أو افتعال.

إننا نريد أن نتخلص من ذلك ليكون ارتباطنا بالرسالة طريقاً للارتباط بالأشخاص الرساليين، وتقديسنا لمعناها سبيلاً لتقديس الأشخاص الذين تعيش تلك المعاني في نفوسهم، لتظل الرسالة قاعدة رئيسية للانتماء وللمشاعر وتحديد العلاقات في بدايتها ونهايتها. . .

أما الطريق إلى الوصول إلى ذلك، فهو التركيز على الرسالة في دراسة تاريخ أبطال الإسلام لتكون الدراسة سبيلاً إلى معرفة تأثير الرسالة على

حياتهم وسلوكهم وقيمته ومقداره، وأثرهم في حركتها وقوتها وتطورها مما يجعل مفتاح الدخول إلى حياة الشخص رسالته وليس العكس... وقد نستطيع بذلك أن نفهم أبطالنا فهماً جديداً لا يبتعد عن الواقع ولا يقترب من الأسطورة، مما يؤدي إلى فهم جديد لبعض مفاهيم الرسالة وأوضاعها من خلالهم، ويغلق الباب أمام عبادة الشخصية لدى المسلمين.

●□●□●

دروس الدعوة في حياة الأنبياء

في حديثنا السابق، كنا نقول: أن علينا أن نتوفر على دراسة تاريخ الأنبياء في حركتهم الرسالية من أجل الدعوة إلى الله وإلى شريعته... لأنها تمثل ـ في حركتنا الإسلامية ـ التجارب الدينية الرائدة في مدلولها وأسلوبها الواقعي.

ونحن هنا.. نحاول أن نستوحي بغض هذه التجارب التي عاشوها في جهادهم وفي ممارساتهم العملية بالذات، أو في ممارسات المؤمنين بهم، أو في الأجواء التي أثيرت ضدهم كردود فعل للدعوة لنتعلم منها بعض الدروس التي نشعر ـ بأنها لا تزال ـ بالرغم من تقادم عهدها، حية نابضة بالجدة والحياة لأنها ليست وليدة الظروف الموضوعية المحددة بل هي خطة الرسالة الرائدة التي انطلقت من حاجتها إلى الخط الواضح الطويل في رحلتها الصاعدة إلى القمة، فكان لها من ذلك، مع كل نبي، وحي جديد، ودرس كبير للرسالات من بعده يمنحها الانطلاق ويعطيها المبادرة.. وتتحرك هي لتغنيه من جديد بدرس جديد للحياة والمستقبل.

وقد استعرضنا في كتابنا «أسلوب الحوار في القرآن» في فصل «الحوار القصصي في القرآن الكريم» طرفاً كبيراً من قصص الأنبياء بأسلوب تحليلي يحاولُ أن يستفيد منها الدروس العملية التي نحتاجها في حياتنا الحاضرة والمستقبلية في اطار النشاط الديني في حركة الدعوة الإسلامية في كل مكان.

ونقطف لكتابنا بعض أحاديث ذلك الكتاب في موضوعنا هذا.. بطريقة العرض الموجز..

١ - في حياة نوح (ع):

في دراستنا لقصة نوح عليه السلام مع قومه من خلال الآيات القرآنية التي تحدثت عنه أكثر من مرة.. نلاحظ عدة أمور:

أولاً: أننا نجد صورة الكافرين الذين يدخلون عملية الحوار مع نوح عليه السلام فلا نجد أمامنا الفكر الذي يجابه الفكر، والمحبة التي تلتقي بالمحبة، بل نواجه - بدلاً من ذلك - العقلية الضيقة التي ترفض التفكير بكلمات الرسول، لننتقل إلى التفكير بشخصه وتأبى أن تعيش في أجواء الدعوة، لتعيش في الأجواء الذاتية والطبقية لاتباعها، وبهذا يكون تحديد الموقف خاضعاً لشخصية الداعية الذاتية والاجتماعية، ونوعية الأتباع المادية والطبقية، من دون أن يكون للفكرة أي حساب لديهم سواء في ذلك معطياتها الروحية أو الإنسانية في اطار المستقبل في حياة الأمم.

ثانياً: في سورة نوح نقف وقفة طويلة أمام التقرير الأخير الذي أنهى فيه نوح عليه السلام مهمته، وقدمه إلى ربه واضعاً فيه كل محاولاته في ما قام به من حوار وما أوضحه من بيان للرسالة، ودعا إليه من إيمان بالله، ومشيراً فيه إلى ردود الفعل التي كانت من قومه ضده، سواء في طريقة الرد عليه أو في طبيعة التصرف معه، وداعياً الله أن يستبدل هذا القوم من الناس بغيرهم لأن التجارب كلها قد استنفدت فلا مجال لتجربة جديدة، ازاء أمل جديد، بل ربما يسبب وجودهم الخطر على المستقبل لأن الأجواء التي يعيشون فيها أصبحت موبؤة بالمستوى الذي لا تنتج فيه إلا جماعة مثلهم في كل شيء. وبقي مع ذلك كله ينتظر الأمل من الله في أمل غير محتسب، ومفاجأة غير

منتظرة، لأن اليأس لا يدخل في الحساب إذا كان الموقف مرتبطاً بالله. . . ونفهم من هذا كله عدة نقاط (فيما يوحيه إلينا هذا التقرير الرسالي):

أ ـ أن نوحاً النبي، كان لا يترك فرصة إلا وينتهزها في تذكيرهم ولا يدع أسلوباً إلا ويلجأ إليه في تعريفهم بالله حتى أنه كان تقدم إليهم في كل مرة الفرصة للرجوع إلى التوبة، التي يبدأ فيها الإنسان من جديد، تاركاً وراءه كل ظلمات الماضي ولكنهم كانوا يرفضون ذلك كله، ويتبعون القوى المترفة المضادة التي تحاول الوقوف أمام كل رسالة تضيء للأمة دربها الطويل لتخرجها من الظلمات إلى النور لأن هذه القوى لا تعيش إلا في الظلام ومن أجل بقاء سيطرة الظلام.

ب ـ أن من حق الرسالة على الرسول ومن واجب الدعوة على الداعية، أن لا يترك هناك أي مجال للعذر من أية جهة كانت، لأن روح الرسالة تمثل روح الجندية التي تجعل من الإنسان قوة لا تملك نفسها، بل تشعر بأنها ملك الرسالة بكل ملكها وطاقاتها وأوقاتها فتسير حيث تأمرها الرسالة أن تسير، وتتحرك حيث تريد لها أن تتحرك، وتقف حيث تطلب منها أن تقف، فلا تملك لنفسها أية حرية في ممارسة قضاياها الشخصية بعيداً عن موقع الرسالة.

ج ـ إن اليأس لم يدخل قلب نوح عليه السلام، بل كان الوحي الإلهي هو الذي أنهى مهمته الرسالية عندما أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، بعد أن كان قد ذكر فشل كل التجارب التي قام بها في هدايتهم وطلب من الله النصر عليهم.

د ـ إن دعاء نوحعليهم لم يكن من قبل الانفعال الذاتي الذي يدفع إليه ضيق الصدر وخيبة الأمل بل على أساس موقع الرسالة التي أقامت الحجة على الكافرين فلم يبق مجال هناك لحجة أو مكان لعذر فأصبح من مصلحة

الإنسان الذي يرتبط بحركة الرسالة ونموها، أن يفسح المجال لجو جديد يتنفس فيه الناس روح الإيمان وروحانيته. . . فكان الدعاء عليهم باعتبار أنهم يشكلون القوة الضاغطة في مجتمع الكفر الذي لا يلد إلا مجتمعاً مثله لما يملكه من القوى المادية.

هـ ـ إن الرسالات الإلّهية لا تتحرك في حياة المجتمع لحماية الامتيازات الطبقية للطبقات المترفة بل كانت ـ على العكس من ذلك ـ حركة واعية في سبيل الحد من امتيازاتهم الظالمة ورفع مستوى الطبقات المحرومة في المجتمع، ولذا كان الأغنياء المترفون هم القوة المضادة التي وقفت في وجه رسالة نوح بينما كان الفقراء الذي هم (أراذل المجتمع) ـ حسب تعبير الكافرين ـ هم أتباع الرسالة وجنودها المخلصون المقربون من الله ورسله لأنهم وجدوا فيها خلاصهم في الدنيا قبل الآخرة.

ونلاحظ ـ في هذا الاتجاه ـ كيف يكون هذا التاريخ الديني الذي يتبناه الإسلام كحقيقة حياتية ثابتة مستمرة دليلاً على رد الفكرة الظالمة التي يقول أصحابها: إن الأديان السماوية جاءت من أجل أن تكون (مخدراً) روحياً تستغله الطبقات المستغلِّة لتخدير الطبقات المشتغلَّة ولذا فإن الظاهرة الدينية تعتبر من ـ وجهة نظرهم ـ ممثلة للوجه البارز للمصالح المشتركة بين رجال الدين وبين رجال الظلم والاستغلال.

ثالثاً: في سخرية الكافرين من نوح عندما رأوه يصنع الفلك، وسخرية نوح بهم. . نأخذ الدرس التالي أن بإمكان الداعية أن يستخدم أسلوب السخرية كرد فعل لسخرية خصومه، فيما إذا استنفد الوسائل الرسالية معهم دون جدوى، لأن من غير الطبيعي أن يسكت أو يرد بالكلمة الطيبة في موقع تتحول الكلمة الطيبة إلى مجال للسخرية والاستهزاء.

إن أساليب السخرية التي يستخدمها خصوم الرسالات، جزء من وسائل

حرب الأعصاب التي يراد منها تدمير المؤمنين تدميراً معنوياً لدى أنفسهم ولدى الآخرين، بما توحيه من اعطاء صورة واضحة عن قابلية الفكرة وأصحابها للسخرية ولاعتبارها موضعاً للتندر والاستهزاء، مما يمنع الآخرين من الانتماء إليها خوفاً من التعرض لذلك، أو يضعف الروح المعنوية لدى أصحابها، ولهذا فإنها لم تنشأ من حركة عفوية، بل كانت خاضعة لخطة مدروسة، فلا بد من مواجهتها بخطة مثلها أو أفضل منها حيث يحشد الدُّعاة فيها كل ما لديهم من الموهبة الشخصية في فن السخرية والتندر بأفكار الآخرين وشخصياتهم كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس والعقيدة حتى ينتهي الأمر إلى تحطيمهم نفسياً ومعنوياً بنفس السلاح الذين حاربونا به وهذا هو الذي استهدفه القرآن من توجيه نوح إلى السير مع قومه في هذا الاتجاه العملي. .

رابعاً: في قصة نوح مع ولده، وحواره معه، ومع الله في شأنه: نعرف الحقيقة التالية: أنه ليس من المفروض في أولاد الأنبياء أن يكونوا صالحين، وإن كان من الأفضل أن يكونوا كذلك فليس معنى أن يكون الإنسان صالحاً أن يكون أولاده صالحين على أساس أن عدم صلاحهم يضر بالحكم بصلاحه لأن الولد خاضع، في صلاحه وفساده لتأثير البيئة العامة ـ وهو المجتمع ـ كما هو خاضع ـ في ذلك ـ لتأثير البيئة الخاصة ـ وهي البيت ـ فعلى الأب أن يعمل كل جهده، فإذا نجح في ذلك فقد حصل على ما يريد، وإلا فقد أدى واجبه.

إن القضية بكل اختصار ـ تتحدد بالمسؤولية في اطارها الشرعي، فإن مهمة الرسول، وكل داعية غيره تتلخص في دعوة كل الناس ـ ومنهم المقربون بالدرجة الأولى ـ وبذل كل جهد في هذا السبيل، بالفعل وبالكلمة وبالترهيب والترغيب، بنفسه وبالاستعانة بغيره، فإذا استنفذ كل جهده فقد

قام بمسؤوليته سواء في ذلك حالة الرفض، وحالة القبول من الأقربين أو من الأبعدين من دون أن ينقص ذلك من مكانته في كلا الحالين.

٥ ـ إن على صاحب الرسالة أن لا ينحرف مع عاطفته ازاء أهله، فيما إذا استحبوا العمى على الهدى، بل عليه أن يبقى مع رسالته، لتكون هي المؤشر الذي يحدد له مسار عاطفته كما يحدد له مسار حياته فقد يكون للإنسان الحق في السير مع مشاعره العاطفية التي تربطه بالآخرين ما دامت عاطفته لا تقترب من عقيدته والتزاماته فإذا اقتربت العاطفة منهما وقفت العاطفة أو تأخرت لتتقدم العقيدة والمبادىء في طريق الحياة الطويل.

٢ ـ قصة صالح مع ثمود:

في حوار صالح مع قومه ثمود نلتقي بنقطتين بارزتين في أسلوب العمل:

النقطة الأولى: محاولة المستكبرين تشكيك المستضعفين بالرسالة بأسلوب ذكي يتعمد اثارة سؤال ساذج أمامهم، ظاهره طلب الحقيقة وباطنه إرادة التضليل، للإيحاء إليهم بأن عليهم اعادة النظر في قناعاتهم، على أساس أن القضية تدخل في مجال الأخذ والرد، لأنها لا ترقى إلى مستوى الوضوح الكامل ليكتشفوا أنها لا تمثل الحقيقة اليقينية ولكن المستضعفين وقفوا بقوة ليؤكدوا إيمانهم بأسلوب قوي، مما جعل أولئك يكشفون هويتهم بالكفر والعناد والتحدي العنيف.

ـ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ. . . ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

ولا بد لنا من التوقف قليلاً أمام هذه النقطة، لنتأمل جيداً، ـ هذا الأسلوب ـ الذي قد نواجهه فيما نواجه من أساليب الكفر والضلال، عندما

يتوجهون إلينا بطريقة التحبب والتودد، وكأنهم يقولون لنا: هل أنتم تجدون أو تمزحون في اعلانكم عن الاعتقاد بما تعتقدونه، أو بما تثيرونه من قضايا، ويضيفون بعد ذلك ـ إننا لا نعتقد هذا، لأنكم ـ لدينا ـ في المستوى الكبير من الوعي والعلم والرؤية الواضحة التي تجعلكم في المركز الثقافي الذي يرفض أن يتقبل هذا فكيف يمكن أن يؤمن به. . .

إنه الأسلوب الخبيث الذي يحاول أن يجعل من قضية الإيمان والعقيدة، قضية تسيء إلى كرامة الإنسان لدلالتها السيئة من الناحية العقلية والفكرية.

وقد يضعف الكثيرون أمام هذا الأسلوب، ممن يحاول دائماً أن يستثير ثقتهم بأنفسهم من خلال رأي الآخرين بهم أو مدحهم لهم، فيسقطون ـ في النهاية ـ من حيث لا يشعرون وينهزمون من حيث لا يعلمون. . .

ونحن لا نمانع من استخدام هذا الأسلوب من الكثيرين من المضللين من خصومنا في العقيدة لأننا ننسجم مع واقع الأشياء عندما نمارسه، بسبب الأساس غير المعقول الذي ارتكز عليه هؤلاء في كفرهم وشركهم وضلالهم، ولعلنا نجد في القرآن الكريم، الكثير من الإشارة إلى هذا الأسلوب في حديثه مع المشركين الكافرين عندما يطلب منهم الرجوع إلى عقولهم وأفكارهم، ليكتشفوا أن عقائدهم وأفكارهم لا تتناسب مع العقل الواعي والفكر العميق. . .

النقطة الثانية: محاولة الكافرين اثارة جانب الكرامة الاجتماعية في نفس صالح ـ النبي ـ والايحاء إليه بأن هذه الدعوة قد أفقدته مركزه لديهم، وثقتهم به، واعتمادهم عليه ليكون ذلك حافزاً له على ا لتراجع عنه.

ـ ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

ولكنه يواجههم بمنطق الرسالة لوضوح الموقف لديه من جهة، واعتبار الرسالة رحمة من الله من جهة أخرى فهي تعوضه عن كل شيء يفقده من تقديرهم مما لا يرقى إلى مستوى القيمة الحقيقية أمام تقدير الله.. ثم التركيز ـ من جانبه ـ على أنهم لا يستطيعون أن يقدموا له أي عون أو نصر في مواجهة عقاب الله ـ لو أراد عقابه وعذابه ـ في حالة انحرافه عن الخط وسيره على حسب ما يريدون أو يقترحون.

ـ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وقد نحتاج إلى الوقوف على هذه النقطة كما وقفنا على النقطة السابقة فنجد في هذا الأسلوب الذي اتبعه قوم صالح مع نبيهم نموذجاً لأكثر الأساليب خطورة على العاملين الذين يعيشون نقطة الضعف في جانب الكرامة الشخصية في نطاق قيم المجتمع ومقاييسه.

فقد يتعرض العاملون إلى مثل هذا الأسلوب الذي يوحي بأن التزامهم بخط الدعوة إلى الله يفقدهم الثقة الاجتماعية، بما يثيره في نفوس المجتمع من حساسيات ازاء ما يقدسه ويحترمه من تقاليد وقضايا، وبما يلتصق بهم من نعوت وألقاب لا تشرف صاحبها أو حاملها لدى الوسط الاجتماعي، وذلك في كلمات الرجعية والتأخر والخيانة التي تقابلها كلمات التقدمية والتطور والوطنية والاخلاص، وقد يشعر الإنسان بالانسحاق أمام ذلك كله عندما يبقى مختنقاً في اطار ذاته بعيداً عن رسالته مما يجعله يعيش الارتباط برسالته من خلال ارتباطها بذاته وبمركزه الاجتماعي، فيذوب، مع الكلمات تماماً

كما يذوب الملح في الماء . . . بكل سذاجة وهدوء.

إن على الداعية فيما تريد الآية الكريمة أن توحيه، أن ينفتح على رسالته ليدرك خطأ الأساس الذي يجعل الثقة خاضعة لمقاييس الباطل واعتباراته بدلاً من موازين الحق وقيمه، وليؤمن بأن الإنسان الرسالي هو الذي يشعر بأن ثقة الرساليين هي القيمة التي تملأ النفس، أما غير الرساليين فإنهم لا يمثلون شيئاً في ميزان الثقة لدى أصحاب الرسالات بل القضية بالعكس من ذلك فإن الموقف المنتظر منهم أن يثيروا أمام العاملين كل الأساليب الضاغطة والمدمرة التي تحطم ثقتهم بأنفسهم وثقة الآخرين بهم.

مع إبراهيم:

١ ـ في حواره الذاتي مع نفسه في رحلته الفكرية إلى الله، عندما وقف يحاور نفسه في الاعتقاد بألوهية الشمس والقمر والكواكب فقد رأينا في ذلك أسلوباً عملياً يمكن للداعية أن ينفتح عليه في طريق الدعوة إلى الله . . . فإن من الممكن لنا ـ في مرحلتنا العملية ـ أن نستفيد من حواره مع نفسه كيف نهيء الأجواء الاجتماعية كالندوات الثقافية والمحاضرات الفكرية وغيرها من المجالات التي يقف فيها الداعية مع الجماهير ليتطلع ءُى ما يدور في أفكار الناس من قضايا وما يختبىء فيها من مفاهيم، وما يعيش في أنفسهم من قناعات ليبدأ مناقشتها من خلال الإيحاء لهم بأنها تمثل إحدى مراحل نموه وتطوره الفكري في رحلته من الشك إلى الإيمان لتبدو العملية لديهم كحالة شخصية عفوية من حالاته التي لا ترتبط بأي نوع من أنواع الإساءة إلى حس الكرامة الذي يتأثرون به، وليشعرهم بأنه في موقف عرض قناعاته السابقة التي اهتزت بفعل الأفكار الجديدة التي حصلت له والمواقف الصحيحة التي لم يكن قد اكتشفها بعد، وبهذا فإنه يبتعد عن فكرة الدخول معهم مباشرة في

جدل ومناقشة لما يعتقدونه، ولما يفكرون به. أنهم ـ في خطى هذا الأسلوب ـ يستطيعون اكتشاف خطأهم من دون سلبيات تماماً كمن يقرأ كتاباً أو قصة تتعلق بالآخرين فينسجم ـ معها ـ كما ينسجم مع قصص الآخرين ليفاجأ ـ في نهاية المطاف ـ بأنه استطاع أن يكتشف نفسه ويعرض خطأ موقفه من دون سابق إنذار.

وقد نستفيد ـ من هذا الأسلوب ـ في محاولاتنا الكتابية التي نريد من خلالها عرض الأفكار التي تثار حول العقيدة ـ معها أو ضدها ـ في أسلوب الحوار الذاتي الذي يبتعد عن أسلوب الوعظ الذي يخاطب الآخرين، إلى أسلوب المناجاة الذي يخاطب فيه الإنسان نفسه وعلى ضوء هذا، يمكننا أن نشق الطريق لأدب الدعوة الإسلامية في التجارب الأدبية القرآنية في الشكل والمضمون من أجل أن تتفاعل على الأسس الفنية للأدب مع الأسس الواقعية العملية للدعوة إلى الله..

٣ ـ في حواره مع قومه عندما قام بتكسير الأصنام، واتهم كبير الأصنام بذلك عندما سأله قومه عن الفاعل، وطلب منهم سؤالهم إن كانوا ينطقون... فقد نحتاج إليه في بعض الحالات التي نشعر فيها ازاء الواقع الذي يعيشه مجتمع الانحراف بوجود بعض الثغرات الكبيرة والصغيرة التي غفل عنها أصحابها، فإنه من الطبيعي لنا أن نكتشف ذلك ونفتح المعركة التي تفسح المجال في الدخول إلى الحوار الذي يصل بنا إلى الهدف الذي نريده، من مواجهتهم بالخطأ الكبير في عقيدتهم أو في سلوكهم على الطبيعة، ودفعهم إلى أحد الموقفين، أما موقف الاعتراف بالحقيقة من خلال اكتشاف الخطأ، وأما موقف الظهور بمظهر العناد والمكابرة، الذي يفقدهم الشعور بالاحترام لدى الآخرين ولدى أنفسهم فيفقدون بذلك كل قوة للتأثير على الآخرين في السير على خطى الانحراف والضلال..

ولا بد لنا ـ في سبيل اتباع هذا الأسلوب ـ من الانفتاح على أفكار الآخرين وممارساتهم لنكتشف نقاط الضعف ونقاط القوة، لنستفيد ممن ذلك كله في معركة الحوار من أجل العقيدة.

٤ ـ في حواره مع نمرود فقد واجه إبراهيم النبي في حياته طاغية من أكثر الطغاة تمرداً حيث بلغ به الطغيان حداً خيل إليه معه أنه الإله الذي يجب على الناس أن يعبدوه من دون الله، وقد وقف إبراهيم معه موقفاً حاسماً قوياً، حاول فيه أن يثير قضية الألوهية وارتباطها بالقدرة المطلقة التي لا يملكها هذا الطاغية فطرح فكرة الحياة والموت، وأن الله ـ رب إبراهيم ـ هو الذي يحيي ويميت.. ووجد هذا الطاغية الفرصة لاستغلال سذاجة أتباعه البسطاء في أسلوب التمويه الذي يعتمد على التلاعب بالألفاظ، فأجاب إبراهيم بأنه يحيي ويميت لأنه يستطيع أن يبقى المحكوم عليه بالموت، فيهبه الحياة، وأن يعدمه فيقضي عليه بالموت، فيكون مالكاً لأمر الحياة والموت، إذن فهو يملك صفة الإله الذي يحيي ويميت.. ولم يترك له إبراهيم الفرصة الذهبية التي يأخذ بها زهو طغيانه وتمرده فتحداه بالظواهر الكونية الثابتة التي خلقها الله في الكون وطلب منه تغييرها إذا كان آلهاً حقاً، وقدم له عرضاً بالشمس التي خلقها الله لتشرق من جهة المشرق وطلب منه أن يحول طلوعها إلى جهة المغرب فبهت الذي كفر ولم يملك جواباً لهذه الحجة المفاجئة...

أما فائدتنا ـ من هذا الحوار ـ فهو مواجهة الكثيرين ممن يحاولون أن يموهوا الحقائق على البسطاء من الناس باللجوء إلى الأساليب الساذجة التي يخدعون فيها الناس، سواء في ذلك ما يتعلق بشؤون العقيدة وما يتصل بأمور الحياة فنعمل على أن نستلهم أسلوب إبراهيم النبي في الانتقال إلى التحديات الواضحة التي لا تخفى على أحد ولا تنطلي، بالنتيجة، على أحد. مما يعطل خطة التمويه والتضليل..

ولا بد لنا ـ في سبيل الوصول إلى ذلك ـ من النفاذ إلى واقع الأساليب المضللة التي يخعضع لها البسطاء من الناس والأساليب الصارخة التي تملك قوة التحدي، من دون أن يستطيع الآخرون ردها أو وقاومتها على الأقل، وهذا ما يفرض على العاملين أن يقوموا به من أجل أن يلاحقوا الواقع وأساليبه التي تحكمه وتوجه خطواته بكل وعي ودقة وشمول. . .

موسى وهارون ـ مع فرعون:

فقد طلب الله من موسى أن يذهب إلى فرعون كرسول، وكانت هناك مشكلة بينه وبين قوم فرعون وكان يشكو من عقدة في لسان وبيانه فطلب من الله أن يشرك ـ معه ـ أخاه هارون في الرسالة. . فأجابه الله إلى ذلك، وطلب منهما أن يتجها إلى فرعون بالقول اللين وذهبا إليه وكان هناك حوار متنوع متلون بينهما وبين فرعون. . وحاول فرعون ـ فيه ـ أن يخرج عن الموضوع فمنعه موسى من ذلك بلباقة وذكاء. . واستمر الحوار إلى نهايته أما حصيلتنا من ذلك في أسلوبنا العملي فهو أمور:

١ ـ أن يقف الداعية من نداء المسؤولية موقف الاستجابة، مهما كانت حالته النفسية من خوف أو قلق فلا يجعل من ذلك مبرراً للاعتذار والهروب بل يحاول أن يفكر في الموضوع كما فكر موسى في البداية أن يلجأ إلى الله في ابتهال وخشوع يستعرض فيه طاقاته التي يخشى على الرسالة من ضعفها واهتزازها فيطلب من الله أن يقوي فيه تلك الطاقات من أجل الحصول على ثقة روحية مستمرة من الشعور بالمدد المستمر من ربه، ثم يلتفت من جهة أخرى ـ ليطلب من الله، أن يشرك معه الإنسان الذي يمكنه أن يقدم للرسالة طاقة مساعدة تضاف إلى قوة الرسول ولعلنا نستفيد من هذه الآيات الفكرة

التالية: وهي أن على الداعية أن لا يشعر بالفردية والذاتية التي قد تمنعه من الاستعانة بغيره في عمله، أو قبول مثل هذا العرض من الآخرين، بحجة أن ذلك يفقده زهو الاستقلال بالمهمة من جهة، ويخلق انطباعاً بقصوره عن الاضطلاع بالمسؤوليات العملية في نظر الآخرين من جهة أخرى.

أما السبب في ذلك فهو أن القضية ـ في العمل الرسالي ـ ليست قضيته الخاصة ليدخل الموضوع في نطاق حساباته الشخصية أو مركزه العملي، بل أن القضية قضية الفكرة التي يؤمن بها، والدعوة التي يحمل مسؤوليتها، مما يجعل قضية النجاح والفشل قضية الأمة، ولذا فإن عليه أن يضع في حساباته عندما يريد الانطلاق في العمل فيدرس كل العناصر التي تساهم في الوصول بالخطة إلى أهدافها الكبيرة.. سواء في ذلك الأشخاص الذين يتعاون معهم أو الوسائل التي يتبعها في سبيل الوصول إلى ذلك، وربما كان موقف موسى في حواره مع ربه، وطلبه اشراك هارون معه يمثل القمة في وعي المسؤولية بعمق واخلاص حيث لم يجد أية غضاضة في موقفه أن يقدم لله عرض اشراك أخيه في المسؤولية، والقصة قصة نبوة ـ لأنه يتمتع بصفات لم يجدها في نفسه مما تحتاج الرسالة إليه.

إنه الدرس القرآني العظيم لأولئك الذين يفكرون بالعمل الرسالي من زاوية الأنانيات الشخصية والاعتبارات الذاتية التي تمنع الإنسان من التعاون مع أي إنسان كان، أو الاستعانة به في مجال العمل حفاظاً على أن لا يعطي للآخرين انطباعاً عن حاجاته إلى غيره.

٢ ـ إن الله يريد من الداعية إن يشعر دائماً ـ في أي موقف من مواقفه ـ إن الله معه بحيث يسمعه ويراه ويسمع تحديات خصومه ويرى أعمالهم فإن ذلك يجدد في نفسه القوة في كل المواقف التي يتعرض فيها لنوازع الضعف التي تفرضها تحديات الخصوم وتهويلاتهم أنه ـ في ظل هذا الشعور ـ لا

يحس بالوحدة ولا يستسلم لأية حالة من حالات الانسحاق ازاء قوة الآخرين.

٣ ـ أن ينطلق ـ في أسلوبه ـ مع الأسلوب الذي يفتح قلوب الآخرين، وأفكارهم على كلمة الله فيفتش عن الكلمة الواضحة المشبعة بالوضوح والقوة والحنان، وعن الأسلوب الهادىء الذي يوحي بالثقة ويدعو إلى التفكير الهادىء ويبتعد، مهما أمكنه، عن الكلمة المعقدة القاسية، وعن الأسلوب المتشنج الذي يوحي بالقلق، ويدفع إلى التحدي. . .

أما السبب في ذلك فهو أن الخط الرسالي ينطلق من حقيقتين واقعيتين:

الأولى: إن على العاملين أن لا يتركوا أمام الآخرين أي حاجز نفسي أو فكري يحول بينهم وبين وعي الرسالة وفهمها وتقبلها والانفتاح عليها، فلا يبقى لهم أي حجة للانكار أو للاعتذار من ناحية البلاغ ليكون انكارهم ـ لو حدث ـ بعد اقامة الحجة عليهم، وليد العناد والمكابرة على ضوء قوله تعالى:

ـ ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

الثانية: الإيمان العميق بأن الإنسان مهما طغى وتجبر وابتعد عن الله فإنه يظل متحمساً لدعوات الحق ومعاني الخير والكلمة الحلوة التي تنفتح عليها الروح في حالات الهدوء والتأمل، ولذا فإن علينا أن نلقي إلى كل إنسان، مهما كانت درجات انحرافه بالكلمة الحلوة والصوت الخير المملوء

بالمحبة، فربما يلتقيان بالجو الروحي الهادىء الذي يكون منفتحاً على الهداية من خلال ذلك كله. وربما كان هذا هو السر في التوجيه الإلهي لموسى وهارون أن يتحدثا مع فرعون بالقول اللين، أملاً في أن يتذكر، بتذكيره بمعاني الخير، وفي أن يخشى بتخويفه من المصير المظلم الذي يستقبله عند الله إذا استمر في طريقه المنحرف في أجواء الضلال.

٤ ـ أن يعي الداعية كل الأساليب التي يحاول الخصوم أن يتبعوها في سبيل ابعاد أجواء الحوار عن الهدف الأساسي والفكرة الأصيلة للحوار، فيرجعهم إلى الفكرة من جديد، بأسلوب حكيم يتميز باللباقة والذكاء، كما فعل ذلك موسى عليه السلام فيما أشرنا إليه في حديث سابق.

٥ ـ في حوار السحرة مع فرعون، بعد إيمانهم بموسى قبل أن يأخذوا الاذن بذلك من فرعون.. فقد أنكر عليهم أن يؤمنوا قبل أن يأذن لهم، كأن عملية الإيمان تحتاج إلى الاذن الفرعوني كما يحتاج إليها أي عمل آخر يتعلق بقضايا الإدارة والحياة. ولكن تلك هي سيرة الطغاة وعقليتهم في كل زمان ومكان عندما يريدون أن يملكوا على الناس عقولهم وأفكارهم فلا يفكرون إلا بما يقدمونه لهم من أفكار، ولا يؤمنون إلا بما يدعونهم إليه من عقيدة فالتفكير ممنوع، والإيمان محرم بدون الاذن الرسمي من قبل السلطة الرسمية التي تملك العقول كما تملك الأجسام والأعمال.. ثم يحاول أن يخفف عن نفسه وقع الصدمة وحرج الموقف باعتبار أن ما حدث يشكل نقطة ضعف في سلطانه لأن المتمردين هم من أتباعه المقربين، فيحاول أن يصور لنفسه وللآخرين أن القضية ـ من أتباعه المقربين، فيحاول أن يصور لنفسه وللآخرين أن القضية ـ من البداية ـ لم تكن تمرداً عفوياً يصدر عن قناعة بالدعوة الجديدة ورفض للسلطة القديمة، بكل ما تمثله من أفكار، بل كانت مؤامرة سابقة مدبرة بين موسى وبين هؤلاء السحرة، باعتباره أستاذهم الكبير

الذي علمهم السحر وأرادهم أن يقوموا بهذه التمثيلية لاظهاره في موقف المنتصر في مقابل فرعون الذي يقف موقف المهزوم ولم يفلح تهديده لهم في جعلهم يتراجعون عن موقفهم، بل وقوفا موقف اللامبالاة أمام كل صرخات التشنج التي يطلقها فرعون ليقولوا له بكل قوة: أننا لن نؤثرك على ما شاهدناه من البينات فافعل ما تريد فليس أمامك إلا أن تقضي علينا، ولن يشقينا ذلك بل يسعدنا لأننا سنحصل على السعادة في الفوز والشهادة في سبيل الله، ومن أجل الوقوف ـ مع كلمته ـ وقفة إيمان كبير. . وعلى كل حال فإنك إنسان زائل لا تملك إلا القليل فلست ضمانة لأحد حتى لنفسك. . أما الله فهو الخالد الباقي والضمانة الدائمة لأنه مالك كل شيء حتى أنت. . فهو خير لنا وأبقى من كل شيء في الحياة.

إنه الموقف الرائع، والنموذج العظيم للإيمان الصامد أمام الكفر الطاغي، في أروع صورة للصراع الدامي بين قوى الكفر والطغيان، وبين قوى الحق والإيمان.

أما نحن. . فنشعر بالحاجة الكبيرة إلى أن نتمثَّلَ هذا الموقف فيما نواجهه من تهاويل الطغاة وتهديداتهم وحجرهم على حرية الفكر الإسلامي الذين لا يريدون لأصحابه أن يتحركوا فيه إلا بمقدار صالح للاستغلال، حيث يتحول إلى واجهة تحمي ما خلفها من انحرافات وأخطاء لما تضيفه من قداسة الحق وحصانة الإيمان. . .

إن هذه النماذج العظيمة في تاريخ الرسالات تطرح أمامنا الشعار القرآني في تجسيد عملي رائع. . إن الله خير وأبقى للذين آمنوا وعملوا الصالحات في الدنيا والآخرة.

٦ ـ في حواره مع قومه في شأن البقرة التي ذكر القرآن قصتها. . فقد صدر لهم الأمر بذبح البقرة ولكنهم لم يأخذوا الموضوع جدياً ـ في بداية

الأمر ـ واعتبروه ـ أو هكذا أرادوا أن يصوروه ـ مزاجاً وسخرية بهم (مع ما في هذا التصور من اساءة لمقام النبوة) لأنهم لم يجدوا علاقة بين ما سألوا عنه من فصل الخصومة ومعرفة القاتل، وبين الأمر بذبح البقرة حتى إذا رأوا الأمر جدياً حاولوا أن يتلاعبوا به أو هكذا يخيل إلينا من أسلوبهم في السؤال، وواجه موسى الموقف بأعصاب باردة وأجوبة هادئة تجيب عن السؤال بإضافة قيود تشريعية للواجب المفروض حتى ارتفع إلى المستوى العالي الذي كلفهم بعد ذلك مالاً كثيراً.

وقد يكون من الحق لنا أن نفهم هذا الأسلوب، كطريقة تربوية عملية حازمة، حاولت أن تغلق الباب على أساليب التلاعب بالأوامر الملقاة إليهم في ملاحقة تفاصيل الواجب الذي يبدأ بالتصاعد التدريجي في شروطه تبعاً لتصاعد الأسئلة مما يجعل القضية تبدو كما لو كانت أمراً طبيعياً لا تكلف فيه ولا صعوبة، ليفهموا ـ بشكل صامت ـ أن الفضول الجاد أو الهازل يكلف ثاحبه كثيراً من الجهد والخسارة، ولا سيما فيما إذا كان الفضول منطلقاً من اللعب والعبث بموقع المسؤولية التي لا تترك أي مجال للفضول لأنها تعبر عن إرادتها وحدودها بشكل محدد واضح لا أثر للغموض فيه. .

أما العبرة من هذا الموقف ـ الحوار فهي: أن على العاملين تناول المسؤوليات الموجهة إليهم من المسؤولين ـ بكل بساطة ـ على أساس مفاهيمها البسيطة الواضحة من دون أن يتكلفوا لها قيوداً إضافية، فما دامت القضية قد صدرت لهم مطلقة بلا قيد، فليتقبلوها كذلك، فإذا كان هناك تقصير في البيان، أو اغفال لبعض الجوانب المرتبطة بالمسؤولية، كان ذلك من الأمور الداخلية في واجبات المسؤول الأول، لا في واجباتهم، فإن لهم العذر كل العذر في ترك ما لم يبين لهم على أساس القاعدة العقلية المعروفة «قبح العقاب بلا بيان».

إننا لا نمانع من محاولة العاملين التعرف على ما التبس عليهم أمره من جوانب المسؤولية، مما يحتمل أكثر من وجه، أو تختلف فيه الأنظار، على أساس بعض الأمور الطارئة التي تلقي ظلاً من الغموض على الموضوع، فيبدأون باثارة علامات الاستفهام في ذلك كله، بل نجده مرتبطاً بشؤون الاخلاص للعمل وللمسؤولية بشكل عام، لئلا يضيع العاملون في ضباب الاحتمالات المتعددة والوجه المتضاربة.. ولكن هذا ينحصر فيما اشتبه علينا أمره، واختلف علينا وجهه حتى وقفنا فيه في موقف الحيرة، أو فيما يشبه الحيرة مما يضع القضية في اطار الخطورة من ناحية تشريعية، ولعل هذا الذي ألمحنا إليه، هو الذي تشير إليه القصة المعروفة عن النبي محمد ﷺ التي أشرنا إليها آنفاً ونذكرها ـ هنا ـ بتفاصيلها.

«فقد روى أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه فقال: إن الله كتب عليكم الحج، فقام عكاشة، ويروى سراقة بن مالك، فقال: في كل عام يا رسول الله.. فاعرض عنه حتى أعاد مرتين وثلاثاً فقال: ويحك وما يؤمنك أن أقول نعم، والله لو قلت نعم لوجب، ولوجب ما استطعتم، ولو تركتم لكفرتم فاتركوني ما تُركتم وإنما هلك من كان قلبك بكثرة سؤالهم واختلافهم إلى أنبيائِهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه».

فقد يكون في هذا الحديث إشارة من النبي محمد ﷺ إلى ما كان من بني إسرائيل في موضوع ذبح البقرة وارشاد إله المسلمين أن يتقبلوا الأوامر والنواهي المطلقة من دون اعتراض أو فضول لئلا تضيق عليهم الأمور من غير ضرورة.

٧ ـ في حواره مع قومه عندما مروا على جماعة من عَبَدةِ الأصنام فطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة..

ما معنى هذا الطلب من هؤلاء الذين يجاهد موسى من أجل أن يحررهم من فرعون على أساس رسالة الله وكلمة التوحيد ليكونوا القاعدة القوية، لحركة الرسالة الممتدة نحو تحرير المجتمع كله، فنحن نعلم أن جهاد موسى لم يندفع من موقع عائلي أو قومي، بل ارتكز على الموقع الرسالي الذي يجد في المستضعفين قوة صالحة للتحرك من أجل قربهم للروح الثورية في بناء المستقبل الجديد ويجد ـ إلى جانب ذلك ـ في بني إسرائيل آنذاك ـ جماعة قريبة الصلة بالإيمان وما يمثله من قيم لأنهم يشكلون الطرف المضطهد المعارض للعقلية الفرعونية وما تمثله من انحراف.. ومن هنا نعرف مأساة موسى مع قومه، ومدى ما كان يحسه انحراف.. ومن هنا نعرف مأساة موسى مع قومه، ومدى ما كان يحسه من خيبة الأمل، بعد الصراع العنيف الذي خاضه ضد فرعون، والمواقف الهائلة التي واجهها، من ملاحقة الكافرين له وخوضه البحر ببني إسرائيل في معجزة آلهية عظيمة، فأي طلب هذا الطلب، فأين الرسالة؟ وأين التوحيد؟ وماذا عن آله موسى الذي كانت الدعوة إلى توحيده سبباً في كل ما حدث، ألم تكن تلك المعاجز والخوارق التي شاهدوها كافية في تركيز هذا الإيمان كما آمن السحرة في موقف التضحية الرائعة من أجل اعلاء كلمة الله والانسجام مع رسالته..

ليس هناك تفسير لهذا الطلب إلا الطفولة الفكرية التي تفكر بعقلية الأطفال عندما يطلبون من آبائِهم أن يشتروا لهم لعبة مثل لعبة أقرانهم من الأطفال الآخرين، فربما لم يشاهد قوم موسى الأصنام الحجرية في بلادهم من قبل، حتى إذا شاهدوها كانت الصورة مشوقة لهم في أن يكون لهم آله يلمسونه ويرونه في لعبة عبادية حالمة.. ولم يفقد موسى هدوء الرسول فقد كان مزاج الرسالة هو الذي يحدد له مشاعره لا مزاج الإنسان العادي فكان جوابه مزيجاً من عنف الحكم على عبدة الأصنام بالهلاك والضلال وبطلان

العقيدة والعبادة، ومن العقاب المرير لقومه، والتذكير بفضل الله عليهم حيث أخرجهم من ظلمة الاضطهاد والعبودية، إلى نور الطمأنينة والحرية، والاعلان لهم بأن قضية الآله ليست موضوعاً يمارس فيه الإنسان دوره في الاختيار والتغيير والتبديل، بل هو الحقيقة التي تهز أعماق الإنسان وتنير حياته لتفرض نفسها في وعيه ووعي الكون كله.

ولعلنا نجد في بعض المجتمعات الإسلامية ما يشابه هذه الطفولة الفكرية، ولكن في مجال آخر، فقد يكشف بعض الناس من الحاكمين أو المحكومين تقليعة جديدة من تقاليع الكفر والضلال، أو شكلاً معيناً من أشكال الحياة أو تفكيراً خاصاً من أنماط التفكير المطروحة في الساحة الفكرية من تيارات الشرق والغرب، فيواجهونه كما يواجه الإنسان الأشياء الجديدة في حياته، بالاعجاب والدهشة والتمني الطفولي باقتناء مثله واحتذائِهِ لا لشيء إلا من جهة الشعور بالغيرة، أو حب التقليد والمحاكاة ومشاركة الآخرين أوضاعهم وأفعالهم مما يسبب وقوعهم في كثير من الأخطاء والانحرافات والارتباكات، في حياتهم العامة والخاصة عندما تتحول إلى قطع منفصلة ترتبط كل قطعة منها بفكرة تختلف في جذورها ومعطياتها وأشكالها عن فكرة أخرى، فيتحول الإنسان إلى مسخ مشوه، وتضيع الشخصية لتتوزع بين عدة شخصيات متنوعة في الشكل والجوهر، كما نشاهده في واقع المجتمعات الإسلامية التي تفكر على أساس إسلامي في بعض جوانب الحياة وتفكر على قاعدة غير إسلامية في جانب آخر، فتختلف ممارساتها العملية في السلوك الاجتماعي، عن ممارساتها في السلوك الاقتصادي أو السياسي أو غير ذلك، انطلاقاً من العقلية الإسرائيلية لبني إسرائيل التي تجعلهم يتوجهون إلى قادتهم بأسلوب التمني أو الضغط، أن يجعلوا لهم تخطيطاً يشابه تخطيط الآخرين وسلوكاً يتمشى مع طريقتهم في السلوك ولكن المنطق الرسالي الذي يفرض خطأ ذلك التفكير، هو الذي

يفرض خطأ تفكيرنا الجديد، لأن القضية واحدة في جذورها وإن اختلفت في شكلها فإن الحقيقة واحدة لا تخضع للرغبات وللنوازع الذاتية، بل تخضع للظروف الواقعية الموضوعية التي شاركت في وجودها فهي التي تقرر أمر بقائِها أو زوالها...

لوط وقومه:

كانت المهمة التي أرسل الله بها لوطاً إلى قومه، هي محاولة تخليصهم من عادة الشذوذ الجنسي المذكر (اللواط) وقد عانى لوط من قومه الشيء الكثير حتى أرسل الله عليهم العذاب.. فما هو الذي نستوحيه من هذه القصة؟ هذا ما نحاول أن نجيب عنه في عدة نقاط:

١ ـ أن يشعر الداعية المسلم بقيمة النظرة الإسلاميّة في تنظيم العلاقات الجنسية على أساس طبيعي في حياة الناس وذلك من خلال التأكيد القرآني على ذلك في هذه القصة ـ بتكريرها عدة مرات ـ وبالعذاب الشديد الذي أنزله الله على قوم لوط الذين ابتدعوا الانحراف والشذوذ..

وعلى ضوء ذلك فلا بد من التخطيط لمعالجة هذا الجانب من التشريع الإسلامي في الاطار السليم الشامل الذي يريد الإسلام أن يضع فيه الإنسان بعيداً عن أي انحراف وشذوذ ففي كل مجالاته، لأن ذلك هو السبيل الصحيح لاستقامة مسيرته الحياتية نحو الهدف الكبير من اقامة الحياة على قاعدة طبيعية مستقيمة.

وقد يفرض علينا هذا الاهتمام، في هذه المرحلة من العمل، هو التيار الفكري الجديد الذي اجتاح التفكير البشري حول القضية الجنسية ودورها في الحياة، حتى أصبحت قضية الحرية الجنسية إحدى قضايا الحرية في العالم الحديث، فاعتبرت القيود المفروضة على ممارسة الجنس، المشروع وغير

المشروع، اضطهاداً للإنسان وتقييداً لحريته، وبدأت الموجة تتسع وتتصاعد حتى أصبح من المألوف أن يتظاهر الكثيرون من الشاذين جنسياً مطالبين باباحة الشذوذ الجنسي المذكر والمؤنث في التشريعات القانونية للحياة الاجتماعية لينسجم التشريع المدني مع مقتضيات الحاجات الإنسانية باعتباره حلاً عملياً لمشاكل جماعات كثيرة من البشر الذين لا يزالون يعانون من اضطهاد القوانين المحرمة التي تقيد من حريتهم وتمنعهم من ممارسة رغباتهم المنحرفة، واستطاعت هذه الحملات أن تعطي بعض ثمارها في بعض البلدان الأوروبية العريقة في المحافظة على الأخلاق والتقاليد، بما يشبه المفاجئة، فقد أقر مجلس العموم البريطاني، التشريع باباحة الشذوذ الجنسي تحت ضغط انتشاره في المجتمع البريطاني، لا سيما لدى الطبقات الاجتماعية العليا من ذوي المراكز الكبيرة في الدولة والمجتمع، وتطور الانحراف بشكل آخر فبدأنا نسمع بطلبات الزواج بين رجلين أو بين امرأتين كما في فرنسا وألمانيا، وقد تنقل لنا الأخبار، احاطة مثل هذا الزواج بطقوس دينية من قبل بعض الكهان، أن علينا أن نواجه هذه الموجة الخطيرة بالأسلوب الإسلامي الذي لا يجابه النتائج ومظاهرها السلبية بالنقد المباشر، بل يندفع إلى الأسباب والمبررات الفكرية والاجتماعية التي أفرزتها، في حركة نقدية للواقع الاجتماعي الذي عاشت فيه مثل هذه الحركات، واندفعت فيه تلك التيارات لتعريته، وتوضيح الركائز الأساسية الخاطئة التي ارتكز عليها في تطوره المنحرف الشاذ، ومقارنته بالقواعد الإسلامية لبناء الإنسان ـ الفرد، وبناء الإنسان ـ المجتمع ـ الذي ينطلق به الإسلام في الإتّجاه الطبيعي السليم، من غير حاجة إلى السير في مواكب الشذوذ والانحراف..

٢ ـ أن نتعمق في استيحاء الصفات التي أطلقها القرآن الكريم على الشذوذ الجنسي، في حملة لوط عليه، مثل كلمة (الفاحشة) و «الخبائث» و «الاسراف» و «المنكر» وتتوسع في تحليل معناها ومدلولها في اطار الفهم

الحديث لذلك كله، لنستطيع أن نثبت فاعليتها في حركة الدعوة في الحياة، لأن الألفاظ قد تموت بموت مداليها التي كانت تأخذ شكلاً معيناً وتلبس ثوباً معيناً. . عندما يتجاوز الزمان تلك الأشكال، ويمزق تلك الثياب، ولكنها قد تبعث وتتجدد فتحيا من جديد، إذا استطعنا أن نعطي المعاني حياة جديدة، ونلبس الألفاظ ثوباً جديداً. . وقد ننجح ـ في ذلك ـ إذا عملنا على ربط هذه المعاني بالوقائع والنتائج التي يفرزها الشذوذ، لنعرضها للإنسان المعاصر صور حية نابضة توحي له بجمع المعاني التي أوحى بها القرآن الكريم إلى المسلمين الأولين.

ولنضرب لذلك مثلاً، بكلمة «المنكر» وكلمة «الخبيث» «فقد لا نستطيع أن نحقق بطرحهما في حركة أسلوب الدعوة أي نوع من أنواع الاثارة الرافضة التي تدعو إلى ردود فعل ضد الفعل الشاذ، لأن الواقع المنحرف قد حوله إلى معروف بعد أن كان منكراً، وجعله طيباً بعد أن كان خبيثاً، على أساس تحوله إلى شيء يتصل بممارسة الإنسان لحريته. . وفي هذه الحال قد نحتاج إلى الدخول في أعماق الكلمة لنحرك فيها المعنى الذي لا يجعل الانكار والخبث صفتين طافيتين على السطح، بل يجعلهما حقيقتين ترتبطان بموقع الفعل من قضية مصلحة الإنسان على المستوى الخاص والعام، وتؤثران على مصيره ومستقبله، تماماً كالشيء الذي يحلو مذاقه وتخبث نتائجه، فإن الصفة الحلوة التي تقفز إلى البال، في البداية، لا تلبث أن تترك مكانها للصفة المرة في نهاية المطاف، بعد التجربة المريرة الطويلة. .

وإذا استطعنا الوصول إلى هذه النتيجة فسنكتشف أن قضية ممارسة الإنسان لحريته، لا تخضع للمزاج الذي يلاحق الحرية في كل مجال حتى على حساب سلامته ومصيره، بل القضية تخضع لموقع الحرية من حركة الحياة، فقد يشعر بالحاجة إلى أن يتنازل عن حريته في ممارسة رغباته

الذاتية، لمصلحة حريته في ممارسة حاجاته المصيرية، وبذلك ـ تتحول حرية المزاج إلى شيء «منكر» و «خبيث» ينكره مستقبله، وترفضه حياته.

٣ ـ أن نستفيد من أسلوب لوط وطريقته في المواجهة، فقد واجههم بالصفات الحقيقية لهذا العمل الشاذ ومدى انعكاسها على ميزان القيمة لديهم، ثم أعلن نظرته إليهم وموقفه الأخير منهم، ورجع إلى ربه في نهاية المطاف فلم يخضع لأي حركة تشنجية، تدفعه إلى مزيد من الكلمات المثيرة، سواء منها ما يجرح الاحساس، ويثير الشعور أو ما يخرج عن الموضع ويبعد عن القصد، لأن الهدف من ذلك كله أن يحقق الوصول إلى قناعاتهم بدعوته، وإيمانهم بكلامه، أو اقامة الحجة عليهم، وليس الهدف أن يفجر غيظه ضدهم أو يحقرهم أو يذلهم انطلاقاً من حالة نفسية عصبية معقدة كما يفعل كثير من الدعاة الذين يدخلون مشاعرهم الذاتية في مواقفهم العملية، فتختلط خطوات الرسالة بنوازع الذات.

شعيب وقومه:

كانت رسالة شعيب تستهدف تخليص قومه من الانحراف في سلوكهم الاقتصادي المتمثل في التطفيف الَّذي يمثل اعطاء الآخرين، دون حقوقهم، وأخذهم منهم أكثر مما لهم من حق.. كما صوره القرآن في قوله تعالى:

ـ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

ونلاحظ في هذا المجال نقطة مهمة لا بد لنا من اثارتها في حركة العمل الإسلامي وأسلوبه في الحياة وهي: أن رفض هؤلاء القوم للمبدأ التشريعي الذي يحرم التطفيف، يرجع إلى اعتقاد خاطىء وهو حرية التصرف المطلق فيما يملكه الإنسان من مال، فليس لأي تشريع أن يقترب من هذه

الحرية بأي نوع من أنواع التضييق والتقييد، وهذا ما يعبر عنه احتجاجهم على ذلك بقولهم. . أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء.

وقد كان شعيب منسجماً مع القاعدة الإلّهية التي لا تعتبر الحرية وعدمها، إلا بالمقدار الذي يحقق للإنسان مصلحته العامة، وللحياة توازنها الدقيق، ولذا كان التشريع يتحرك على أساس تحقيق هذا التوازن عندما يقيد أو يطلق، أو يعطي الحرية ويقيدها، فيما يحلل أو فيما يحرم، وقد كان التطفيف نوعاً من أنواع الاستغلال الخبيث الذي يجسد التعدي على حقوق الناس وسرقة أموالهم مما يسبب اخلالاً بالتوازن الذي تريد أن تقيمه الأديان في حياة الناس من حيث تحقيق العدالة في التعامل الذي يجعل المتعاملين متساويين فيما يأخذان أو فيما يعطيان تبعاً للالتزام العقدي الذي ينظم الحقوق والمسؤوليات، وعلى هذا الأساس جاء تحريمه، منعاً للفساد في الأرض.

وقد نخرج ـ من هذا كله ـ بنتيجة حاسمة ضد كثير من الدعوات التي تبشر بمبدأ الاقتصاد الحر لذي يسمح للإنسان بأي نوع من أنواع التعامل سواء منه ما كان مضراً بمصلحة الإنسانية وما كان غير مضر، ويوفر للإنسان الضمانات القانونية في حماية عملية الافساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي يمارسها تحت ستار التجارة الحرة التي تتحرك بفعل دوافع الربح والخسارة بعيداً عن أية جوانب أخلاقية أو إنسانية. وهذا هو ما يتمثل في التفكير الرأسمالي الحديث الذي يشجع هذا كله في اطار الحرية الاقتصادية التي تعتبر في مفهومهم إحدى الركائز الأساسية لقضية الحرية في الكون. . وقد أدى هذا التفكير إلى افساح المجال لولادة الاستعمار الذي يستعبد الشعوب ويستغل ثرواتها الطبيعية، ويحولها إلى وحدات استهلاكية

لتصريف المنتجات الصناعية بكل ما يستتبعه من حماية التخلف والجهل والخرافة والوقوف بقسوة ضد نوازع التحرر والاستقلال السياسي والاقتصادي.. وقد كان من نتائجه الكبيرة إلى جانب ذلك العمل على اثارة الخلافات الدينية والاجتماعية والاقليمية وغيرها، وتحويلها إلى نزاع مسلح معقد طويل يستنزف طاقات الشعوب وثرواتها من أجل تحريك مصانع الأسلحة التي لا تزدهر إلا في الحروب مما يجعل من السياسيين في كل بلد، عملاء طبيعيين لأصحاب المصانع من أجل دفع الفتنة أشواطاً إلى الإمام، واثارتها من جديد كلما قاربت الركود والهدوء..

إن هذه القصة، تؤكد لنا رفض الحرية الاقتصادية بمفهومها الذي لا يخضع للمفهوم الإنساني والأخلاقي... وتجعل الحرية في التصرفات المالية واقعة ضمن نطاق مصلحة الإنسان، وتوازن الحياة، لتسمح بما يدخل في ذلك، وتمنع ما يخرج عنه في كل زمان ومكان. وربما نشعر بالحاجة إلى التأكيد على كثير من المؤمنين أو العاملين في سبيل الله، الذين يغفلون عن الخط الدقيق الفاصل بين الحرية الاقتصادية كما تفهمها الرأسمالية، وبين الحرية الاقتصادية كما يفهمها الإسلام، من خلال تشريعه الملكية الفردية وحمايتها فإن الرأسمالية تطرح شعار قوم شعيب الذي عبر عنه القرآن الكريم في احتجاجهم على منعهم في أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، لأنهم يرون الحق لهم في ذلك كله، بينما يطرح الإسلام شعار شعيب «أن أريد إلا الاصلاح ما استطعت» «ولا تعثوا في الأرض مفسدين» فهو يؤمن بالملكية الفردية بشرط أن لا يستغلها أصحابها في افساد البلاد والعباد سواء في ذلك، مصادرها ومواردها، فإذا تحولت إلى عنصر افساد وقف الإسلام ليقيدها، بكل قوة وعنف لتجري الحياة على أساس من الحرية الملتزمة لا الحرية المنفلتة.

ثم إننا نستوحي من الاهتمام الإسلامي بقصة شعيب وقومه، حيث كررها أكثر من مرة أن للجانب الاقتصادي أهمية كبيرة في الحركة النبوية في كل وقت، بحيث تقف في مركز الأوليات التشريعية لعلاقته بقضية التوزان في الحياة.. وعلى ضوء ذلك، نرى أن على الداعية اعطاء هذا الموضوع المستوى الكبير من اهتمامه في مجال الدعوة والعمل بالتركيز.

أولاً: على الجوانب التشريعية الاقتصادية في الإسلام لاعطاء النظرة الصحيحة في مواجهة الحلول الإسلامية للمشاكل الاقتصادية، إلى جانب المشاكل الأخرى.

وثانياً: بالوقوف، بشدة ضد الممارسات المنحرفة للاقتصاد، مهما كان نوها، سواء منها بالتطفيف وغيره لأن القرآن لم يشجب التطفيف لنفسه بل شجبه لنتائجه السيئة في حياة الناس، باعتباره افساد للضمير وللحياة، واستغلالاً للأزمة الخانقة التي تضغط على الضغفاء ازاء حاجتهم إلى الأقوياء، فيمكننا على أساس ذلك، مواجهة قضايا الاحتكار والاستغلال غير المشروع، والتجارة المحرمة التي تسيء إلى الصحة والأخلاق وإلى قضايا الحرية والكرامة والغش والسرقة والرشوة والنظام الربوي، والمعاملات التي تعمل على افساد الواقع السياسي والاجتماعي فتتحول تلك المواجهة إلى محاربة المحتكرين والمستغلين والمرابين والغشاشين واللصوص وتجار السياسية والدين ومثيري الفتن والحروب كطريق من طرق الأثراء غير المشروع على حساب حياة الناس واستقرارهم، وهذا هو الموقف الذي يؤكد للناس الخطة الإسلامية الشاملة للتنظيم الكامل للحياة بجميع جوانبها على أساس قوي ثابت ويقطع الطريق على أعداء الدين يعملون على تشويهه وتصويره بالصورة القاتمة التي تحصره في نطاق ضيق في التشريع العبادي والأخلاقي المثالي الذي لا يقترب من حياة الناس وآلامهم إلا بطريقة

تخديرية مثالية.. ويثيرون الحروب الاعلامية ضد العاملين للإسلام باعتبارهم حلفاء طبيعيين للأنظمة الاحتكارية والاستغلالية وللقائمين عليها من المحتكرين والمستغلين والمرابين لأنهم لا يثيرون الضجة على الفساد الاقتصادي وأصحابه، بل يكتفون باثارة الحملات على الفساد العقائدي والأخلاقي الذي قد يرتبط كثيراً بالفساد الاقتصادي.

إننا نثير هذه القضايا لنواجهها من خلال خطة مدروسة مرتبطة بالخطة العملية الشاملة لحركة الدعوة وأسلوبها في عرض الإسلام أمام الناس لأن ذلك هو واقع الأسلوب الإسلامي الذي أوضحه القرآن الكريم في تشريعاته وفي مفاهيمه، وفي حركته العملية التي تعتبر امتداداً لحركة النبوات والرسالات الإلهية في الكون.. وبهذا نبتعد عن الذهنية المحدودة التي تخضع في تخطيطها وحركتها لردود الفعل الآتية من الآخرين لا إلى قناعاتها بضرورة التفكير الواسع العميق الذي يستبق المشاكل قبل حلولها لمنع حلولها، ويواجه ردود الفعل قبل حدوثها ليمنع حدوثها، لأن عظمة الحركة ـ أية حركة ـ بمقدار ما تمهد الطريق للحياة التي تتقدم فيها الإيجابيات على السلبيات وتحقق الأرباح بعيداً عن الخسائر لتكون ردود الفعل «لو حدثت» واقعة خارج نطاق الخطأ كاحتجاج من الآخرين على عدم حدوث الخطأ.. وتلك هي قيمة القرآن في قضايا التشريع، وقصص التاريخ.. أنه يثير أمام الإنسان قضايا كثيرة ليفكر فيها تفكيراً هادئاً سليماً يوحي بالثقة ويعين على السير في الاتجاه السليم.

خاتمة المطاف:

وربما كان في هذا المقدار الذي اقتطفناه من فصل «الحوار القصصي في القرآن» من كتابنا «أسلوب الحوار في القرآن»، ما يكفي لتوضيح الفكرة

التي أردناها في هذا الفصل من اعتبار التاريخ الديني للأنبياء أساساً للانطلاق إلى تجاربنا من خلال التجارب الرسالية.. وقد يكون من واجب العاملين في سبيل تربية إسلامية رسالية أن يتوفروا على دراسة التجربة النبوية، بشكل مفصل دقيق، فإن هذا الاتجاه يمنحهم فهما جديداً للقرآن، ويغني ثقافتهم بمادة غنية بكل ألوان الثقافة الإسلامية الممتدة من أعماق التاريخ إلى آفاق المستقبل.

●□●□●

دروس في حياة النبي محمد (ص)

كانت حياة النبي محمد ﷺ رسالة كلها، تتمثل فيها معالم الرسالة ومفاهيمها، لتكون التجسيد الحي الذي يتحرك فيجد الناس الرسالة في صورة إنسان، ولهذا كانت حياته قدوة وشريعة فكانت أفعاله كأقواله دروساً إسلامية عملية.. وقد جاء في الحديث المأثور «إن خلقه القرآن» وبذلك كانت تجربته كإنسان لا تختلف عن تجربته كرسول، إذ لا ازدواجية بين الشخصيتين في ذاته بل هي شخصية واحدة تؤكد على الخصائص الإنسانية في الرسالة من خلال حركة الإنسان في حياته وتبلور جانب الرسالة الواقعي في حركة الإنسان الرسالي وبهذا فإننا سنجد في القرآن كل عناصر تجربة محمد الإنسان الرسول، الذي تمتزج فيه شخصيتان لأنهما كانا ممتزجتين في خلق الإسلام كدين.. فلا بد للداعية من أن يلاحق التجربة في القرآن في كل أساليب النبي ومواقفه وخطواته ليستفيد منها في تجربته المعاصرة.. وقد نجد في السيرة النبوية الشريفة اللمحات الخاطفة التي تستطيع أن تغنينا في حركة العمل الإسلامي..

ففي التجربة السابقة على الهجرة، نجد أن بداية الدعوة ـ فيما تحدثنا السيرة ـ تتمثل في نقاط مهمة، فقد أطلق النبي الدعوة في مجتمعه بشكل أقرب إلى السرية منه إلى العلنية فكان يتصل بالأفراد واحداً واحداً، ويطلب منهم أن يتصل كل واحد منهم بغيره في سرية وخفاء، لأنه كان يريد أن يوجد

قاعدة متماسكة ولو صغيرة، ينطلق منها العمل بقوة حتى لا يزول العمل لدى أي ضغط مفاجىء..

وقد نستطيع أن نفهم من خطوات بعض هؤلاء الذين خاطبهم النبي بالدعوة، إن إسلامهم قد بقي في اطار السرية إلى نهاية حياتهم حتى خيل للكثيرين أنهم لم يدخلوا الإسلام وذلك مثل (أبي طالب) عم النبي، الذي كفله ورباه وآواه ونصره.. فقد كانت الرسالة بحاجة إلى شخصية قوية تدعمها وتدعم النبي، من دون أن تكون طرفاً في المعركة.. فكان هذا الرجل وتلك الشخصية الفذة.. ولولا ذلك لم نستطع أن نفسر كل المصاعب التي لاقاها في سبيل حماية النبي ورسالته أو اقراره ولده «علياً» على دخوله في الإسلام معلّقاً على ذلك بأنه لم يدعك إلاَّ إلى خير.. أو كلماته التي تبدر منه في بعض الحالات بما يشف عن تلك الروح المؤمنة الصافية... أما التفسير الذي يضعه البعض، من اخضاع ذلك إلى الحمية، وغيرها من الجوانب العائلية والعاطفية فلا نحسب أنه يثبت للنقد، لأن الإنسان يختلف مع إنسان آخر في العقيدة لا سيما إذا كانت العقيدتان متباينتين متنافرتين، لا يمكن أن يقف موقف الحياد إلى آخر الشوط دون أن تبدر منه كلمة تأفف أو تذمر أو غير ذلك من كلمات الرفض والاحتجاج كما وجدنا ذلك في عمه الثاني (أبي لهب) فلذلك نستطيع أن نفهم التعاطف بين بني هاشم وبين الدعوة الإسلامية لأن التاريخ لم يذكر لنا أي موقف عنف لهم في هذا المجال. ولسنا بصدد البحث عن هذا الجانب من حياة أبي طالب، ولكننا نريد الإشارة إلى هذا الجانب من حياة الدعوة.. حسب اجتهادنا.. وكل ما نريد قوله: هو إن على الباحث أن يضع في حسابه المرحلة السرية للدعوة في البداية، وحاجة إلى الرسالة إلى الشخصية القوية اجتماعياً لتدعم وتفاوض مركز قوة، لتكون سبيلاً إلى اعطاء الدعوة حرية في الحركة بأقل قدر ممكن من الضغط.. مما جعل بقاءها على حالة السرية ضرورة رسالية.. حتى بعد

خروج الدعوة إلى العلن.. فإذا وضع الباحث ذلك كله في حسابه ودرس حياة هذا الرجل كلها بدقة وموضوعية استطاع أن يفهم كيف يكون إسلام هذا الرجل حقيقة تاريخية لا مجال للشك فيها أبداً بالرغم من بعض النصوص التي توحي بكثير من الشك والافتعال..

النقطة الثانية:

إن الدعوة قد مرت في المرحلة الأولى، بالدور المسالم الذي لا يثير في وجه الآخرين أي نوع من أنواع التحدي والمجابهة والعداء.. فقد كانت الدعوة للإيمان بالله الواحد وللشهادة برسالة محمد، من دون أن تعلن الحملة على عبادة الأصنام وعبادة القوم لها.. ولم يكن هذا الأمر مثيراً لأي نوع من أنواع الحساسية ضد الرسالة.. لأن القوم لم يكونوا ملحدين حتى يتنكروا لدعوة التوحيد، ولم يكونوا مشركين بالله بالمعنى الفلسفي للاشراك الذي يتمثل في الإيمان بقوتين خالقتين ـ فيما يبدو ـ بل كانوا مشركين بالمعنى العبادي للكلمة في تقديسهم للأصنام وعبادتهم لها لأنها تحمل من المعاني القدسية ما يجعل لها قرباً إلى الله ودالة عليه فتكون بمثابة القوى الشافعة، التي تقربهم إلى الله زلفى كما تعبر الآية الكريمة[(١)].. أما الدعوة إلى الإيمان بالرسالة فلم تكن مشكلة بالنسبة إليهم.. وربما كانت باعثة على التندر والتفكه واللامبالاة لديهم.. كما يوحي إلينا بذلك النص التاريخي الذي جاء في السيرة النبوية الشريفة ـ كما ورد في طبقات ابن سعد ـ قال: أمر رسول الله ﷺ أن يصدع بما جاء من عند الله، وأن ينادي الناس بأمره وأن يدعوهم إلى الله فكان يدعو من أول ما نزلت عليه النبوة ثلاث سنين مستخفياً إلى أن أمر بظهور الدعاء.. وقال.. في رواية أخرى: دعا رسول الله ﷺ

(١) ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

إلى الإسلام سراً وجهراً فاستجاب لله من شاء من أحداث الرجال وضعفاء . . . كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أن غلام عبد المطلب ليكلَّم من السماء فكان ذلك حتى عاب الله آلهتهم التي يعبدونها من دونه، وذكر هلاك آبائِهم الذين ماتوا على الكفر فشنفوا لرسول الله عند ذلك وعادوه[١].

وقد يكون السبب في ذلك: هو أن يعطي الرسالات مجالاً للانطلاق من ضغوط مباشرة ليكون لها حرية الحركة في بداياتها الأولى، من أجل تركيز القاعدة الرئيسية في ظروف طبيعية. . وهكذا كان كما صرح به النص السابق. . في دخول الكثيرين من أحداث الرجال وضعفاء الناس الذين لا يجدون أي مانع لديهم في الدخول في الإسلام من ناحية ذاتية بل كل ما هناك، إنهم يخشون من الاضطهاد ويخافون من العذاب، فإذا لم يكن الجو خانقاً أو ضاغطاً من هذه الجهة، كانت قضية دخولهم في الإسلام، طبيعية جداً، لأن الأحداث يلتقون فيه بالفطرة، ولأن الضعفاء يجدون في عقيدته ومفاهيمه وتعاليمه الشعور بالكرامة والاحترام لإنسانيتهم والحل المستقبلي لمشكلتهم. .

النقطة الثالثة:

هجرة المسلمين إلى الحبشة. . . فقد بدأ الاضطهاد القرشي الكافر للمسلمين بشكل عنيف وغير محتمل بحيث وقف المسلمون بين خيارين، الخضوع للضغط الكافر في خروجهم عن دينهم، أو الهجرة إلى أي بلد آخر. . يأمنون فيه على دينهم. . وكان الخيار الثاني هو الموقف الطبيعي لقوة الإيمان وثباته وعمقه، إذ لا يمكن لهؤلاء الذين ذاقوا حلاوة الإيمان وعرفوا

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١، ص ١٩٩.

الطريق الحق، وانفتحوا على النور المتدفق من قلب الرسالة على الحياة، أن يتراجعوا عن ذلك، أو ينحرفوا عنه، أو يستسلموا إلى أي اضطهاد أو اغراء.. ولكنهم كانوا يريدون أن يعيشوا إسلامهم في أنفسهم، وفي حياتهم، وفي حياة الآخرين مما لا يتوفر لهم، لو قُدِّر لهم البقاء في مكة، لأنهم سوف يظلون يمارسونه في سرية خانقة.. مع خوفهم من نقاط الضعف التي قد تقتحم على الإنسان حياته من دون شعور.. وكانت المبادرة من رسول الله ﷺ تأكيداً على واقعية الرسالة في وعيها لموضع الصبر والصمود.. فقد يصبح شيئاً مثالياً أو خيالياً لو كانت الدعوة إليه في مجال لم تجتمع فيه مقوماته أو شروطه، بل كانت في مصلحة الموقف المضاد وهو الانهيار والاستسلام وبذلك يكون تكليفاً بغير المقدور وهو قبيح بحكم العقل والعقلاء كما يقول علماء الكلام فلا يمكن أن يصدر من رسول الله ﷺ الذي ينطق عن الله، فيما يأمر به أو ينهى عنه والله يقول:

- ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

- ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

ولهذا كان الموقف الطبيعي أن يصمدوا في رسالتهم ويصبروا على دينهم في أرض أخرى يمكن لهم أن يتنفسوا فيها هواء الحرية.. فينمّوا إيمانهم، كطريق للوصول إلى إيمان الآخرين.. ولهذا قال لهم رسول الله ـ فيما ترويه السيرة ـ تفرقوا في الأرض، فقالوا: أين نذهب يا رسول الله... قال: ههنا، وأشار إلى الحبشة ـ وكانت أحب الأرض إليه أن يهاجر قِبَلها ـ فهاجر ناس ذوو عدد من المسلمين، منهم من هاجر بأهله ومنهم من هاجر بنفسه، حتى قدموا أرض الحبشة «... وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم واحداً، وقالوا: وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار أمَّنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه»[(١)].

النقطة الرابعة:

كانت طريقة رسول الله ﷺ في الدعوة منذ اعلانه الرسالة في تحركه العلني، في مكة أنه «يوافي المواسم كل عام يتبع الحاج في منازلهم في المواسم بـ (عكاظ) و (مجنة) و (ذي المجاز) يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه، حتى أنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذل لكم العجم وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة. و (أبو لهب) وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب، فيردون على رسول الله ﷺ أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، ويكلمونه ويجادلونه ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول: اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا..».

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

إننا نستوحي من هذه الطريقة عدة جوانب:

الأول: ايصال الدعوة إلى كل مكان وجماعة بشكل شخصي ومباشر لأن الأسلوب الذي يتبع الدعوة العامة لا يحقق الهدف المطلوب، وهو الدخول في المبدأ والتفاصيل معاً، واثارة أجواء الحوار من خلال اثارة علامات الاستفهام التي تبحث عن وضع النقاط على الحروف مما يعطي وضوحاً في الرؤية واستعداداً طبيعياً ـ ولو بعد حين ـ لتفاعل القضايا المطروحة في نفوس الناس، عندما ترتفع الحواجز عن الساحة، ويزول الضغط عن النفوس والعقول، ولهذا كانت زيارة الحجاج في منازلهم، ومحاولة التعرف عليها مسبقاً بشكل يقرب من الالحاح سبيلاً طبيعياً لتحقيق ذلك.

الثاني: محاولة التعرف على قبائل العرب ورؤسائهم عن كثب ليأخذ فكرة واضحة عنهم وعن عقلياتهم وأوضاعهم هذا من جهة..

ومن جهة ثانية: محاولة تعريفهم بنفسه ليأخذوا عنه الصورة الصحيحة، من خلال دعوته وطريقة تفكيره، وطبيعة القضايا التي يثيرها ويدعو إلى الإيمان بها، وأسلوب حديثه وكلامه، وسعة عقله وفكره.. ليكون ذلك خطة عملية لتحطيم الدعايات التي أثارتها قريش ضده من نسبة الجنون والسحر والشعر إليه.. من دون أن يخشى على خطته تلك من موقف عمه أبي لهب وغيره ونسبته إلى الكذب، لأنه لم يكن ـ فيما يبدو ـ يفكر باللحظات الآنية بل كان يفكر بالمستقبل عندما يرجع هؤلاء إلى بلادهم ويبتعدون عن أجواء مكة المحمومة بالعداوة له، فيجلسون في نواديهم ويتحدثون عما رأوه وعما شاهدوه في رحلتهم ليتناقشوا في ذلك كله، أو ليفكروا فيه بينهم وبين أنفسهم... حيث يسترجعون ملامح الصورة تدريجياً فتتضح لهم حقيقتها بشكل كامل واضح.

الثالث: إنه كان يفتش ـ من خلال ذلك ـ عن قاعدة اقليمية وبشرية للإسلام، لأن مكة لم تكن صالحة للانطلاق منها إلى العالم، نظراً إلى القوة المضادة فقد كانت قاعدة للشرك والطغيان، وليس من المستطاع ـ من وجهة عملية ـ تفجيرها وتحطيمها من الداخل، بل يجب البحث عن مكان آخر يحشد فيه القوة، التي يقاوم بها هذه القوة الطاغية.. لهذا كانت محاولاته الدائبة المجهدة تتحرك في هذا الاتجاه دون تعب أو كلل حتى نجحت هذه المحاولات عند لقائِهِ بأهل يثرب في نهاية المطاف (كما سنرى فيما يأتينا من حديث). وقد نسطيع القول بأن بقاء النبي في مكة مدة ثلاث عشر سنة لم يكن أمراً يجري مجرى الصدفة، بل ربما كانت خطة محكمة لاستغلال مركز مكة الديني والثقافي والتجاري الذي كان يجمع إليه الناس من كل مكان في سبيل ايصال صوت الدعوة إلى كل مكان في الجزيرة العربية وغيرها مما لا يمكن الحصول عليه في أي بلد آخر، فيوفر على الرسالة جهوداً كبيرة، ومصاعب كثيرة، تستدعي كثيراً من الأسفار والرسل والأموال.. ثم.. في العمل على الوصول إلى هدف ايجاد القاعدة القوية للمجتمع الإسلامي الجديد، من أجل تحقيق الانطلاقة الإسلامية نحو العالم. حتى إذا استكملت الخطة مراحلها ووصلت إلى هدفها.. كانت الهجرة من مكة إلى يثرب..

النقطة الخامسة:

خروجه إلى الطائف: جاء في طبقات ابن سعد ـ قال: لما توفي أبو طالب تناولت قريش من الرسول ﷺ واجترأوا عليه فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة وذلك في ليال بقين من شوال سنة عشر من حين نُبّيء رسول الله ﷺ فأقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم فقالوا يا محمد اخرج من بلدنا

والحق بمجابك من الأرض وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أن رجلي رسول الله ﷺ لتدميان وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه فانصرف رسول الله ﷺ من الطائف راجعاً إلى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم ـ يعني قريشاً ـ وهم أخرجوك.. فقال: يا زيد إن الله جاعل لما ترى فَرَجاً ومخرجاً وأن الله ناصر دينه ومظهر نبيه[١]، ويروي ابن هشام في سيرته، أنه اطمأن رسول الله ﷺ إلى حائط لعتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وقال ـ فيما ذكر له ـ اللهم إليك أشكو المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتهجمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك[٢].

ونقف مع هذه القضية وقفة التقديس لهذا الموقف الرسولي الذي يبقى مع الرسالة في تجربة المواقف، وفي اقامة الحجة، فلا مجال لهدوء، ولا مكان للراحة ولحب السلامة.. فإن هاجس الدعوة في قلبه وفي دمه لا يتركه لحظة في نومه وفي يقظته.. إنه يدعوه للبحث عن منطلق جديد وموقع جديد، يتحرك فيه من مركز القوة.. وليست القضية أن يستكمل عناصر النجاح منذ البداية سلفاً، بل يكفيه أن يلاحق احتمالات النجاح، حتى إذا تم له ذلك، كان هو الذي أراده، وإذا لم يتم له ما يريد، فحسبه أنه أدى الرسالة، وأقام الحجة.. وتلك هي قضية الرسالة.. وقضية الرسل.. فهم يلاحقون التجربة لتنتج موقفاً، أو لتفتح قلباً، أو لتسمع أذناً.. لأن مهمتهم

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١، ص ٢١١ ـ ٢١٢.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١، ص ٢٨٦.

أن يشقوا الطريق للحق، ويصنعوا أجواء الرسالة، ويفتحوا العقول على مبادىء الدعوة ومفاهيمها. . لتبدأ رحلة التفكير، لها أو عليها كمرحلة من مراحل الإيمان الذي ينتظر المستقبل من خلال مواقف الحاضر. . . وهذا هو ما أكده القرآن في تأكيده على أن مهمة الأنبياء هي الابلاغ والبلاغ. . لأنهم لا يملكون السبيل إلى قلوب الناس إلا بذلك ـ، وهكذا اندفع النبي إلى الطائف وهو يحسب حساب الفشل على مستوى تحقيق الإيمان، لأنه قد عرف طبيعة مواقفهم في محاولاته في مكة ولكنه أراد أن يثير الفكرة في داخل مجتمعهم ليثير أحداثهم وشباهم الذين يتطلعون إلى المستقبل بعقلية منفتحة واعية تتطلع إلى المستقبل من خلال الشعور بالحاجة إلى التجديد في الفكر والموقف والأسلوب خلافاً للأجيال القديمة المحافظة التي لا تريد أن تترك ما يعبد آباؤها، أوتغير ما تألفه من تقاليدها وكانت تحس بخطر الدعوة الجديدة على لأحداث. . ولهذا كان الحل الوحيد عندهم أن يخرجوه من بلدهم حيث لم يكن لهم سبيل إلى منع شبابهم عنه، ولم يكن قدرة على مناقشته في دعوته. . وقد حصل للنبي ما أراده فقد أحدث لديهم جواً من التوتر والتساؤل والعنف، بما استعملوه ضده من أساليب القهر والتنكيل والاهانة، وقد استوفى ما أراده من دعوتهم إلى الإسلام وابلاغهم حاجته إلى النصرة والمعونة في رسالته مما يجعلهم يفكرون به أياماً طويلة سيظهر أثرها العملي فيما بعد. . عندما ترتفع الحواجز، وتزول الضغوط وتنطلق قوة الإسلام لتحقق للإنسان حريته في الإيمان بالله دون خوف من القوى المضادة له. .

أما ما عاناه من عذاب وتنكيل وسباب، فهو قدر الرسالات والرسل في كل زمان ومكان. . وهو نقطة البداية في ولادة الفجر الجديد من بين الآلام والدموع.

ويبقى الأمل، كمثل أحلام الصباح، في ظلمة الليل الطويل.. لأن الله وعد الرسل بالنصر.

ومن أصدق من الله وعداً، ومن أعظم من الله قدرة على تنفيذ ما يريد وأن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً.. وذلك هو ما أراد النبي أن يقوي به موقف زيد بن حارثة لما خاف عليه من دخول مكة بعد اخراج قريش له منها.. فإن زيداً كان ينظر بمنظار اللحظة الحاضرة أما النبي فهو كالأنبياء في كل زمان ومكان، ينظرون بعين الإيمان بالله، إلى المستقبل الذي يصنعه الله للحياة بقدرته ورحمته وهدايته، كما صنع الماضي والحاضر..

ومهما كان الأنبياء أقوياء في أنفسهم.. فإنهم يستمدون قوتهم من الله خالق القوة وصانعها ولذا فهم ينتظرون لحظات الضعف البشري الذي يهز المشاعر، ويستثير القلق، ولو بمثل اللمحة الخاطفة ليقفوا بين يدي الله في خشوع وإيمان، ومحبة، في دعاء حار يرجو ويتوسل ويستغيث، في تقرير رسالي روحي خالص يجمع مشاعرالقلب والعقل معاً.. وتلك هي قيمة لحظات الضعف لدى المؤمنين بالله، إنها تجدد لهم الاحساس بالحاجة إلى الله في عمق الشعور المتوتر، بعد أن كان الاحساس بالحاجة إليه مرتبطاً بالجانب العقلي والإيماني العام في حياة الإنسان من خلال عقيدته وتفكيره..

وهكذا وقف النبي محمد ﷺ ليناجي الله بعد تلك التجربة القاسية التي خاضها مع الكافرين وتحمل فيها ما تحمل من العذاب الشديد من هؤلاء، بعد أن أخرجه قومه، ولم يبق له قاعدة للقوة يستند إليها إلا قوة الله العظيمة التي يلجأ إليها الضعفاء ليعطيهم قوة جديدة وروحاً جديدة، فيواصلوا ـ من خلالها ـ رسالتهم ودعوتهم في سبيله.. ولعلها من أروع الأدعية التي تعبر عن الحب كله، والاخلاص كله.. التي تطلب من الله ما

تريد، وترجو منه ما تحب. . . ثم تترك الأمر إليه ليفعل ما يشاء، ويقضي ما يريد، لأنه مالك الأمور كلها، لأن الهدف كله هو رضاه، فهو الهدف في حالة الشدة، وهو الهدف في حالة الرخاء، وهو الهدف في الحالة التي يقف فيها بين حالات الشدة وبين حالات الرخاء. . فهو حسبنا ونعم الوكيل.

النقطة السادسة:

قال ابن هشام في سيرته، أتى النبي محمد ﷺ بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم نفسه فقال لهم رجل منهم ـ يقال له بيحر بن فراس ـ والله، لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ثم قال له: أرأيت أن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك قال: الأمر لله يضعه حيث يشاء قال: فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا. . لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه. .

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا قال: فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال: يا بني عامر هل لها من تلاف. . هل لذناباها من مطلب، والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وأنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم. .

إننا نستوحي من هذه القصة:

أولاً: الروح الرسالية القدسية التي لا تريد أن تجمع الناس إلى كلمة

الإيمان من خلال الوعود المعسولة الكاذبة، تعطى بغير حساب على حساب المستقبل الذي لن يحقق لهم الوعد لأنه يمثل القوة التي لا تستطيع أن تنكث من دون أن تخشى العقاب لأن الآخرين يكونون قد أصبحوا في موقع الضعف، كما يفعل الكثيرون من أصحاب الدعوات السياسية مع كثير من الأتباع عندما يجعلون من الوعود التي تغرق الناس بالأحلام طريقاً للوصول إلى مآربهم من تأييدهم في مواقفهم وحملاتهم السياسية. . . ولكن الأنبياء جاؤوا بالصدق وآمنوا به، وانطلقوا برسالتهم في موقع الصدق مع ربهم ومع أنفسهم ومع أممهم. . ومع الحاضر والمستقبل. . ولهذا فهم يواجهون الناس بالحقيقة كل الحقيقة دون مواربة، فلا يعطون أية كلمة للمستقبل ما لم يعرفوا، من أنفسهم ومن الله، أنهم يستطيعون تحقيقها والوفاء بها. . . حتى لو كانت هذه الكلمة تحقق لهم الربح الكبير على مستوى الحاضر. . وذلك هو موقف النبي العظيم الذي جسد حقيقة الصدق كأروع ما يكون، مع أنه بحاجة إلى تأييد هذه القبيلة الكبيرة في موقفه الضعيف بشرياً الذي كان ينتظر أية بادرة نصرة من أي فرد، فكيف بالقبيلة الكبيرة التي تبدي استعدادها للموت دونه إذا أعطاها وعد شرف ـ مجرد وعد شرف ـ على أن يكون لها الأمر من بعده. . فما كان منه ازاء هذا العرض، إلا أن صارحهم بالحقيقة الحاسمة فهو ليس ملكاً يملك السلطة من خلال قوة ذاتية، ليستطيع أن يجعلها لكل من يريد من بعده كما يفعل الملوك عندما يصدرون تعليماتهم وإرادتهم الملكة بتعيين أولياء عهدهم بل هو نبي يستمد سلطاته من الله، ولم يجعل له الله إلا النبوة التي يتحمل مسؤوليتها لابلاغ كلمة الله إلى اناس وهدايتهم إلى الحق ليخرجهم من الظلمات إلى النور. . . وتنفيذ ذلك ما استطاع إليه سبيلا. . أما الخلافة من بعده، فهي لله يضعها حيث يشاء، وليس له مع أمر الله أمر. .

. . . وهكذا ابتعد هؤلاء عن النبي ﷺ لأنهم أرادوها عملية تجارية

يتبادلون فيها المنافع وأرادها النبي ﷺ رسالة ينطلق فيها الإنسان للتضحية رغبة فيما عند الله، ورجاء لثوابه ورضوانه..

وثانياً: إن هذه القصة تؤكد ما أشرنا إليه من أن الأشخاص الذين يقصدون مكة، يرجعون إلى بلادهم وأهلهم، فيسألون عما رأوه وعما سمعوه فيحدثونهم بذلك، ويخبرونه عن موقفهم من هذا الموضوع أو ذاك أو من هذا الشخص أو ذاك، فقد يوافقونهم على موقفهم، وقد لا يوافقونهم.. وفي كلا الحالين.. يصبح الموضوع الذي يدور حوله الحديث قضية مثير للجدل ومجالاً للتفكير.. كما رأيناه في موقف هذا الشيخ الذي استطاع أن يعرف ملامح الحقيقة فيما نقله إليه قومه الذين اجتمعوا بالنبي ﷺ وطلبوا منه ولاية الخلافة من بعده.. فأنكر عليهم ذلك أشد الانكار حتى أنه أطلق كلمته فيما يشبه الاستغاثة والاستثارة لهم في تلافي ما حدث منهم لأن ذلك هو الحق كل الحق.. واعتبر موقفهم هذا من المواقف البعيدة عن الرأي الصائب الذي يكتشف الحق من خلال الفكر النير، لا من خلال المطامع.

... وقد كان هذا هو أحد الأهداف التي أرادها النبي من زيارته للقبائل في منازلهم ودعوتهم إلى الإسلام وعرض موقفهم عليهم من خلال طلبه الإيمان به ونصرته على قومه من موقع هذا الإيمان وربما كان لنا أن نقرر أن وفود العرب التي قدمت على النبي ﷺ في المدينة بعد انتصاره على قريش لتعلن له إسلامها وتبايعه على الوفاء والنصرة، لم تندفع بوحي الانتصارات فقط، بل كانت اندفاعها نتيجة تفاعل الدعوات السابقة، واللقاءات الماضية التي حققت لهم انطباعاً جيداً عن الرسالة والرسول، وما لبث أن تحول إلى إيمان بعد ارتفاع الموانع التي كانت تقف حائلاً بينهم وبين التنفيذ..

النقطة السابعة:

لقد حاولت قريش بكل أساليبها التهديدية والاغرائية على أن تجعل النبي محمّداً ﷺ يتنازل عن شيء من مواقفه، لا سيما الموقف الذي كان يتناول سب الأصنام، وتسفيه عقولهم وتخطئة آبائِهم في تقاليدهم وعاداتهم. . . لأنها ـ فيما يبدو لنا ـ كانت تخشى من ظهور أمر النبي وتعاظم دعوته، أن يقضي على امتيازاتهم القبلية التي كانت مصالحهم التجارية والمالية والسياسية تخضع لها وترتبط بها. . لأن المجتمع القرشي ـ في دراستنا لأوضاعه ـ لم يكن مجتمعاً متديناً حتى بالمعنى الوثني للتدين، فلم نجد في سلوكهم العملي ما يوحي بالتصوف الديني للأصنام بل كان مجتمعاً تجارياً، تحكمه مصالحه المالية. . ولهذا بدأوا باعلان الحرب على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة، عندما شعروا بأنه يهدد تلك المصالح، بسيطرته على الطريق التجاري الذي كانت تمر عليه قوافلهم من مكة إلى الشام. . مما يؤكد لنا هذه الفكرة. . . ويواجهنا في هذا المجال موقفان:

الموقف الأول:

في حديثهم مع عمه أبي طالب في شأنه وانكارهم ما يقوم به رسول الله من مواقف مضادة لآلهتهم وتقاليدهم ومحاولتهم الضغط عليه ليجبره على التراجع عن موقفه أو تقديم بعض التنازلات في ذلك. . ثم حوار أبي طالب مع النبي وجوابه له. . . ووقوفه معه بقوة مهما كان الثمن. .

قال ابن هشام في سيرته:

لما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم

يبعد منه قومه ولم يردوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون، وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله ﷺ على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده شيء، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب فقالوا يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فأما أن تكفه عنا وأما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه . . .

ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ثم شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه وحض بعضهم بعضاً عليه، ثم أنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وأنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله لهم ولا خذلانه.

قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا للذي كانوا قالوا له، فابق علي وعلى نفسك، ولا

تحملني من الأمر ما لا أطيق قال: فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بدءاً وأنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف على نصرته والقيام معه قال: فقال له رسول الله ﷺ يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: اقبل يا ابن أخي قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لن أسلمك لشيء أبداً. . .

أما قيمة القصة، فتتمثل في الموقف الحاسم الحازم الذي وقفه رسول الله ﷺ من عرض التنازل عن دعوته أمام تهديد قريش له أو لعمه، فيما نقله إليه أبو طالب. . فقد بدا لنا في موقف العظمة الرسولية التي تضع الرسالة في جانب، والشمس والقمر في جانب. . ثم لا يترك القضية تحتمل وقتاً طويلاً في عملية التوازن والاختيار، بل يعطي الموقف حقه من الحسم الفوري ليقرر فيما يشبه الاستشهاد. . إنه لن يترك الرسالة. . أو يموت. . فأما الرسالة وأما الموت. . فأين التهديد وأين الاغراء فذلك هو شأن الرسل عندما تكون القضية قضية رسالتهم في كل مجال.

وأننا نتحفظ ـ فيما ذكرته السيرة ـ من أن النبي قد استعبر أمام عمه ليفسر تجاوب عمه معه بالهزة العاطفية التي حصلت لديه أمام هذا الموقف العاطفي الفريد. . لأننا لا نجد هناك أي انسجام بين هذا الموقف القوي الذي لا يخلو من شدة وحزم وتصميم وبين الموقف الباكي الذي يجسد الشعور بالضعف والوحدة. . بل نجد تنافراً بين هذا وذاك. . ولسنا ننطلق في هذا التحفظ من الفكرة التي تنفي استسلام النبي لنوزاع الضعف البشري فيما لا يرتبط بأمر العصمة فإننا لا نوافق على ذلك من ناحية المبدأ، لأن فكرة البشرية للنبي التي أكدها القرآن تقر وجود مثل هذا الضعف لديه ولكننا ننطلق

فيها من طبيعة الموقف لأننا نشعر ـ من خلال هذه الكلمة الخالدة ـ بكبرياء النبوة يتعاظم من خلال الشعور بالعزة والكرامة التي تهز الأعماق في لحظة استشهاد، لتحضن الرسالة في قوة وحزم دونها قوة الأبطال الاسطوريين. وربما نستشعر أن موقف أَبي طالب كان فعل إيمان وهزة انفعال بروعة موقف الرسول أمام كرامة الرسالة وهذا هو ما يؤكد نظرتنا إلى شخصية أبي طالب كشخصية تلبس لبوس الحياد، لتدعم الموقف موقف الرسالة من خلال مركزها الاجتماعي الكبير الذي لم يتأثر بالمعركة الدائرة كطرف مما جعل أسلوبه في مستوى الحكمة والمرونة الاجتماعية التي توحي بموقف ولا تصرح به لتنفذ من خلال الضباب إلى ما تريد.

الموقف الثاني:

موقف النبي ﷺ من الوليد بن عتبة، وحواره معه.. قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً قال يوماً، وهو جالس في نادي قريش ورسول الله جالس في المسجد وحده...: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها لنعطيه أيها يشاء ويكف عنا، وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى الرسول فقال يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً نتنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها قال: فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد اسمع. قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد

بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أوكما قال له، حتى فرغ عتبة، ورسول الله يستمع منه، قال: فرغت يا أبا الوليد قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: افعل، فقال:

- ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ١ ـ ٥].

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرؤها عليه فلما سمعها عتبة انصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها ليستمع منه ثم انتهى رسول الله إلى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد، قال: ورائي إني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[١].

(١) سيرة ابن هشام ج ١، ص ١٨٩ ـ ١٩١.

وقد نجد في هذا الموقف بعض الإيحاءات الواقعية بالأسلوب العملي للدعوة الإسلامية.. ففي بداية الأمر نلاحظ وجود أصوات عاقلة هادئة في حياة الرسالات تدعو إلى الوقوف أمام الرسالة موقفاً موضوعياً، يفكر فيما تدعو إليه بهدوء، ويواجه صاحبها بمحبة، ويطلب من خصومها أن يفتشوا عن الحل بالحاح، ولو بالتركيز على التجميد العملي للصراع...

ونلاحظ إلى ـ جانب ذلك ـ ارتفاع الأصوات الصاخبة التي تشير إلى هذه الأصوات بانكار وإلى أصحابها باتهامهم بأساليب الارهاب الفكري التي تكيل الاتهامات بلا حساب، لتمنع الأصوات الطيبة أن تنفذ إلى عقول الطيبين الذين يفتشون عن الأجواء الهادئة التي تتيح لهم التفكير بهدوء وتحصيل القناعة الفكرية والروحية الهادئة التي تتيح لهم التفكير بهدوء وتحصيل القناعة الفكرية والروحية بحرية ومعرفة. هذا من جهة.. ومن جهة ثانية: تؤكد قيمة الأسلوب النبوي الذي واجه به النبي محمد ﷺ هذا الرجل فقد استمع إليه بهدوء حتى ظن أنه سيناقش معه العروض التي عرضها عليه ليصل إلى النتيجة المطلوبة في حل المشكلة بينه وبين قريش.. ولكن النبي طلب من الرجل أن يستمع إليه، كما استمع هو إليه، وفاجأه بالآيات الكريمة التي قرأها عليه لينقله من جو العروض المادية إلى جو روحي بعيد كل البعد عن ذلك ينطلق فيه الإنسان إلى آفاق الله الفسيحة مروراً بقضايا الحياة في صراع الحق والباطل والخير والشر، وأصناف الناس بين من يفتح قلبه للإيمان وبين من يغلق قلبه عنه.. وترق المشاعر وتهدأ الانفعالات، وتصفو النفس، وتنساب الآيات في هدوء الوحي ووداعته، كمثل الصباح الوديع في طهره وصفائِهِ.. ويدخل الوليد في هذا الجو الروحي اللذيذ الطاهر الذي لم يكن له عهد به... وينتهي الجو بالوصول إلى القمة الروحية التي ترتفع إليها لمشاعر، فتعبر عن نفسها بالسجود لله.. لأن ذلك يمثل

منتهى العظمة والسمو الروحيين في رحلة الإنسان إلى الله... ويترك النبي الرجل... ليقول له، بعد أن سمع ما سمع وعاش ما عاش... أنت وذاك فهذا ما أريد منك ومن غيرك... أنه الانفتاح على أجواء الإيمان بالله... بأرواحكم وقلوبكم... ثم بالإيمان المنفتح المبصر الواعي، لا الإيمان الأعمى، من دون التقاء بينابيعه، وانطلاق مع آفاقه وانسجام مع آياته الكبيرة في الحياة...

.. فارق الوليد النبي.. وانطلق إلى قومه ليفتح عيون قومه على المستقبل الذي ينتظرهم بالتحدي العظيم الصارخ فقد عرف هذا الرجل ملامح هذا المستقبل وخطواته، من خلال الجو الذي تثيره هذه الآيات في عمق التأثير وقوته وصفائِه، فقد عاش هذه الانفعالات الروحية في نفسه، وعرف كيف يمكن أن يعيشها الآخرون، وكيف يمكن لها أن تثير الناس الذين يلتقون بها في أجواء حيادية متطلعة إلى كل جديد... وطلب من قومه أن يوفروا على أنفسهم جهد هذا الصراع وقساوته، وخطورة المستقبل المظلم عليهم وتحدياته فيجمدوا اعلان الحرب عليه.. لأنه سيتركهم ما تركوه فهو صاحب الرسالة، الذي يعمل على أن تصل إلى كل قلب، وتدخل في كل فكر، وتقتحم كل باب... فليس من هدفه أن يقاتل، بل كل هدفه أن يهدي ويبلغ ويقيم الحجة البالغة على الناس، انطلاقاً من مسؤوليته الرسالية، أمام الله... ولم ي قبل منه قومه، ذلك لأنهم كانوا لا يتطلعون إلى المستقبل القوي في موقع الرسالة، بل كانوا ينظرون إلى الحاضر من خلال عنجهياتهم وكبرياءهم في بلاهة وصل، فيحسبون إن الحاضر والمستقبل بيدهم، فهم الذين يقررون مصير الرسالة والرسول، فكيف يمكن لهم أن يسالموه أو يهادونه، بعد أن كان في قبضة أيديهم، وهكذا كان.. وأسدل الستار عن الموقف..

النقطة الثامنة:

في لقاء النبي محمد ﷺ بأهل يثرب.. فقد نجحت محاولات النبي محمد ﷺ في جولته على جماعات الحجاج، في نهاية المطاف، فكان اللقاء الأول بجماعة صغيرة من هذا البلد التقاهم بمنى، وعددهم ثمانية نفر، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وقال لهم، رسول الله ﷺ تمنعون لي ظهري حتى أبلغ رسالة ربي.. فقالوا يا رسول الله نحن مجتهدون لله ورسوله نحن فاعلم، أعداء متباغضون، وإنما كانت وقعة بعاث عام الأول، يوم من أيامنا، اقتتلنا فيه فإن نقدم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى نرجع إلى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا، وموعدك الموسم العام المقبل، ثم قدموا إلى المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام فأسلم من أسلم، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر من رسول الله.. فلما كان العام المقبل، لقيه اثنا عشر رجلاً بعد ذلك بعام، فأسلموا وبايعنا على بيعة النساء، على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف قال: فإن وفيتم فلكم الجنة ومن غشي من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، ولم يفرض يومئذٍ القتال، ثم انصرفوا إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام، وكتب الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ ابعث إلينا مقرئاً يقرئنا القرآن فبعث إليهم مصعب بن عمير العبدري. فلما حضر الحج مشى أصحاب رسول الله الذين أسلموا بعضهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج، وموافاة رسول الله ﷺ والإسلام يومئذٍ فاش في المدينة.. فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلين في غمرة الأوس والخزرج وهي خمسمائة. حتى قدموا على رسول الله مكة، فسلموا على رسول الله ثم واعدهم، منى وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل أن يوافوه في الشعب إذا

انحدروا من مني بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم، وأمرهم أن لا ينبهوا نائماً ولا ينتظروا غائباً. فخرج القوم بعد هدأة يتسللون الرجل الرجلان وقد سبقهم رسول الله إلى ذلك الموضع، ومعه العباس بن عبد المطلب، ليس معه أحد غيره. ثم توافى السبعون ومعهم امرأتان، فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد أعز الناس في عشيرته، يمنعه والله منا من كان على قوله، ومن لم يكن منا على قوله يمنعه للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة فارتأوا رأيكم وأتمروا بينكم ولا تفترقوا إلا على ملأ واجتماع فإن أحسن الحديث أصدقه، فقال البراء بن معرور: قد سمعنا ما قلت وإنَّا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ قال: وتلا عليهم رسول الله القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم في الإسلام وذكر الذي اجتمعوا له فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال: يا رسول الله بايعنا فنحن أهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر، وقالوا: نقبله نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ولغطوا فقال العباس بن عبد المطلب اخفوا جرسكم فإن علينا عيوناً وقدموا ذوي أسنانكم، فيكونون هم الذين يلونا كلامنا منكم فإنا نخاف قومكم عليكم ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم.. ثم ضرب السبعون كلهم على يد رسول الله ﷺ وبايعوه.. فقال لهم إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً فلا يجدن منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل، فلما تخيرهم قال للنقباء أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل على قومي.. قالوا نعم فقال لهم رسول الله ﷺ فانفضوا إلى رحالكم، فتفرقوا إلى رحالهم. فلما أصبح القوم غدت عليهم جلة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا يا

معشر الخزرج: أنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا وأيم الله ماحيٌّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينه الحرب منكم قال: فانبعث من كان من الخزرج من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمنا، فلما رجعت قريش من عندهم رحل البراء بن معرور فتقدم إلى بطن ياجج وتلاحق أصحابه من المسلمين وجعلت قريش تطلبهم في كل وجه ولا تعدوا طرق المدينة وحزبوا عليهم فأدركوا سعد ابن عبادة، فجعلوا يديه إلى عنقه بنسعة وجعلوا يضربونه ويجرون شعره وكان ذا جمة، حتى أدخلوه مكة، فجاءه مطعم بن عدي والحارث بن أمية فخلصاه من بين أيديهم(١).

إننا نستفيد من هذه القصة عدة أمور:

الأول: إن المحاولات الفاشلة المتكررة التي واجهت النبي في دعوته القبائل القادمة إلى مكة للإسلام، لم تدفعه إلى اليأس والاستسلام للفشل، واجترار أحزان الهزيمة.. بل كانت حافزاً للالحاح على مواصلة التجربة ما كان له إلى التجربة سبيل.. كاخوانه من الأنبياء الذين تقدموه وواجهوا الفشل بروح الأمل الممتد على أساس من الإيمان بالله والثقة بوعده الرسل بالنصر.. وهكذا التقى النبي بالطليعة الأولى من أهل يثرب الذين كانوا يترقبون خروج نبي من مكة.. من خلال أخبار اليهود لهم بذلك، فيما كانوا يقرأونه عليهم من التوراة من صفات النبي الذي يخرج من مكة ومهاجرته إلى يثرب، مما جعلهم يعيشون الأجواء النفسية المتطلعة إلى ذلك، المستعدة للإيمان من خلال الاذعان به، أو انتهاز الفرصة السانحة لربح الموقف على اليهود.. وقد حدث بعض الرواة بذلك فيما رواه ابن إسحاق قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم وكانوا هم أهل

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١، ص ٢١٨ ـ ٢٢٣.

الشرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم أن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه، تتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم. فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله أنه للنبي الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبقنكم إليه فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا: أنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى الله أن يجمعهم بك فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك[1].

وبهذا نفسر هذا المد الإسلامي السريع الذي شاهدناه في التجاوب الشامل مع الدعوة الإسلامية، ونؤكد على استيحاء الدروس العملية في التركيز على مواصلة التجربة في حركة الإنسان في الدعوة إلى الله، مهما كانت قيمة البوادر الكثيرة للفشل، وفي ملاحقة الأجواء التي تتمتع بأرضية خصبة صالحة للعمل، من خلال دعوات سابقة أو من اعداد نفسي خاص منبثق من بعض الظروف والأوضاع الاجتماعية والدينية، مما يجعل النفوس حاضرة للالتقاء بالدعوة الإسلامية، في أول تجربة للدعوة من قبل أصحابها العاملين. . فقد نخرج من هذه الملاحقة باكتشاف كثير من المجالات العملية لبناء القاعدة الإسلامية في بلدان ومجتمعات كثيرة عاشت فيها بعض المعاني الحية التي تلتقي بمعاني الدعوة ومفاهيمها مما يفسح لها المجال للتقدم، أو يقرب الآخرين إلى أجوائِها ـ على الأقل ـ.

الثاني: أن النبي ﷺ بايع الجماعة الثانية التي التقى بها في العام الثاني على أساس بيعة النساء التي يلتقي فيها الإنسان المسلم بمنهج عقيدي وعملي بسيط، لا تعقيد فيه ولا التواء بل كان قريباً إلى الفطرة، لا يحتاج إلى

(١) سيرة ابن هشام ج ١، ص ٢٩٢.

عمق في التفكير، ولا إلى دخول معقد في تفاصيل كثيرة أو طويلة تبعد الإنسان عن بدايات الفكرة عندما يصل به الشوط إلى آخرها.. وربما نستطيع الاستفادة من ذلك في أسلوب الدعوة في حياتنا المعاصرة.. فلا نعمل، كما يعمل البعض في اغراق الناس بالتعقيدات الفكرية، الفلسفية منها والاجتماعية ولأن تلك التعقيدات كانت وليدة عوامل الصراع المعقدة، في مجالات بعيدة عن الفطرة الصافية البسيطة التي تستجيب للشفاء والبساطة والوضوح أكثر مما تستجيب للأساليب الضبابية الغامضة...[1] وبذلك يتجه التفكير إلى القيام بعملية تنويع للأساليب حسب المجالات التي يتحرك فيها الدعاة، فتكون البساطة في الفكرة، وفي أسلوب العرض، للمجال الذي لا يعاني فيه الإنسان من عقدة سابقة ضد العقيدة، أو تفاصيلها بل كل ما يريده هو فهم العقيدة وتصورها، ويكون العمق في المضمون، وفي طريقة المناقشة، للمجال الذي يعيش فيه الإنسان علامات استفهام كثيرة، واشكالات فكرية متنوعة.. فإن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال...

الثالث: مواجهة النبي للموقف بعقلية هادئة واقعية، تتعامل مع طبيعة الواقع وحاجته ـ في حركته الرسالية ـ إلى ضمانات عملية للمستقبل، من حيث مصارحتهم بالصعوبات الشديدة التي تواجههم، وبالمعارك العنيفة التي تفرضها القوى الكافرة على المسلمين، وما يستتبع ذلك من دمار وتشريد وهلاك للنفوس والأموال وغير ذلك من عواقب الحرب ونتائجها التي يعرفونها جيداً لأنهم أبناء الحرب العشائرية التي كانوا يخوضونها فيما بينهم في النزاع القبلي المرير بين الأوس والخزرج.. ومن حيث امكانات وصول الموقف إلى أن تكون جبهتهم الإسلامية، وحدها في مقابلة العرب قاطبة،

---

(١) وذلك هو السر في السهولة العفوية التي يدخل فيها الإسلام إلى عقول الناس وقلوبهم، لأن مفاهيمه وأساليبه في منهج التفكير العقيدي، لا تبتعد عن طبيعة الأشياء القريبة إلى حياة الناس.

لأن الإسلام لم يكن قد بلغ أي مركز من مراكز القوة، آنذاك، فقد كانوا، هم القوة الوليدة الجديدة التي تمثل بداية القوة الإسلامية. .

لقد كان هذا هو الأسلوب الواقعي الذي يمثل الصدق والأمانة اللذين يعتبرهما الإسلام مفتاح شخصية الإنسان المسلم، لترتبط المواقف بين القاعدة والقمة، بالثقة المبنية على الصراحة فيشعر الناس في دخولهم في الإسلام، أنَّ ذلك ليس نزهة يعيش فيها الإنسان أحلامه في هدوء واسترخاء لذيذ، بل هو الجهاد في أصعب مراحله. . فقد أراد النبي أن يصارحهم بذلك كله ولا يغرقهم بالوعود المعسولة، فيستغل اندفاعهم الروحي في سبيل ادخالهم في المأزق، ليكون الحساب بينه وبينهم بعد فوات الأوان. . لأن ذلك ليس من خلقه، وليس من خلق الإسلام، ولأن هذا الأسلوب هو الذي يضمن ثباتهم وصمودهم واندفاعهم الواقعي ومواجهتهم للموقف بقوة، ما دام الموقف خاضعاً للرؤية الواضحة للحاضر والمعرفة الشاملة للمستقبل، والإيمان العميق بالنتائج المترقبة في الدنيا والآخرة.

. . . وهكذا انسجم القوم مع كل ذلك وأعلنوا للنبي أنهم لا يجهلون النتائج المستقبلية ولا يخافون منها لأنهم أبناء الحرب، فلا يخافون من عواقبها بشكل طبيعي فكيف إذا كان ذلك في سبيل الله. . .

ولم يقتصر النبي على ذلك، بل حاول أن ينظم العلاقة بينه وبينهم على أساس تحديد مسؤوليتهم في هذا الالتزام العقدي بالنسبة إلى أصحابهم، فيكون هناك كفلاء منهم، ازاء كفالته، هو لأصحابه المسلمين في مكة، ليشعروا بأن القضية ليست مجرد اتفاق كلامي، بل هي خاضعة لالتزامات متبادلة محددة، يشعرون معها بالجدية والواقعية. . لأن ابقاء المسؤوليات في اطارها العام الذي يخضع الموقف للحالات النفسية والخطوات الذاتية، يترك الموضوع عرضة للاهتزاز والارتباك. . وبالتالي للفوضى والانفلات. .

الرابع: التأكيد على الجانب السري للتحرك سواء في التحضير للاجتماع، أو في موعد عقده، أو في طريقة الحديث أو في طريقة التفرق.. مما يلفت النظر إلى انسجام الإسلام مع واقع الأمور، من أجل المحافظة على سلامة العمل في الظروف الصعبة التي يملك فيها الكفر أو الباطل كل مقومات القوة المادية التي لا يملكها الإيمان والحق، ويدلل على رفض الفكرة القائلة أن على الحق أن يجهر بدعوته مهما كانت الظروف، ولا يلجأ إلى السرية، لأنها مظهر ضعف وتخاذل. ولعل الذي يدعو إلى الاعجاب، هو هذه الدقة في السرية التي اتبعها الأنصار بحيث لم يشعر به رفاقهم، الذين أنكروا حدوث مثل هذا الشيء عندما سألتهم قريش عن ذلك..

الخامس: أسلوب قريش القلق في ملاحقة المؤمنين بالدين الجديد حتى الذين هم من غير أهل مكة مما يدل على أنها بدأت تعتبر نفسها مسؤولة عن حرب الإسلام في الداخل والخارج، نظراً إلى ما تحس به من خطورة على مركزها وامتيازاتها المالية والسياسية.. الأمر الذي يعرفنا مدى العنف الذي كانت تواجه به قريش إيمان المؤمنين في مكة.. وما تقوم به ضدهم من تعذيب واضطهاد، ويكشف لنا، في الوقت ذاته، عظمة الصمود الذي كان يقابل به المؤمنون ذلك العنف كله.

خلاصة التجربة:

لقد استطعنا أن نجد في النقاط التي عرضناها بعض الدروس العملية في التجربة النبوية قبل الهجرة.. مما يمكننا من تطبيقه في حركة الإسلام المعاصرة.. سواء في ذلك اطار العمل الذي يستهدف الدفاع عن الإسلام ضد القوى الكافرة أو الضالة، في البلاد الإسلامية التي سيطر عليها الكفر والضلال، أو استطاع أن يحصل فيها على مركز قوة، أو في اطار العمل الذي

يستهدف ادخال الآخرين إلى الإسلام وما يستتبع ذلك من صراع عنيف.. أو في طريقة العمل، غير المألوفة التي يعارضها التقليديون والمحافظون الذين لا يريدون الخروج عن الطرق المعتادة لهم، فيرفضون، على أساس ذلك، العمل التنظيمي الذي يضم العاملين في تكتلات بشرية إسلامية... فقد يكون من الضرروي أن نفكر في العمل السري في بعض المراحل الأولية والثانوية حسب الظروف اللازمة التي تفرض ذلك لأن العمل العلني في ظل الأخطار الكبيرة التي تواجهه من قبل الأعداء قد يعتبر عملاً رائعاً من أعمال الفروسية الذاتية، ولكنه لن يعتبر من الأعمال الجيدة على مستوى الرسالة لأنه يتحول إلى انتحار للعمل إن لم يكن انتحاراً للعاملين.. ولذا فإنه لا يمثل قيمة إسلامية في حساب الجهاد والاخلاص..

وربما وجدنا في الأسلوب النبوي الذي لا يُفاجىء الناس المخالفين لهم بالتحديات لما يعتقدونه بل يكتفي ـ في البداية ـ بعرض المفاهيم التي يؤمن بها خلال ما تمثله من ايجابيات وما تعطيه من خير للحياة بعيداً عن كل ما يثير الاحساس المضاد، أو يبعث على توتر النفوس بالحقد والعداوة والبغضاء.. ليستطيع أن يملأ الجو بمفاهيمه، ويعبِّىء النفوس بأفكاره.. ويبني القاعدة في المجتمع على أساس عقيدته حتى إذا انطلق بالتحديات العنيفة ضد القوى المعادية، كان انطلاقه من مركز قوة، بحيث يمكنه أن يواجه ردود الفعل بموقف قوي ثابت لا يتزعزع ولا ينهار، مهما كانت القوى المواجهة له، كما رأينا ذلك في التجربة النبوية مع قريش، فقد استطاع النبي أن يوحي إليها، بالأمن من الخطر فيما أطلقه من شعارات الرسالة، حتى إذا استكمل في دعوته، الاعداد اللازم، بدأ في التحرك المضاد من موقع قوي.. ولعلنا نشعر بالحاجة إليه في كثير من الظروف المعاصرة للدعوة الإسلامية، أو الظروف المستقبلية التي نستشرفها من خلال حركة الواقع، في ضراوة الكفر وشراسته، لنضمن للحركة خطواتها المتزنة القوية التي لا تنفعل

بزهو الموقف بل تستسلم لمصلحته، وتنسجم مع مقومات سلامته.

وقد نستفيد من أمر النبي محمد ﷺ للمسلمين الأولين بالهجرة إلى الحبشة، حيث الأمن والطمأنينة والحرية في ممارسة العقيدة والدعوة إليها، أو أمره إليهم بالهجرة إلى المدينة حيث الانطلاق بالعمل من قاعدة المجتمع الإسلامي الجديد في جناحيه الأنصار والمهاجرين، ليمارسوا الحركة في توسيع القاعدة، ثم الانطلاق بها إلى مواقع جديدة.

قد نستفيد من هذا، إن الهجرة من البلد الذي يعيش فيه العمل الإسلامي الاختناق، ويفقد فيه الحرية تعتبر من الأمور الحيوية في حركة الإسلام نحو استكمال عملية الوجود والتطور، ليواجه الحركة من موقعين في الداخل، حيث يظل الباقون جادين في مواصلة التحرك من الموقع الصعب الذي يرسف بأكثر من قيد، وفي الخارج حيث ينطلق المهاجرون إلى مواقع جديدة ليعملوا فيها بكل حرية واطمئنان وبهذا يمكن للعاملين الذين يعانون الصعوبات الكبيرة في العمل، أو الذين يتعرضون للاضطهاد والتعذيب والسجن في البلدان الكافرة أو الضالة، أن يهاجروا إلى بلدان أخرى، من موقع حرية الحركة، لا من موقع الهروب والانهزام وحب السلامة كما خيل للكثيرين ممن يتولون اصدار الأحكام على الآخرين من أبراجهم العاجية..

أما طريقة النبي محمد ﷺ في ملاحقة الحاج إلى منازلهم لابلاغهم الدعوة، وطلب النصرة والدخول في الإسلام، فقد يحتاج أن يفهمها أولئك الذين يصرون على فكرتهم الانعزالية التي لا توجب على الإنسان أن يتحرك خارج نطاق بيته ومركزه ومسجده، بل قد لا توجب عليه أن يتحرك حتى في داخل هذا النطاق بأن يتسلم هو زمام المبادرة في ذلك، بل كل ما يجب عليه أن يجيب إذا سأل فيما إذا لم يحتمل الضرر.. قد يحتاج هؤلاء أن يفهموا

هذا الجانب من السيرة ليعرفوا أن الرسالة تفرض على صاحبها التحرك والسبق إلى مخاطبة الناس قبل أن يخاطبهم الآخرون، حيث لا يبقى هناك مجال للدعوة بل للصراع، وأما إذا حاولوا أن يفسروا ذلك بأن السيرة تجسد لنا الموقف في بدايات الدعوة التي ليس لها موقع الآن.. لأننا نعيش في العصور التي جاءت بعد تقديم الرسالة كاملة للناس، فأين اليوم من الأمس، وأين بدايات الدعوة من المراحل المتأخرة حتى عن نهايتها.. أما إذا حاولوا ذلك.. فإننا نجيب عليه:

أولاً: إن الحاجة إلى التبليغ مستمرة، ما دام هناك حكم شرعي مجهول وما دامت هناك تحديات كافرة أو ضالة تطرح الكثير من علامات الاستفهام، وتشوه كثيراً من المفاهيم أو تضلل كثيراً من الناس وتفسح المجال للكفر والضلال أن يركز وجوده ويثبت أقدامه على الأرض.

وثانياً: إن طبيعة هذا الأسلوب لم تنطلق من مجرد الدعوة إلى الدخول في الدين، بل من حاجتها إلى النصرة والمعونة، واستكمال أسباب القوة مما يجعل القضية مطروحة في كل زمان ومكان تعاني فيه الرسالة من الضعف في وجودها العام وقد نجد في روعة الموقف الرافض للوعود المعسولة التي تطلب شيئاً مستقبلياً لنفسها من الرسالة كشرط لارتباطها به، الأسلوب العملي الرائع، الذي يجسد قوة الموقف حتى في أشد حالات الضعف، ليرفض النصرة على أساس الزيف والكذب والدجل لأن ذلك يدخل في طبيعة الخطة ولا يرتبط بظروف التحرك.. وبذلك نبتعد عن بذل الوعود بما يبذله الكثيرون للبسطاء من الناس، أو لأهل الأطماع، كوسيلة لادخالهم فيما يريدون، أو لاقناعهم بأفكارهم ومبادئهم وحركاتهم. أما المواقف الأخيرة للنبي، فيما يتمثل فيها من صمود واصرار، وفيما يتجلى فيها من حكمة وواقعية، وفهم عميق للظروف والأشخاص وفيما تجسده من أساليب صافية

تقترب من العفوية ولا تبتعد عن العمق في عرض الإسلام للآخرين في مجالات الدعوة، ومن خطوات عملية وواقعية في بدايات التحرك الذي يستهدف بناء قواعد المجتمع الإسلامي الجديد في المدينة، حيث نأخذ منها الدرس العملي الرائع في اعتبار الصراحة في القضايا المحرجة على المستوى الشخصي أساساً في تقرير القضايا المصيرية، فلا مجال للمجاملة، ولا لأساليب اللف والدوران، ولا للكلمات الضبابية التي لا تفصح عن محتواها، ولا للكلمات التي تحتمل ألف وجه ووجه، لأن ذلك كله ينعكس على قضية المصير التي إذا ضعفت ركائزها، تعرضت الرسالة في وجودها وبقائِها للخطر. . . الأمر الذي يجعل الموقف كله من الأساس عبثاً لا طائل تحته. . أما هذه المواقف فنستطيع أن نحولها إلى مواقف جديدة في حياتنا، ونستوحيها وننميها ونمتد بها إلى مجالات واسعة تتجاوز خصوصيات الزمان والمكان في فهم الحاضر والمستقبل على أساس تجارب الماضي لأن ذلك هو السبيل الوحيد لاعطاء التجربة عمق الجذور وأصالتها، وحداثة الأساليب وتطورها. . مما يجعل لمفهوم (الحداثة) و (العصرنة) معنى لا يبتعد عن الارتباط بالتاريخ الحي، ولا يغرق فيه، بل يأخذ منه المبادىء الأصيلة التي لا تعتبر مجرد تاريخ للأمة، بل حقيقة من حقائق الحياة التي تخترق حواجز الزمن، لتضم الأزمنة كلها في وحدة رائعة، ثم يتحرك معها في أسلوب وأجواء ومبادرات جديدة تتفق مع عقلية المجتمع وظروفه.

التجربة النبوية بعد الهجرة:

تتميز التجربة النبوية بعد الهجرة بكثرتها وتنوعها وامتدادها وسعتها خلافاً للتجربة قبل الهجرة بالنظر إلى الظروف التي تحكم التجربة، والمجال الذي تتحرك فيه والأوضاع التي تلاحقها. . فقد كانت للنبي في مكة شخصية

الرسول الداعية الذي كان يفتش عن مكان تتركز فيه الرسالة كقاعدة وعن مجتمع يتحرك من أجل تحقيق أهداف الإسلام في الحياة.. ولذا فقد كانت التجربة محكومة لهذا الهدف المحدود.. أما في المدينة فقد انطلقت الأهداف من حيث انتهت تلك، فقد وجدت القاعدة وولد المجتمع وبدأ النبي يعمل، والمسلمون معه، في سبيل اغناء تلك التجربة التي أنتجت ذلك الواقع بتجارب جديدة في أسلوب الدعوة وفي طريقة الحكم، وفي تنظيم الحياة على أساس قانون جديد متوازن يرعى جانب المادة كما يرعى جانب الروح، وينظم حقوق الفرد كما ينظم حقوق المجتمع، ويعمل لتركيز العدالة على أساس من الحق، ويدعو للمحبة على أساس الرحمة ويعمل للعزة والكرامة، مما يدعو للتسامح وللعفو وللصبر الجميل، ويشرع للحرب كما يشرع للسلم.. ويحمل المسلمين مسؤولية حمل الدعوة إلى العالم كله...

وقد كان من الطبيعي أن يهتم النبي ﷺ بتنظيم هذا المجتمع الرائد الذي يحمل المسؤولية الإسلامية في قلبه وكيانه فكانت هناك بعض التجارب التي تتحدث عنها كنموذج يحتذى ويقتدى به في كل حركة إسلامية معاصرة لأننا لسنا في معرض استيعاب الحديث عن التجارب جميعها، ولسنا في مجال دراسة لحياة النبي محمد ﷺ أو لحركة المجتمع الإسلامي في نموه وتكامله، بل نحن هنا لنورد بعض النماذج التي تشير إلى المنهج الذي ندعو إليه في فهم التجارب النبوية على ضوء ما نحتاجه من قضايا وأساليب...

مع التجربة النبوية بعد الهجرة:

جاء في طبقات ابن سعد: قالوا: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بين بعضهم البعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار،

آخى بينهم على الحق والمساواة ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام. . .)[١].

ماذا نفهم من هذه القصة؟ إننا نفهم من دلالاتها طريقة عملية في توثيق العلاقات بين أتباع الدين الجديد، فقد كان من الطبيعي أن تبدأ الرواسب النفسية، والعقد التاريخية التي يختلف فيها المهاجرون مع بعضهم البعض ويختلف فيهم الأنصار مع بعضهم البعض، ويختلف فيها المهاجرون والأنصار فيما بينهم، في التعبير عن نفسها بالخلافات المتنوعة والمنازعات المختلفة، وقد لا يمكن السيطرة عليها بالمشاعر العاطفية التي يولدها الإيمان فكانت هذه التجربة ـ فيما يمكن أن يكون قد قصده النبي محمد ﷺ ـ محاولة لايجاد رابطة عضوية، بين الأنصار أنفسهم، وبين المهاجرين أنفسهم، وبينهم وبين الأنصار، لتعمق المشاعر الإيمانية، فلا تتركها طافية على السطح، وتركز العلاقات الروحية فلا تبقى عرضة للاهتزاز، ليتحقق للمجتمع الجديد التوازن والتماسك والارتباط، ولتبدأ عملية المواساة في اطار محدود يشعر فيها الإنسان بحدود المسؤولية التي لا تبتعد عن حدود قدرته، ولا تتركه ضائعاً أمام عمليات الاختيار في المجتمع الكبير. . وبهذا تحولت المواساة الأخوية إلى طريقة تربوية رائعة للترابط الإيماني في المجتمع الجديد حتى إذا استطاعت هذه الطريقة أن تحقق نتائجها العملية فيما حصل عليه المجتمع الإسلامي الأول من قوة وتماسك ومواساة. . . واستطاع المسلمون أن يكتشفوا ـ بفضل هذه التجربة ـ قيمة الأخوة في الله التي تعتبر بديلاً عن الأخوة في النسب والرضاع، فيما عاشوه من حياة رائعة في حالة الحرب والسلام، وبدأوا يجربون المبدأ في اطاره العام، فتجاوز كل واحد منهم الرابطة الخاصة، إلى الرابطة العامة، لأنه عرف أن ما حدث كان

---

(١) طبقات ابن سعد ج ١، ص ٢٣٨.

طريقة تجريبية يتعرفون فيها إلى طبيعة العلاقة الجديدة وليست مجرد شيء خاص يقتصر على مورده.. وانطلق الإسلام بعد ذلك في الصورة التي حاول أن ينظم فيها علاقات المجتمع الجديد، ليفسح المجال للأخوة الإيمانية ـ بشكل عام ـ فحمل فيها المؤمنين مسؤولية هذه الأخوة، في الاطار العملي للعلاقات الإيجابية والسلبية للمجتمع.. وبقيت الأخوة الإسلامية شعاراً إسلامياً في جانب المشاعر والأعمال، يضم المسلمين في المشرق والمغرب، في وحدة شعورية رائعة، ليصل العاملون من خلالها إلى المجالات العملية الأخرى من الوحدة.

وقد نستطيع الاستفادة منها في العمل الإسلامي بين المؤمنين أنفسهم، فنحاول تجسيد هذه التجربة في توثيق علاقاتهم ببعضهم على مستوى المسؤولية المحددة التي تربط واحداً من هنا بواحد من هناك مع التركيز على ايجاد هذا الارتباط بين الفئات التي تخضع لبعض العوامل والمؤثرات المقتضية لوجود علاقات سلبية، من أجل أن تؤدي هذه الرابطة الروحية إلى تجميد، كل تلك العوامل والمؤثرات أو الغائها بصورة كلية.. وربما استطعناأن نحقق الكثير من النجاح في اتباع هذا الأسلوب في مرحلتنا الحاضرة، كما استطاع المسلمون في عصور الإسلام الأولى أن يحققوا ـ من خلاله ـ النجاح الكبير حيث ساهم في انطلاق العامل الإسلامي في حياتهم ليكون له الأثر الكبير في علاقاتهم الروحية والعملية.

٢ ـ بناء المسجد: كان من أول الأعمال التي بدأها رسول الله ﷺ في المدينة، بعد وصوله إليها بناء المسجد ويقص علينا ابن هشام في سيرته الجو الرائع الحميم الذي كان يهيمن على المسلمين في عملية البناء... قال: «... فعمل فيه (أي المسجد) رسول الله ليرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين:

لئــن قعــدنــا والنبــي يعمـــل فـــذاك منـــا العمـــل المضلـــل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون:

لا عيـــش إلا عيـــش الآخـــرة اللهـم ارحـم الأنصـار والمهـاجـرة

«قال ابن هشام: هذا كلام وليس برجز.

قال ابن اسحاق: فيقول رسول الله ﷺ لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم المهاجرين والأنصار. قال فخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللبن فقال: يا رسول الله قتلوني، يحملون علي ما لا يحملون، قالت أم سلمة زوج النبي ﷺ: فرأيت رسول الله ينفض وفرته بيده وكان رجلاً جعداً وهو يقول: ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية.

وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومئذٍ:

لا يستـوي مـن يعمـر المسـاجـدا يـــدأب فيـــه قـــائمـــاً وقـــاعـــدا

ومـــن يـــرى عـــن الغمـــار حـــائـــدا

قال ابن هشام: سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا: بلغنا أن علي بن أبي طالب ارتجز به فلا يدري أهو قائله أم غيره.

قال ابن اسحاق: فأخذها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها.

قال ابن هشام: فلّما أكثر، ظن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أنه تعرض به، فيما حدثنا زياد بن عبد الله عن ابن اسحاق وقد سمى ابن اسحاق الرجل.

قال ابن اسحاق: قال: قد سمعت ما تقول منذ اليوم يا بن سمية، والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك قال: وفي يده عصا قال: فغضب

رسول الله ﷺ ثم قال: ما لهم ولعمار.. يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه»[١].

إن القيام ببناء المسجد، كأول عمل قام به رسول الله في المدينة ـ يدل على ما كان يفكر به النبي ﷺ من تخطيط لبناء المجتمع المتماسك الخالي من الحساسيات والعقد الذاتية والقبلية فقد قدم إلى هذا البلد المتنافر المنقسم على نفسه في تاريخه الدامي المملوء بالحروب والمنازعات القبلية بين عشيرتي الأوس والخزرج، بالإضافة إلى اليهود الذين كانوا حلفاء لكلا الجانبين، فتحارب فئة منهم من الأوس، وفئة من الخزرج.. وكانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يدخلوا جميعاً في الإسلام، فقد بقيت بقية منهم، ـ على شركها ـ حتى ذلك الحين.. فربما أراد النبي محمد ﷺ... أن يفسح المجال لهم للتعايش الأخوي في ظل المعاني الروحية والمشاعر القدسية التي يوحيها الإيمان بالله بعيداً عن كل ما له صلة بالتاريخ الدامي القبلي، ليمتص بذلك كل المعاني والأحاسيس المضادة.. فكان المسجد الذي يجتمع فيه المسلمون للوقوف بين يدي الله والخضوع له والاقبال عليه في مناجاة روحية خاشعة، هو المكان الذي أريد منه أن يحقق هذا الهدف، ويشارك في خلق هذا الشعور الرائع... وهو المكان الذي يلتفون في رحابه ليتحدثوا فيه بما ينفعهم ويفيدهم، فيما ينبغي لهم أن يتعلموه، وفيما يجب عليهم أن يعرفوه من شؤون المعرفة بالله ورسالته ومن شؤون المعرفة بالحياة في علومها العملية الي تبني للإنسان حياته على أساس من وعي وعمق وإيمان ويستقبلون به الوفود التي تأتيهم، للعلم، أو للدين، أو للحياة، ويثيرون فيه قضايا الحرب وقضايا السلم، وما يستتبعهما من شؤون الدين

(١) سيرة ابن هشام ج ١.

والدنيا وغير ذلك من الأمور التي أريد من المسجد أن يكون مجمعاً لها، كسائر المجامع التي اعتاد الناس القاء فيها لمعالجة شؤونهم العامة والخاصة.. ولكن قيمة المسجد في هذا الإيحاء الدائم بالله، وبالمعاني الخيرة التي يثيرها بالنفس، مما يجعل كل هذه الأمور متصلة بالله خاضعة لإرادته مسيّرة لأوامره ونواهيه.. فلا يستسلمون فيها لنوازع الشر والعدوان فإذا غفلوا عن أنفسهم واستسلموا لشيء من ذ لك ردهم إلى الله، جو طاهر ووحي خاشع وعبادة توحي للنفس دائماً بما يعيدها إلى الله ويربطها به من جديد.

وذلك هو شأن المسجد، فيما أراده الإسلام له، وهو أن يحقق معنى العبادة الشامل الذي يشمل الصلاة فيما تشتمل عليه من تكبير وتهليل وشهادة وركوع وسجود وغيرها من أجزاء وشروط ويشمل العلم الخالص لله النافع للناس، والحرب التي تدفع العدوان وتهاجمه، والسلم الذي يثير الخير وينشر الخصب والرخاء، والجدال والحوار الذي يراد به الوصول إلى الحق ورد الباطل، والتعارف بين الناس الذي يراد به التعاون والتكافل الاجتماعي ومن هنا، كان للمسجد دوره في كل شؤون الحياة في الإسلام، وكانت له فعالياته في قضايا الناس.. وكانت له ندواته الممتدة المستمرة التي تعطينا في كل يوم علماً جديداً وروحاً جديدة.. حتى إذا تقلص دور المسجد وابتعدت عنه الحياة، حتى في الصلاة التي أريد لها أن تنفتح على الحياة لتطهر للإنسان ضميره ووجدانه فتطهر من خلالها حياته.. حتى الصلاة انعزلت عن وظيفة الوسيلة التي تشد الإنسان إلى الله، ليبقى لها دور الفريضة التي لا يقصد منها إلا الخروج عن العهدة، وابراء الذمة، وامتثال الواجب، ليحصل بذلك جلب الثواب ودفع العقاب.. ولا شيء غير ذلك..

وربما كان من مهمة العمل الإسلامي تجديد دور المسجد واخراجه من

هذا الطوق الذي ضرب حوله فجمد آفاقه وشوه صورته الحقيقية المنطلقة من الحياة..

وقد يطيب لنا في نهاية المطاف، أن نعايش الجو الرائع الذي نشاهد فيه رسول الله ﷺ وهو يعمل في بناء المسجد، لا ليرغب المسلمين في العمل، كما يقول ابن هشام، بل لأنه يريد أن يكون قدوة لهم في الشعور بالمسؤولية وممارستها فلا يكتفي باصدار الأوامر فيما هو من شأن الإسلام بل يبادر إليه بنفسه ليدلل لهم من موقع الممارسة، أن العمل يقف في المستوى الذي يحب ويرغب فيه من كل واحد حتى منه، نفسه، وهو من هو في مستوى المسؤولية الرسالية.

ثم تجد المسلمين يعملون في هذا الجو الرائع الذي يطرحون فيه الشعار ـ الهدف ـ فهم لا يعملون في الدنيا، لعيش الدنيا، وإن كان له من الأهمية المقام الكبير، بل يعملون في الدنيا لعيش الآخرة الذي وعد الله به عباده المتقين.. ثم يبتهلون إلى الله، في الموضع الذي يبنونه ليكون موضعاً للابتهال، في أن يرحمهم أنصاراً أو مهاجرين ونلتفت فجأة لنرى عمار بن ياسر الذي عذب واضطهد من أجل عقيدته، وكاد أن يموت تحت التعذيب كما مات أبواه، لولا أن قال كلمة الكفر، بعد اكراه، وقلبه مطمئن بالإيمان.. فنرى هذا الرجل مثقلاً بحمله حتى ليكاد أن يسقط صريعاً تحت وطأة هذا الحمل الثقيل، فيشكو أمره إلى رسول الله، فيتحدث إليه بالغيب الذي أعلمه الله إياه، بأنه تقتله الفئة الباغية...

وينظر علي ناحية، فيرى بعض المسلمين يحيدون عن الغبار، ويبتعدون عن المشاركة، فيرتجز الرجز المتقدم ويتلقفه عمار ويكرره، ويلتفت ذلك البعض إلى نفسه ويشعر بأنه مقصود به، فيثور على عمار بما يشبه التهديد. ويقف النبي محمد ﷺ من جديد، مع عمار ليعبر عن حبه

له وعلاقته به وتقديره له، لما قدم من تضحية، ولما تحمل من عذاب، لأنه لا يريد للمجاهدين المخلصين أن ينالهم أحد بسوء لا سيما إذا كان مثل هذا ممن لم يقدم للإسلام شيئاً من جهده ومن جهاده. .

وهكذا عشنا في جو بناء المسجد الأول، في الأجواء النفسية التي كان يعيشها المسلمون يومئذٍ، واستطعنا أن نعرف كيف كانوا يفكرون، ويتجادلون ويتنازعون، وكيف كان النبي يدير هذه الخلافات ويحلها أو يعلق عليها بأسلوب رسالي حازم. وربما نأخذ من ذلك درساً عملياً في الاهتمام الشديد، برعاية المجاهدين الذين يعذبون ويضطهدون في سبيل العقيدة، وتقييم مواقفهم في كل مناسبة والوقوف بحزم ضد الأشخاص الذين يسيئون إليهم لتبقى للجهاد قيمته في حياة الناس، عندما يرونه قيمة كبيرة تجعل أصحابه في مقدمة المجتمع قوة ومكانة انسجاماً مع قول الله تعالى:

ـ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

[النساء: ٩٥].

٣ ـ كتبه إلى الملوك وغيرهم من الناس وبعثاته إليهم: لقد قام الرسول ﷺ ـ فيما ترويه كتب السيرة النبوية الشريفة. . بارسال وفود وكتب إلى ملوك زمانه وإلى زعماء البلاد ووجهاء القوم وإلى كثير من الناس، يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام، بأساليب متنوعة، تأخذ بالإيجاز تارة، وبالتفصيل أخرى. وقد يغلب على بعضها الرفق، وقد يقرب بعضها الآخر من العنف تبعاً لما تقتضيه المصلحة، ويفرضه الموقف، وكتب إلى كثير من الناس من العرب في أمور متعددة تتمثل فيها شخصية الرسول الداعية

كما تتمثل فيها شخصية الحاكم الذي يهدد ويتوعد، ويهب ويعطي ويمنع، ويقطع الأراضي، ويحدد لكل شخص حدوده.. وقد نلمح فيها شخصية المشترع الذي يشرع أحكام الشرائع المالية والعبادية، وغيرها.. وقد نجد في دراسة هذا الجانب من سيرة النبي، فوائد كثيرة على مستوى الأسلوب والمحتوى والروح وقد تتعرف من خلال ذلك على نظرة الإسلام لأهل الأديان الأخرى وطريقة مخاطبتهم، وأسلوب التعامل معهم على أساس العقود والمواثيق والالتزامات.

فمن ذلك ما رواه صاحب الطبقات الكبرى، فقد روى أنهم قالوا: وكتب رسول الله ﷺ لاسقف بن الحارث ابن كعب وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم وجوار الله ورسوله، لا يغير اسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا كاهن عن كهانته، ولا يغير حق من حقوقهم ولا سلطانهم ولا شيء مما كانوا عليه ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالمين..

فقد نفهم من هذا الكتاب، أو نستوحي منه ما نسميه بـ «الحرية الدينية» وعدم التدخل في شؤونهم العامة والخاصة، وعدم تغيير أي شيء مما كانوا عليه شريطة أن ينصحوا ويصلحوا فيما عليهم من دون أن يظلمهم أحد أو يظلموا أحداً... واحسب أننا لا نجد أروع من هذا الأسلوب النابض بروح المحبة والرحمة والإنسانية السمحة، الذي يعبر عن نظرة الإسلام إلى أسلوب التعايش السلمي بين أهل الأديان المختلفة عندما يعيش أحدهما في ظل الحكم الإسلامي.

قالوا: وكتب رسول الله ﷺ إلى ضغاطر الأسقف: سلام على من آمن، أما على أثر ذلك فإن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم

الزكية وإني أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون. والسلام على من اتبع الهدى.

وقد نلاحظ في هذا الكتاب التواضع النبوي عندما يبدأ النبي رسالته بالعقيدة الإسلامية في عيسى، ايذاناً باللقاء بينه وبينهم في احترام عيسى بما يرفع من مقامه ومنزلته، ثم يتبع ذلك ببيان ما يؤمن به من وحدة الرسالات وتآخي الرسل من دون أن يضيف إلى ذلك شيئاً من دعوته، أو بعضاً من مواطن الاختلاف بين الدينين، ليترك الأمر له، ليفكر فيقنع ويؤمن، أو لا يؤمن فيكون قد أقام عليه الحجة، وأهاب به أن يفتح باب الحوار، من دون أن ينتقص من قيمة مقدساته، بل حاول أن يعطيها حقها من القداسة بما أضفاه عليها من الألفاظ القرآنية الرائعة.. وفي هذا الأسلوب الدلالة على التهذيب الإسلامي، في الشكل والمضمون والروحية السمحة.

وقد نلتقي في هذا المجال بالتعليمات التي كان يوجهها إلى الدعاة الذين يرسلهم إلى الناس.. فقد روى بعض الرواة، أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: وافوني بأجمعكم بالغداة وكان ﷺ إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلاً يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم؛ انصحوا الله في عباده فإنه من استرعي شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد فأصبحوا ـ يعني الرسل ـ وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم فذكر ذلك للنبي، فقال: هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده..

ونلاحظ في هذه الوصية الموجزة التأكيد على جانب عظيم الأهمية في حياة العمل الإسلامي، والعاملين له، وهو أن بعض هؤلاء يختارون الأماكن

القريبة إلى بلادهم لئلا يتجشَّموا عناء الغربة البعيدة، أو متاعب السفر الطويل، وقد أراد الرسول من هؤلاء الدعاة أن لا يلجأوا إلى هذه الطريقة في ممارساتهم للمسؤولية لأن الانسجام مع متطلبات الدعوة في كل مكان من بين الشروط الأساسية لمبدأ النصيحة لله في عباده التي يجب عليهم أني قوموا بها بعد أن استرعاهم الله أمور الناس في شؤون الدعوة والحياة.. فمن لم يقم بواجب النصيحة ويتحمل المتاعب، وهو قادر على ذلك فإن الله يحرم الجنة عليه، ويبعده عن ساحة لطفه ورضوانه ورحمته.. ثم ضرب لهم مثلاً بالرسل الذين كانوا ينطلقون بالرسالة من قبل عيسى إلى الناس فكانوا يتركون البعيد ويأتون القريب، فكان من بلاء الله لهم أنهم أصبحوا بمعجزة من الله، وكل واحد منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم ليضطر، بسبب ذلك إلى القيام بمسؤوليته كاملة غير منقوصة.. ونحن نشعر بقيمة هذه الوصية في واقع الدعوة الإسلامية.. فنجد الكثيرين من علماء الدين ومن الدعاة إليه، ينصرفون عن المناطق النائية في أوطانهم، أو في خارج أوطانهم، لئلا يتحملوا بعض التعب، وبعض المشقة، وقد نجد الكثيرين منهم يفضلون حياة المدن على حياة الأرياف، لا لأنهم يشعرون بحاجة المدن المكتظة بالسكان إلى التوجيه أكثر مما تحتاجه الأرياف، القليلة العدد، بسبب كثرة الهجرة منها، بل لأن حياة المدينة أكثر راحة وأكثر رفاهية، وأوسع مدخولاً من جهة المال، وبهذا يعاني أهل القرى، ولا سيما النائية الفراغ الهائل من ناحية التوجيه الديني.. مما يجعلهم لقمة سائغة لأعداءِ الله من أصحاب المبادىء الكافرة أو الضالة الذين يستغلون نقاط الضعف الفكرية والمادية، وحرمانهم من الخدمات العامة التي توفرها الدولة لبعض القرى دون بعض لحساب الامتيازات السياسية والطائفية والشخصية، وتمنعها عنهم، فيتبعونهم في كل ما يريدونه دون مقاومة من فكر أو علم.. قد يكون هؤلاء بحاجة إلى دراسة هذه الجوانب من السيرة ليعرفوا من خلالها أن المسؤولية لم تنبع في حياة

هؤلاء من تكليف رسول الله لهم بشكل شخصي، لأنه لم ينطلق في ذلك من حالة خاصة، بل من حالة عامة، وهي حاجة الناس إلى الدعوة والدعاة من أجل أن ينفتحوا على رسالة الله بقوة ووضوح انطلاقاً من التبليغ الذي تقوم به الحجة وتزاح به العلة. . وتنحل به كثير من الشبهات، وتنكشف به كثير من الآفاق الغائمة في أكثر من جانب. .

لذلك، فإن المسؤولية توجد، حيثما وجدت الحاجة، ووجد الجاهلون. . في زمان الرسول.

٤ ـ وفود العرب عليه. . لقد كانت قوة الإسلام العسكرية أمام تحديات الكفر الكثيرة وعدوانه المتكرر، وثبات المسلمين في كل تلك الحروب التي خاضوها مع الكافرين، سبباً في اندفاع العرب بشكل لا نظير له في الوفادة على النبي ﷺ والدخول في الإسلام، لا سيما بعد فتح مكة. . لزوال القوة الضخمة التي كان الناس يخشون سطوتها فيمتنعون عن الإسلام لذلك. . وهكذا جاءت الوفود تتتالى. . وكانت لرسول الله أساليبه المتنوعة في محاورتهم واكرامهم بمختلف ألوان الاكرام، ودعوتهم إلى الإسلام. . وقد تمثلت فيها أخلاق رسول الله العظيمة أصدق تمثيل. . وربما كان من الخير، أو من الواجب، للدعاة المسلمين أن يتوفروا على دراسة هذا الجانب من حياة النبي ﷺ لأنه يحتوي على كثير مما نحتاج إليه من غنى التجربة الروحي، وعطائِها العملي. . وقد نحتذيه في كثير من اللقاءات التي تحصل بين العاملين للإسلام وبين الناس الآخرين. في الحالات المماثلة أو القريبة منها ولا بأس بأن نقدِّم بعض هذه النماذج التي يمكن أن يحتذيها العاملون في عملهم الإسلامي.

١ ـ فقد روى صاحب الطبقات الكبرى، قال بعثت بنو سعد بن بكر في رجب سنة خمس، ضمام بن ثعلبة، وكان جلداً أشعر ذا غديرتين، وافداً إلى

رسول الله ﷺ فسأله فأغلظ في المسألة، سأله عمن أرسله وبما أرسله، وسأله عن شرائع الإسلام، فأجابه رسول الله ﷺ في ذلك كله، فرجع إلى قومه مسلماً قد خلع الأنداد وأخبرهم بما أمرهم به ونهاهم عنه، فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً، وبنوا المساجد وأذنوا بالصلوات[١].

فقد نستفيد من هذا النموذج، أن رسول الله استطاع أن يعرف من الحاح هذا الرجل في المسألة، وملاحقة كل علامات الاستفهام التي تتلاحق في ذهنه والتشديد على الدقة في الجواب عليها، أن هذا الرجل جاد في قضية الإيمان بالرسالة، لأن طبيعة الأسئلة لا تنطلق من حب التحدي، أو من طبيعة التباهي بما يملك من معلومات، فاستقبله ـ بكل رحابة صدر ـ وأجابه عن كل سؤال مهما يكن محرجاً أو مضحكاً.. حتى إذا استقام له أمر الإيمان، واطلع على دقائقه انطلق إلى بلده، فاقتنع الجميع بقناعته، أو أنهم اقتنعوا بما أخبرهم به من أوامره ونواهيه، وطبيعة الرسالة والرسول، وهكذا كان النبي مدركاً لقيمة هذا الشخص من ناحية ذاتية، ومن ناحية تأثيره على الآخرين..

وعلى ضوء ذلك، فإن القضية تخضع في دراسة هذا النموذج لجانبين.

الأول: الجانب الرسالي للداعية كصفة ذاتية، مما يستدعيه أن يجيب عن كل سؤال، ويقبل على كل سائل، ويفتح قلبه ووجدنه للناس كافة، تماماً كما كان النبي يفعل مع هذا الرجل ومع غيره.

الثاني: الجانب العملي، وتأثيره على حركة الواقع الإسلامي فقد يختلف أمر الاهتمام بالسائل، قوة وضعفاً، مع المحافظة على المبدأ، بين

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١، ص ٢٩٩.

من لا يستفيد أحد من ثقافته، إلا نفسه، وبين من يستفيد منه جماهير كبيرة من الناس، فإن الاهتمام بالثاني بشكل كبير متعاظم يوفر على الداعية جهداً كبيراً لادخال جماعته في الإسلام، لأن ذلك يحول السائل المتفهم إلى مؤمن واع داعية لله سبحانه في نفسه وأهله وأصدقائه.. ولا يد للإنسان المنفتح الواعي من أن يدقق في الشخصيات التي يدخل معها في عملية الحوار من حيث قيمة تأثيرها في مجتمعها، ومدى فعاليتها في الحياة.

وفي الطبقات، قالوا ـ وقدم على رسول الله ﷺ وفد بني عبد بن عدي، وفيهم الحارث ابن اهبان وعويمر بن الأخرم وحبيب وربيعة ابنا ملة ومعهم رهط من قومهم، فقالوا ـ يا محمد نحن أهل الحرم وساكنه وأعز من به ونحن لا نريد قتالك، ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك ولكنا لا نقاتل قريشاً، وإنا لنحبك ومن أنت فيه، فإن أصبت أحداً فعليك ديته، وإذا أصبنا أحداً من أصحابك فعلينا ديته فقال ـ نعم فاسلموا.

ونلاحظ في حوار النبي مع هذا الوفد الذي جاء ليسلم، ولكنه يريد أن يستثني من مسؤولياته الإسلامية المفروضة على كل مسلم في المشاركة في في الجهاد الإسلامي ـ حرب النبي مع قريش ـ لأنهم يعيشون معهم في منطقة واحدة ولا يريدون لأنفسهم أن يدخلوا معهم في حرب أو قتال.. واستجاب النبي ﷺ لهذه الرغبة، انسجاماً مع أسلوبه الواقعي الذي سار به في أكثر من حادثة في الاستجابة لبعض المطالب والرغبات التي يتقدم بها بعض الراغبين في الإسلام، نظراً لصعوبة الالتزام بها سلباً أو ايجاباً، لأن عدم الاستجابة لهم يعطل هذه الرغبة، ويعوق عملية الدخول في الإسلام لما لهذه القضية من الأهمية لديهم، لعلاقتها بمصالحهم الحيوية، لا سيما في مثل هذه الحالة التي تتصل بخروجهم من ديارهم أو بقائِهم فيها، إذا خاضوا الحرب ضد قريش، أو لم يخوضوها.. ولعل السر في هذا الأسلوب، أن

الداخلين في الإسلام ـ غالباً ـ لا ينطلقون ـ عادة ـ من إيمان عميق بالإسلام بالمستوى الذي يدفعهم إلى التضحية بكل شيء ـ في البداية ـ لأنهم لا يفهمون فهماً حقيقياً كاملاً فقد يريد النبي أن يتسامح معهم في ذلك، على أساس خطة الرسالة في التدرج في الدعوة ليكتشفوا بعد إسلامهم ما يشتمل عليه أو يحتويه من روحية وانفتاح وقوة، فينفتحوا عليه انفتاحاً كاملاً ويلتزموا به التزاماً شاملاً في نهاية المطاف.

٣ ـ وفي الطبقات: عن رجل من عنس بن مالك بن مذحج قال: كان منا رجل وفد على النبي ﷺ فأتاه وهو يتعشى، فدعاه إلى العشاء فجلس، فلما تعشى أقبل عليه النبي ﷺ فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.. فقال: أراغباً جئت أم راهباً.. فقال: أما الرغبة فوالله ما في يديك مال، وأما الرهبة فوالله التي للبلد ما تبعته جيوشك، ولكني خوفت فخفت، وقيل لي آمن بالله فآمنت، فأقبل رسول الله ﷺ على القوم فقال: رب خطيب من عنس[1].

فقد نفهم من هذه القصة، أن هناك فئات من العرب، كانت تعيش التفكير في الإسلام وفي شريعته أو في مفهومه للدنيا والآخرة.. فإذا أقبلت عليه أقبلت عن قناعة، لا عن رغبة ولا عن رهبة، كما نجده في هذا الرجل الذي أعلن النبي ﷺ أن خوفه من الدار الآخرة دعاه إلى التفكير ثم الإيمان.. ونستفيد منها أن الصراحة لا المجاملة، كانت شأن العرب وطريقتهم في حديثهم مع كبار القوم كما هي مع صغارهم.

٤ ـ وقد نلتقي ببعض النماذج الحية، في هذه الوفود التي كانت تفد على النبي ﷺ كما يحدثنا ابن سعد في طبقاته عن وفد (تجيب) فقال: قدم

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣.

وفد تجيب على رسول الله ﷺ سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلاً، وساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم فسر رسول الله ﷺ بهم وقال: مرحباً بكم وأكرم منزلهم وحباهم، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم وجوائزهم وأعطاهم أكثر مما يجيز به الوفد وقال: هل بقي منكم أحد قالوا: غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنا، قال أرسلوه إلينا فأقبل الغلام إلى رسول الله ﷺ فقال: إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي قال: وما حاجتك.. قال تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي فقال: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثم وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بمنى ستة عشر فسألهم رسول الله ﷺ عن الغلام فقالوا: ما رأينا مثله أقنع منه بما رزقه الله فقال رسول الله ﷺ إني لأرجو أن نموت جميعاً[١]..

فقد يلفت نظرنا هذا الغلام الطيب الذي لم يشأ أن يطلب لنفسه شيئاً مادياً، مما طلبه قومه، أو مما اعتاد الناس أن يطلبوه، بل طلب غفران الله ورحمته، أن يحقق له غنى نفسه الداخلي، مما يوحي لنا بالروح الكبيرة التي تتجسد في هذا الغلام الذي أدرك أن مطالب النفس لا تنتهي، وأن فقر النفس أشد من فقر المال، لأنه يجعل الإنسان لاهثاً أمام أطماعه وأشواقه ورغباته، ويحطم له عزته وكرامته، ومبادئه، أمام أي حاجة إلى غيره إذا فرض عليه، غيره، في مقابلها الذل والانحراف.. أما الغنى الداخلي، فإنه يملأ النفس بالشعور العميق وبالاكتفاء بأقل شيء، وبذلك يملك نفسه وكرامته ومبادئه بعيداً عن أي ضغط وعن أي ابتزاز لأنه يشعر في هذه الحالة بأنّ الآخرين ليسوا قوة فوقه، بل هم مثله، له حاجاته ولهم حاجاتهم، فإذا كان هو،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، ج ١ ص ٣٢٣.

محتاجاً إلى بعض ما لديهم فإنهم محتاجون إلى كثير مما في أيدي الآخرين، فلماذا يضع نفسه تحت رحمتهم ازاء بعض رغباته، ليشعروا بالفوقية في مقابل شعوره بالدونية، ما دام قادراً على أن يصبر على نفسه، من أجل أن تبقى له نفسه، كما ورد في الحديث عن الإمام علي عليه السلام في بعض كلماته:

«أكرم نفسك عن كل دنيئة وإن ساقتك إلى الرغائب فإنك لن تعتاض بما تبذله من نفسك عوضاً..».

وهكذا قضى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذا الغلام حاجته، فقد دعا له النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما طلب واستجاب له الله دعاءه حتى أصبح مضرب المثل في قناعته بما رزقه الله.. ومات على ذلك..

ويظهر من القصة.. أن مثل هذا الغلام النموذج قد ملأ قلب النبي اعجاباً وتقديراً، ولذلك بدأ: النبي قومه بالسؤال عنه، عندما قدموا عليه مرة ثانية في الموسم بمنى. وتلك هي بعض عظمة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان لا ينسى مثل هذه النماذج الحية التي ترتبط بالحياة من خلال المبادىء لا من خلال الأطماع، فيبادر بالسؤال عنها حتى يشعر الناس بقيمة المعاني الكبيرة التي يجسدها هؤلاء، ليقتدوا بهم في ذلك كله.. وتلك هي دروس السيرة النبوية التي تواجهك في كل موقف وفي كل مكان.

٥ ـ وقد نجد في بعضها المثل الحي من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما نجد ذلك في قصة عدي بن حاتم عندما قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مسلماً قال: فيما يرويه ابن هشام في سيرته.. خرجت حتى أقدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلمت عليه فقال: من الرجل فقلت: عدي بن حاتم فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانطلق بي إلى بيته، فوالله أنه لعامد بي إليه إذا لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته، فوقف لها

طويلاً تكلمه في حاجتها قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك قال: ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بي بيته تناول وسادة من آدم محشوة ليفاً فقذفها إلي فقال: اجلس على هذه قال: قلت بل أنت فاجلس عليها فقال بل أنت فجلست عليها وجلس رسول الله ﷺ بالأرض قال: فقلت في نفسي والله ما هذا بأمر ملك ثم قال: ايه يا عدي بن حاتم ألم تكن ركوسياً.. قال: قلت بلى قال أولم تكن تسير في قومك بالمرباع.. قال: قلت: بلى قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك قال: قلت أجل والله وقال: وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل ثم قال لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددهم وقلة عهدهم، فوالله ليوشك أن تسمع بامرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه إنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم قال: فأسلمت.

وكان عدي يقول: قد مضت آثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وأيم الله لتكونن الثالثة، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه[(١)].

إننا ننقل هذه القصة لا لتؤكد عظمة النبي ﷺ من خلال أخبار النبي ﷺ لعدي لبن حاتم بالمغيبات، لأن ذلك ليس مجال حديثنا هنا كما أننا نتحفظ حول هذا الموضوع، لأننا لم نألف من النبي ﷺ محمد هذا الأسلوب في دعوة الآخرين إلى الإسلام، فيمنيهم بالمال والجاه

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٠٠٢ ـ ١٠٠٣.

والسلطان، لأن هذا كله ليس هدفاً للإسلام من حيث كونه موجباً للرغبة الذاتية لدى الناس، وقد يؤكد هذا التحفظ أن صاحب الطبقات الكبرى لم ينقل هذه التفاصيل عند نقله لهذه القصة، بل إننا ننقل هذه القصة لنؤكد عظمته في وقوفه الطويل مع المرأة الضعيفة الكبيرة التي استوقفته في الطريق طويلاً من أجل حاجتها، وفي تواضعه الرائع في بيته مع عدي بن حاتم الذي جاء ليدخل في الإسلام، حيث جلس على الأرض، وأجلس ضيفه على الفراش مما أوحى لعدي بعظمة النبوة التي تتعاظم وتستطيل على عظمة المال والملك والشرف..

إن كثيراً من هذه اللفتات الرائعة التي تعبر تعبيراً رائعاً عن الإسلام وعن أخلاقه وتعاليمه وعن شخصية النبي محمد ﷺ في حياته العامة والخاصة، جديرة بالدراسة الدقيقة الواعية التي تكشف الكثير من جوانب الدعوة الإسلامية، والعلاقات الإسلامية بين الحاكم والمحكومين، في اطار التنظيم الإسلامي للحياة..

●□●□●

مخاطبة الأمة في القرآن من خلال النبي

تتنوع الأساليب القرآنية في الدعوة من أجل تعميق المبدأ، وشموله وامتداده، وارتفاعه عن أي موقع من المواقع التي تتميز بضخامة المركز وقداسته، فيترك للإنسان انطباعاً رسالياً، عن الخط الرسالي الذي يقف عند الرسالة، ولا يتوقف عند الشخص مهما كان مركزه أو موقعه في الحياة.. فهي الأساس والأصل، أما الأشخاص فهم الأدوات الحية لتنفيذها وتجسيد مفاهيمها في الواقع، وهي القيمة التي ينطلق التقييم من خلالها ليصنف الناس إلى قسمين، قسم يلتزم بها ويرعاها ويحميها ويعمل بها ولها، فهم المخلصون المؤمنون العاملون، وهم المقربون لدى الله والناس، وقسم يرفضها ويعاديها ويحاربها ولا يعمل بها، بل يعمل ضدها، فهم الكافرون المنافقون المتخاذلون وهم البعيدون عن الله وعن الناس.

وبهذا كانت الرسالة مصدراً للتقييم، وليست الاعتبارات الأخرى من مال أو جاه أو نسب أو جمال وحتى العلم.. فإن قيمته الإنسانية بما يحقق من عمل، وبما يعطي من نتائج، وبما يبني من خير وحياة.. وعلى أساس هذه الحقيقة كانت القاعدة الإسلامية التي قررها القرآن الكريم بقوله تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقررها النبي محمد ﷺ في الحديث المأثور عنه:

لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى.. وليست التقوى إلا الكلمة الدينية التي تعبر عن الانضباط النفسي مع الفكرة كسبيل من سبل الانضباط العملي الذي يحققه الإنسان من خلاله في حياته وعلاقاته.

وقد عبر عنها القرآن في آيات أخرى بطريقة تبرز الجوانب التفصيلية للمبدأ، وهو يتحرك في الحياة، وذلك هو قوله تعالى في حديثه عن المجاهدين والقاعدين، أمام شريعة الجهاد من أجل اعلاء كلمة الله.

- ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [التين: ٩٥ - ٩٧].

وقوله تعالى: في حديثه عن أبعاد الكثرة والقلة عن مقياس التقييم واقتصاره على طبيعة الالتزام بالمبدأ:

- ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله تعالى: في حديثه عن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله قبل الفتح والذين ينفقونها بعد ذلك.

ـ ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ الحديد: ١٠ ـ ١١].

ولم يقتصر القرآن الكريم على هذا الأسلوب في معالجة الفكرة.. بل حاول أن يؤكدها بأسلوب آخر، وهو اثارة قضية الانحراف، كفرضية مطروحة في سلوك النبي محمد ﷺ ليسجل ـ من خلالها ـ المبدأ الذي ألمحنا إليه، وهو استبعاد قداسة الشخص وقداسة المركز عن موضوع المسؤولية وتحمّل نتائج المسؤولية ومبدأ التقييم الإنساني.. فالانحراف يساوي في الإسلام العقاب والبعد عن الله، وانحطاط الدرجة.. من غير فرق بين أن يفرض الشخص الذي يمارسه نبياً أو ولياً أو إنساناً عادياً من سائر الناس.. وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بآيات عديدة نقدم بعضها أمام هذا الحديث:

قال تعالى: في حديثه عن الشرك وتأثيره في حبط الأعمال، في خطاب موجه إلى النبي محمد ﷺ وإلى الأنبياء الذين سبقوه:

ـ ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٦].

وقال تعالى: في حديثه عن القرآن وأنه تنزيل من رب العالمين، ورفض الكلمات التي يوجهونها إليه من نسبته إلى قول الشعر والكهانة وتهديده بالعذاب كلَّ من يتقول على الله ما لم يقله حتى ولو كان ذلك الإنسان شخص النبي محمد ﷺ لأن عظمته انطلقت من اخلاصه لله وصدقه مع نفسه ومع قومه ومع ربه، فإذا انحرف عن ذلك ـ في فرض محال

غير واقع ـ لتغيرت قيمته ومنزلته إلى الجانب المضاد الذي يثبت الهوان والعقوبة والبعد عنه. . .

ـ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

وقال تعالى في حديثه عن محاولة الكفار للتأثير النفسي على النبي، في دفعه إلى الافتراء على الله والاستسلام إلى خططهم والركون إليهم. . .

ـ ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الاسراء: ٧٣ ـ ٧٥].

ونحن نعلم أن القضية في هذه الآيات لا ترجع إلى استسلام النبي لذلك، بل ترجع إلى الأساليب المرنة التي استعملوها معه، بحيث لو كانت مع غيره لانتهت إلى النتيجة التي يريدونها.

وقد جاء في الحديث النبوي المشهور الذي حاول أن يطرح هذا المبدأ الإسلامي، في اطار القاعدة العامة ونتائجها الاجتماعية: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها».

أما علاقة هذا كله بأسلوبنا العملي في الدعوة إلى الله ـ فيظهر ـ لنا بوضوح من خلال عدة نقاط:

١ ـ اطلاق الأساليب في هذا الاتجاه، باستيحاء الطريقة القرآنية، في عرض المسؤوليات التي تترتب على واقع الانحراف في المجتمع، ومواجهة

الفئات التي تملك رصيداً اجتماعياً كبيراً، بنفس المستوى الذي تواجه به الفئات الأخرى التي لا تتمتع بهذا الرصيد، فلا يصار إلى اخضاع الأسلوب للقوة والضعف، فنحمل على الضعيف ما لا نحمله على القوي، فنجامل هذا في خطاب المسؤولية، فنلين معه ملاحظة لمركزه، ونشتد على ذلك ونعنفه ونثير عليه الدنيا ونقعدها كما يفعل البعض في أسلوبه عندما يبدأ في عرض حالات الانحراف الديني ونتائجها، فيغلق على الفقراء أبواب الجنة، ويفتح لهم أبواب النار على مصراعيها، فإذا جلس مع الأغنياء والوجهاء أعطاهم مفتاح الجنة لأقل عمل من أعمال الخير التي يقومون بها، ومنحهم ورقة الأمان من النار حتى لو فعلوا الكبائر.. حرصاً على عواطفهم، أن لا تمس، ومشاعرهم أن لا تخدش ومزاجهم أن لا يتكدر.

٢ ـ الاستفادة من أسلوب القرآن في مخاطبة النبي محمد ﷺ والأنبياء من قبله، بالعنف في فرض الانحراف عن الخط، للإيحاء إلى أفراد الأمة الآخرين بأنهم ليسوا في مستوى أرفع من العقوبة، ما دام الأنبياء لا يرتفعون عن هذا المستوى، لو لم يرتفعوا عن حالة الانحراف.. أما مجالات هذا الأسلوب في الاطار العام، فهو الانطلاق به لتأكيد هذه الحقيقة التي ذكرناها آنفاً وهي المساواة في تحمل المسؤولية ونتائجها، بين أصحاب الدرجات الرفيعة حتى مستوى القداسة وبين أصحاب الدرجات العادية.

أما في الإطار الخاص، فقد نستفيد منه في الحالات المعقدة التي يصعب فيها مواجهة شخص بالوعظ والارشاد والدعوة إلى الله، أو لا يكون ذلك أمراً عملياً، من ناحية الظروف الموضوعية المحيطة بالموقف فيمكن لنا أن نلجأ إلى مثل هذا الأسلوب في مخاطبته وذلك بأن نخاطب شخصاً آخر ذا مركز رفيع بالفكرة التي يراد دعوة الشخص المطلوب إليها، ليفهمها من خلال هذه الطريقة الإيحائية الحكيمة من دون اثارة أية سلبيات مفروضة،

وهذه الطريقة شائعة في الأساليب العربية، وقد ورد عن بعض أئمة أهل البيت، إن القرآن قد نزل على طريقة «إياك أعني واسمعي يا جاره». . وقد نحتاج إلى جهد كبير لنعرف ضرورة التوفر على دراسة طبيعة الشخص الذي يراد دعوته بهذا الأسلوب، من حيث قابليته الذهنية في سرعة الانتباه، ومن حيث تأثره بالخطاب الذي يوجه إلى الشخص الآخر، ومن حيث طبيعة القضايا التي تثار في الأجواء المناسبة للموقف.

٣ ـ الممارسة العملية للفكرة، باعتماد الخط الإسلامي الذي يساوي بين الناس في المسؤولية ونتائجها ويجعل التفاضل تابعاً للأفضلية في العلم والعمل، وتطبيقه عى الخطة العملية في علاقة الدعوة الإسلامية بالعاملين وغير العاملين من أتباعها، سواء في المهمات الموكولة إليهم، أو في مبدأ العقاب والثواب المترتب على الأعمال التي تصدر عنهم. لأن ذلك هو السبيل الأفضل، للوصول بالعمل إلى غايته أولاً. . ولتحقيق الانسجام بين النظرية والتطبيق ثانياً. . لا سيما في الاطار التوجيهي والتبلغي للدعوة الإسلامية الذي يجب أن يشعر العاملون معه، بأنه يجسد ـ في ممارساتهم ـ الخط العريض الذي يريدون من الناس السير عليه. . . وأن القمة لا تنفصل عن القاعدة، في المسؤوليات وفي النتائج. . .

٤ ـ التوفر على دراسة التطبيقات العملية، من الوجهة التاريخية، سواء ما حدث في حياة النبي ﷺ أو الصحابة، أو الأئمة من أهل البيت، أو العلماء المسلمين، لأجل الاستفادة منها في أساليبنا المستقبلية، باعتبار أنها تجارب رائدة، تزيد النظرية عمقاً وشمولاً، والتدليل على واقعية الأساليب القرآنية في كل مراحل الحياة.

●□●□●

كلمة الختام

قد يكون من غير المألوف أن يكتب المؤلف خاتمة لكتابه بدلاً من المقدمة، كما حدث في هذا الكتاب..

ولكن الفكرة التي دعت إلى ذلك هي محاولة اعطاء الحرية النفسية للقارىء في مواجهة الكتاب من خلال قراءته وتفكيره بعيداً عن أي توجيه مسبق، يستبق فيه المؤلف الأمر، ليعطي صورة مجملة أو مفصلة عن كتابه.. وربما أدى ذلك إلى أن لا يكتفي القارىء بقراءة المقدمة عن قراءة الكتاب، إذا استطاعت المقدمة أن تعطيه فكرة عامة عنه كما يفعل البعض الذي قد يكون كثيراً..

ومهما كان.. فإننا هنا في نهاية المطاف.. نحب أن نؤكد على حقيقة أساسية في خطواتنا الإسلامية العملية من أجل الدعوة إليه، ولحياة في نطاق مفاهيمه وشريعته.. وهي مواجهة كل هذه الأبحاث كتجارب ذاتية، يمكن أن تكون مضغوطة بضغوط الأجواء الداخلية، أو الظروف الموضوعية الخاصة أو العامة لأصحابها.. كما يمكن أن تكون خاضعة لمراحل معينة من عمر العمل، أو العاملين.. مما لا يجعل لها صفة الامتداد والسعة والشمول بشكل حاسم ودقيق.. ويفقدها بالتالي دور القاعدة الثابتة التي تصلح لكل زمان ومكان.

وعلى ضوء هذا.. فإن من واجب العمل، على أصحابه.. ومِنْ واجب الإسلام على الدعاة إليه أن يلاحقوا هذه التجارب بالنقد والمحاكمة والتحليل.. من أجل البحث عما تشتمل عليه من خصائص ذاتية، أو من جوانب محدودة بحدود المرحلة، من حيث طبيعة الزمان والمكان والأشخاص الذين يتحركون في اطارهما.. ليفسحوا المجال لتجارب جديدة تتسع لأفكار جديدة.. في اتجاه خطوات جديدة..

إن ذلك هو الذي يحفظ للعمل تجدده ونموه وسلامته.. لا سيما في واقع العصر الذي نعيش فيه.. حيث يلمح الإنسان في كل يوم، تغيرات كثيرة في حقل الفكر والسياسة والاقتصاد والتربية والاجتماع.. مما يقتضينا كثيراً من التبديل في أساليبنا العملية والتربوية.. التي انطلقت حركتها من خطوات الفكرة في حركة الواقع.. فإن علينا أن نفرق ـ في المواقف الإسلامية.. بين المواقف التي تنبع من الخطوط الأساسيَّة للتشريع.. وبين المواقف التي تنطلق من حركة التطبيق العملي لمفاهيمه وموضوعاتها.. فقد لا يجوز التصرف والتغيير والتبديل في الخطوط الأساسية للفكر والتشريع.. لأنها تمثل كلمة الله الفاصلة الحاسمة التي أرادت للحياة أن تظل خاضعة لها على أساس من الحكمة الممتدة إلى جميع جوانب الحياة.. أما التطبيق.. أما الموضوعات التي يدور الحكم الشرعي مدارها.. فإنها قد تخضع للمتغيرات العامة في حركة الحياة.. باعتبارها منطلقة من طبيعة هذه الحركة..

أما أبحاث هذا الكتاب فقد كانت وليدة حاجة حيوية يتطلبها العمل الإسلامي، في أي شكل من أشكاله للوصول إلى قواعد فكرية وعملية متحركة، يرتكز عليها العمل ويتحرك في اطارها.. سواء في ذلك.. في الروحية التي تهيمن على العاملين.. أو الأسلوب الذي يحكم خطواتهم

وتصوراتهم وكلماتهم.. أو الأهداف التي يتجه إليها.. لأن فقدان القواعد العامة للعمل، يجعلنا نتخبط في التيه دون هدى.. مما يجعلنا نتلمس علامات الطريق في كل خطوة نخطوها بعيداً عما يوضح لنا اتجاهاته ومنعطفاته في بداية المسير..

وقد كانت هذه الأبحاث نتيجة تجارب عملية عشتها في حياتي العملية في خطوات العمل للإسلام سواء في صعيد العمل الفردي، أو في صعيد العمل الجماعي.. وقد لا يخلو الكثير منها من عمق المعاناة الداخلية إلى جانب المعاناة في حركة الممارسة والتطبيق..

وقد كتبت أكثر هذه الأبحاث في ظروف صعبة جداً.. حيث كنت في منطقة النبعة ـ الواقعة في ضواحي بيروت.. عندما كانت القذائف تنهال عليها من كل جانب.. وكنت أكتب هذه الأبحاث في أغلب الحالات.. تحت أصوات القذائف.. وعلى أضواء الشموع..

وقد لا يكون للقارىء حاجة إلى التأكيد على الظروف التي كتب فيها الكتاب.. ولكني أشعر بالحاجة إلى مثل هذا التأكيد.. من أجل الاشارة إلى نقطة حيوية في حياة العاملين.. وهي أن علينا أن نظل نتحرك في كل الظروف.. ونلاحق كل الأجواء.. ونفجر كل الطاقات من دون أن نأخذ من قسوة الظروف.. وضغط الواقع مبرراً للتقاعس والتراجع والتجميد فإننا نعتقد.. أنه لا مجال ـ في ظل التحديات التي يواجهها الإسلام، والأخطار التي تحدق به من كل جانب ـ لأي تجميد لأي طاقة تحت تأثير الصعوبات العملية..

إن من واجب العاملين أن ينفتحوا على العمل في داخل ذواتهم قبل أن ينفتحوا عليه في خطواتهم العملية.. لأن الانفتاح عليه في داخل الذات.. يحول الداخل إلى طاقة متحركة تتجدد في أفكارها ومشاعرها وتطلعاتها في

كل يوم.. وتلاحق بالتالي ـ كل امكانات الحركة وكل ظروف العمل.. لتأخذ منها في كل يوم جديداً.. وفي كل لحظة مجالاً للانطلاق.. وفي كل منطلق انفتاحاً على روح الخلق والابداع.

إنني أنقل للعاملين هذه التجربة.. وهذه الممارسات.. بعيداً عن نطاق الذات من أجل أن تكون خطوة متواضعة في خطوات الطريق الطويل.. أو لبنة صغيرة في البناء الشامخ الذي تنتظر الحياة ارتفاعه من خلال حركة الإسلام في عمل العاملين وجهاد المجاهدين.. وتطلعات الحالمين الذين يحلمون بالمستقبل من خلال سنة الله الكامنة في كل ظواهر الحياة ومجالاتها العملية.. لينسجموا مع طبيعتها المتحركة المنظمة، فيحصلوا على نتائجها في صبر المؤمن، وإرادة المسلم الواعي المنفتح على الحياة من خلال إرادة الإسلام في أن تولد على يديه من جديد.

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً من أجل السير قدماً نحو الأهداف الكبيرة التي تتسع وتمتدّ وتطول وتقف في نهاية المطاف.. في ظل الهدف الواحد الكبير.. وهو الحصول على رضاه.. ولا شيء غير رضاه إنه أرحم الراحمين.. وهو حسبنا ونعم الوكيل.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بيروت/ شوال/ ١٣٩٧.

محمد حسين فضل الله

أبو علي

محتويات الكتاب



ISBN 9953-60-043-0

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيـروت ـ لبنان ـ حارة حريك ـ قرب مستشفى الساحـل ـ هاتـف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ ـ ٠١/٤٥٠٧٦٩
ص. ب ٢٥/١٥٨ الغبيـري ـ Int: WWW. dar-almalak. com/Email: dam @ dar-almalak.com